التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ - ٥٣٧ هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبوش

المجلد السادس

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير في التفسير

(٦)

الطبعَة الأولىٰ
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّباب
للدِّراسَاتِ وتَحقِيقِ التُّراثِ
DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ الأَنعَامِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي خلق السَّماوات والأرض، وجعل النُّور والظُّلمات، الرَّحمن الذي أنزلَ من السَّماءِ ماءً، فأخرجَ به من النَّباتِ، وأكثرَ به الثَّمرات، وأنشأَ به جنَّاتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ، الرَّحيم الذي جعلنا خلائفَ الأرضِ، ورفعَ بعضَنا فوقَ بعضٍ درجات.

وسورةُ الأنعام مكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ نزلَتْ بين مكَّة والمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ [١٥١ـ١٥٣].

وهي مئةٌ وخمسٌ وستُّون آيةً، وقيل: ستٌّ، وقيل: سبعٌ، وقيل: ثمانٌ، والاختلافُ في أربع آيات: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

وكلماتُها ثلاثةُ آلافٍ واثنتان وأربعون، وحروفُها اثنتا عشرةَ ألفاً وأربعُ مئةٍ وثلاثةٌ وثلاثون.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: سورة الأنعام كلُّها مكِّيَّةٌ إلَّا ستَّ آياتٍ منها نزلت بالمدينة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخر ثلاث آياتٍ

نَزلَت في ردِّ مقالةِ[١] اليهود لعنهم الله، **وقوله تعالى**: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى ثلاث آيات[٢].

ونزلت هذه السورة جملةً بمكَّة ليلاً، وشيَّعَها سبعون ألف ملك، ولهم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميد، حتَّى كادت الأرضُ ترتجُّ، فقال النبيُّ ﷺ: «سبحان الله»، وخرَّ ساجداً، ثم دعا بالكتَّاب، وأمرَ بكتابتِها من ليلتِه تلك[٣].

وقال سعيدُ بنُ جبير: لم يَنزل مِن الوحي شيءٌ إلَّا ومع جبريل أربعةٌ مِن الملائكة يحفظونَه مِن بين يديه ومن خلفه، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]، إلَّا سورة الأنعام؛ فإنَّها نزلَت ومعها سبعون ألف ملك[٤].

وقال مجاهد: نزلَتْ معها خمسُ مئة ألف ملكٍ يحرسونَها[٥].

وقال كعبُ الأحبار: فُتحت التوراة بأوَّل سورة الأنعام إلى قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وخُتِمت في آخر سورة بني إسرائيل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] إلى آخر السُّورة[٦].

---

(١) في (أ): «مقالات».

(٢) لم أقف عليه مسنداً عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣١) دون نسبة، وأورد نحوه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وأخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣١٦) (٤٦٥) عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منهن نزلن بالمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى تمام ثلاث آيات.

(٣) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٠١)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٧٨٢). وفي إسناده أبان بن أبي عياش، وهو متروك، وشهر بن حوشب، وهو ضعيف.

(٤) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٧٨٨)، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٧٠).

(٦) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٩٧)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٧).

وقيل: خُتِمَت بآخرِ سورة هود.

وعن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قرأ ثلاثَ آياتٍ مِن أوَّل سورةِ الأنعام إلى قوله: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ حين يصبح[1]، وكَّلَ اللهُ به أربعين ألف[2] ملك، يَكتبون له مثلَ عبادتِهم إلى يوم القيامة، ونزلَ ملكٌ مِن السَّماء السابعة، ومعه مِرزَبَّةٌ مِن حديد، فإذا أرادَ الشيطان أنْ يُوسوِسَ في قلبِه، ضربَهُ بها ضربةً، كان بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يومُ القيامة يقول الله تعالى له: امشِ في ظلِّ عرشي، وكُلْ مِن ثمارِ جنَّتي، واشرب مِن ماءِ الكوثرِ، واغتسل مِن ماء السَّلسبيل، وأنت عبدي وأنا ربُّك»[3].

وفي حديث أبيِّ بن كعبٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أُنزِلَ عليَّ سورةُ الأنعام جملةً واحدةً، يُشيِّعُها سبعون ألف ملكٍ، لهم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميد، ومَنْ قرأ سورةَ الأنعام ﷺ[4] واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعددِ كلِّ آيةٍ من سورة الأنعام يوماً وليلة»[5].

وانتظامُ هذه السُّورة بسورةِ المائدة:

---

(١) قوله: «حين يصبح» من (ف).

(٢) لفظ: «ألف» من (ف).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٦ـ ١٧) (١٣٤٠) (طبعة دار التفسير) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعف محققوه إسناده بأن فيه انقطاعاً بين الحجاج بن محمد وأبي الزبير محمد بن مسلم، وبأن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٠) للسلفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ووهى إسناده.

(٤) «وسلم»: زيادة من (ف).

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٤ ـ ١٥) (١٣٣٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧ـ ٨) لأبي الشيخ، وفي إسناده عند الثعلبي أبو عصمة نوح بن أبي مريم، متروك، وهو واضع الحديث الطويل في فضائل القرآن. انظر: «ميزان الاعتدال» (٥/ ٤٠ ـ ٤١).

أنَّ تلك السُّورةَ في ردِّ مقالات أهلِ الكتاب، وهذه السُّورة في ردِّ مقالات المشركين.

والثاني: أنَّ تلك السُّورةَ في بيان الأحكام، وهذه السُّورة في بيان التَّوحيد، وبهما تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ خلقِه.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السُّورةِ بآخرِ تلك السُّورة أنْ ختمَ تلك السُّورةَ بالملك، وفتح هذه السُّورةَ بالحمد، وقد قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، وتقديرُه: أنَّ اللهَ الذي له ملكُ السَّماوات والأرض هو المستحقُّ للحمد.

* * *

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بسطنا الكلامَ فيه في أوَّلِ سورةِ الفاتحة، ومختصره هاهنا: الثَّناءُ للهِ تعالى على أفعاله كلِّها، والشُّكرُ للهِ تعالى على نعمِهِ كلِّها، والرِّضا منَّا له بقِسَمِه كلِّها، وهو الممدوحُ بالصِّفاتِ التي يَستحقُّها، ودلَّ على ذلك كلِّه الألفُ واللَّامُ في أوَّله، وهما لاستغراقِ الجنس.

قولـه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بغيرِ عَمَدٍ مِن تحتِها، ولا عِلاقةٍ مِن فوقها، ولا سلسلةٍ مِن جوانبها، قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: الأرَضين[1]، وقد قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، واسمُ الجنس يَقعُ على الجمع.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي: خلقَ ذلك كلَّهُ، وهو ردٌّ على الثَّنويَّةِ

---

(١) «أي الأرضين»: ليس من (ف).

في إضافتِهم خلقَ النُّور إلى يَزدان، وخلقَ الظُّلماتِ إلى أهرمن، وعلى ذلك خلقُ كلِّ خيرٍ وشرٍّ.

وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الكفر، ﴿وَٱلنُّورَ﴾: الإيمان[١]، ودلَّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ أفعالِ العباد.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي: خلقَ اللَّيلَ والنَّهار.

وقال عليُّ بنُ الحسين: كلُّ ما في القرآن ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فهو[٢] الكفر والإيمان، إلَّا في هذه الآية؛ فإنَّه يريدُ بهما اللَّيلَ والنهار، وكذا قال السُّدِّيُّ[٣].

وقال قتادة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي: النَّارَ والجنَّةَ[٤].

وروى عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاص، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ اللهَ تعالى خلقَ خلقَهُ في ظلمةٍ، ثمَّ ألقى عليهم مِن نورِه، فمَن أصابَهُ مِن ذلك النُّور يومئذٍ[٥] اهتدى، ومَنْ أخطأَهُ ضَلَّ»[٦].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: خلقَ اللهُ تعالى الظُّلمة قبل النُّور.

وقال قتادة: خلق الله السَّماوات قبل الأرض، والظُّلمةَ قبل النُّور، والجنَّة قبل النار[٧].

---

(١) ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (٨/ ٨).

(٢) من قوله: «الليل والنهار وقال علي» إلى هنا وقع مكانه في (ف): «ذلك كله وهو».

(٣) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٥٩، ١٢٦٠) (٧٠٨٢)، (٧٠٨٥).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣٢).

(٥) بعدها في (ر): «فقد».

(٦) رواه الترمذي في «سننه» (٢٦٤٢)، وقال: هذا حديث حسن.

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٥٩) (٧٠٧٩)، (٧٠٨٣).

قالوا: خلق الله السَّماواتِ أوَّلاً؛ لأنَّها أشرفُ مِن الأرض، وخلقَ الظُّلمةَ أوَّلاً؛ لأنَّها مِثالٌ للشَّكِّ والحيرة، ثمَّ يُجلِّيها البيانُ والبرهان.

وفي بعض التفاسير: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ أي: وقد جعلَ الظُّلماتِ والنُّور؛ لأنَّ خلقَهُما كان قبل خلقِ السَّماوات والأرض.

وقال وهبُ بنُ منبه: أوَّل ما خلقَ الله تعالى مكانٌ مظلمٌ، ثمَّ خلق جوهرةً، فأضاءَ بها ذلك المكان، ثمَّ نظر إلى الجوهرةِ نظرَ الهيبةِ، فذابَت فصارَتْ ماءً[1].

وقيل: إنَّما جمعَ الظُّلمات، ووحَّد النور؛ لأنَّه مصدرٌ كالطُّول والهُون، فيَستوي فيه الواحد والجمع.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ كلمةُ تعجيبٍ، يقول الرجل لآخر: إنِّي قد فعلتُ لك كذا وكذا، ثمَّ تَجفوني! أي: مِن العَجب هذا، ونظيره من القرآن: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ﴾ [المدثر: ١٥ ـ ١٦]، ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٥]، ومعنى الآية: ثمَّ المشركون مع إقرارِهم بأنَّ اللهَ خلقَهما يَعدلون بِربِّهم سواه؛ أي: يُسوُّون به الأوثان، قاله[2] قطرب، يُقال: عدلَ الكافرُ بربِّه عدلاً وعدولاً، إذا سوَّى به غيرَه فعبدَه، والعدلُ: التَّسويةُ، عدلَ الشَّيءَ بالشَّيء، إذا سوَّاهُ به[3].

وقال النَّضرُ بنُ شُمَيل: ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾؛ أي: عن ربِّهم يَميلون ويَنحرفون[4]، وهو كقوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]؛ أي: منها.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٣).

(٢) في (ر): «وقال». وانظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٣).

(٣) من قوله: «يقال عدل الكافر» إلى هنا ليس في (أ).

(٤) انظر: المصدر السابق.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يُسَفِّهُهم عزَّ وجلَّ بما جَعلوا له من الشرُّكاء، على إقرارٍ مِنهم أنَّه(١) خالقُ السَّماوات والأرض، ولم يجعلوا له شركاءَ في تخليقِهما، وعلى علمٍ منهم بتَعلُّقِ منافعِ الأرض بمنافع السماء، مع بعدِ ما بينَهما؛ أي: كيف جعلوا له شركاءَ يُشرِكونَهُم في العبادة(٢) والربوبيَّة، وهم يَعلمون أنَّه المتفرِّدُ بذلك كلِّه؟!

وقال: النُّور: ما يَكشِفُ عمَّا استترَ مِن أبصارِ الوجوه والقلوب، والظُّلمة: ما تَستُرُ(٣) وتُغَطِّي على أبصار الوجوه والقلوب(٤).

وقال الرَّبيعُ بنُ أنس: من أوَّل السَّورة إلى قوله: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ في التَّوراة ستُّ مئة آية(٥).

***

(٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾؛ أي: هو الله الذي خلق السَّماوات والأرضَ، والظُّلماتِ والنُّور: خلقَكُم مِن آدم، وآدمَ مِن تراب، وخلطَ ترابَهُ بالماء، فصارَ طيناً، ثمَّ صار حمأً مسنوناً، ثمَّ صلصالاً، ثمَّ بشراً سويًّا.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: أثبتَ القوالبَ مِن الطِّين، وأودعَها عجائبَ السِّرِّ، وأظهر عليها ما لم يَظهر على مخلوقٍ، فالعبرة بالوَصْل لا

---

(١) في (ف): «بأنه».

(٢) بعدها في (ف): «له».

(٣) في (أ): «ما تستتر»، وليست في (ر).

(٤) من قوله: «والظلمة ما تستر» ليس في (ف). وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٥ ـ ٦).

(٥) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٦/ ١١ ـ ١٢).

بالأصل، الأصلُ تربةٌ، والوَصْلُ قُربةٌ، والأصلُ نطفةٌ وقطرةٌ، والوَصلُ تُحفةٌ ونَضْرة[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾؛ أي: قَدَّرَ مُدَّةً.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما والحسن: هو أجلُ الدُّنيا[٢].

وقال الضَّحَّاك: أجلُ العبدِ إلى الموت، وكذا عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في رواية، وهو قول قتادة وعطاء[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ قيل: أي: هو أجلٌ مسمًّى عندَه[٤]؛ أي: هذا الأجلُ المضروبُ معلومٌ عند الله، لا يَطَّلِعُ عليه غيرُه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وأكثرُهم على أنَّه غيرُ الأجلِ الأوَّل؛ فإنَّه مُنكَّرٌ، ولو كان هو الأوَّلَ لعرَّفَهُ؛ فإنَّ النَّكرةَ إذا أُعيدت عُرِّفت، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦]، ثمَّ اختلفَتْ ألفاظُ المفسِّرين فيه:

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجلُ الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ السَّاعةُ والوقوفُ بين يدَي اللهِ تعالى[٥].

وقال الضَّحَّاك: ﴿أَجَلًا﴾ أجلُ العبادِ إلى الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الآخرةُ والبعثُ بعد الموت.

---

(١) في (ر): «ونصرة». وانظر: «لطائف الإشارات» للماتريدي (١/ ٤٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٦٠) (٧٠٩٠).

(٣) سيأتي تفصيل أقوال الضحاك وابن عباس وقتادة وعطاء قريباً.

(٤) قوله: «قيل: أي هو أجل مسمى عنده»: ليس في (ف).

(٥) رواه الطبري (٩/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦١، ١٢٦٢) (٧٠٩١)، (٧٠٩٦).

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل حياتك إلى أنْ تموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أجلُ بعد موتِك إلى أنْ تُبعَثَ[١].

وقال الحسن: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الدُّنيا مِن يومِ خلقِها إلى أن تَفنى، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يوم القيامة[٢].

وقال الضَّحَّاك: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموتِ، لكلِّ نفسٍ أجل، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجلُ السَّاعة ذهابُ الدنيا، والإفضاءُ إلى الله تعالى[٣].

وقال عطاء: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ من مولدِه إلى موتِه، ومن موتِه إلى بعثِه[٤].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ الأجَلَ واحدٌ، ودلَّ ذلك على بطلانِ قول المعتزلةِ في الأجلَين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: وبعد هذا البيانِ أنتم تَشكُّون في البعث، و﴿ثُمَّ﴾ هاهنا للتَّرتيب وللتعقيب، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ليس للتَّرتيب والتَّعقيب في الوجود، بل في الإخبار؛ أي: ثمَّ أَخْبَرَكُم أنَّه قضى أجلاً، ولا يجوزُ أنْ يُحمَلَ على ترتيبِ الفعل؛ لأنَّه لا تَرتُّبَ في أفعالِ الله تعالى؛ فإنَّ القولَ به يُوجِبُ القولَ بالحدوث، واللهُ سبحانه يَتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، ويكون هذا على ترتيب الإخبار،

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١٥١)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦٢) (٧٠٩٨).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٥١).

(٣) رواه الطبري (٩/ ١٥١)، وسلف بنحوه قريباً.

(٤) في (ف): «إلى مبعثه» بدل: «ومن موته إلى بعثه». وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ١٢) من رواية عطاء عن ابن عباس.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]، **وقوله تعالى:** ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]، **وقوله تعالى:** ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: جعلَ اللهُ تعالى للامتحانِ أجلاً، وللامتنانِ أجلاً، فأجَلُ الامتحانِ في الدُّنيا، وأجلُ الامتنانِ في العُقبى.

قال: ويُقال: ضربَ للطَّلَبِ أجلاً، وهو وقتُ المهلة، ثمَّ عقَّبهُ بأجلٍ بعدَهُ، وهو وقتُ الوصلة، فالمهلةُ لها مدًى ومنتهى، والوصلةُ بلا مدًى ولا مُنْتهى[1].

* * *

(٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ قـال أبـو روق: هـو معبودٌ في السَّـماواتِ، ومعبـودٌ في الأرض.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هو إلهٌ واحدٌ في السَّماوات وفي الأرض، لا شريكَ له، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقيل: أي: هو المستحِقُّ للعبادة في السَّماوات وفي الأرض، وذلك بشهادةِ السَّموات والأرض له بالإلهيَّة، كما قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، فلا يُبطِل إلهيَّتَه إنكارُ مَن أنكرها.

وقيل: أي: هو المنفردُ بالتَّدبير فيهما، وهو كما يُقال: فلانٌ هو الملِكُ في بلد كذا وبلد كذا، لا يُرادُ به أنَّه فيهما بالذَّاتِ، بل بالملك والتَّدبير.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٦٠).

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ قيل: هو مقدَّم في التقدير؛ أي: هو اللهُ الذي ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ في السَّماوات وفي الأرض.

وقيل: بل هو مُقرَّرٌ في موضعِه، وتفسيرُ الأوَّل ما قلنا.

قوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ قال مقاتل: أي: يَعلمُ سرَّ أعمالِكم وجهرَها(١).

وقيل: يَعلمُ ما تُسِرُّون مِن القولِ، وما تَجهرون به، وهو كقوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: ما تَعملون مِن خيرٍ أو شرٍّ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: أي: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ﴾؛ أي: ما تُضمِرون في القلوب، ﴿وَجَهۡرَكُمۡ﴾ ما تَنطِقون به، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ مِن الأفعالِ التي تُعمَلُ بالجوارح، يَعلَمُ ذلك كلَّه، فيُحصيه، ويُحاسِبكم به، ويَجزيكُم عليه، قال تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال: وقيل: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ﴾؛ أي ما خلقَ في أعضائِكم مِن الأسرار، كالسَّمعِ في الأُذُن، والبصرِ في العين، والشَّمِّ في الأنف، والذَّوقِ في الفم(٢)، والنُّطقِ في اللِّسان، ﴿وَجَهۡرَكُمۡ﴾؛ أي: ظواهرَ هذه الأعضاء، والبشرُ لا يَعرفون ماهيةَ هذه الأسرار(٣) وحقائقَها(٤).

* * *

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٤٩).

(٢) قوله: «والذوق في الفم» من (ف).

(٣) في (ف): «ذلك» بدل: «هذه الأسرار»، وفي هامشها نسخة موافقة للمثبت.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٦).

(٤ ـ ٥) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ في الأولى لتأكيد النَّفي وتعميمِ المذكور، وفي الثَّانية للتَّبعيض.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: يَحتمِل من آياتِ توحيدِ الله تعالى[1]، وآياتِ إثباتِ رسالةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، ويَحتمل آياتِ إثبات البَعث بعد الموتِ، بما أخبرَ أنَّه خلقَهم مِن طينٍ، فإذا ماتوا صاروا تُراباً، فإذا كان إنشاؤهم مِن ترابٍ، يجوزُ إعادتُهم مِن تراب.

قال: ويحتملُ آيات القرآن[2]، ويحتمل المعجزات.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: مُنصرِفين بقلوبِهم عن تأمُّلها، فلا يَنتفعون بها، وإنَّما يَنتفِعُ بها مَن تأمَّلها ونظرَ فيها.

وسورةُ الأنعام نَزلَتْ في محاجَّةِ المشركين؛ في إثبات الصَّانعِ وتوحيدِه، وإثباتِ البعثِ بعد الموتِ، ولو لم يكنْ له معجزةٌ أخرى، لكان القرآنُ معجزةً؛ حيث عجزَ الكلُّ عن الإتيانِ بمثله.

وفيه دليلُ وجوبِ محاجَّةِ منكري التَّوحيد، وإلزامِهم بالحجَّة.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ هي انشقاقُ القمر، وكان بمكَّة[3].

---

(١) في (ف): «الآيات التوحيد لله» بدل: «آيات توحيد الله».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٧).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ١٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: مُكذِّبين، ولذلك ذكرَ التَّكذيبَ فيما بعدَهُ، وهو قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: بالقرآنِ، وبمحمَّد ﷺ.

وقال مقاتل: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾؛ أي: أبو جهلٍ، والوليدُ وأميَّةُ بنُ خلف.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: أخبارُ ما كانوا يَسخرون به مِن آياتِ الله تعالى بنزولِ العقوبةِ بمَن جحدَها.

وقيل: أي: سيَحِلُّ بهم مِن العقوبةِ ما تَنتشرُ به الأخبار، سمَّى ما يُخبِرُ به خبراً على المجاز.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ﴾؛ أي: يَظهرُ لهم عند حلولِ العقوبةِ غلطُهم فيما كان مِنهم، وهو عقوبةُ الماضي والرَّاهن جميعاً، وقد جرى عليهم في يوم بدرٍ وغيرِه ما جرى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، ونُبيِّنُ تفصيلَ ذلك في تلك الآيةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بنفسِ محمَّدٍ؛ فإنَّ نبيَّنا عليه الصَّلاة والسَّلام مِن أوَّلِ نُشوئِه إلى آخرِ عمره(١) عُصِمَ، فلَم يأتِ منه ما يُستقبَحُ قَطّ، فدلَّ أنَّ ذلك إنَّما كان لما جعله الله آيةً في نفسِه، وموضعاً لرسالتِه(٢)، مع ما كان له من آياتٍ عظيمةٍ، وأعلامٍ عجيبةٍ.

وقال في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كان النَّبيُّ ﷺ أوعدَهمُ العذابَ، فقالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾

---

(١) في (أ): «عهده».

(٢) «لرسالته»: ليس من (أ).

[الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، يقولُ الله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ صدقُ هذا الخبر[1].

***

(٦) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ نكرةٌ في موضع[2] النفي، فعمَّت، وصار كقولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾[3] [يس: ٣١]. والقرنُ: أهلُ كلِّ عصرٍ، سُمُّوا به للاقتران من بعضِهم ببعض.

وقال الزَّجَّاج: القرنُ: أهلُ كلِّ عصرٍ فيه نبيٌّ أو عالمٌ عظيمٌ، سُمُّوا بذلك لاقترانِهم به، وعلى هذا لا يقع الاسمُ على أهل الفترة.

وقيل: مُدَّةُ ذلك سبعون سنة، وقيل: ثمانون سنة[4].

وقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ التَّمكينُ في البلادِ إعطاءُ المُكنة والمكانة والعُلُوِّ والغلبة[5].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢١ ـ ٢٢).

(٢) في (ف): «حال»، وفي هامشها: «صوابه: في موضع النفي».

(٣) من قوله: «نكرة في موضع» إلى هنا ليس في (أ).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٢٩).

(٥) في (ف): «العلو» بدل من «والعلو والغلبة».

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أعطيناكُم ما لم نُعطِ[١]؛ يعني: وسَّعنا[٢] عليكم في كثرةِ العبيد والمال والأنعام، ومكَّنتُهُ، ومكَّنتُ له، إذا قدَّرتُه على الشَّيء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾؛ أي: السحابَ دارًّا بالمطرِ، فكَثُرت غلَّاتُهم، ونَمَت مواشيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾؛ أي: كثُرت مياهُ الأنهارِ بكثرةِ الأمطار، وتَفجَّرت العيون.

وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهِمۡ﴾؛ أي: من تحتِ أشجارِهم.

وقيل: أي[٣]: تحت تَصرُّفِهم، وكانوا يُجرونَها حيث شاؤوا في السَّواقي إلى المزارع وإلى الحدائق.

وقيل: أي: من تحت قصورهم، وهم مشرفون عليها، يَنظرون فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ أي: بتكذيبِهم أنبياءَهم، وبكفرانِهم نعمَ الله، ولم يُغنِهم ذلك، ولم يَدفعْ عنهم العذابَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ جمعَ للمعنى؛ لأنَّه اسمٌ للطَّائفة ونحوها؛ أي خلقنا بعدَهم قوماً آخرين، فليَحذروا أنْ يَنالَهم مثلُ ما نال أولئكَ إذا فعلوا فعلَهم.

وإنَّما قال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ مع أنَّهم لم يدركوهم؛ لأنَّه عنى به أقواماً قد تَقرَّرَ عندهم أخبارُهم؛ مِن عادٍ وثمودَ وأصحابِ مدين ونحوهم[٤]، فصارَ كأنَّهم شاهدوهم.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٧٥)، ومن طريقه الطبري (٩/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦٣) (٧١١٠)، (٧١١١) من قول قتادة.

(٢) في (أ): «يعط يعني وسعت» بدل من «نعط، يعني: وسعنا».

(٣) بعدها في (ر): «من».

(٤) في (أ): «وغيرهم».

ثمَّ أدخل اللَّامَ في قولِه: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، ولم يُدخله في قوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾؛ لأنَّهما لغتان: مكَّنهُ ومكَّن[١] له، فجمعَ بينَهما في آيةٍ، كما جمع بين الإمهال والتمهيل ـ وهما لغتان ـ في آيةٍ، وهي قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]، ونظيرُ التَّمكين التَّبوئة، ويُعدَّي ذلك باللَّام وغيرها[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، فجمع بين اللُّغتين في آيتين.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: يقول: إنَّ مَن تقدَّمهُم كانوا أشدَّ تمكُّناً مِن إمهالِنا، وأكثرَ نصيباً في الظَّاهر مِن نوالنا؛ سَهَّلنا لهم أسبابَ المعاش، ووسَّعنا عليهم أبوابَ الانتعاش، فحين وطَّنوا على كواذبِ الـمُنى قلوبهم، وأدركوا مِن أحوالِ الدُّنيا محبوبَهم ومطلوبَهم، فَتحنا عليهم مِن مكامنِ التَّقدير، وأبرزنا لهم مِنْ غوامضِ الأمورِ[٣] ما قَرعوا عليه سنَّ[٤] الندم، وذاقوا دونَه طعمَ الألم، ثمَّ أنشأنا مِن بعدِهم قرناً آخرين، وأورثناهم مساكنَهم، وأسكنَّاهم أماكنَهم، فلمَّا انخرطوا في الغيِّ في سلكهم، ألحقناهم في الإهلاكِ بهم، سُنَّةً منَّا في الانتقام أمضيناها[٥] على أعدائنا، وعادَّة[٦] في الإكرامِ أجريناها لأوليائنا[٧].

---

(١) في (ر): «وتمكن»، وفي (ف): «ونمكن».

(٢) بعدها في (ف): «كما».

(٣) في (ف): «العقول».

(٤) تحرفت في (ر) و(ف) إلى: «من»، ونص العبارة في مطبوع «لطائف الإشارات»: «فزعوا عليه من الندم»!!

(٥) في (ف): «اقتضيناها».

(٦) بعدها في (ف): «منا».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٧) ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال الكلبيُّ: أي: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾؛ أي: القرآنَ في صحيفةٍ؛ أي: مكتوباً في بياضٍ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: مسُّوه[١]، ولم يقل: عاينوه بأبصارِهم؛ لأنَّ ذلك ثابت مقتضى الإنزال، وهو مكتوبٌ معايَنٌ، وأراد به المعنيَيْن؛ أي: عايَنوهُ بأبصارِهم، ومسُّوهُ بأيديهِم، لقالوا: ما هذا إلَّا سحرٌ ظاهرٌ.

نزلت في النَّضرِ بن الحارث، وعبدِ الله بنِ أُميَّة المخزوميِّ، ونوفلِ بنِ خويلد؛ قالوا: يا محمد، لن نؤمنَ لك حتَّى تأتيَنا بكتابٍ مِن عند الله جملةً، ومعه أربعةٌ مِن الملائكة يشهدون عليه[٢] أنَّه مِن عند الله، وأنَّك رسولُه، فنَزلت هذه الآيةُ[٣].

وفيها قطعُ طمعِه عن إيمانِهم، وهو في قومٍ علمَ اللهُ مِنهم أنَّهم لا يُؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ونظير هذا الاقتراح قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: قالوا: هلَّا أُنزِلَ عليه ملكٌ يَشهدُ له بالنُّبوَّةِ، ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ كما يَلتمسونَه ويَشهَدُ[٤] له بالنُّبوَّةِ، ويكونُ نذيراً معه يشاهدونه، فلم يُؤمنوا به، لفرغَ من أمرِهم

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) في (أ): «على»، وليس في (ف).

(٣) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٠٨).

(٤) في (ف): «من يشهد».

بإنزالِ العذاب المصْطلِم[١] عليهم، من غير إمهالٍ لهم، وهو كقولِه تعالى: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: حين يَحِقُّ العذابُ عليهم ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّهم عجِبوا مِن إرسال محمَّدٍ، كما قال: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وأخبر أنَّهم ﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وأجابَ عن ذلك، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥] الآية.

وقال في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ في صورتِه، لماتَ النَّاسُ مِن هيبةِ رؤيةِ صورته؛ لأنَّ البشرَ لا يَحتملون رؤيةَ الـمَلَكِ على صورتِه.

وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ في صورتِه، لقامَتِ السَّاعة[٢]؛ إذ إنزالُ الملائكةِ على صورَتِهم[٣] إنَّما يكون في القيامة.

***

(٩) ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ أي: لا يَقعُ لهم فيما سألوا؛ لأنَّا لو أنزلنا ملكاً لجعلناهُ في صورةِ رجل؛ إذ لو أنزلناهُ على صورةِ الملَك، لم يعاينوه[٤]، على العادةِ التي أجراها للنَّاس، وإذا لم يعاينوه، لم يَثِقوا بكلامِه، ولقالوا: لا نَدري أنَّه صوتُ مَلَكٍ أو غيره، ولو جاءَهم بآيةٍ لكان لهم أن يقولوا: إنَّما عجَزْنا

---

(١) يعني: المستأصل. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: صلم).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٦٥) (٧١٢١)، (٧١٢٤).

(٣) في (أ): «الملك على صورته» بدل: «الملائكة على صورتهم».

(٤) في (ف): «لما عاينوه» بدل: «لم يعاينوه».

عن معارضَتِك؛ لأنَّك من غير جنسنا، لا أنَّه آيةٌ مِن الله، وإذا لم يَجُز أنْ يَكونَ على صورة مَلَك، لهذا وجبَ أن يُجعَلَ في صورةِ رجلٍ، ثمَّ لهم أنْ يَسألوا الدِّلالةَ أنَّه مَلَكٌ جُعِلَ رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولوقعَ الالتباسُ هاهنا كما يَقعُ في إرسالِ البشر، واللَّبْسُ والتَّلبيسُ: تَخليطُ الأمرِ وإضافتُه إليه، على معنى أنَّهم لا يُنكِرون في محمَّدٍ أنَّه بَشَرٌ، ويُنكِرونَ أنَّه رسول، ولو أُنزِلَ مَلَكٌ في صورة رجلٍ، لأنكروا رسالتَه، وأنكروا كونَهُ مَلَكاً، وكان ذلك بإنزالنا، فيكونُ اللَّبسُ منَّا حينئذٍ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ولا يجوزُ إضافةُ اللَّبسِ إلى الله تعالى ابتداءً، ويَجوزُ على وجهِ المجازاة، كما في الاستهزاءِ والمكرِ والخِداع[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أخبرَ اللهُ تعالى عن كمالِ قدرتِهِ في ابتداءِ ما يُريدُ لخليقتِه، وأنَّه بعد ما قضى لهم الضَّلال، فلو أشهدهَم كلَّ دليلٍ، وأوضحَ لهم كلَّ سبيلٍ، ما ازادوا إلَّا تمادياً في الضَّلال والنُّفرةِ، وانهماكاً في الجهلِ والفتنة[٢].

***

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قال الزَّجَّاج: أي: نزلَ بهم مكروهٌ من جهةِ فعلهم، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣][٣].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٧ ـ ٢٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣١).

وقال مقاتل[١]: فدار بهم، وكانوا يَستهزؤون بوعيدِ العذاب فنزلَ بهم ذلك[٢].

وفيه تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، على أنَّه ليس هو المخصوص[٣] به، فإنَّ سائرَ الأنبياء فُعِلَ بهم كذلك، وفيه وعدٌ له بنصرتِه وإهلاكِ عدوِّه.

وقوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ قيل: أي: مِن الأنبياء، تعديةً لفعلِ السُّخرية.

وقيل: أي: مِن الأُمم؛ فإنَّ مِنهم مَنْ لم يَسخر، فهذا وعيدٌ لمن سَخِرَ مِنهم على الخصوص.

***

(١١) - ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: سافِروا، فاعتبِروا بخرابِ بُلدانِهم[٤]، وزوالِ سلطانِهم؛ بتكذيبِهم أنبياءَهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: أراهم آياتٍ سمعيَّةً وعقليَّةً، فلم يَنفعهُم ذلك، فأمرَهُم بالنَّظر في الآياتِ الحسِّيَّة[٥].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: يقول: دوخوا الأرضَ، وامسحوا الطُّولَ منها

---

(١) قوله: «وقال مقاتل»: ليس في (أ).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٠).

(٣) في (أ): «مخصوص». وفي (ر): «بمخصوص».

(٤) هو في «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٦) دون نسبة.

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٩).

والعرضَ، ثمَّ انظروا، هل انفلت مِن حكمنا أحدٌ؟ وهل وُجدَ من أمرنا ملتحدٌ؟[١]

* * *

(١٢) ـ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾؛ أي: قل للمكذِّبين والمستهزئين: لمَن مُلكُ ما في السَّماوات والأرض، وكانوا مُقِرِّين بأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه هو الخالقُ والمالك، فليس لهم أنْ يَجعلوا مع اللهِ مِن خلقِه ومُلكِه شريكاً، وكذا إذا كان ذلك كلُّه له، فهو قادرٌ على أنْ يُعاجِلَهُم بالعذاب، واتِّصالُ هذا بالأوَّل مِن هذين الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾؛ أي: إن لم يقولوا هم: إنَّه لله، فقل أنت: إنَّه لله.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أصلُه: أوجب، ولكن لا يَجوزُ الإجراءُ على ظاهرِه؛ فإنَّ العبدَ لا يَجِبُ له على الله شيءٌ، لكنَّ سبيلَهُ سبيلُ ما ذُكر بكلمةِ ﴿عَلَى﴾ من قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، والمرادُ به: أنَّه وَعَدَ ذلك وعداً مؤكداً، وهو منْجِزُهُ لا محالة.

وقال الحسنُ: حكمَ على نفسِه بالرَّحمة للتَّوابين أنْ يُدخِلَهم الجنَّةَ؛ فإنَّما يَدخلونَها برحمتِه، لا باستحقاقِهم.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي[٢]: جعلَ لهمُ الجمعَ يوم القيامة، وفيه إثابةُ المطيعين، وتعذيبُ العاصين، وذاك

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٣).

(٢) في (ر): «أي».

داعٍ في الدُّنيا إلى التَّوبةِ، وتركِ المعصيةِ، وفعلِ الطَّاعة، وهو من الرَّحمة[١].

وقيل: أي: من رحمتِه تأخيرُ العذابِ عنهم إلى يومِ القيامة، وهذا من رحمتِه في حقِّ هذه الأمَّةِ؛ فإنَّ الأممَ الخالية عُذِّبوا كما كذَّبوا.

وقوله تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ هذا قسَم، وقولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قيل: ﴿إِلَىٰ﴾ زائدة.

وقيل: هي في معنى «في».

وقيل: هي بمعنى اللَّام.

وقيل: أي: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ في القبورِ إلى يوم القيامة، وهي للغاية.

وقيل: أي: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ في الدُّنيا؛ بإلحاق المتأخِّرين بالمتقدِّمين، إلى أنْ يَجمعهُم يومَ القيامة.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾؛ أي: لا شكَّ في الجمعِ، وله وجوهٌ ذكرناها في أوَّلِ سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الخسرانُ: ذهابُ رأسِ المال؛ أي: مَنْ فاتتهُ نفسُه وهلكَتْ في الحقيقة، فهو الذي لا يُؤمِن.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ سائِلهم: هل في الدِّيارِ ديَّار، وهل للكون في التَّحقيق بعد الحقِّ مقدار، فإنْ بَقُوا على جوابٍ يَشفي، فقل: اللهُ في الرُّبوبيَّة يَكفي.

وقال في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ أي: أخبرَ وحكمَ وأراد كما

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٠)، وقول الحسن السابق فيه.

عَلِم؛ فمَن تعلَّقَ بنجاتِهِ علمُه، سبقَ بدرجاتِهِ حكمُه، ومن عِلْمُه[١] في آزالِه أنَّه يَشقى، فبقدرِ شقائِه في البلاءِ يَبقى[٢].

***

(١٣) ـ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: وله ما استقرَّ في اللَّيلِ والنَّهارِ مِن خلقٍ[٣].

وقال أبو روق: إنَّ مِن الخلقِ ما يَستقرُّ نهاراً، ويَنتشِرُ ليلاً، ومنها ما يَستقرُّ ليلاً، ويَنتشِرُ نهاراً[٤].

وقيل: أراد به سكونَ الأشياءِ بقدرتِه وعظمتِه.

وقيل: معناه: وله ما سَكَنَ وتحرَّك، لكن اكتفى بذكرِ أحدِهما؛ لعلمِ المخاطب به اختصاراً، كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبردَ.

وقيل: ﴿سَكَنَ﴾؛ أي: تمكَّن، وهو لكلِّ متحَرِّكٍ وساكن.

أخبرَ بمجموع الآيتين أنَّه خالقُ[٥] كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وله كلُّ ما تَحويهِ الأمكنةُ والأزمنة.

---

(١) في (أ): «حكمه».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٣).

(٣) هذا القول رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦٩) (٧١٤٦) من قول السدي.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٨) وتحرف «أبو روق» فيه إلى: «أبو روحي»!

(٥) في (أ): «مالك».

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾؛ أي: لما يقولونه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه.

وقال الكلبيُّ: إنَّ كفَّارَ مكَّةَ أتوا رسولَ الله ﷺ، وقالوا: يا محمَّد، إنَّا قد علِمنا أنَّه ما يَحمِلُك على هذا الذي تَدعونا إليه إلَّا الحاجة، فنحنُ نَجمعُ لك مِن أموالنا ما يُغنيك، حتَّى تكونَ مِن أغنانا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما استقرَّ في الليل والنَّهار مِن خلقٍ[1].

وقال[2]: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالةِ قريش، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ من حيث يرزقهم.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: أي: الحادثاتُ لله ملكاً، وبالله ظهوراً، ومِن الله بَدءاً، وإلى الله رجوعاً، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنينِ المشتاقين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحنين الواجدين[3].

* * *

(١٤) - ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ؛ أي: قل يا محمَّدُ للمشركين: أيجوزُ أنْ يُظَنَّ بي أنْ أتَّخِذَ غيرَ الله متولِّياً لي[4] بالحفظِ والكفايةِ والنُّصرة، كما فعلتُم أنتم، فاتَّخذتُم مِن دون الله أولياءَ، فيَحتمِلُ أنَّهم دعوهُ إلى

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٣٧). وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٨) عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «وهو».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٣).

(٤) في (أ): «أي» بدل: «لي».

موافقتِهم على الشِّرك، فقال لهم ذلك، ويَحتملُ أنَّه تَلَطَّفَ في الجواب؛ استدعاءً لهم إلى الإجابة، وأرادَ به: أتتَّخذون أنتم غيرَ الله وَليًّا.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خفض؛ لأنَّه نعت قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هو مبتدِئ خلقِهما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنتُ لا أدري ما الفاطرُ، حتَّى رأيتُ أعرابيين يختصِمان في بئرٍ، فقال أحدُهما: أنا فطرتُها؛ أي: ابتدأتُ حفرها، فعَلِمتُ أنَّه ابتداءُ الخلق(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: يَرزُق غيرَهُ، ولا يَرزقُه أحدٌ، يُقال: فلانٌ مطعَمٌ للصَّيد؛ أي: مَرزوقٌ منه، وهذه طُعمةٌ فلانٍ؛ أي: رزقٌ له، قال أبو تمام:

ومُطْعَمُ النَّصْرِ لم تَكهَمْ أسِنَّتُهُ ... يوماً ولا حُجِبَت عن روحِ مُحْتَجِبِ(٢)

وهو كقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢].

وقيل: هو على ظاهره؛ أي: هو الذي يُغَذِّي(٣) الخلقَ، وهو غنيٌّ بذاتِه عن كلِّ شيء، مُنزَّه عن الوصفِ بالطُّعم، فهو غنيٌّ والخلقُ فقراءُ إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ١٥].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: له وَصْفُ الكرمِ، فلذلك يُطْعِمُ، ولهُ حقُّ القِدَم، فلذلك لا يُطْعَم(٤).

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٤٥)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ١٧٥).

(٢) انظر: «ديوان أبي تمام» (١: ٥٨). قال شارحه: لم تكهم؛ أي: لم تَنْبُ، وأصل الكهام في السيف، وقد استعير لغيره. اهـ. يقال: سيف كهام؛ أي: كليل.

(٣) هي في النسخ الخطية مهملة الذال، ولعل المثبت هو الصواب.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾؛ أي: ما يكونُ لي أنْ أتولَّى غيرَ الله، فقد أُمِرتُ بهذا، ومعناه: أن أكونَ أوَّلَ مَنْ خضعَ وانقادَ مِن العربِ، أو مِن أهلِ مكَّةَ، أو مِن أهل العصر، والإسلام: هو الاستسلامُ، ولا تَعلُّقَ به لمن قال: إنَّ الإيمانَ لا يَلزمُ إلَّا بالسَّماع؛ لما أوَّلنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إنَّما صَلَح عطفُ النَّهي على الإخبار؛ لأنَّ تقديرَهُ: إنِّي قيل لي: أَسْلِم، ولا تكوننَّ[1] مِن المشركين، وقد ذكرنا معنى النَّهي عن الشِّرك في حقِّه في مواضع.

* * *

(١٥) ـ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: قل يا محمَّدُ لأهلِ مكَّة: إنِّي أعلمُ إنْ عصيتُ ربي فعَبدتُ غيرَه عذابَ يومِ القيامة[2]. ووصفَهُ بالعظيم؛ لأنَّ فيه الأمورَ العظام.

* * *

(١٦) ـ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[3] وعاصمٌ في رواية أبي بكر وحمَّاد وسهل ويعقوب[4]: ﴿يَصْرِف﴾ بفتح الياء[5]؛ أي: مَنْ يَصْرِف اللهُ عنه العذابَ يومئذٍ.

---

(١) في (أ): «تكن».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٧).

(٣) قوله: «وخلف» من (ف).

(٤) قوله: «وحماد وسهل ويعقوب» من (ف).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٠١)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٤٨٨)، =

وقرأ الباقون: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ بضمِّ الياء، على ما لم يسمَّ فاعلُه؛ أي: مَن يُصْرَف عنه عذابُ يومِ القيامة، فقد ذكر العذابَ في الآية الأولى.

وقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ أي: رحمَهُ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنَّه دائمٌ لا زوالَ له، وليس كفوزِ الدُّنيا أنَّه يَنقطِعُ.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: إنْ يُصِبكَ اللهُ بفقرٍ، أو مرضٍ، أو بلاءٍ، فلا كاشفَ له إلَّا هو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: بغِنًى، وسَعَةٍ في الرِّزقِ، وصِحَّةٍ في الجسم، فهو مِن عندِه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِن السَّعةِ والضِّيق، وهو تحقيقُ قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وأنقادَ لله، فأُقِرَّ له بذلك، ولا أتَّخِذَ غيرَهُ وليًّا، وهو المالكُ للنَّفعِ والضُّرِّ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ القهرُ: القدرةُ على الغَلَبة،

= و«النشر» (٢/ ٢٥٦).

والقهَّارُ: مبالغةٌ في صفةِ القاهر، و﴿فَوۡقَ﴾ ليس بصلةٍ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾، بل هما كلامان تامَّان، وتقديرُه: وهو القاهر وهو فوق عباده.

و﴿فَوۡقَ﴾ ليس للمكان؛ فإنَّ اللهَ خالقُ كلِّ مكانٍ، وقد كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان، ولكنَّه أراد به الجلالَ والعلوَّ، وهو مستعمَلٌ في اللُّغة لذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، عنوا به العظمةَ والجلال، لا الارتفاع في المكان.

و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ العالمُ بتدبير الصَّنعةِ، المانعُ عن الخَلل، و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ العالمُ بسرِّ العبادِ وعَلانيتِهم، يقول: وهو القاهرُ، القادِرُ، المحكمُ في أقواله وأفعاله، العالمُ بأحوالِ عبادِه، فلا يُسَوِّي يومَ القيامة بين مَنْ أطاعَهُ ومَنْ عصاه، فلا يَنبغي أنْ يُتَّخَذَ وليٌّ غيرُه، ولا يَنبغي أن يُجعلَ له شريكٌ، ولا يَنبغي أنْ تخافَ المشركين أنْ يَنالوك بسوءٍ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه جميعُ ما يَحتاجُ إليه أهلُ التَّوحيد في التَّوحيد؛ لأنَّه القاهرُ والخلقُ مقهورون، ومِن البعيدِ أن يكونَ بين القاهر والمقهور مناسبةٌ و[1]مشابهةٌ ومشاركةٌ، وجميعُ التَّوحيد يَدور على هذين[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ الآية، إنَّما يُنجيكَ مِن البلاءِ مَن يُلقيكَ في العناء.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾: عَلَت رتبةُ الأحدِيَّة صفة

---

(١) قوله: «مناسبة و» من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٨).

البشريَّة، فهذا لم يَزل، وهذا لم يَكُن فحصَل، ومتى يكونُ البقاء للحدثان مع وضوحِ هذا السُّلطان[١].

***

(١٩) ـ ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ قال الكلبيُّ: أتى أهلُ مكَّةَ رسولَ الله ﷺ، فقالوا: أما وجدَ اللهُ رسولاً غيرَك، ما نَرى أحداً يُصَدِّقُك لما تقول، ولقد سألنا عنك اليهودَ والنَّصارى، فزعموا أنَّه ليس لك عندَهم ذِكرٌ، فأرِنا مَنْ يَشهدُ أنَّك رسولُ الله كما تَزعُم، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗ﴾[٢].

ودلَّ هذا على أنَّه يَجوزُ إطلاقُ اسمِ الشَّيء على الله عز وجل، فإنَّه عبارةٌ عن الموجود، واللهُ تعالى موجود، يعني: قل يا محمد للمشركين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً في الصِّدقِ والصِّحَّة؟ فسيقولون: الله؛ لأنَّ هذا قولُهم في الشِّرك.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: قل لهم بعد هذا: هو اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم، على أنِّي قد بلَّغتُكم وتبرَّأتُ مِن أنْ أتَّخِذَ وليًّا غيرَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾؛ أي: وإنَّما أوحيَ إليَّ هذا الكتابُ؛ لأخوِّفَكُم به من عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: وجميعَ مَن بلغَه هذا ممَّن غابَ عن بلدِكم، أو

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٤٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٠٨).

تأخَّرَ عن عصرِكم، وتُحذَفُ هاءُ الكنايةِ في الموصول، يقال: مَن أكرمت أبوك؛ أي: مَن أكرمتَهُ.

وقال مجاهد: أي: ومَنْ بَلَغَه مِن الأعاجمِ وغيرِهم[1].

وقال مقاتل: ومَنْ بلَغَهُ مِن الجِنِّ والإنس[2].

وقال سعيدُ بن جبير: ومن بلغَهُ القرآن، فكأنَّما رأى النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام[3]، وهو في حقِّ كلِّ الخلقِ إلى يوم القيامة.

وقول تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ هذا إلى آخرِ هذه الآيةِ متَّصلٌ بما قبله، **وقوله تعالى**: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ هذا معترِضٌ.

قوله ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ استفهام بمعنى التوبيخ، **وقوله تعالى**: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ﴾؛ أي: إنَّكم إنْ شهِدتُم بذلك، فإنِّي لا أشهدُ به.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ معناه: سلهم: أتشهَدون بهذا، فإنَّ مِن العجيب أنْ يَشهدوا بهذا بعد وضوحِ البيان، فإنْ لَجُّوا وشَهِدوا فقل: لا أشهدُ معكم، وحُذفَ هذا لدلالة الكلامِ عليه، وقد بيَّنَهُ في موضعٍ آخر، فقال: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، وهذه الشَّهادةُ مِن الله بإقامة الدلالاتِ ونصبِ المعجزات كما بينا ذلك في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ البِشارةَ والنِّذارةِ يكونان ببعثِ آخرَ يُبشِّرُ ويُنذِر، وهو دليلٌ لقول أصحابنا رحمهم الله: إنَّ مَن حلف: أيُّ عبدٍ مِن عبيدي بشَّرني بكذا، فهو حرٌّ، فبشَّرهُ برسولٍ أو بكتابٍ، عَتَق.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٧١) (٧١٦٤).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٤).

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف».

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ قال الحسنُ وقتادة والزَّجَّاج: يعرفون محمداً[١]؛ أي: إنَّ أهلَ الكتاب الذين يَرجع إليهم هؤلاء المشركون في السُّؤال، يعرفون أن محمداً رسولَ الله حقٌّ، كما يَعرفون أولادَهم؛ لذِكْرِه في كتابِهم. وقد ذكرنا حديثَ ابنِ سَلام فيهِ في سورة البقرة.

وقال مجاهد: يعرفون أنَّ الإسلامَ دينُ اللهِ وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، يَجدون ذلك مكتوباً عندهم في التَّوراة والإنجيل[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويجوز أن يكون معنى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن، وقد أُمِروا أنْ يَأتوا بمثلِه، فعجَزوا عنه، فلَزِمَتهمُ الحجَّةُ، وثَبتَت لهم به المعرفةُ[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يجوزُ أنْ يكون[٤] نعتاً لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويجوزُ أن يكون مبتدأً، وخبره قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقد فسَّرنا هذا مرَّة في هذه السُّورة[٥].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٨)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٢) (٧١٧٠) عن قتادة. وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣٤).

(٢) لم أقف عليه عن مجاهد، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٣) (٧١٧١) من قول قتادة.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٤٢).

(٤) بعدها في (أ): «هذا».

(٥) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٢١) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّن اختلقَ على الله زوراً، فأشركَ به غيرَه، ووصفَهُ بما لم يَصِف به نفسَه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: بالقرآنِ وبمحمَّدٍ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: لا يفوزُ المشركون.

وقيل: المشركون وأهلُ الكتابِ ما داموا على ظلمِهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: لا يُفلِح الظَّالمون أيَّامَ الدُّنيا ويومَ نحشرُهم.

وقيل: أي: وليتَّقوا يومَ نحشُرُهم؛ أي: نَبعثُهم، ونَجمعُهم كافَّةً، ثمَّ نقولُ للمشركين: أين مَن أشركتُموهم بالله مِن آلهتِكم؛ رجاءَ نفعِهم إيَّاكم عند الله؟

أضاف الشُّركاء إليهم في هذه الآية؛ لأنَّهم همُ الذين جعلوها شركاء، وزعموا أنَّهم شركاء، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧]، فأضافَهم إلى نفسِه؛ لأنَّهم جعلوها شركاءَ لله، وهو كما قلنا في الأجل أنَّه قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، أضاف الأجلَ إلى نفسِه في آيةٍ؛ لأنَّه هو الجاعل، وأضافَهُ إليهم في آيةٍ؛ لأنَّهم هم المجعولُ لهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: تقولون.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: يَجمعُهم يومَ الحشرِ والنَّشر، لكنَّه يُفرِّقُهم في

الحكمِ والأمر، فالبعثُ يَجمعُهم، لكنَّ الحكمَ يُفرِّقُهم[١]، قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

* * *

(٢٣) ـ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿يَكن﴾ بياء التذكير ﴿فتنتَهم﴾ بالنَّصب، وهو خبرُ كان، والاسم قولُه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾؛ لأن ﴿أَن﴾ مع الفعل مصدرٌ، وتقديرُه: إلا قولُهم، بالرفع.

وقرأ نافعٌ وعاصم في رواية أبي بكرٍ وأبو عمرو بتاءِ التَّأنيث، و﴿فتنتَهم﴾ بالنَّصب، وعلى هذا يكونُ تقديرُه: إلَّا مقالتُهم بالرَّفع فيكونُ اسماً و﴿فتنتَهم﴾ خبراً.

وقرأ ابنُ كثيرٍ في رواية شبل[٢] وابنُ عامر وحفصٌ عن عاصم: ﴿يكن﴾ بياء التَّذكير[٣] و﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرَّفعِ[٤]، وهو اسمٌ، والتَّذكيرُ لتَقدُّم الفعلِ عليه، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّه مصدرٌ بمعنى الفِتن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[٥]: ﴿ربَّنا﴾ بالنَّصب على النِّداء؛ أي: يا ربَّنا، والباقون ﴿رَبِّنَا﴾ بالكسر[٦]، نعتاً لقوله: ﴿وَٱللَّهِ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٥).

(٢) وهي الرواية المتواترة عن ابن كثير.

(٣) كذا قال، وهو وهم، والصواب أن قراءة ابن كثير وابن عامر وحفص: ﴿تَكُن﴾ بالتاء.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٠١ ـ ١٠٢).

(٥) قوله: «وخلف» من (ف).

(٦) «بالكسر»: زيادة من (أ). وانظر القراءة في «السبعة» (ص: ٢٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٧).

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ثمَّ لم تكنْ معذِرتُهم[١] حين قيل لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فكذا قال قتادة[٢]، ووجهُه: عذرُ فتنتِهم؛ أي: شركهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾.

وقيل: سمَّى المعذرةَ فتنةً؛ لأنَّها صارت بليَّةً لزمتهُم بها الحجَّةُ وعذاباً.

وقال الزَّجَّاج: معناه: ثمَّ لم تكن عاقبةُ ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾؛ أي: كفرهم، إلَّا تبرؤهم عنها بقولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ أي: عند أنفُسِنا، بل كنا موحِّدين بإقرارِنا أنَّ الخالقَ واحدٌ والرَّازقَ واحد، وإنَّما عبدنا الأصنامَ ليُقرِّبونا إلى الله زُلْفى.

وقال الحسن: هذا في المنافقين، كانوا يَكذبون في الدُّنيا، ويَروجُ كذبُهم، فيَظنُّونَ في الآخرة أنَّه يَرُوج كذبهم، فيقولون ذلك[٤]، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقال مجاهد ومقاتل: هذا قولُ جميع المشركين إذا جمع الله الخلائق، ورأى المشركون سعة رحمةِ الله، وشفاعةَ الرَّسول للمؤمنين، قال بعضُهم لبعض: تعالَوا نكتمُ الشِّرك؛ لعلَّنا نَنجو مع أهل التَّوحيد، فإذا قال الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيَختمُ اللهُ على أفواههم، فتَشهدُ عليهم أيديهم وأرجلُهم[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٣) (٧١٧٥) معلقاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٩١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣٦).

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٤).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في =

(٢٤) ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: يقولُ الله تعالى حينئذٍ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: انظر كيف كذَبوا على أنفسِهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: تلاشى افتراؤهم: إنَّا نعبدُهم ليَشفعوا لنا، فلم يَحصل ذلك لهم.

وقيل: أي: اشتغلَ عنهم الآلهةُ التي كانوا يَفترون على اللهِ بجعلِها شركاءَ لله، فعلى الأوَّل ﴿مَا﴾ للمصدر، وعلى الثَّاني للاسم.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هذا الذي أخبرَ عنهم غايةُ التَّمرُّد؛ حيث جَحَدوا وعلى ذلك أقسموا، ولو كان لهم بالله عِلْمٌ لتَحقَّقوا بأنَّه يَعلمُ سرَّهُم ونجواهم، فلا يَخفى عليه شيءٌ مِن أولاهم وأُخراهم، لكنَّ الجهلَ الغالب عليهم استنطقَهم بما رجعَ بالفضيحةِ عليهم(١).

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ومِنْ هؤلاء الظَّالمين مَن يَستمِعُ إليك كالـمُظهرِ للقَبول والانقياد، وهو مُصِرٌّ على الجحودِ والعناد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: أغطيةً، جمع كِنان، وهو الغطاء، وقد كنَّ الشَّيء إذا صانه، وأكنَّه؛ أي: غطَّاه. **وقوله تعالى:** ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛

= «تفسيره» (٤/ ١٢٧٤) (٧١٨٢) عن مجاهد.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٥).

أي: جَعلنا في أسماعِهم ثِقَلاً، وليس ذلك بإجبارٍ، بل هو عقوبةٌ لهم على اختيارِهم الكفر على إصرارهم، ويدلُّ عليه ما بعدَه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: كلَّ آيةٍ اقترحوها.

وقيل: الآياتُ المقترحةُ وغيرُها، وهو في قومٍ علمَ الله منهم الاختيارَ للكفر على الأبد؛ أي: يُدخِلون الشُّبهَ فيها، ويَقولون: لعلَّها سحرٌ، ولعلَّها أساطيرُ الأولين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ أي: يُحاجُّونَك.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: أحاديثُ الأوَّلينَ التي كانوا يَسطرُونَها[١]؛ أي: يكتبونها.

وقال أبو عبيدة: واحدُها إسطار[٢]، وهي التُّرَّهات.

وقال الأخفش: وقيل: واحدها: إسطارةٌ، كالإصبارة[٣]، وقيل: أسطورة[٤]، كالأضحوكة. قال: وهي عندي لا واحدَ لها، وهي كالعباديد والأبابيل[٥].

وقال الزَّجَّاج: هو جمع جمعٍ؛ سطرٌ وأسطارٌ وأساطيرُ[٦].

وقال الكلبي: استمع إليه أبو سفيان بنُ حرب، والوليدُ بنُ المغيرة، والنَّضرُ بنُ الحارث، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأميةُ وأُبي ابنا خلف، والحارث بن عامر: استمعوا

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) كذا في النسخ الخطية، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١٨٩): واحدتها: أسطورة، وإسطارة لغة.

(٣) كذا في (ر) و(ف)، ورسمها في (أ): «كالإحبارة»، ولعل صوابها: «كالإضبارة».

(٤) في (أ): «الأسطورة».

(٥) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٦).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣٨).

إلى حديثِ رسول الله ﷺ، فقالوا للنَّضر بنِ الحارث: ما يقولُ محمَّد؟ قال: والذي جعل الكعبةَ بيتَهُ، ما أدري ما يقول، إلَّا أنِّي أراهُ يُحرِّكُ لسانَه، ويقولُ أساطيرَ الأولين، مثلما كنتُ أحدِّثُكم عن القرونِ الماضية[1]، وكان النَّضرُ كثيرَ الحديث عن القرون، وقال أبو سفيان: إنِّي لأَرى بعضَ ما يقول حقاً، قال أبو جهل لعنه الله: كلا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾؛ يعني: إلى حديثك، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: غطاءً وغشاوةً؛ ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: لئلَّا يفقهوه[2].

وقال الحسنُ: أي: ألَّا يقبلوه[3]، كقوله: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]؛ أي: لا يَقبلون عن الله.

وقال محمد بن إسحاق: كلُّ ما في القرآن مِن ذكرِ الأساطير، فهو من قول النَّضر بن الحارث، كان يُسافرُ إلى أرضِ العجم، فيَحفظُ حديثَ رستُم واسفنديار، ويُعارِضُ به القرآن[4].

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: هؤلاء الكفَّار يَنهون النَّاسَ عن اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ، وعن الاستماع منه، قاله مجاهد.

---

(١) بعدها في (ر): «أظن».

(٢) «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٥٥ ـ ٥٦) (طبعة دار التفسير)، و«تفسير البغوي» (٣/ ١٣٦)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٠٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (٨/ ٦١).

(٤) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠) من طريق ابن إسحاق بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: يتباعدون بأنفسِهم عنه.

وقيل: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ عن القرآن والإصغاءِ إليه، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ عن العملِ به، فقد سبقَ ذكرُه عند قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، وذلك كنايةٌ عن القرآن، وهذا قول قتادة(١).

وقال الكلبيُّ: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ عن محمَّدٍ مَن سألَهم عنه؛ أنْ يَقربوهُ ويتَّبعوهُ، ويَتباعدون عنه، فلا يتَّبِعونه(٢).

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نَزلت في أبي طالب؛ كان يَنْهى أن يُؤذَى رسولُ الله ﷺ، ويَنأى عمَّا جاءَ به(٣).

ورويَ أنَّ قريشاً لـمَّا همَّت بقتلِ النَّبيِّ ﷺ، وعَلِم به أبو طالب، قال للنَّبيِّ ﷺ: أعلمْتَ أنَّ قريشاً همت بقتلك؟ قال: «نعم»، قال: ومن أنبأكَ به، وهذا أمرٌ خفيٌّ؟! قال: «أنبأني به ربي، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]»، فقال أبو طالب: نِعْمَ الرَّبُّ ربُّك يا محمَّد، فأوصيك به(٤)، ثم خرج أبو طالب وقال للملأ وهُمْ مجتمِعون: يا قوم، إنَّ محمداً ابنُ أخي وولدي، ومَن همَّ به فأنا مُزهِقٌ روحَه، فطمعَ رسولُ الله ﷺ في إيمانِه، فجاءَ يُحَرِّضُه على الإسلام، فقال أبو طالب:

ودَعَوتَني وزعمتَ أنَّك ناصِحي ... ولقد صَدَقتَ وكنتَ قبلُ أمينَا
وعرضتَ ديناً لا محالةَ أنَّه ... مِن خيرِ أديانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا
لولا الغضاضَةُ أو تكونَ مَسبَّةٌ ... لوجَدتَني سَمحاً بذاك مبينَا(٥)

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» (٨/ ٦٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٨) (٨٩٩٨).

(٥) في (ر): «متينا».

والله لــن يَصِلــوا إليــك بجمعِهم حتَّــى أوسَّــدَ فــي التُّــرابِ دَفينَــا
فاصْـدَع بأمـرِكَ مـا عليـكَ غضاضَةٌ وابْشِــرْ وقَــرَّ بــذاكَ منْـكَ عيونَـا

فنزلَتْ فيه هذه الآيةُ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ أي: وما يُورِدونَ مواردَ العذابِ إلَّا أنفسَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: وما يَنتفعون بعلمِهم.

وقيل: وما يَعلمون ما عليهم مِن العذابِ في الآخرة، وهو نفيُ العلمِ بقَدْرِ ذلك، وهو إعظامٌ له(٢).

***

(٢٧) ـ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: حُبِسوا، وهو متعدٍّ؛ وقفتُه وقفاً.

قال الأصمعيُّ: قال أبو عمرو: ما سمعتُ أحداً من العرب يقول: أوْقَفْتُ الشَّيءَ؛ بالألف، إلا أنِّي لو رأيتُ رجلاً بمكانٍ، فقلت له: ما أوقفك هاهنا؟ لرأيته حسناً(٣)؛ أي: ما عرَّضك للوقوف.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قرأ ابنُ عامر(٤) وحمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ﴾ بالنَّصبِ فيهما على

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٤١ ـ ١٤٢)، والأبيات في «ديوان أبي طالب» (ص: ٩١).

(٢) في (أ): «لهم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٧)، وانظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٩/ ٣٣٣).

(٤) قرأ ابن عامر بالرفع في (نكذب) والنصب في (نكون) كما سيأتي. انظر: «البدور الزاهرة» (ص ١٠١).

جواب التَّمنِّي بالواو، وكما في الجواب بالفاء، وتقديرُه: حتَّى لا نُكذِّب وحتَّى نكونَ، وعلى الصَّرف[١] أيضاً، ومعناه: أنَّ قوله: ﴿نُرَدُّ﴾ على التَّمنِّي، وما بعدَهُ ليس على ذلك، بل على الإخبارِ قطعاً، فصرف عن الأوَّلِ بالنَّصب.

وقرأ الباقون بالرَّفع[٢] فيهما على الإخبار ابتداءً، وتقديره: ولسنا نُكذِّبُ بآياتِ ربِّنا، بل نكونُ مِن المؤمنين.

وقرأ ابنُ عامر في رواية: ﴿وَلَا نُكَذِّبُ﴾ رفعاً، وهو يكونُ إخباراً واقعاً بين التَّمنِّي وجوابِه، ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب[٣] جواباً للتَّمنِّي بالواو، ومعنى الآية: ولو ترى يا محمَّد إذْ وُقِفَ هؤلاءِ على النَّار.

وقال الزَّجَّاج: أي: على شفير النار، فتكونُ النَّارُ تحتَهم، وهو قبل أن يَدخلُوها[٤]، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

وقيل: أي: اطَّلعوا عليها، كما يقال: وقفتُ على حقيقةِ هذا الأمر، وأوقفني عليه غيري، وذلك حين قَرُبوا منها، فرأَوها وعرفوها، ويكون أيضاً بعدما دخلوها وعرفوها[٥]، فقالوا: يا ليتنا نَرجِعُ إلى الدُّنيا فنؤمنَ ولا نكفر، لرأيت أمراً عظيماً، هذا محذوفٌ، وهو مقدَّرٌ في جواب ﴿وَلَوْ﴾.

***

---

(١) الصرف هنا بمعنى الالتفات. انظر: «معجم البلاغة العربية» لبدوي طبانة (ص: ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٥)، و«جامع البيان» (ص: ٤٨٨)

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣٩).

(٥) هذا الرأي ذكره الزجاج أيضاً، وجوده.

(٢٨) ـ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿بَلْ﴾ ردٌّ للأوَّل، ومعناه: ليس ما يتمنَّونه مِن الرَّجعةِ رغبةً في الإيمان، لكن أظهرَ اللهُ أعمالَهم السيِّئةَ على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامة، ففضحَهم، كما قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨].

وقيل: ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ هذا من أهل النِّفاقِ، وقد سبقَ ذِكرُهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

وقيل: أي بدا للأتباعِ ما كان الرؤساءُ يُخفونَ مِنهم؛ مِن صدقِ رسولِ الله ﷺ، ومِن حقيَّةِ[1] البعثِ يوم القيامة.

وقيل: هو إخفاء الضَّمائر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠].

وقيل: ظهرَ لهم عقابُ ما كانوا يُخفونَهُ مِن سيِّئاتِ أعمالِهم، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]؛ أي: عقابُ ما كَنزتُم.

وقيل: كانَ مِن المشركين مَنْ إذا خوَّفهُ رسولُ الله ﷺ العذابَ بكفرِه، دخلَهُ خوفٌ على سبيلِ الشَّكِّ، فيُخفيه ولا يُبديه، فيَبدو له ذلك في القيامة.

وقيل: ﴿بَدَا لَهُم﴾؛ أي: لمشركي العرب ما كان أهلُ الكتاب يُخفونَه عنهم مِن قبل، وقد سبق ذِكرُهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا لرجَعوا إلى ما نُهوا عنه مِن الشِّرك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: في قولهم: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) في (ر): «حقيقة».

وقال أبو روق: إذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وختمَ اللهُ على أفواهِهم، وأنطقَ جوارحَهم، فشَهِدَت بما كتموا، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾(١).

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: يَعتذرُ اللهُ إلى آدمَ ثلاثةَ معاذير؛ أي: يلاطِفُه ثلاثَ ملاطفات:

أولاهنَّ أنْ يقول: يا آدم، لولا أنِّي لعنتُ الكذَّابين، وأبغض الخُلْفَ والكذِبَ، لرحمتُ ذُرِّيَّتكَ اليوم من شِدَّةِ ما أعددتُ لهم، ولكن حقَّ القولُ منِّي لمن كذَّب رسلي، وعصى أمري، أنْ أملأَ جهنَّم منهم أجمعين.

ويا آدم، إنِّي لا أُدخِلُ النَّار إلَّا مَنْ عَلِمتُ أنِّي لو رددتُه إلى(٢) الدُّنيا لم يَتُب ولم يُراجِع عمَّا نهيتُه عنه، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

ويا آدم، كن أنتَ اليومَ بيني وبين ذُرِّيَّتك، فقُم عند الميزان، فانظُر إلى ما رُفِعَ إليَّ مِن أعمالِهم، فمن زادَتْ حسناتُه على سيِّئاتِه مثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ، فأدْخِلهُ الجنَّةَ؛ لتعلمَ أنِّي لا أُدخِلُ النَّار إلَّا كلَّ ظالمٍ، ومَن هو أهلٌ لها(٣).

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: تَعلَّقت الخوارجُ بظاهرِ هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُمْ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦١) (طبعة دار التفسير).

(٢) بعدها في (ف): «دار».

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٩٢٦)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٨٥٥ ـ الروض الداني)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤) من طريق الفضل بن عيسى الرقاشي عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه. والفضل كذاب.

لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّ المؤمنَ إذا قال: لا أُذنب ثمَّ أذنبَ، ظهر أنَّه كاذبٌ في قوله الأوَّل، وقالوا في قوله: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية [الممتحنة: ١٢]: إنَّهنَّ إذا سرقنَ، أو زَنينَ، ظهرنَ أنَّهنَّ بايعن على الكذب، فلم يكن إيماناً ولا بيعةً، وقالوا: لمَّا عَلِم اللهُ تعالى من هؤلاء ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ سمَّاهم بذلك كاذبين للحال، ثبتَ ما قلنا، لكنَّا نقول: ليس كذلك، بل الكذِبُ: هو الإخبارُ عن الشَّيء على خلافِ ما هو به، وإذا كان اعتقادُ المخبر على ما يخبِرُ به، لم يكن على خلافه، فأمَّا الآيةُ فلها وجوهٌ:

أحدها: أنَّهم أضمروا بخلافِ ما أظهروا، وهو كقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

والثاني: أنَّ معناه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: ليَكذبون في العاقبةِ، ويُخالِفون ما قالوا، كما يُقول: إنَّه فاعلٌ كذا غداً.

والثالث: أنَّه سمَّاهم كاذِبين بكذبِهم القديم، كما سَمى أهلَ النَّارِ كفَّاراً بكفرِهم القديم(١).

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ غداً تُهْتَك(٢) الأستارُ، وتَظهرُ الأسرار، فكم مِن متجلِّلٍ بثوبِ تقواهُ، حكمَ له معارِفُه أنَّه زاهدٌ في دنياهُ، راغبٌ في عقباهُ، مُحِبٌّ لمولاه، مفارِقٌ لهواه؟ يُكشَفُ الأمرُ عن(٣) خلافِ ما توهَّموهُ، وافتُضِحَ عندهم بغير ما ظنُّوه، وكم مِن متهتِّكٍ، سُترَ بما أُظهِر عليه، ظنَّ الكُلُّ أنَّه خليعُ العِذار،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٦٤ ـ ٦٥).

(٢) في (ر): «تنهتك».

(٣) في (أ) و(ف): «على».

مشوَّشُ الأسرار، وظهرَ لذوي البصائرِ طهارتُه، وبرزَ مِن خفايا السِّرِّ حقيقتُه(١).

***

(٢٩) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ أي: قال هؤلاء الكُفَّار: ما الحياةُ إلَّا حياتُنا القربى؛ أي: الحاليَّة، ولا نُبعثُ بعدَ الموتِ أحياءَ للجزاء.

***

(٣٠) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: حُبِسوا على حسابِ ربِّهم، أو على عذابِ ربِّهم، أو «على» بمعنى اللام، وتقديرُه: وقفوا لربِّهم، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وقيل: أي: حُبِسوا على ما يكونُ مِن أمرِ الله فيهم، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ويُقال: هذا الأمرُ موقوفٌ على فلانٍ، وعلى مجيء فلان، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ مضمرٌ؛ أي: لرأيتَ أمراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: قال اللهُ تعالى، أو قال الملَكُ(٢) بأمرِه: أليسَ البعثُ بحقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا به مُحقَّقاً بالقسم بعدما كانوا يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٧).

(٢) في (أ): «قالت الملائكة» بدل: «قال الملك».

وقولـه تعالـى: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: فـلا نفـعَ لكـم في هذا الإقـرار، فدُومـوا في هذا العـذابِ بذلـك الإنكار.

* * *

(٣١) ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ الخسران: الهلاكُ وذهابُ رأسِ المال، وقد فاتَ هؤلاءِ خلاصُ أنفسِهم، ولزمَهُم هلاكُها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالبعثِ للحساب والجزاء، ويكونُ أيضاً برؤية الله التي وعدَها للمؤمنين، وقد كشَفنا معنى الكلمةِ عند قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

وقولـه تعالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: حتَّـى إذا أتتهـم القيامـةُ فجأةً، وسُـمِّيَت القيامةُ سـاعةً؛ لسـرعة الحسـاب فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعـد: ٤١]، كأنَّـه قيـل: وما هي إلَّا سـاعةٌ حتَّى يحصـلَ أهلُ الجنَّة فـي الجنَّة، وأهلُ النَّارِ فـي النَّار.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ أي: يا ندامَتنا على ما قصَّرنا في حقِّها؛ أي: في حقِّ القيامةِ مِن الاستعداد لها، وتقديمِ الأعمالِ الصَّالحةِ لأجلِها، وحقيقةُ ﴿فَرَّطْنَا﴾ جعلنا غيرَنا الفارِطَ؛ أي: السَّابقَ إلى طاعة الله، فحَصلنا مُتخلِّفين.

وقـوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: وهم مع هذا التَّحسُّر يَحمِلون أثقالَ آثامِهم على ظهورِهم، وهو عبارةٌ عن لزومِ تلك الآثام لهم، وكونِهم مثقَلِين بها، مرتَهَنين بعذابِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: يَحمِلون.

قال قتادة: يأتي الكافرَ عملُه الخبيثُ في أقبحِ صورةٍ، وأنتنِ ريحٍ، فيقول له: طالما رَكِبتني في الدُّنيا، فهلمَّ أركبكَ، فيركبُ[1] ظهرَه[2].

ونظيرُ الحملِ على الظَّهر ما ذُكِر مِن جعله في العنق، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، وما روي[3]: يأتي أحدُكم بالشَّاة في عنقه[4]، وقوله ﷺ: «من غصبَ شبراً من أرض طَوَّقَهُ الله إلى سبعِ أرضين يوم القيامة»[5]، وكلُّ ذلك له وجهان:

أحدُهما: معنى اللُّزوم.

والثاني: أن يُجعلَ يوم القيامة صورةً، فيُحمَل على ظهرِه، أو يُطوَّق في عنقِه تعذيباً له.

---

(١) بعدها في (ر): «على».

(٢) أورده عن قتادة الواحديُّ في «التفسير الوسيط» (٢/ ٢٦٤)، و«البسيط» (٨/ ٩٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢١٦ ـ ٢١٧) عن عمرو بن قيس الملائي وعن السدي.

(٣) بعدها في (ف): «كما».

(٤) لعله يشير إلى حديث ابن اللتبية الذي استعمله رسول الله فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقال ﷺ: «لا يأخذ أحد منه شيئاً إلَّا جاء به يوم القيامة يحملُه على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تَيْعَر» رواه البخاري في «صحيحه» (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، ورواه البخاري في «صحيحه» (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وروي عن غيرهما.

(٣٢) ـ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يَرجِعُ إلى قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وما الحياةُ[1] التي دعوتُم النَّاس إلى التَّمتُّع فيها، وقلتُم لا حياةَ غيرها؛ في قِصَر مدَّتها وسرعة انقضائها في جنب الحياة الآخرة، إلَّا كلَعِبِ الصِّبيان، ولهْوِ الفُرسان.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: أي: الحياةُ الدُّنيا للدُّنيا خاصَّة[2] لعبٌ ولهو، واللَّعب: هو الذي لا حقيقةَ له، ولا مقصدَ فيه، واللهو: ما يُقصَدُ به قضاءُ الشهوة، وهو كالعبثِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، يقول: لو لم تَكن هذه الحياةُ[3] لدارٍ أُخرى يُرجى بها الثَّوابُ، ويُخشى بها العقاب، لم يكن فيها حكمةٌ، بل كانت لهواً ولعباً، وكذلك خلقُ البشرِ، لو لم يكن للبعثِ والجزاءِ على العمل كان عبثاً[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قرأ ابنُ عامر: ﴿ولَدارُ الآخرةِ﴾ بلامٍ واحدة على الإضافة[5]، ومعناهُ: ولَدارُ الحياةِ الآخرةِ، أو ولَدارُ النَّشأةِ الآخرةِ، على ما فسَّرناهُ عند قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وعلى القراءةِ الظاهرة ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ نعتٌ للدَّار، ومعنى الآية: إنَّ نعيمَ الآخرةِ خيرٌ مِن نعيم الدُّنيا؛ لأنَّه لا يَزولُ ولا يَحول، ولا يُنتقص ولا يَتنغَّص، وخصَّ به المتَّقين؛ لأنَّهم هم المنتفعون به، والصَّائرون إليه.

---

(١) بعدها في (ف): «الدنيا».

(٢) في (ف): «خالصة».

(٣) بعدها في (أ): «الدنيا».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٦٩).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[١] قرأ نافعٌ وأبو جعفر، وابنُ ذكوان عن ابنِ[٢] عامر[٣]، وعاصمٌ في رواية حفص، وسهلٌ ويعقوب[٤]؛ بتاء المخاطبة، والباقون بياء المغايَبة[٥]؛ أي: أفلا يَعقِلُ المشركون هذا فيعملوا به؟ وهي كلمةُ استبطاء.

* * *

(٣٣) ـ ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ ﴿قَدۡ﴾ في الكلام في مثل هذا النَّظم[٦] لثلاثة أوجه:

أحدها: التوقُّع، كقولك: قد ركبَ الأمير، لقومٍ يَتوقَّعون ذلك[٧]، ولـمَّا سمعَ النَّبيُّ ﷺ حجَّةَ اللهِ عليهم، تَوقَّع ما يُخاطب به في أمورهم[٨]، فقيل هذا.

والثاني: التَّقريبُ من الحال، كقولك: إنْ كان القومُ قد أَتَوا فعرِّفني، ويكون معناه هاهنا تقريبَ حالِ الحزنِ من حال الخطاب.

والثالث: بمعنى التَّقليل في الأحيان، كقولِك: قد يكون كذا، ويكونُ معناه هاهنا: تقليلَ حزنِه بذلك؛ لتسليةِ الله عزَّ وجلَّ إيَّاه.

---

(١) في (ر): «يعقلون».

(٢) قوله: «أبو جعفر وابن ذكوان عن ابن» من (ف).

(٣) لم يختلف على ابن عامر هنا.

(٤) قوله: «وسهل ويعقوب»: زيادة من (ف).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٢)، و«النشر»: (٢/ ٢٥٧).

(٦) في (أ) و(ر): «النظام».

(٧) في (أ): «ركوبه».

(٨) في (أ): «أمرهم».

وقولـه: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ قال الحسـنُ رحمه الله: قولُ قريشٍ: إنَّك سـاحرٌ كذَّابٌ مجنون.

وقيـل: هو مـا سـبق ذكـره: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: يَحتملُ أنَّه كان يُحزِنُه افتراؤهم وكذبُهم على الله، أو كان يحزِنهُ تكذيبُ أقاربِه، فإذا كذَّبوه انتهى الخبرُ إلى الأبعدين، فكذَّبوهُ أيضاً، فيَحزنُ لذلك، أو يحزنُ حزنَ طبعٍ؛ لأنَّ طبعَ كلِّ أحدٍ يَنفِرُ عن التَّكذيب، أو كان يَحزنُ إشفاقاً عليهم لما يَنزِلُ عليهم مِن العذاب، وذلك[١] قولُه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، والآيةُ إخبارٌ مِن الله عزَّ وجلَّ أنَّه على علمٍ منه بتكذيبِهم إيَّاه بعثَهُ إليهم رسولاً، وأنَّه لا عذرَ له بتركِ التَّبليغِ وإن كذَّبوه[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِبُونَكَ﴾ قرأ نافعٌ والكسائيُّ بالتَّخفيف[٣]؛ مِن قولك: أكذَبتُ فلاناً؛ أي: وجدتُه كاذباً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقول: لا يَجِدونكَ كاذباً فيما تقول، لكنَّ الكافرين الظَّالمين أنفسَهم، الواضعين الشَّيءَ غيرَ موضعِه، يُنكِرون الحقَّ مع علمِهم به.

وقرأ الباقون: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتشديد، ومعناه: لا يَنسبونكَ إلى الكذب، وهذا مُشكِلٌ مع بقيَّةِ الآية، لكن له وجوهٌ صحيحة.

---

(١) في (ر): «كما في» بدل: «وذلك».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٧٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم إياك في العلانية؛ فإنَّهم لا يُكذِّبونك في السِّرِّ، وقد علموا أنَّك صادقٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بمحمَّدٍ والقرآنِ في العلانية(١).

وقال أبو ميسرة: مرَّ رسولُ الله ﷺ على أبي جهلٍ لعنه الله، فقال: يا محمَّد، ما نُكذِّبُك، وإنَّك عندنا لمصدَّقٌ؛ أي: لا نَصِفُكَ بأنَّك رجلٌ كاذبٌ، بل نُسمِّيك أميناً في سائر الأشياء، ولكنَّا نُكذِّبُك فيما(٢) جئتنا به، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية(٣).

وقال أبو يزيد المدني: لقيَ رسولُ الله ﷺ أبا جهلٍ، فصافحَهُ، فلقيَهُ بعضُ شياطينه، فقال له: رأيتُكَ تُصافِحه، فقال: واللهِ إنِّي لأَعْلَم إنَّه لصادقٌ، ولكنَّا متى كنا تبعاً لبني عبد مناف، فنزلَت الآية(٤).

وقال السُّدِّيُّ: لـمَّا كان يومُ بدرٍ الْتقى الأخنسُ بن شريق وأبو جهل، فقال الأخنسُ: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمَّدٍ، أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنَّه ليس هاهنا أحدٌ يَسمعُ كلامي غيري وغيرُك، فقال أبو جهلٍ لعنه الله: والله إنَّ محمَّداً لصادقٌ، وما كذبَ محمَّدٌ قطّ، ولكن إذا ذهبَ بنو قُصَيٍّ باللِّواء والسِّقاية والحِجابةِ والنَّدوةِ والنُّبوَّة، فماذا يكونُ لسائرِ قريش(٥).

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٠٧) من قول الكلبي، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٢٦٥) عن ابن عباس وقتادة والسدي ومقاتل.

(٢) في (أ) و(ف): «ولكنا نكذب ما» بدل من «ولكننا نكذبك فيما».

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٢٦٥)، و«البسيط» (٨/ ٩٧ ـ ٩٨)، و«أسباب النزول» (ص: ٢١١)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٣) (٧٢٣٩).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٢).

وقال مقاتل: نزلَت في الحارثِ بنِ عامر بنِ نوفلَ بن عبد مناف بن قصي، كان يُكذِّبُ النَّبيَّ ﷺ في العلانية، فإذا خلا به مع أهل بيته[١] قال: ما محمَّدٌ مِن أهل الكذب، ولا أحسبُه إلَّا صادقاً، وقال للنبيِّ ﷺ: إنَّا لنَعلمُ أنَّ الذي تَقولُهُ حقٌّ، وإنَّه لا يَمنعُنا أن نتَّبع الهُدى معك إلَّا المخافةُ مِن أنْ يتخطَّفنا النَّاسُ مِن أرضِنا، فنزلَت الآيةُ[٢].

وقال الحسنُ رحمه الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بأنَّ اللهَ ليس بخالقهم ولا برازقِهم، ولكنَّ المشركين بدينِ الله الإسلامِ يَجحدون.

وقال الضَّحَّاك: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ أي: لا يُمكنهم إثباتُ الكذبِ عليك، ولا يَقدِرون ألَّا يكونَ الرَّسولُ رسولاً، وعلى ألَّا يكونَ القرآنُ قرآناً، وإنَّما يُكذِّبونَك بألسنتِهم[٣].

وفي تفسير مالك بن سليمان: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ يعني: المؤمنين، ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وهو نظيرُ قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقيل: أي: فإنَّ الكفَّار لا يُكذِّبونكَ بحُجَّةٍ، فلا تَعتدَّ بتكذيبِهم؛ فإنَّه لا حقيقةَ له، وهو كنَفي الرَّمي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقيل: أي: لا يُكذِّبونك في ردِّ الوحي، وإنَّما يُكذِّبونَني؛ لأنَّك تُخبِرُ به عنِّي.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قد نَعلمُ ما قالوا فيك، وإنَّما قالوا ذلك بسببِنا ولأجلِنا، وقد كنتَ عظيمَ الجاهِ فيهم قبل أن أوقعنا عليك هذا الرَّقم، وكانوا

---

(١) نص العبارة في «تفسير مقاتل»: «فإذا خلا مع أهل ثقته».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٨).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٢) (٧٢٣٦) عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يُسمُّونك محمَّداً الأمين، وإنَّما أصابَك ما أصابكَ لأجلِ حديثِنا؛ أي: لإرسالنا[١]، فغيرُ ضائعٍ لك هذا عندنا، وحالُك فينا كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنعَ قِصَّةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْباً[٢]

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال الكلبيُّ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كذَّبهم قومُهم كما كذَّبتك قريشٌ، ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ في أبدانِهم، ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾؛ أي: عدتنا بهلاكهم[٣]، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾، أي: لا مغيِّرَ ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المواعيد في القرآنِ أنَّه سينصرُك والذين آمنوا معك، كما نصرَ الأنبياءَ قبلَك، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مِن خبرِهم في القرآن كيف أنجيناهُم، ودمَّرنا قومَهم[٤].

وكان النبي ﷺ منهم إذا أتى قوماً فكذَّبوهُ وأُهلكوا ونجا هو؛ أتى مكَّةَ، فتَعبَّد فيها حتَّى يأتيَهُ الموتُ.

وقال عكرمة: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

---

(١) قوله: «أي لإرسالنا» من (ر).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٩).

(٣) في (أ): «لهلاكهم».

(٤) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٨٢)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٤٥).

﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية [الصافات: ١٧١]، **وقولُه تعالى:** ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١][1]، وقولُه: ﴿مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو للتبعيض.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يقول: لستَ بأوَّلِ مُكذَّبٍ مِن الرُّسُل، بل كُذِّبَ إخوانُك قبلَك فصبروا، ولم يتركوا تبليغَ الرِّسالة، فعلى ذلك لا عذرَ لك في تركِ تبليغِها، ثمَّ وعدُهُم بالنَّصر يَحتمِل وجوهاً؛ فيحتمل نَصرَهُم بالحُجَج والبراهين، ويحتمل بالغلبة والقهر، ويحتمل بإهلاك الأعداء[2].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: يقول: إنَّ مَن سلكَ سبيلَنا؛ صبرَ[3] على ما أصابَه في حديثنا، فلا خَسِرَت فينا صفقتُهم، ولا خفيَت علينا حالتُهم، وما قابلَ حكمَنا مَنْ عرفَنا إلَّا بالـمُهَج، وما حملوا ما لقُوا فيه إلَّا على الحدق.

إن الأُلَى ماتُوا على دينِ الهَوى ... وَجَدوا المنيَّة منهلاً معسولاً[4]

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾؛ أي: ثَقُلَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٧١ ـ ٧٢).

(٣) في (ف): «صبرناه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦٩)، والبيت نسبه الوشاء في «الموشى» (ص: ٧١) لعمرو بن قنان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سَرَباً[١]، وقال القتيبي: مدخلاً[٢]، وقال أبو عوسجة[٣]: غاراً[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال قتادة: درجاً، وقال السُّدِّيُّ: مصعداً[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: ممَّا يَقترحون ذلك فافعل، وهذا مضمَرٌ، يقول: قد ذكرنا أنَّ سائرَ الرسل صبروا، فاصبرْ لتُنصَرَ كما نُصِروا، فإنْ تَعذَّر عليك ذلك، واستعجَلتَ النَّصْرَ، فإن قَدرت على أنْ تأتيَ بذلك مِن الأرضِ أو مِن السَّماء، فافعل، وهذا بيانُ أنَّه ليس بيدِه ذلك، فلا معنى لاستعجالِه وقِلَّةِ صبرِه.

ويُقال هذا الكلامُ لمَن يُنبَّهُ للصَّبر، وأنَّه لا يَنفعُه الاضطراب، وكان النَّبيُّ ﷺ موصوفاً بالصَّبر، والأمرُ به في حقِّه كالأمرِ بالتَّقوى، والنَّهيِ عن الشِّرك[٦]، وسائرُ مخاطباتِه بالأوامرِ والنَّواهي لحكمٍ قد بيَّنَّاها مرَّاتٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: جعلَهم جميعاً بحيث يختارون الهُدى[٧]، ولكن لـمَّا علمَ أنَّهم يَختارون الكفرَ على الهُدى، لم يشأ أنْ يَجمعهُم على ذلك، ولا يجوزُ أنْ يُحملَ على مشيئة الجبرِ والقهر؛ لأنَّ ذلك لا يكونُ هدًى[٨].

---

(١) قاله ابن عباس، أخرجه عنه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) تنظر: «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٥٣).

(٣) بعدها في (أ): «أو».

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٧٤).

(٥) قولا قتادة والسدي أخرجهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٦) في (ف): «المنكر».

(٧) بعدها في (ر): «أي».

(٨) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٧٤ ـ ٧٥).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنَّ اللهَ لو شاء لجمعَهم على الهُدى.

وقيل: ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنَّ بعضَهم يُؤمِنُ دون بعض.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ يحرِصُ على أنْ يؤمِنَ جميعُ النَّاس ويتابعوه على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

وهذا وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يجوزُ خطابُه ﷺ به؛ لِما عُرِفَ أنَّه وإنْ كان معصوماً، ولكنَّ العِصمةَ لا تُزيلُ المِحْنةَ على ما عُرِف.

***

(٣٦) ـ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ القولَ[2]، يقول: إنَّما يَستجيبُ دعاءَك الذين يَسمعون دعاءَك للقَبول والانقياد، فأمَّا مَن ألِفَ الشِّركَ وتمادى في الطُّغيان، فلا.

وقيل: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يَنتفعون بالسَّماع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ قال مقاتل: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: كفَّار مكَّة، يَبعثُهم اللهُ في الآخرةِ، ثمَّ إليه يُردُّون، فيَجزيهم بأعمالِهم[3].

وقيل: هو[4]: ابتداءٌ، وهو على حقيقة الموت.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥) (٧٢٥٠).

(٢) لفظ: «القول» من (ف).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٩).

(٤) «هو»: من (أ) و(ف).

(٣٧) ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وقال هؤلاء الكفَّارُ: هلَّا نُزِّلَ عليه آيةٌ يقترحُها، كآيات الأنبياءِ الماضين، مثل: فلق البحرِ لموسى، والناقةِ لصالح؛ مِنْ تَسيير الجبال، وتصيير الصَّفا ذهباً، وتفجيرِ الينابيع، وإسقاطِ السَّماءِ كِسَفاً، والرُّقيِّ في السَّماء وإنزالِ الكتاب[1]، ونحو ذلك، قل[2] يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ﴾ الآيةَ التي اقترحوها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال مقاتل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما لهم في نزولِها[3].

وقال القفال رحمه الله: أي: لا علمَ لهم بوجهِ تخصيص كلِّ نبيٍّ بمعجزةٍ، وإنَّ موسى خرجَ في زمن السَّحرةِ، فأتى بمعجزةٍ مِن جنسِ ذلك، وعرفوا أنَّ ما أتى به ليس ممَّا يَدخلُ في وِسْع البشر، وعيسى خرجَ في زمنِ الأطبَّاء، فأتى بمعجزةٍ مِن جنس ذلك، وعرَفوا أنَّه لا يدخل[4] في وِسْعهم ذلك، فلَزِمتهُم به الحُجَّةُ، ومحمَّدٌ ﷺ خرجَ في زمنِ البُلغاء والفُصحاء، فأتى بالقرآنِ، وعَجَزوا عن معارضتِه، ولزِمَتهمُ الحُجَّةُ، ولو أتى بما كان مِن جنسِ معجزاتِ سائرِ[5] الأنبياء، لكان لأهلِ عصرِهِ أنْ يَقولوا: ليس هذا من جنسِ عملنا، فلا نَقدر على معارضتِك، ولغيرِنا أنْ يُعارِضَكَ بمثلِه.

---

(١) في (ف): «الكتب».

(٢) في (ف): «وقال».

(٣) نص قول مقاتل في «تفسيره» (١/ ٥٥٩): لا يعلمون بأن الله قادر على أن ينزلها.

(٤) في (ر): «أن ما أتى به ليس» بدل: «أنه لا يدخل».

(٥) في (ر): «بجنس ما كان من المعجزات لسائر» بدل: «ما كان من جنس معجزات سائر».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه إذا أُنزِلت الآيةُ الاقتراحيَّةُ ولم يُؤمنوا، استؤصلوا، ومحمَّدٌ ﷺ نبيُّ الرَّحمةِ، فلا استِئصالَ في زمانِه.

ويَحتمل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُنزِلُ الآية إلَّا عند الحاجةِ بهم إليها، ولا حاجة إليها، فقد نَزلَت الآياتُ العقليَّةُ والسَّمعيَّةُ والحِسِّيَّةُ؛ أي: القرآنُ، والإخبارُ عن الكائنات، وتكثيرُ الطَّعامِ والشَّراب.

وقيل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يَطلبون ذلك للعلمِ، بل للتَّعنُّتِ[1].

* * *

(٣٨) - ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: حيوانٍ يَدِبُّ على وجه الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ هو للتَّأكيد والتَّحقيق، فإنَّ الطَّيران قد يُستعمَلُ للسُّرعةِ مجازاً، فذِكرُ الجناحين لإثباتِ حقيقةِ الفعل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: أصنافٌ، وقد ذكرنا وجوهَ الأُمَّة عند قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿أَمْثَالُكُم﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال أبو هريرة رضي الله عنه: أي: سيحشرون[2] يومَ القيامة كما تُحشرون أنتم[3]، ثمَّ يُقتص

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٧٨).

(٢) في (أ) و(ر): «ستحشر»، والمثبت موافق للمصدر.

(٣) «أنتم»: ليس من (أ).

للبهائمِ بعضِها مِن بعضٍ، ثمَّ يُقال لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠](١).

قال: وقيل: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾؛ أي: يفقهُ بعضُها مِن بعض كما يَفقهُ بعضُكم مِن بعض.

قال: وقيل: ﴿أَمۡثَالُكُم﴾ في معرفةِ ما يُؤتى وما يُتَّقى.

ويَحتمل: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في الكثرةِ والعددِ والخَلْقِ والصُّنوفِ، تُعرَفُ بالأسامي كما تعرفون أنتم، وهذا قولُ مجاهدٍ رحمه الله(٢).

وقيل: ﴿أَمۡثَالُكُم﴾(٣)؛ أي: مسخَّرةً لكم، وليس يكون مِنهم ما يكونُ مِنكم؛ مِن العنادِ، وتكذيبِ الرُّسلِ، والخروجِ عليهم.

قال: ويحتمل ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في معرفةِ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وألوهيَّته، وفي حقِّ الطَّاعة له، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤](٤)، وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ وعطاء(٥).

وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما:

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٦)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٦) (٧٢٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٣١). وروى مسلم في «صحيحه» (٢٥٨٢) نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً، ونصه: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٣)، وابن أبي وحاتم (٤/ ١٢٨٥) (٧٢٥٦).

(٣) بعدها في (ف): «أي في الوجود».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٥) ذكر الواحدي في «البسيط» (٨/ ١١٢) نحوه من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

مـا تركنـا مقَصِّرين ذكرَ شـيءٍ مِنهـم في اللَّـوح المحفوظ مـن أعدادِهـم وأرزاقِهم وآجالِهم(١).

وقيـل: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: القـرآن، وعلـى هـذا التَّأويـل قولُـه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ هـو معتـرِضٌ هاهنـا، وموضعُـه بعـد تمـام آيتيـن إلـى قولـه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢)؛ يعنـي: كلُّ ما خلقَ في الأرضِ مِـن ذي روحٍ يَدِبُّ على وجهِ الأرض، ويطيـر فـي الهواء، فهي أصنـافٌ مزدوجةٌ ومختلفةٌ، وكلٌّ مِنها مُسَـخَّرٌ لـمَا خُلِقَ له، يَجـري عليـه مِن غير امتنـاع، وبنو آدمَ مخلوقـون لعبـادةِ اللهِ وتوحيدِه، وميَسَّـرون(٣) لـه، ومُقَـرُّونَ عليـه، ثـمَّ أكثرُهـم لا يَجـرون علـى مـا خُلِقـوا لـه، بـل يَتخبَّطـون في الظُّلمـات، وهم الكفَّار، فهـم صُمٌّ وبكـمٌ، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾؛ أي: مـا تركنـا ذكـرَ شـيءٍ فـي القـرآن بالخَلـقِ حاجـةٌ إليه، مجمَـلاً(٤) أو مفصَّلاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قيل: أي: يُبعثون للحسابِ والجزاء، وهم بنو آدم، ولذلك جمع بالواو والنُّون.

وقيل: الحشرُ لكلِّ الأمم، لكن رويَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: حشرُ الحيوانات موتُها(٥).

وقال عامَّةُ الصَّحابةِ والتَّابعين؛ منهم أبو ذرٍّ وأبو هريرة والحسن: حشرُها:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٦) (٧٢٥٩).

(٢) «إلى قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾» من (ر).

(٣) في (ف): «ومبشرون».

(٤) بعدها في (ر): «أو جاحداً منكم». وهي مقحمة.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٦) (٧٢٦١).

بعثُها يومَ القيامةِ للقِصاصِ بين الجمَّاء والقرناءِ ونحو ذلك، ثمَّ تصيرُ تراباً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥][1].

والدَّليلُ على أنَّ الحشرَ هو البعثُ دون الموت قولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾[2] ونظائرها، كقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[3] [الصافات: ٢٢].

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بالقرآنِ، وبمحمَّدٍ، وبالبعثِ بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾؛ أي: يَتصامُّون عن سماعِ الحقِّ، ويَتباكمون عن القولِ بالحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: هم في ظلماتِ الكفر.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: من عَلِمَ منه اختيارَ الضَّلالِ، شاء ضلالَهُ، وخلقَهُ فيه، ومَن عَلِمَ منه اختيارَ الاهتداء، شاءَ اهتداءَه، وخلقَه فيه.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٧)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٦) عن أبي ذر مرفوعاً، وقول أبي هريرة سلف قريباً.

(٢) في النسخ: «للملائكة» بدل: «للذين أشركوا»، والمثبت هو الصواب.

(٣) قوله: «كقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾» من (ر).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَمَامِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تساوَت المخلوقاتُ، وتَماثلتِ المصنوعاتُ في الحاجةِ إلى المنشِئ في حالة الابتداء، وكذا في حالةِ البقاء، وكذا في جميعِ الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ، والنُّعوتِ الذاتيَّة، فما مِن شيءٍ، مِن عينٍ وأثرٍ، ورَسْمٍ وطَلَلٍ، إلَّا وهو على وحدانيَّتِه شاهدٌ، وعلى كونه في نفسهِ مخلوقاً دليلٌ ظاهر، والذين فاتَتهمُ العنايةُ الأزليَّةُ، سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم وغَشَّى الخذلانُ أبصارَهم، والإرادةُ لا تُعارَضُ، والمشيئةُ[1] لا تُزاحَم، والحقُّ سبحانه غالِبٌ[2].

* * *

(٤٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذه كلمة استفهام، وعند البصريِّين يجري التَّوحيدُ والجَمع والتَّذكيرُ والتَّأنيثُ والتثنية على الكاف وما بعدها، والتاءُ على حالةٍ واحدةٍ، مفردةً مفتوحةً[3]: أرأيتَكَ، أرأيتكُما، أرأيتكُم، أرأيتَكِ بفتح التَاءِ وكسر الكاف، أرأيتكن.

وعند الكوفيين: يَجري في التَّاء أيضاً، فيقال: أرأيتُك، وأرأيتُماكما[4]، وأرأيتُموكم، وأرأيتُكِ بكسرها، وأرأيتُنَّكُنَّ بنونين مشدَّدتين.

وعلى الطَّريقة الثَّانية: التَّاءُ رفع؛ لأَنَّه فاعل، والكاف نصب؛ لأَنَّه مفعولٌ به، وعلى الطَّريقة الأولى: الكافُ كالتَّاء رفع على أَنَّه فاعل.

---

(١) بعدها في (ف): «لا تنازع و»، والمثبت موافق للمصدر.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٣) بعدها في (ر): «نحو».

(٤) في (ر): «وأرأيتماكم». وفي (ف): «وأرأيتكما».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: قل يا محمَّدُ لهؤلاءِ المشركين الذين يَعدِلون بربِّهم: أخبروني عنكم، وعمَّا تَرون عليه أنفسَكم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ ـ قيل: هو ما أتاهم[1] يوم بدرٍ وأُحُدٍ والأحزاب ـ أو أتتكم القيامةُ بأهوالِها، أإلى غيرِ الله تلتَجئون من الأصنام التي تعبدون؟ أم إلى الله؛ تُقِرُّون أنَّه خالقُكم ورازِقُكم؟

***

(٤١) ـ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: بل اللهَ تَدعون، فيَكشِفُ اللهُ عنكم البلاءَ الذي تَدعونَ اللهَ إليه، وهي كلمة غاية؛ أي: إلى أن يَتِمَّ الفرج.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾؛ أي: إنَّما يَكشِفُ بمشيئتِه لا بطَلَبِكم؛ إذ لا إكراهَ عليه، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وتتركونَ ما كنتُم تشركونَه بالله؛ أي: فما معنى عبادتِكم الأصنامَ بعد هذا، وهي لا تُفرِّجُ عنكم الشَّدائدَ، ولا تَستجيبُ دَعواتِكم بالمقاصد[2].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن تَرددتُم بنفوسِكم، وأطَلتم الفِكرةَ بقلوبِكم، لم تَجدوا منِ دونِه أحداً، ولا عَن حكمِه مُلْتَحداً، فتَعودون إليه في استكشافِ الضُّرِّ، واستعطافِ البرّ، كما قيل:

إلى بابي تَعودُ وإنْ تَناءَتْ ... دياري بعدَ معرفةِ الرجالِ

---

(١) في (أ): «أتاكم».

(٢) في (ف): «بالقيامة».

وكما قيل:

قد تركناكَ والذينَ تُرِيدُ فعَسى أنْ تَملَّهم وتَعودُ

فإذا جرَّبتَ الكُلَّ، وذُقتَ الحلوَ والمُرَّ، أفضى بك الضُّرُّ إلى بابِه، فإذا رجعْتَ بنعتِ الانكسار، وشواهدِ الاضطرار؛ فإنَّه يَفعلُ ما يُريدُ، إنْ شاءَ أباح[1] اليُسر، وأزاحَ العسرَ، وإنْ شاءَ ضاعفَ الضُّرَّ، وأدامَ المرَّ، فله الخَلقُ والأمر[2].

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: أرسلنا إليهم رُسُلاً، فخالفوهم، وصحَّ الحذفُ لوضوح المراد.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قال الحسن رحمه الله: أي: بالفقرِ والمرض[3].

وقيل: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: شدَّة[4] البطشِ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الأوجاع.

وقيل: الجوع والقحط.

فعلنا بهم ذلك ليَتضرَّعوا، وهو لطفٌ في الدُّعاء إليه، و«لعلَّ» كلمةُ ترجٍّ، ومعناه: كان الأنبياءُ صلوات الله عليهم يَترجَّون منهم ذلك.

* * *

(١) في «لطائف الإشارات»: «أتاح».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٨، ١٢٨٩) (٧٢٧٤)، (٧٢٧٩) غير أنه فسر البأساء بالبلاء.

(٤) بعدها في (ف): «المرض و».

(٤٣) ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ أي: فهلَّا تذلَّلوا ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: بلاؤنا وشدَّةُ الأمر منا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: غَلُظَت، فلم تركن[1] للاتِّعاظ بسبب إصرارِهم على سوء اختيارهم.

وقيل: ما جفَّتِ العيونُ إلَّا بقسوةِ القلوب، ولا قسَتِ القلوبُ إلَّا بكثرةِ الذُّنوب.

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: حسَّن إليهم أعمالَهم، فلم يَتوبوا عنها، فقد ذكرَ هاهنا أنَّهم لم يَتضرَّعوا، وقال قبلَه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، وقال في آيات: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] ولا اختلافَ بينهما؛ لأنَّ تضرُّعَهم كان عند إحاطةِ البلاء بهم، كما قال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، وكانوا يضطرُّون إلى مثل هذا التَّضرُّع، فأمَّا عند نزولِ القحط والغلاء، والمرض والبلاء، فكانوا يقولون: هذا أمرٌ معتادٌ بين العباد، قال تعالى: ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، فليس هذا ببلاءٍ نزلَ لأجلِ ذنبٍ، وليس علينا فيه مِنْ عَتَب.

* * *

(٤٤) ـ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: لم يتَّعِظوا بما وعِظوا، ولم يتضرَّعوا وقد امتُحِنوا.

---

(١) في (أ) و(ر): «تكن»، ولعلها محرفة عن: «تلن».

وقولـه تعالـى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: وسَّـعنا عليهـم النِّعـمَ؛ ليَشـكروا، فلم يشـكروا.

وقولـه تعالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾؛ أي: أَشِـروا وبَطِـروا، ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فجـأةً بالعـذابِ المسـتأصِل، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: فحينئذٍ هم آيِسـون مِن كلِّ خير[1].

وقيل: الإبلاس: انقطاعُ الحُجَّة.

وقيل: الحيرةُ عند حلولِ البليَّة.

وقيل: هو الإطراقُ مِن الحزنِ.

وقيل: هو تغيُّرُ اللَّون.

وقيل: هو شِدَّةُ الحسرةِ.

وقيل: هو الاستسلامُ للهلاك.

* * *

(٤٥) ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أُهلِكوا جميعاً؛ لأنَّ دابراً مِن قولهم: دَبَره يَدْبُرُه؛ أي: أتى بعده، فإذا قُطِعَ الجائي بعدَهم، فقد أُهلِكوا[2] كلُّهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: حَمِدَ نفسَه بنفسه؛ إذ نصرَ أولياءَهُ، وقهرَ أعداءَه.

---

(١) في (ف): «الخير» بدل: «كل خير».

(٢) في (أ): «هلكوا».

وقيل: بل أمرَ محمَّداً ﷺ بأنْ يَحمَدَ الله على ذلك.

وقال الحسن: إذا سمعتَ بموتِ ظالمٍ فاحمَدِ اللهَ بهذه الآية.

وقيل: أي: اللهُ محمودٌ على كلِّ حالٍ بما كرَّر مِن المواعظِ والأذكار، ولم يُنزِل بهم البوارَ إلَّا بعد الإعذار والإنذار.

* * *

(٤٦) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ذكرَ إهلاكَ الماضين، وأوعد الحاليِّين[١]، فقال: أعلمتُم، وهو تقرير[٢] حجاجٍ، فيه معنى الإنكار؛ إنْ أصمَّكمُ اللهُ، وأعماكم، وشدَّ قلوبَكم، فلم يصل إليها فهمٌ.

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: فلا إلهَ سوى اللهِ يأتي بالمأخوذ، وإنما وحَّد ﴿بِهِ﴾[٣] لهذا، والفعلُ يَدلُّ على المفعول، وهو كقولك: مَن كذبَ كان شرًّا له؛ أي: فإذا لم تكن آلهتُكم تَقدِرُ على ذلك، والقدرةُ على[٤] الكمالِ لله ذي الجلال، فما العذرُ في الإشراكِ والضَّلال؟!

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: انظر يا محمَّدُ،

---

(١) في (أ): «الخاليين»، وفي (ر): «الحالتين».

(٢) في (ف): «تقديره».

(٣) في (أ): «وحده» بدل: «وحد به».

(٤) بعدها في (ف): «ذلك و».

كيف نُبيِّنُ[١] ونكرِّرُ لهم الشواهدَ على بُطلان الشِّرك وعلى حَقِّيَّة[٢] الإسلام، ثمَّ هم يُعرِضون عنها؛ أي: عن تدبُّرها وقَبولها، و﴿ثُمَّ﴾ كلمةُ تعجيب.

* * *

(٤٧) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وقوله[٣] تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ قال الحسن: ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: ليلاً ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: نهاراً[٤]؛ أي: قل يا محمَّد: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ فجأةً مِن حيث لا تَعلمون، أو علانيةً مِن حيث تَعلمون، فلا يُمكنكُم أنْ تَردُّوه عن أنفسِكم، فهلكتُم به، هل يكون ما نزلَ بكم مِن ذلك إلا هلاكاً نزلَ بقومٍ ظلَموا أنفسَهُم بكفرِهم بربِّهم.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ قال الكلبيُّ: أي: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنينَ بالجنَّة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنَّار، ليس إليهم إلَّا هذا، وليس بأيديهم إنزالُ الآياتِ التي تقترحونها.

---

(١) بعدها في (ف): «لهم».

(٢) في (ر) و(ف): «حقيقة».

(٣) في (ف): «وهو قوله».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ١٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ١٤٥) عن الحسن وابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعمالَهُ، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدخولِ النَّار، ولا حزنٌ بفوتِ الجنَّة، وهذا من تبشيرِهم.

***

(٤٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يُصيبُهم فلا يُفارِقُهم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: يَخرجون مِن طاعة الله بالكفرِ، وهذا مِن إنذارِهم.

***

(٥٠) ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ولـمَّا اقترحَ المشركون ـ لعنهم الله ـ على رسول الله ﷺ مِن الآياتِ ما ليس في مقدور البشر، أمرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ يُخبرَ الكفَّارَ عن نفسِه بهذه الجملة، فقال قل لهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ـ جمع خِزانة وخَزينة، وهي ما يَخزِنُ؛ أي: يحرِزُ بحيث لا تناله الأيدي ويَحفظُ ـ فأملكَ إنزالَ ما تقترحونَه مِن الآيات، أو آتيكم بكنوزِ الأموالِ، وأفجِّرَ لكم الأنهارَ في الجنان، كما قلتم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [الفرقان: ٧]، ولا أقولُ لكم: إنِّي أعلمُ الغيبَ، فأخبرَكُم بكلِّ ما تَسألون عنه ما لم

يُعلِّمنيهِ اللهُ عزَّ وجلَّ، أو أعلمَ الأمرَ الذي إذا جئتُكم به آمنتُم، وأعلمَ عواقبَ الأمور.

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أقوى على ما لم يقوَ عليه البشرُ فأقهرَكم على ما أُريدُ[1] منكم بقوَّتي، وإنَّما أنا عبدٌ مربوبٌ، بشرٌ مثلُكم، أتَّبِعُ ما يُوحي إليَّ ربِّي، فأبلِّغُكم.

وقيل: أي لا أنزِلُ نفسي فوقَ ما أنزَلنيهِ اللهُ تعالى، فلا أقولُ عندي خزائنُ الله، ولا أعلمُ الغيبَ، ولا لي قوَّةُ الملَك، بل أنا رسولُ مَن له الخزائنُ، وله عِلْمُ الغيبِ، وله الملائكةُ وسائرُ الخَلْق.

وقيل: معنى هذه الثلاثة يَرجِعُ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو التَّبرِّي عن العِلم بالوقت الذي يَأتيهم فيه العذابُ الذي أنذروا به، بقوله: (ليست عندي خزائن الله)؛ أي: ما خزنَهُ اللهُ مِن العذابِ[2] في الغيب؛ أي: لم[3] يُطلِعني اللهُ على ما خزنَه مِن هذا، ولستُ أعلمُ الغيبَ بنفسِي، فأخبرَكُم به، ولستُ ملكاً فأشاهدَ ما تشاهِدُ الملائكة إذا نزلَ العذابُ مِن السَّماء، ما أتَّبع في[4] العلمِ إلَّا ما يَأتيني به الوحيُ، ولم يأتني الوحيُ بوقتِ عذابكم، وهذا كلُّه جوابُ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتملُ أن يكونَ معناه: لا أقولُ شيئاً مِن هذا، ولو قلت: عندي خزائن الله، وأنا أعلمُ الغيبَ، ولي قوَّةُ الملَك، كان ذلك أشدَّ

---

(١) في (ف): «أريده».

(٢) بعدها في (ر): «الأليم».

(٣) في (أ): «ما»، وفي (ف): «لا».

(٤) في (ف): «من».

لاتِّباعِكم لي وطاعتِكم[١]، لكن أقولُ: أنا بشرٌ مثلُكم يوحى إليَّ، ما أتَّبعُ إلَّا الوحيَ؛ لتَعلموا أنِّي صادقٌ في قولي، مُحِقٌّ في دعواي[٢].

وتعلَّقت المعتزلةُ بظاهرِه في تفضيلِ الملَك على البشر، وليس لهم به متعلَّقٌ لما قلنا: إنَّه أرادَ[٣] قوَّةَ الملَك في البطش، أو اختصاصَهُ بمشاهدةِ ما في السَّماء، دون الفضلِ والقَدْر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: فأبصروا رشدَكم بقبول إنذاري؛ فإنَّه لا يَستوي الأعمى عنِ الرُّشد والبصيرُ بالرُّشد، أفلا تتأمَّلونَ بقلوبِكم ما فيه رُشدُكم؟

قال قتادة: ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾: الكافرُ والمؤمن[٤].

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: الضَّالُّ والمهتدي[٥].

وقال مقاتل: أفلا تتفكرون أنهما لا يستويان[٦].

وقيل: هذا استفهامٌ بمعنى الأمر؛ أي: فتفكروا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أي: لا أتخطَّى خطِّي، ولا أتعدَّى حدِّي، ولا أثبتُ شيئاً مِن ذات نفسي، وما أتَّبع إلَّا أمرَ ربِّي[٧].

---

(١) بعدها في (ر): «منا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٨٩).

(٣) بعدها في (ر): «به».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٦) (٧٣٢٣)، (٧٣٢٥).

(٥) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٨/ ١٥٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٦) (٧٣٢٢)، (٧٣٢٤) عن مجاهد.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٦٢).

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧٤).

(٥١) ـ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خَوِّف بالقرآن، فقد سبق ذكره: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ وهم المؤمنون؛ أي: إنَّ الكفَّار المقترَحين ليسوا بقابِلين إنذارَك، فاصرفِ الآن إدامةَ الإنذارِ إلى المؤمنين الذين يخافون البعثَ والحسابَ والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: لا ناصرَ لهم غيرُ الله، ولا شافعَ يستوهِبُ ذنوبَهم؛ أي: الشفعاءُ إنَّما يَشفعونَ بإذن الله، فهو مِن الله تعالى في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ليَتَّقوا في المستأنَفِ، ويَثبتُوا على الإيمان.

وقال مقاتل: هم الموالي وفقراءُ العرب، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾: قريبٌ ينفعُهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ في الآخرةِ يَشفعُ لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي[1]. وهم جماعةٌ مسمَّون، يذكرون في الآية التي تليها قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾.

وقيل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الكلَّ، وإنَّما ينتفع به ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: للكفَّار، وكانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

* * *

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٦٢).

(٥٢) ـ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ قال مقاتل: نزلت الآيةُ في الموالي؛ عمَّار، وبلال، وصُهَيب، وخبَّاب، وسالم، ومِهْجَع، وسعدِ بن مالك، وسلمان الفارسي، وعامر، وابن مسعود، ونحوهم، وذلك أنَّ أبا جهلٍ وأصحابَهُ ـ لعنهم الله ـ قالوا: انظروا إلى هؤلاءِ الذين اتَّبعوا محمَّداً مِن موالِينا وخدمِنا، رذالة النَّاس، وأوباش كلِّ حي، فذكروا ذلك لأبي طالب، فقال أبو طالبٍ لرسول الله ﷺ[1]: لو طردتَ هؤلاءِ عنك، لعل سراةَ قومِك يتَّبِعونك، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية[2].

وقال السُّدِّيُّ: جاء الأقرعُ بنُ حابس، وعيينةُ بنُ حصن، فوجدا رسولَ الله ﷺ مع بلالٍ وصُهيبٍ وخبَّابٍ وناسٍ مِن ضُعفاءِ المسلمين، فحَقَروهم، فخلَوا به، فقالوا: نُحِبُّ أنْ تجعلَ لنا منك مجلساً، تَعرِفُ به العربُ فضلَنا؛ فإنَّ وفودَ العرب تأتيكَ، فنَستحي أنْ ترانا مع هؤلاء الأَعبُد، فإذا نحنُ جئناكَ، فاطردهُم عنك، فإذا نحن فَرَغْنا، فاقعد معهم، قال: «نعم»، قالوا: فاكتب لنا بذلك كتاباً، فدعا عليًّا ليكتُبَ ونحن قعودٌ في ناحيةٍ، فنزلَ جبريلُ عليه السَّلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ الآية، ثمَّ ذكرَ الأقرعَ وعيينةَ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية[3].

---

(١) بعدها في (ر): «ذلك وقال».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣).

(٣) رواه ابن ماجه في «سننه» (٤١٢٧)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٧) (٧٣٣١) من طريق السدي عن أبي سعد الأزدي عن أبي الكَنود عن خباب رضي الله عنه. وضعف إسناده محقق «سنن ابن ماجه».

وقال جُبير بنُ نفير: إنَّ قريشاً أتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إن كُنت أُرسِلتَ إلينا، فاطرُد هؤلاء السُّقَّاط عنك، فنكونَ مِن أصحابِك، فركن إليهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية، وأنزل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ الآية(١).

وقال الكلبيُّ: قال لهم رسول الله ﷺ: «نهاني الله عن طرد هؤلاء»، فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فقال: «لا أفعل»، قالوا: فاجعل المجلسَ واحداً، وأَقْبِل علينا، ووَلِّ ظهرَكَ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إلى قوله: ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨](٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذهب عامَّةُ أهلِ التَّأويل إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ همَّ بطرد هؤلاء، فعاتَبهُ اللهُ في ذلك، ولكنَّه بعيدٌ سمِجٌ؛ يَنسِبون النَّبيَّ ﷺ إلى أقبحِ فعلٍ وأوحشِه، ولا يَحتمِلُ أن يكون النَّبيُّ ﷺ يُقرِّبُ الأعداءَ، ويُبعِدُ الأولياء، ولو فعلَ ذلك لوجدَ الكفرةُ عليه مطعناً، يقولون: يَدعو النَّاسَ إلى الإيمانِ به والتَّوحيدِ والاتِّباع له، فإذا فعلوا ذلك وأجابوهُ، طردَهُم، وأبعدَهم(٣)، هذا لعَمري مدفوعٌ في عقلِ كلِّ عاقلٍ، ولكن يَجوزُ أن يكونَ طلبَ ذلك منه أولئك، فأمَّا أنْ يَهُمَّ هو بذلك، فلا يجوزُ، إلَّا أنْ يكونَ هذا مِن الله ابتداءَ تأديبٍ وتعليمٍ له في صُحبة أصحابِه ومعاملتِهم، وإخباراً عن عظيم قدرِهم عنده(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: لا تُبعِد.

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٥٠).

(٢) انظر: المصدر السابق، و«تفسير البغوي» (٣/ ١٤٦).

(٣) في (أ): «أو بعَّدهم».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩١ ـ ٩٢).

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: يَعبدون[١] ربَّهم بالصَّلاة المكتوبة، وكذا قال الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك[٢].

وقال إبراهيم النَّخعيُّ: هو الذكر[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونوا مجتمعِين إلى النَّبيِّ ﷺ في كلِّ غداةٍ وعشيٍّ، فيستمعونَ منه، ثمَّ يتفرَّقون كما هو المعتادُ مِن الاجتماعِ عند الفقهاءِ.

ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ به الليلَ والنَّهارَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢].

وجائزٌ أن يكونوا أصحابَ مكاسِبَ، يَجتمعون عنده بالغداةِ والعشِيِّ، ثمَّ يَتفرَّقون للكسبِ.

وجائزٌ أن يكون المرادُ به صلاةَ الغداةِ والعشيِّ؛ فإنَّه لا يَشهدُهما إلَّا أهلُ الإيمان، فأمَّا أهلُ النِّفاقِ[٤]، فكانوا يَشهدون غيرَهما مِن الصَّلوات[٥].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: يَطلبون بدعائِهم وذِكْرِهم وصلاتِهم وعبادتِهم رضاهُ.

---

(١) في (ف): «يدعون».

(٢) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٤) يشير إلى ما أخرجه البخاري في «صحيحه»، (٦٥٧)، ومسلم في «صحيحه»، (٦٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩٢ ـ ٩٣).

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ أي: إنَّ حقائقَ أمورِ العباد إنَّما تَرجعُ إلى الأعمال التي يُحاسِبهم الله عليها يوم الحشر، لا إلى حسبٍ ورياسة، وضَعةً ودناءةً، بل الجميعُ سواءٌ في حكم الله تعالى، وإنَّما عليك اعتبارُ أحوالِ النَّاسِ في إيمانِهم بك وكفرِهم، وهو كما أخبرَ عن نوحٍ عليه السلام أنَّ قومَه قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٤].

وقيل: أي: أرادَ بالحسابِ الجزاءَ.

وقيل: أرادَ به المؤنة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جوابُ الجحد بالفاء، وهو قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جوابُ النهي بالفاء، وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾؛ أي: إنْ فعلتَ ذلك، كنتَ وضعْتَ التَّقريب والتَّبعيدَ غير موضعهما.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ويجوزُ أنَّ أولئك[1] لم يَكونوا أهلَ الحكمة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن وضعَ الحكمةَ في غيرِ أهلِها فقد ظلمها، ومن مَنعَها مِن أهلِها فقد ظلمهم»[2].

وقد ذكرنا معنى النَّهي عن هذا ونحوه أنَّه تعليمٌ لغيرِه، ويجوزُ أن يكون له وإن كان معصوماً؛ لأنَّ العصمةَ لا تُزيلُ المِحْنَةَ، ولا تَرفعُ النَّهيَ.

---

(١) في (أ): «هؤلاء» وفي (ر): «أن يكون أولئك» بدل: «أن أولئك».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩٣)، ولم يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، بل قال: روي في الخبر، وأورد الديلمي في «الفردوس» (٤٦٣٣) عن ابن عباس قال: قام عيسى بن مريم فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها، ألا أخبركم بشراركم؟ من نزل وحده...

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هذه وصيةٌ للنَّبيِّ ﷺ في بابِ الفقراء والمستَضعفين، وذلك لمَّا قصُر لهم لسانُ المعارضةِ واستدفاعِ ما عرضَ لهم مِن إخلاءِ الرَّسولِ مجلسَه عنهم، سكتوا متصدِّعينَ[١] بقلوبهم بين يدي الله عزَّ وجلَّ، داعين له بحسنِ الابتهال، فتولَّى الحقُّ سبحانَه خصومتَهم، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، لا تَنظر يا محمَّد إلى خرقتهم على ظواهرِهم، وانظر إلى حُرْقَتِهم في سرائرِهم، كانوا مستورين، فشهرَهُم اللهُ في بحبوحةِ الهِداية، بإرسالِ جبريلَ إلى محمَّدٍ بهذه الآية، ولولا أنَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فشهدَ لهم بالإرادة، وإلَّا فمَن كان يَتجاسرُ أنْ يقولَ: إنَّ مخلوقاً يُريدُ الحقَّ سبحانه وتعالى.

وقد تكلَّموا في الإرادة فأكثروا، وتحقيقُها: اهتياجٌ يَحصلُ في القلب، يَسلبُ القرارَ مِن العبدِ حتَّى يَصِلَ إلى الله، فصاحبُ الإرادةِ لا يَهدأُ ليلاً ولا نهاراً، ولا يَجدُ مِن دون وصولِه إليه سكوناً ولا قراراً، والمريدُ حمول، كما قال قائلُهم:

ثمَّ قطعتُ اللَّيلَ في مهْمَهٍ ... لا أسداً أخشى ولا ذيبَا
يَغلِبُني شَوقي فأَطْوي السُّرى ... ولم يَزلْ ذو الشَّوقِ مغلوبا

وقيَّد دعوتَهم بالغداةِ والعشيِّ دون الإرادة؛ لأنَّها مِن الأعمالِ الظَّاهرةِ، وهي مؤقَّتةٌ، وأدامَ إرادَتهم، فاستغرقَت جميعَ أوقاتِهم؛ لأنَّها مِن الأحوالِ الباطنة، وهي مؤبَّدةٌ، أصبحوا لا سؤلَ لهم في دنياهم، ولا مطلوبَ لهم في عُقباهُم، ولا همَّ لهم سوى حديثِ مولاهم[٢].

---

(١) في «لطائف الإشارات»: «متضرعين».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٥٣) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: امتحنَّا وابتلينا بعضَ هؤلاءِ القومِ ببعض[1]، فامتحنَّا الرؤساءَ منْهم بالصَّبرِ على قربِ منازلِ الضُّعفاءِ مِن النَّبيِّ ﷺ، وامتحنَّا الضُّعفاء بالصَّبرِ على الضَّعفِ والفقر، وعلى أذى الرؤساء، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠]، ثمَّ أخبرَ عمَّا انكشفَت عنه هذه الفتنةُ، وهو أنَّ الفقراءَ صبروا، والرؤساءَ اضطربوا، فقالوا: وهو:

قوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ قال قتادة: قال الوليدُ بنُ المغيرة، والأسودُ بنُ عبد المطلب، والأسودُ بن عبدِ يَغوث، والعاص بنُ وائل، والحارثُ بنُ قيس، وعبدُ العُزَّى بنُ عبد المطلب، وعتبةُ، وشيبةُ، والأسودُ بنُ عبد الأسد، والنَّضرُ بنُ الحارث، وأبو جهل بنُ هشام ـ لعنهم الله ـ: أي: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الفقراء والضعفاء ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أنعمَ الله عليهم من بيننا، فأعطاهم الإيمانَ والتوحيد، ولم يُعطِنا؟!

قال الكلبي: كان الشريفُ مِنهم إذا نظرَ إلى الوضيعِ قد آمنَ قبلَهُ، حميَ أنفاً أنْ يُسلِمَ، ويقولُ: هذا سبقَني بالإسلام، فلا يسلم[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بالفهم والحفظ؛ يَفهمُ هؤلاء منه، ولا نَفهمُ نحن، ويَحتمل: ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٧٠) عنة قتادة.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥١).

بَيْنِنَآ﴾ بالتَّقريبِ في المجلسِ، وجعلِهم مَتبوعين مِن بيننا، بعد أنْ كانوا أتباعاً لنا[١].

***

(٥٣) ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المطيعينَ لله، الذين شكروا إنعامي؛ بإرسالِ الرسول، وإنزالِ الكتاب، فهم أولى بإعطاءِ الإسلام ممَّن يَرجعُ إلى حسبٍ رفيعٍ، ومالٍ كثيرٍ، ولا يَنقادُ لأمري، ولا يؤمِنُ بي.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أمَّا الفاضلُ فلْيَشكُر، وأمَّا المفضولُ فلْيَصبر.

ويقال: سبيلُ المفضولِ على لسان أهل[٢] المحبَّةِ الشُّكرُ، ولا يَتقاصر شكرهُ عن شكرِ الفاضل، وقال قائلٌ[٣] في معناه:

أتاني مِنكِ سبُّك لي فسُبِّي ... أليس جرى بفيكِ اسمي فحسبي[٤]

وقال آخر:

وأنَّ فؤاداً رُعْتَهُ لك شاكرٌ ... وأنَّ دماً أجريتَهُ لكَ حامِدُ[٥]

***

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩٥).

(٢) لفظ: «أهل» ليس في (ر) و«لطائف الإشارات».

(٣) في (ر): «قائلهم».

(٤) البيت لأبي نواس، وهو في «ديوانه» (٤/ ١٦).

(٥) «لطائف الإشارات» (١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧)، والبيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (٣/ ٢١٢) (شرح المعري)، وروايته فيه:

وأنَّ دماً أجريتهُ بك فاخرٌ ... وأنَّ فؤاداً رُعْتَهُ لكَ حامدُ

(٥٤) ـ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: وإذا أتاكَ المؤمنون بالقرآنِ وسائرِ الآيات؛ مِن العُربِ والعَجَم، والرُّؤساءِ والأتباع، فابدأهم بتحيَّةِ الإسلام، وكلمةِ السَّلام، وقل: سلامٌ عليكم، وهو الدُّعاءُ بالسَّلامة من الآفاتِ كلِّها، في الدِّينِ والنَّفسِ والمال.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾؛ أي: وعدَكم بالرَّحمةِ وعداً مؤكَّداً.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف(١): ﴿إنَّه﴾ ﴿فإنه﴾، كلاهما بالكسرِ على الاستئناف فيهما، أو على إضمارِ القولِ في الأوَّل.

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر وسهلٌ ويعقوب(٢) بالفتح فيهما؛ ترجمةً عن الرَّحمة؛ أي: كتب ﴿أَنَّهُ﴾ ﴿فَأَنَّهُ﴾.

وقرأ نافعٌ وأبو جعفر(٣): ﴿أَنَّهُۥ﴾ بالنَّصب ﴿فإنَّه﴾ بالكسر(٤)، وأوقع: كتبَ على الأوَّل، واستأنفَ الثَّاني، و«إنَّ» كلمةُ تأكيد، وإنَّما كرَّرَ مبالغةً في التَّأكيد، ولأنَّه حالَ بين الأولى وخبرِها حائلٌ، فأُعيدَت في موضعِها، كما في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

---

(١) قوله: «وخلف» من (ف).

(٢) قوله: «وسهل ويعقوب» من (ف).

(٣) «وأبو جعفر»: من (ف).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص١٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨).

والجهالة: هي جهلُ عاقبةِ الأمر، والتَّوبة: الرُّجوعُ عن الذَّنب، والإصلاحُ: تحقيقُ التَّوبةِ بإصلاح الأعمال، وقيل: هو قضاءُ الفوائتِ وردُّ المظالم.

وقيل في نزول الآية: لـمَّا نزل قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ قال الرؤساء: اجعل لهم يوماً ولنا يوماً، نؤمنْ بك، ونَتَّبِعْك، ونأتيك، وكان النبيُّ ﷺ حريصاً على إسلام المشركين، فشاورَ عمرَ في ذلك، فأشارَ إليه بالإجابة، فواعدَهم أن يأتيَهم يوماً، فتَهيَّئوا ولبسوا وتعطَّروا وتجمَّلوا[1] وزيَّنوا الدَّار، فخرجَ رسولُ الله ﷺ يَقصِدُهم، وقد قام الفقراءُ على الطَّريقِ في ثيابِهم الرَّثَّة، وقد جاء جبريلُ عليه السلام وتَزيَّا بزِيِّهم، وقال: يا محمَّدُ، إلى أين؟ فقال: «إلى ملأ[2] من قريش؛ واعدتُهم رغبةً في إسلامهم»، فوضع يدَهُ على صدرِهِ وصَرَفَه[3]، وقرأ عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية، فانصرفَ، وخَجِلَ عمرُ رضي الله عنه، ودخلَ المسجدَ باكياً، وفارقَ موضعَهُ المعروف؛ حياءً مِن رسولِ الله ﷺ، ونزل في شأن عمرَ وأصحابه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[4].

وقال عكرمةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: الذين يَدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا رآهم بدأَهم بالسَّلام، وقال: «الحمدُ لله الذي جعلَ في أمَّتي مَن أمرَني أن أبدأَهم بالسَّلام»[5].

---

(١) بعدها في (ف): «وتزينوا».

(٢) في (أ): «الملأ».

(٣) في (أ): «ورقه».

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) نحوه عن عكرمة. وهو خبر منكر سبق من المصنف نقل كلام الماتريدي في إنكار أمثاله قريباً.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٥١ ـ ١٥٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢١٤)، وهو مرسل.

وقال أنسٌ رضي الله عنه: أتى رسولَ الله ﷺ رجالٌ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّا أصبنا ذنوباً كثيرةً وعظيمة، فسكتَ عنهم رسولُ الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية(١).

وقيل: نزلَتِ الآيةُ في وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ رضي الله عنه، لـمَّا جاءَ يُسلِّم، كان يستحي مِن الدُّخولِ على رسول الله ﷺ لِـما جنى في حقِّ عمه، فأمرَهُ اللهُ تعالى أن ابتَدِئهُ بالسَّلام؛ تَسكيناً لقلبه.

وقال أهل المعاني(٢): السَّلامُ كلمةُ أمانٍ، فأمرَ النَّبيَّ ﷺ بأن يبدأَ بالسَّلام مَن أتاه للإسلام؛ إثباتاً لأمانِه عند إيمانِه، ولـمَّا قرُبَ خروجُ النَّبيِّ ﷺ مِن الدُّنيا، كان يَهتم لانقطاع سلامِه عن أمَّتِه، فقيل له: إنَّ جبريلَ يَنزلُ كلَّ ليلةِ قدرٍ مع الملائكةِ، فيُسلِّم على كلِّ مسلمٍ، وملكُ الموتِ وأعوانُه إذا نزلوا لقبضِ روحِ المؤمن سلَّموا عليه، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل: ٣٢]، وفي القيامة يَستقبلُ الملائكةُ المؤمنين، فيقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وعند دخول الجنَّة يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، ويقول الله تعالى بلا واسطةٍ: سلامٌ عليكم أحبابي وأوليائي، وذلك قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨].

* * *

(٥٥) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ، وسهلٌ ويعقوب(٣)، وعاصمٌ في رواية حفص بتاءِ التَّأنيث،

(١) ذكره عن أنس رضي الله عنه الثعلبيُّ في «تفسيره» (٩/ ١٥٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٠) (٧٣٤٥) عن ماهان الحنفي، وكذا أورده عنه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢١٤).

(٢) في (ف): «المعنى».

(٣) قوله: «وسهل ويعقوب» من (ف).

و﴿سَبِيلُ﴾ بالرَّفع؛ لأنَّها فاعلةٌ وهي مؤنَّثةٌ سماعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومعناه: ولتَظهرَ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[١]، وعاصمٌ في رواية أبي بكر، وحمَّاد[٢] بياء التذكير، و﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع، وهو مذكَّرٌ أيضاً في لغة بني تميم، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، والتأنيث لغة أهل الحجاز والمدينة[٣] والقرآن نزل بهما.

وقرأ نافعٌ وأبو جعفر[٤] بتاء المخاطبة ﴿سبيلَ المجرمين﴾ بالنَّصب[٥] على أنَّه مفعولٌ، ومعناه: لِتَعلم يا محمَّدُ سبيلَ المجرمين.

يقول: وكذلك نُبيِّنُ الآياتِ ونفتِنُ البعضَ بالبعضِ، ونخاطبُك بمعاملة الرُّؤساءِ والفقراء؛ ليظهرَ أنَّ كفرَ الكافرين؛ لعنادِهم، لا لخفاءِ الحقِّ.

ومعنى الواو في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ إضمارُ فعلٍ قبلَه، ثمَّ العطفُ عليه، وتقديرُه: ليَظهرَ الحقَّ، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وفي آخرِه إضمارٌ أيضاً: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مِن سبيل المؤمنين، وإنَّما حذفَ اختصاراً لوضوحه بدلالة الحال، كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبرد.

وقيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: كما فصَّلنا لكمُ الآياتِ نُفصِّلُها لغيرِكم.

---

(١) قوله: «وخلف» من (ف).

(٢) قوله: «وحماد» من (ف).

(٣) قوله: «والمدينة» من (ف).

(٤) قوله: «وأبو جعفر» من (ف).

(٥) انظر: «السبعة» (ص٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨).

وقيل: كما فصَّلنا لكم الآياتِ في مُحاجَّة المشركين، نُفصِّل لكم الآياتِ في كلِّ ما بكم إليه حاجةٌ مِن أمور الدين.

وقيل في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: فتَجتنبوه، من سبيلِ المؤمنين فتَلزموهُ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ يَحتمِل: نُبيِّنُ الآياتِ مع ما يَعرِفُ السَّامِعون أنَّها آياتٌ مِن عند الله غيرُ مخترعةٍ مِن عند الخلق.

ويَحتملُ: نُبيِّنُ مِن الآياتِ ما يَفصِلُ بين المجرمين وبين المهتَدين، فيَتبيَّنُ سبيلُ هؤلاء مِن هؤلاء(١).

* * *

(٥٦) ـ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال بعض المشركين لرسول الله ﷺ: استلم بعضَ آلهتِنا حتَّى نؤمِنَ بإلهك، فقال الله تعالى له: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأصنامَ، والملائكة، والشَّياطينَ والجِنَّ.

و﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تَدعونه إلهاً، وقيل: أي: تعبدون، وقيل: أي تَدعونهُ في مُهمَّاتِ أمورِكم للإجابة.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾؛ أي: في هذا، وفي طرد الذين يَدعون ربَّهم، وفي كلِّ شيء.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩٦).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: لو فعلتُ ذلك لكنتُ ضَلَلتُ طريقَ الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: إلى طريقِ الحقِّ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي: صرِّح بالاعترافِ بجميل[1] ما خصصناكَ به؛ مِن وجوهِ العِصْمَة، وأنواعِ النِّعمة، وأخبِرهم أنَّك في كَنَفِ الإيواء تَتقلَّب، وفي قبضة الصَّونِ تتصرَّف، فلا للهوى عليك سلطانٌ، ولا لك عن محلِّ التَّحقيقِ تباعدٌ، ولا عن الحضورِ غيبةٌ[2].

***

(٥٧) ـ ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: على بيانٍ فاصلٍ بين الحقِّ والباطل، وهو النُّبوَّةُ ونزولُ الوحي.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنِّي[3] على حجَّة، تخبِر أنَّ ما يعبدُ هؤلاء، يعبدون اتِّباعاً لهوى أنفُسِهم، وهو يَعبدُ الله اتِّباعاً للحُجَّةِ والعقل، وما[4] يُتَّبع بالهوى يَجوزُ أن يتركه صاحبُه، ويتَّبعَ غيرَه لما تهوى نفسُه هذا بعد الأوَّل، فأمَّا ما يُتَّبعُ بالحجَّة والعقلِ والسَّمع، [فإنَّه] لا يَجوز أن يَتركَ اتِّباعَه،

---

(١) في (ر): «بجميع».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧٨).

(٣) في (ر): «أي».

(٤) في (ف): «بخلاف ما» بدل: «وما».

ويتَّبِعَ غيرَه، وفيه تسفيهُهم على التَّعريض، ولهذا قال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى﴾ قال الزَّجَّاج: البيانُ والبَيِّنةُ واحدٌ، فلذلك ذكَّرَ[٢]، وهو كقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨]؛ لأنَّه[٣] بمعنى الإنعام.

وقيل: أي: كذَّبتُم بمدلولِ البيِّنةِ.

وقيل: أي: كذَّبتُم بربِّي، لأنَّه قد سبقَ ذِكرُه.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: مِن العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: ما القضاءُ إلَّا لله في إنزالِه وتأخيرِه وفي كلِّ شيء.

وقوله تعالى: ﴿**يقض**[٤] **الحق**﴾ أي: يُتِمُّ الحقَّ، وقيل: يَحكُم بالحقِّ.

ومعنى قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مع أنَّ القُضاةَ لهم أحكامٌ نافذةٌ: أنَّ الحكمَ الذي يَفصِلُ الحقَّ[٥] مِن الباطل على الحقيقة هو للهِ عزَّ وجلَّ وحده.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو جعفر[٦] وعاصمٌ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بالصَّاد[٧]، من: قَصَّ يَقُصُّ؛ أي: يُخبِرُ بالحقِّ، ولا خُلْفَ في وعدِه ووعيده[٨].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٩٧)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٥٦).

(٣) في (ف): «الآية» بدل: «لأنه».

(٤) كذا في النسخ، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي، وستأتي قراءة الباقين قريباً.

(٥) في (ر): «الحقيقة».

(٦) قوله: «وأبو جعفر» من (ف).

(٧) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨).

(٨) قوله: «ووعيده» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾؛ أي: القاضين بين عبادِه؛ لأنَّه لا يَخفى عليه الحقُّ والصَّواب.

* * *

(٥٨) ـ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾؛ أي: مِن العذاب، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لأتمَّ الأمرَ بيني وبينكم بتعجيلي ذلك لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهو يُنزِلُ عليكم العذابَ للوقتِ الذي يَعلمُه أردعَ وأمنع.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية والتي قبلها في: النَّضرِ بن الحارث ورؤساءِ قريش، كانوا يقولون: ائتنا بالعذابِ الذي تَعِدُنا، وقام النَّضرُ بنُ الحارث في حَطيمِ الكعبة، فقال: اللهمَّ إنْ كان ما يقولُ محمَّدٌ حقًّا فأتنا بالعذاب، فوقع ذلك به يومَ بدر[1].

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: نزلَت في النَّضر بن الحارث ثماني آيات: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾

---

(١) أورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥١) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٤) من قول الكلبي.

[الحج: ٤٧]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٨]، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١][(١)].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي قل: إنَّ اللهَ تعالى لم يغادرني في فقر التَّطلُّب والتباسِ التَّحيُّر، وأغناني عن كدِّ الاستدلال، ولوَّحَ لي شموسَ التَّحقيق، ولئن بَقيتُم في ظُلمةِ الالتباس، فليس لي[(٢)] قدرةٌ على إزالةِ ما مُنِّيتُم[(٣)] به مِن التَّحيُّر، ونفيِ ما امتُحِنتُم به من التَّردُّد، ولو أنَّ عندي تعجيلَ ما طلبتم، لأجبتُكم إلى ما سألتُم، لكنَّ المنفردَ بالحكم اللهُ الحميدُ، ولا يُعارَضُ فيما يُريد[(٤)].

***

(٥٩) ـ ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[(٥)] مفاتح: جمعُ مِفْتَح، بكسر الميم، وهو الإقليدُ الذي يَفتح، وفي قوله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ هي جمع

---

(١) لم أقف عليه بهذا السياق، ورواه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠) لكنه ذكر من الآيات قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، وأجمل البقية بأنها كل ما ذكر فيه الأساطير في القرآن، وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠) من طريق ابن إسحاق.

(٢) في (ر) و(ف): «عندي».

(٣) في (أ): «منعتم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).

(٥) بعدها (أ): «هو»، وفي (ر): «لا يعلمها إلا هو».

مَفتَح بفتح الميم، وهي الخزانةُ التي فيها المال، تُفتَح وتُغلق.

ويتَّصِلُ هذا بالآية الأولى: ليس عندي علمُ وقتِ العذاب، وعند الله ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: عند الله الأشياءُ التي يُفتَح بها المنغلِقُ مِن الأمور التي يَغيبُ علمُها عن الخلق.

وقيل: أي: هو العالِمُ بكلِّ شيءٍ مِن مبتدئِه إلى منتهاه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يَعلمُ الأشياءَ على حقائقها جملةً وتفصيلاً ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

وقال عطاء: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: ما غابَ عنكم مِن الثَّواب والعقاب، وما يَصيرُ إليه أمري وأمرُكم(١).

وروى ابنُ عمر رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «مفاتحُ الغيب خمسةٌ لا يَعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والعبادُ يَعلمون أنَّ في البحرِ ماءً وحيتاناً، وفي البرِّ رملاً وحصًى وأشجاراً وأوراقاً وأغصاناً، واللهُ يعلم مقاديرَها، وظواهرَها وبواطنَها، وما أودعَ فيها.

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ما مِن شجرةٍ في برٍّ ولا بحرٍ إلَّا بها ملكٌ موكَّلٌ يَكتبُ ما يَسقطُ من ورقِها(٣).

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٤).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٦٢٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور (٨٨١ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٠٤) (٧٣٦٩).

وقال كعب: وُكِّل بها ملكان؛ يَكتبُ أحدُهما ما يَسقطُ مِنها، ويَكتبُ الآخرُ ما يطلع.

وقال أبو بكر بن عبدش[١]: ما تسقطُ مِن ورقةٍ إلَّا يَعلمُ كم انقلبَت ظهراً لبطن، إلى أن سقطت على الأرض.

وفي التأويلات: قال بعضُ الحكماء: ما مِن ورقةٍ أو نباتٍ إلَّا وتُقدَّرُ بثلاثة أشياء؛ بالهواء، والأرضِ، والماء، فلو اجتمعَ حكماءُ العالم، لم يدركوا أنَّ الورقَ أو النَّبات؛ كم مقداراً يأخذُ مِن الهواء، وما يأخذُ من الأرض، وما يأخذُ من الماء؟ ولم يُدرِكوا المعنى الذي به الحياةُ والتَّربيةُ، واللهُ تعالى يَعلمُ ذلك كلَّه، وكيف لا يَعلم، وبه أخذَ ما أخذ، وبه اجتمعَ وتَضمَّن وتَربَّى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهدٌ: أي: في جوف الأرض.

وقال سعيدُ بنُ جبير: ما مِن حبَّةٍ إلَّا مكتوبٌ عليها: هذا رزقُ فلان[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾؛ أي: إلَّا يعلمُها، وهذا للتَّعميم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللَّوحُ المحفوظ.

---

(١) كذا وقع في أصل خطي لـ «تفسير الثعلبي» كما ذكر محققوه (١٢/ ٩٨) (طبعة دار التفسير) وفي مطبوعه نقلاً عن نسخة خطية أخرى: «عبدوس»، في (ر): «أبو بكر بن عبدس» وتحرف في (ف) إلى: «عبد الله بن عباس»، ويروي الثعلبي الخبر عن شيخه أبي القاسم بن حبيب النيسابوري (ت٤٠٦هـ) عن ابن عبدش هذا، وفي «الأنساب» للسمعاني (٣/ ٣٢٧) «طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤): محمد بن عبدوس بن أحمد بن الجنيد أبو بكر المقرئ، المفسِّر، الواعظ، النيسابوري، إمام فاضل في القراءات، عالم بمعاني القرآن، سمع منه الحاكم، وأثنى عليه. ومات سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة. فالظاهر أنه هو، والله أعلم.

(٢) لم أقف عليه عن سعيد، وأخرج الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١) (طبعة دار التفسير)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٥/ ٢١٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٢٨١) نحوه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً، وضعف السيوطي إسناده في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: هو محفوظٌ كلُّه عند الله، ويَحتمِلُ أن يكون معناه: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أي: في تقديرٍ وحكم.

وقيل: هو اللَّوحُ المحفوظ.

وقيل: هو ما يُكتبُ ليلةَ القدر ـ أو ليلة البراءة ـ مِن النسخ، ويُدفَعُ إلى الملائكة(١).

و﴿إِلَّا﴾ بعد ﴿إِلَّا﴾ ليس للاستثناء من الاستثناء(٢)، بل للجمع بمعنى الواو، كقولك: ما زيدٌ إلَّا عند عمرٍو، إلَّا في دارِه.

و قال الحسن: إنَّما ذكرَ إثبات هذه الأشياءِ في اللَّوح المحفوظ؛ ليَعلمَ ابنُ آدمَ أنَّ عملَه أولى بالإحصاءِ؛ لأنَّه للحسابِ والجزاء(٣).

ونظيرُ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٨]، وكذا قوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ومَن عنده المفاتحُ فله الخزائنُ، وله الملكُ والعِلْمُ والتَّصرُّفُ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: وعندَك مفاتِحُ الغيب، فمَنْ آمنَ بغيبِه، أسبلَ اللهُ السِّترَ على عيبِه(٤).

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) قوله: «من الاستثناء» من (ر).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ١٩٣).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٧٩).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: يُنيمُكم، وهو كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، والتوفِّي في اللُّغةِ: هو قبضُ الشَّيء على تمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: كسبتُم، وجوارحُ الصَّيدِ: كواسِبُها، قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤] من ذلك، والاجتراحُ: الاكتساب، قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، والجوارحُ: الأعضاء؛ لأنَّها كواسب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليس فيه أنَّه لا يَعلمُ ما جَرحْنا باللَّيل، ولا أنَّه لا يتوفَّانا بالنَّهار، فدلَّ أنَّ تخصيصَ الشَّيء في حالٍ بالذِّكرِ لا يَدلُّ على سقوطِ ذلك في حالةٍ أخرى[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: يُوقِظُكم من منامِكم في النَّهار.

وقوله تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: ليُتِمَّ مدَّة الحياةِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ أي: بالبعثِ بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وهذا وعدٌ ووعيد.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ قد فسَّرناه في هذه السُّورةِ مرَّة[2]؛ أي:

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٢) عند تفسير الآية (١٨).

يُصرِّفُهم كيف يشاء، مِن يقظةٍ إلى نومٍ، ومِن نومٍ إلى يقظة، ومِن حياةٍ إلى موت، ومن موتٍ إلى حياة، لا كالأصنام التي اتَّخذتموها آلهةً، وهي لا تَضرُّ ولا تَنفع.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾؛ أي: ملائكةً كراماً كاتبين، يَكتبون أعمالَكم وأقوالَكُم، فيحفظونها عليكم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر إرسالَ الحفظَةِ بعد قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ إرسالَهم لم يكن لحاجته إلى ذلك؛ لأنَّ الـمُحتاجَ لا يكونُ قاهراً، بل لحكمةٍ، وهي امتحانُ الحفَظةِ بما أمرَهُم به، ولله أنْ يَمتحِن عبادَه بما شاء، وأُخرى لتكونَ العبادُ على حذرٍ، وهذا أبلغُ في الزَّجرِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ عليه رقيباً كان أجدرَ بالحذرِ والنَّظر، وإن كان يَعلمُ أنَّ اللهَ يَطَّلِعُ عليه بدونِه.

والحَفَظةُ هم كتبَةُ الأعمالِ عند بعضِهم، وظاهرُ نظمِ الآيةِ يَدلُّ على أنَّهم هم الذين يَحفظون أنفاسَ الخلقِ ويَعدُّونَها إلى وقتِ انقضائِها، ثمَّ يَقبِضون الرُّوح[1]، ويدلُّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛أي: قَبضَتْ روحَهُ ملائكةٌ أرسلناهم غيرُ هؤلاء، وهم أعوانُ ملكِ الموت، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]؛ أي: هو الموكَّل به وحدَه، وهو الذي يَلِي ذلك وهؤلاء يُعينونه، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؛ أي: هو المقدِّرُ ذلك.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: قبضَهُ ملكُ الموت، وأعوانُه سبعةٌ مِن ملائكةِ الرَّحمةِ، وسبعةٌ مِن ملائكة العذاب، فإذا قبضَ ملكُ الموتِ نفساً

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

مؤمنةً، دفعَها إلى ملائكة الرَّحمة، وإذا قبضَ نفساً كافرةً دفعَها إلى ملائكةِ العذاب[١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يؤخِّرونهُ طرفةَ عين[٢]، ومعناه في اللُّغة: لا يُقصِّرون، والمرادُ به: لا يُقدِّمون ولا يؤخِّرون.

* * *

(٦٢) - ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: رُدَّ المتوفَّون بردِّ الملائكة.

وقيل: بردِّ اللهِ بالبعثِ والحشر.

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾؛ أي: مالكهم، ﴿ٱلْحَقِّ﴾ لا كموالي الدُّنيا المتغلِّبين.

وإن جُعلَ هذا في حقِّ الكفَّار فقوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ مع قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: أنَّ المولى هاهنا هو المالكُ والسيِّدُ، وهناك: المعينُ والنَّاصر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: يَنفُذُ حكمُه، لا حكم غيرِه فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾؛ أي: الرَّدُّ إليه للحساب والجزاء، ولا يَشغلُهُ حسابُ أحدٍ عن حساب غيره، ولا يكونُ فيه لبثٌ، ولا يَدخلُه غلطٌ، ولا من العبدِ لجاجٌ، فيُسرِّعُ حسابَهم، ويُعجِّلُ جزاءَهم.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٧٣٤)، والقرطبي في «تفسيره» (٨/ ٤١٠) عن الكلبي. وأخرج الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: هم الملائكة أعوان ملك الموت.

(٢) انظر: «تنوير المقباس» (ص: ١١١)، وأخرج الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٠٧) (٧٣٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسيرها: لا يضيعون.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: ردَّهم إلى نفسِه، وما غابوا عن قبضتِه لحظةً[١]، ولا خرجوا عن مشيئته خطرةً ولا لفظة، والرَّدُّ إلى مَن ربَّاك خيرٌ مِن البقاءِ مع مِن آذاك.

***

(٦٣) ـ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي، وظلماتُ البرِّ والبحر: شدائدُهما، ويقالُ لليوم الذي فيه شِدَّةٌ: يومٌ مظلم، ويومٌ ذو كواكب، وأنشد:

بني عمِّنا هل تَذكرونَ بلاءَنا ... إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشهَبُ[٢]

ويجوزُ أنْ يُرادَ بها عينَ الظُّلمات، فقد يقعُ ذلك في البرِّ والبحرِ في أوقات النكبات.

ويجوزُ أنْ يُراد بها عينَ الظُّلماتِ في اللَّيل في البرِّ والبحرِ في السَّفر.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٠).

(٢) لم يرد البيت في (ف). ولم أقف عليه بهذه الرواية، وذكر نحوه سيبويه في «الكتاب» (١/ ٤٧)، ونسبه لعمرو بن شأس، وروايته عنده:

بني أسدٍ هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يوماً ذا كواكبَ أشنعَا

وذكر سيبويه قبله لمقَّاس العائذي:

فدًى لبني ذهلِ بن شيبان ناقتي ... إذا كان يومٌ ذو كواكب أشهبُ

وروى الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٢١٦) عن بعضهم:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا ... عليكم إذا ما كان يومٌ قُماطِرُ

وقولـه تعالـى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ قـال ابنُ عبَّـاسٍ رضـي الله عنهما: أي: علانيةً وسـرًّا.

وقال الحسنُ: التَّضرُّع: ما يُرفَعُ به الصَّوتُ، والخفيةُ: ما يُدعى سراً[١].

وقوله تعالى: ﴿**لئن أنجيتنا**[٢] **من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾؛ أي: يقولون هذا، وأضمر فيه هذا؛ لدلالة ﴿تَدۡعُونَهُۥ﴾ على ذلك.

وقرأ أهلُ المدينة وأبو عمرو: ﴿أنجيتنا﴾[٣] خطاباً لله تعالى، والباقون[٤]: ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا﴾ بالألف، أي أنجانا الله ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: مِن هذه الظُّلمات.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: هي[٥] الأهوال والكربات، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: المؤمِنين المؤدِّين شكرَ اللهِ على نعمِه بطاعتِه.

* * *

(٦٤) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾؛ أي: سلهُم: مَنْ يُنجيكم منها؟ وإذا أقرُّوا بذلك فقل: هو كما قلتُم؛ اللهُ يُنجيكُم مِن تلك الظُّلماتِ، فتَهتدوا للطريق وهو يُنجيكم. وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ أي: غمٍّ يأخذُ بالنَّفْسِ، وكذلك الكُرْبةُ.

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» (٨/ ٢٠٠).

(٢) كذا في النسخ، وسيأتي بيان ما فيها من قراءات قريباً.

(٣) هي قراءة نافع وأبي جعفر المدنيين، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي، وابن عامر الشامي، وأبو عمرو ويعقوب البصريين. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢٥٩).

(٤) في (أ): «وقرأ أهل الكوفة» بدل: «والباقون». وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم وخلف الكوفيين.

(٥) في (ف): «من هذه».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: لا تُخلِصونَ حين[1] تتخلَّصون، ولا تَشكرون، بل تُشرِكون.

***

(٦٥) ـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾؛ أي: اللهُ الذي قَدَرَ على إنجائِكم، هو قادرٌ على إهلاكِكم بأنواعِ العذاب؛ إن شاءَ بعثَ عليكم العذابَ مِن فوقِكم بالطُّوفان والصواعق والقذف بالحجارة والرِّيح والصَّيحة.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ وهو الخسفُ والزَّلزلةُ والإغراقُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾؛ أي: يَخلِطَكُم فِرَقاً، وأرادَ به الأهواءَ المختلفة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾؛ أي: الشِّدَّةَ والقتلَ.

وقال الضَّحَّاك رحمه الله: ﴿عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ مِن قبل كباركم، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ ممَّن هو أسفل منكم، ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ أي: يجعلَكم فرَقاً، ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾: يُسلِّطَ بعضَكم على بعضٍ بالقتل.

وقال مجاهدٌ: ﴿عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: السَّلاطين الظَّلمة، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾: العبيدُ السُّوء[2].

وفي «تأويلات» الإمام أبي منصور رحمه الله: قال أبو بكر بن كيسان:

---

(١) في (أ): «حتى».

(٢) قولا الضحاك ومجاهد في «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٦).

الآيـةُ فـي مشـركي العـرب؛ لأنَّ الآيـاتِ التـي قبلَهـا وبعدهـا فيهِـم، والسُّـورةُ في محاجَّـة المشـركِين[١].

وقال أبيُّ بن كعب: هي في أهلِ الإسلام، وقد جاء اثنانِ بعد وفاة النبيِّ ﷺ؛ ألبِسوا شِيَعاً، وأُذيقَ بعضُهم بأسَ بعضٍ، وبقيَ اثنان لا بدَّ واقعان.

وقال الحسنُ رحمه الله: ثنتان في أهلِ الإسلام؛ الأهواءُ المختلفة، والقتلُ، وثنتان في أهل الشِّرك مِن أهل الكتاب، وهما الخسفُ في الأرض، والحجارةُ مِن السَّماء.

وقال في قولِه: ﴿أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: يَحتملُ إسقاطَ السَّماءِ عليهم، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ طيَّ الأرضِ من تحتِكم وخسفكم[٢].

والآية حجَّةٌ في خلقِ أفعال العباد.

ورويَ أنَّ خبابَ بنَ الأرتِّ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ ليلةً يُصلِّي، فلمَّا فرغَ قال: قلتُ له وقت الصُّبح: لقد رأيتُك تُصلِّي صلاةً ما رأيتُكَ صلَّيتَ[٣] مثلها! قال: «أجل، إنَّها صلاةُ رغبةٍ ورهبة؛ سألتُ ربِّي فيها ثلاثاً، فأعطاني ثِنتين، وزوى عنِّي واحدةً؛ سألتُه ألَّا يُسلِّطَ على أمَّتي عدوًّا مِن غيرِهم، فأعطاني، وسألتُه ألَّا يُرسِلَ عليهم السَّنةَ فتَقتلَهُم جوعاً، فأعطاني، وسألتُه ألَّا يَجعلَ بأسَهم بينَهم، فزواها عني»[٤].

وقال الكلبيُّ: لـمَّا نزلَت هذه الآيةُ، شَقَّتْ على النَّبيِّ ﷺ مشقَّةً شديدةً، فقال: «يا جبريل، ما بقاء أمتي على ذلك؟» فقال: إنَّما أنا عبدٌ مثلُك، فادعُ ربَّك، وقام

---

(١) القول في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١١١) عن أبي بكر الأصم.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١١١ ـ ١١٣، ١١٦).

(٣) في (ف): «تصلي».

(٤) رواه الترمذي في «سننه» (٢١٧٥)، والنسائي في «سننه» (١٦٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤).

رسولُ الله ﷺ، فتوضَّأ وصلَّى، وسألَ ربَّه ألَّا يبعثَ على أمَّتِه عذاباً مِن فوقِهم، ولا مِن تحتِ أرجلِهم، ولا يَلْبِسَهُم شِيَعاً، ولا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض، فنزلَ جبريلُ عليه السلام وقال: إنَّ اللهَ تعالى سمعَ مقالتَكَ، وإنَّه أجارَهُم مِن خصلتين، ولم يُجِرهم مِن خِصلتين؛ أجارَهم ألَّا يبعثَ عليهم عذاباً من فوقهم، ولا مِن تحتِ أرجلِهم، ولم يُجِرهم مِن أنْ يَلبِسَهم شِيَعاً، ويذيقَ بعضَهم بأسَ بعض. فقال: «يا جبريل فما بقاء أمتي» قال: سلِ الله لأمَّتِك، فقام رسولُ الله ﷺ، فتوضَّأ وصلَّى، وسأل ربَّه، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إنَّ الله تعالى يقول: إنَّا أرسلنا مِن قبلِكَ رُسلاً إلى قومِهم، فصدَّقهم مُصدِّقون، وكذَّبهم مُكذِّبون، ولم يمنعْنا أنْ نبتليَ الذين زَعموا أنَّهم مؤمنون مِن بعد قبضِ أنبيائِهم ببلاءٍ يعرف فيه صدقُهم مِن كذبهم، ثمَّ نزل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ الآيات [العنكبوت: ١ ـ ٢][(١)].

وروى عبد الله بن عمرو[(٢)] رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ بين يدَي السَّاعةِ لهَرْجاً»، قلنا: وما الهَرْجُ؟ قال: «القتلُ والكذبُ» ثلاث مرات، فقلنا: يا رسولَ الله، أكثرَ مِن قتلِنا الكفَّار، فوالله إنَّا لنَقتلُ في العامِ الواحدِ كذا وكذا، قال: «ليس بقتلِكم الكفَّار، ولكن قتلٌ يكونُ بينكم يا معشَرَ أهلِ الإسلام، حتَّى يَقتلَ الرَّجلُ جارَهُ، ويَقتُلُ صاحبَهُ وأخاه وأباه» فقلنا: يا رسول الله، ومعنا عقولنا؟! وفينا

---

(١) رواه البغدادي في «موضح أوهام الجمع والتفريق» (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والكلبي متروك، وأبو صالح ضعيف كما سلف غير مرة. وذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٣٠) (في مطلع سورة العنكبوت) عن الكلبي.

(٢) في (ر) و(ف): «عمر».

كتاب ربنا؟! قال: «تُنْتَهَبُ عقولُ أكثرِ أهلِ ذلك الزَّمان، حتَّى يَروا أنَّهم على شيءٍ، وليسوا على شيء»[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: كيف نُورِدُ عليهم المواعظَ المختلفةَ، مِن بيانِ الحقِّ، وإجابةِ الدُّعاءِ، والإنجاءِ مِن الظُّلمات، وتصريفِ اللَّيلِ والنَّهار، والأمرِ والنَّهي، والوعدِ والوعيدِ، مِن أوَّل السُّورةِ إلى هاهنا؛ ليَستنبطَ هؤلاء المشركون مِنها بُطلانَ قولِهم، وتناقضَ مذاهبِهم.

وقال الإمامُ القشَيريُّ رحمه الله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ لا طعمَ أدوى[٢] مِن طعمِ الإنسان؛ إنْ شئتَ في الولايةِ والمحبَّةِ، وإن شئتَ في العداوةِ والبُغضة، فمَن مُنيَ بالمعصية[٣] مع أشكالِه تَنغَّصَ عليه عيشُه في الدُّنيا، ومَن مُني بمحبَّةِ أمثالِه، تَكدَّرَ عليه حاله مع المولى، ومن صانَهُ اللهُ عن الخلقِ فهو المحفوظُ المعافى[٤].

* * *

(٦٦) ـ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ قال الحسنُ والسُّدِّيُّ: أي: بالقرآن[٥]، وقيل: أي: بتصريفِ الآيات.

---

(١) لم أقف عليه من حديث عبد الله بن عمرو ولا من حديث ابن عمر رضي الله عنهم، وأخرج أحمد في «مسنده» (١٩٦٣٦) نحوه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «لطائف الإشارات»: «أردأ».

(٣) في «لطائف الإشارات»: «بالبغضة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨١).

(٥) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٢/ ١٢٨)، والأثر رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣١١)، وابن أبي حاتم (١/ ١٣١٣) (٧٤٢٠) عن السدي.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الصِّدقُ والكائنُ.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بحافظِ أعمالِكم حتَّى أجازيَكم عليها، بل الله يَجْزيكم بها.

قال الحسن: وقيل: لستُ عليكم بمُسلَّطٍ أمنعكم جبْراً أنْ تكفروا، بل إليَّ الدَّعوةُ والتَّبليغ[1].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نسخَها قولُه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[2].

وقيل: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أملكُ تَصريفَكم على ما أُريد، وأنْقلُكم عن أهوائِكم.

***

(٦٧) ـ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، أي: لكلِّ خبرٍ استقرارٌ وموضعُ اسْتقرار، فإنَّ اللفظةَ تَصلحُ للمصدر والمكان، ومعناه: لكلِّ خبرٍ قرارٌ على غايةٍ يَنتهي إليها، فيَتبيَّنُ حينئذٍ صدقُه مِن كذبِه، وحقُّه مِن باطله.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ خبرِ ما كذَّبتم به، وهي كلمةُ وعيد،

---

(١) لم أقف عليه عن الحسن، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٢٨)، ونسبه لبعض المتأخرين.

(٢) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨) (٤٦٦)، وعقب عليه فقال: هذا خبر لا يجوز أن ينسخ... اهـ.

قلت: وإسناده ضعيف جداً، فيه عاصم بن سليمان الكوزي، وهو معدود في الوضاعين، انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ٣١٩)، وفيه أيضاً جويبر بن سعيد الأزدي، وهو ضعيف جداً كما في «التقريب».

فقيل: إنهم قد علِموا بذلك يومَ بدر، ويجوزُ أن يكون بعضُ وعيدِهم يَتحقَّقُ في الآخرةِ، أو[1] يتحقَّقُ كلُّه يومئذٍ.

وقيل: أي: لكلِّ وعدٍ ووعيدٍ مِن الله وقوعٌ واستقرارٌ، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزلَ، وهو كقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقال الحسن: أي لكلِّ عملٍ جزاءٌ، فمَن عملَ خيراً جُوزِيَ به الجنَّةَ، ومَن عملَ سوءاً جُوزيَ به النَّار، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يا أهلَ مكَّة[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يَحتملُ أن يكون هذا صلةَ قوله: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، لكن ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: لم أسلَّط على قتالِكم الآن، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ في أن أغنمَ أموالَكم، وأسبيَ ذراريكم إذا وردَ الأمرُ بالقتال[3].

***

(٦٨) ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ قال الحسنُ وقتادةُ ومجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبير: هو خوضُ تكذيبٍ واستهزاء[4].

وقال ابنُ عبَّاس: أمرَ اللهُ رسولَه: إذا رأيتَ المشركين يُكذِّبون بالقرآن وبك،

---

(١) في (ف): «أي».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١١٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣١٣ ـ ٣١٤) عن قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير.

ويَستهزِؤون بذلك، فاترُكْ مجالستَهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾؛ أي: حتَّى يكون خوضُهم في غيرِ القرآن[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ «إن» شرطٌ، و«ما» صلةٌ، والنُّونُ للتَّأكيد، ومعناه: وإنْ يُنسِك الشَّيطانُ بعد النَّهيِ فقَعدتَ معهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين، فقُم إذا ذكرتَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ولـمَّا قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، جعلَ المنافقون إذا رأوا المسلمين جلوساً أتَوهم، فجلَسوا معهم، ثمَّ استَهزؤوا برسولِ الله ﷺ وبالقرآن، وآذوهم، فنزلَ عليه بالمدينة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بمكَّة، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآن، ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] إنْ رضيتُم بخوضِهم، إشارةً إلى هذه الآية.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ولـمَّا كان قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ خطاباً لرسولِ ﷺ والمرادُ به أمَّتُه، ردَّ الكلامَ[2]

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢١٠).

(٢) في (ر): «الخطاب».

إليهم، فقال[١]: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمعاصي مِن حسابِ الكفَّار الخائضين[٢] شيءٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال الحسنُ والفرَّاءُ والزَّجَّاج: أي: ولكن عليهم أنْ يُذَكِّروهم[٣] ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: يعظوهم.

وقيل: أي: يَعرضون ذِكرى؛ لأمرِ الله.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلَّ الخائضين يتَّقون الدَّوامَ على الخوض.

وقيل: أي: ليُذكِّروهم أنَّ خوضَهم يَسوءُهم؛ ليَتَّقوا مساءَتَهم.

وقيل: أي: وذَكِّرِ المؤمنين؛ ليَدوموا على تقواهم.

وقيل: هذه الآية تتَّصل بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾: وما على المتَّقين حسابٌ، فإنَّما ذكَّرَهمُ اللهُ الحسابَ؛ ليتَّقوا المعاصي.

* * *

(٧٠) - ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ

---

(١) في (أ) و(ر): «فقيل».

(٢) بعدها في (ف): «من».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٦١).

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ يتَّصل بقوله: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾، ويُبيِّنُ أنَّ التَّذكيرَ يجبُ أن يكون بالقرآن، وهو كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وقوله: ﴿وَذَرِ﴾؛ أي: اترك محاجَّةَ هؤلاء بإيرادِ الحُجَجِ عليهم؛ لأنَّها إنَّما تَنفعُ لِمَن تدبَّر وتَفكَّر، وطلبَ الحقَّ بدلائله، وهؤلاء الخائضونَ اتَّخذوا دينَهم عبثاً، لا يَقصِدون طلبَ الحقِّ، ولا يطلبونَ دلائلَه، ولا يُفكِّرون في معادٍ ولا جزاءٍ ولا حساب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتملُ التَّقديمَ والتَّأخير: وذرِ الذين اتَّخذوا اللهوَ واللَّعِبَ ديناً، حتَّى لا يفارقون ذلك[1]، كالدِّين الذي يُتَّخذُ للأبد.

ويحتمل ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾: ما هويَتهُ أنفسُهم، ودعَتْهم إليه الشَّياطين، ومَن فعلَ ذلك فهو عابثٌ لاعب[2].

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أوهمَهم الشَّيطانُ أنَّ ما أُعطوا فيها مِن رئاسةٍ على الضَّعفة، ووُسِّع لهم فيها مِن الرِّزق، وأُطيل لهم في البَسطة، إنَّما هو لكرامتِهم على الله.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ وعيداً؛ لقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: وعِظْ بالقرآن.

وقيل: خوِّف بالحساب، فقد سبقَ ذِكْرُه.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: خوفَ الإبسال.

---

(١) بعدها في (أ): «كله».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٢١).

وقيل: أي: لئلَّا تُبسلَ، كما قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

و﴿تُبۡسَلَ﴾: قال الفرَّاء: أي: تُرتهن(١).

وقال الحسنُ ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ: أي: تُسلمَ للهَلكة(٢).

وقال قتادة: تُحبس(٣).

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: تُفضَح(٤).

وقال الضَّحَّاك: أي: تُنضَج وتُحرَقَ(٥).

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ: تُهلك(٦).

وظاهرُه عند أهلِ اللغة: تُسلَم للهَلَكة، وقال عوف بن الأحوص الكلابي:

وإبْسالي بَنيَّ بغيرِ جُرْمٍ ... بعَوْناهُ ولا بِدَمٍ مُرَاقِ(٧)

أي: إسلامي.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) عن الحسن ومجاهد، وعلقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣١٨) عقب الأثر (٧٤٥٢) عن مجاهد وعكرمة والحسن والسدي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٨) (٧٤٥٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٨) (٧٤٥٣).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٨)، وتحرف في مطبوعه: «تنضج» إلى: «تحرق»، وهي على الصواب في طبعة دار التفسير (١٢/ ١١١).

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٨).

(٧) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة» (١/ ١٩٤)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (٢/ ١١١٤)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٣٢٣).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: للنَّفس وليٌّ يَنصرُها، ولا شافعٌ يَستوهِبُ ذنوبَها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: وإن تُفدَ كلَّ فديةٍ لا تُقبَل منها.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ أي: أولئك الخائضون، و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ ارتُهِنوا وأُسلِموا للهَلَكة، وحُبِسوا وفُضِحوا بما كسَبوا مِن الشِّركِ والخوض في الباطلِ والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماءٌ حارٌّ شديدُ الحرارةِ، يصهَرُ به ما في بطونِهم وتقطَّع أمعاؤهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾؛ أي: وجيع.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بكفرهم.

وقيل: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بما شَرِبوا من القهوات[١]، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ بما تَناولوا من الشَّهوات.

وقال الإمامُ القُشيريُّ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ أي: مَن كان نقيَّ الثَّوبِ عن ارتكابِ الآثام، كان بمعزلٍ يوم النَّشر عن ملاقاةِ تلك الآلام.

وقال في قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾؛ أي: كِلْهم إلى ما اختاروا، فإنَّا اعتدنا لهم مِن خفيِّ المكرِ ما إذا أحللنا[ه] بهم كسرنا عليهم خِمارَ الغفلةِ، وكشَفنا عنهم خِمار الوَهْمِ والجهلة[٢].

---

(١) القهوة: الخمر. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: قهو).

(٢) في «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٢): «والغفلة» بدل: «والجهلة».

(٧١) ـ ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؛ أي: أنطلبُ النَّجاحَ ممَّن لا يَملِكُ لنا نفعاً ولا ضرًّا، وهي الأصنام.

وقيل: أي: أنَعبدُ، مِن قوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ويَرجع إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦]، والأقرب إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، وكان الكفَّارُ ـ لعنهم الله ـ يتَّخِذون الأصنامَ أولياءَ وشُفعاء.

وقيل: أي: لا يَنفعُنا إنْ أطعناهُ، ولا يَضرُّنا إنْ عصيناهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على الأوَّل، والاستفهامُ بمعنى الإنكار.

وقال المبرِّد: إذا قلت: ردَّ على عقبِه، فمعناه: جاءَ لينفذَ، فسُدَّ سبيلُه.

وقيل: أي: نرتدَّ عن دينِنا، ونرجعَ إلى ورائِنا، وهو عبارةٌ عن الإدبار والخيبةِ والدَّمار، وهو كقوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلى الدِّين الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: جرَّتهُ إلى المهاوي، وهي المساقطُ والمهالك، كما يقال: استزلَّتهُ واستغْوتهُ؛ أي: جرَّتهُ إلى الزَّللِ والغِواية[١].

---

(١) في (ف): «أو الغواية».

وقرأ حمزة: ﴿استهواه﴾(١) لتَقدُّم الفعلِ؛ أي: إنْ فعَلنا كذلك كنَّا كرجلٍ(٢) ذهبَت به الشَّياطينُ في الفلاةِ متَحيِّراً لا يَهتدي لطريقٍ يَتخلَّص(٣) منه، ويأمنُ به السُّقوط، وذلك قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾؛ أي: لهـذا الرَّجلِ أصحابٌ مشـفقون عليـه، يريـدون الخيـرَ بـه، يدعونـه إلـى الصِّـراطِ المسـتقيم، ويقولـون: ﴿ٱئْتِنَا﴾ أضمـرَ القـولَ لدلالـة ﴿يَدْعُونَهُۥٓ﴾ علـى ذلـك؛ أي: يقولـون لـه: دع طريقَ الضَّـلالِ وعُـد إلينا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: الطَّريقُ الذي هدى اللهُ إليه، فهو الطَّريقُ المستقيم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أمرنا اللهُ تعالى أنْ ننقادَ له، ونُسلِّمَ أنفسَنا إليه، فهو خالقُ العالمين وحافظُهم ومدبِّرُ أمورِهم.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: وقيل لنا ذلك، أو هو عطفٌ على قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ باعتبار المعنى؛ فإن تقدير قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾؛ أي: قيل لنا: أسلموا، فيجوزُ أنْ يُعطَفَ عليه، و﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: تذلَّلوا لهُ بالعبادة، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ ولا تخالفوا أمره ونهيَه بالمعصية.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

(٢) في (أ): «كالرجل».

(٣) في (ف): «مخلص».

وقولـه تعالـى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾؛ أي: للحسـابِ والجـزاء أيُّهـا العادِلـون بالله.

قال الكلبيُّ: نزلت في عبد الرَّحمن بنِ أبي بكر، وقد دعا أباهُ وهو[١] في حالِ كفرِه إلى دين آبائه[٢].

وقال ابنُ عبَّاس والسُّدِّيُّ رضي الله عنهم: هو مثلٌ، يقول: مثلُ مَن يُدعَى إلى الكفرِ كضالٍّ في الطَّريق يَدعوه الغيلان في المفاوز باسمِه ونَسبِه، وأصحابُه يَدعونَهُ إلى الطَّريقِ السَّويِّ، فإن اتَّبعَ الغولَ هلكَ، وإن أجابَ أصحابَه اهتدى[٣].

وقال الإمام القشيريُّ رحمهُ الله: أي قل يا محمَّدُ: أنؤثِرُ الضَّلالَ على الهدى بعدَ طلوعِ شموس البُرهان؟ ونَدَعُ الطَّريقةَ الـمُثلى بعد ظهور البيان؟ ونترك عَقوَةَ[٤] الجنَّة، وقد نزلناها، ونطلبُ مُتبوءًا في الجحيم[٥] وقد كُفيناها؟ إنَّ هذا بعيدٌ مِن العقول، محالٌ مِن الظُّنون، وكيف يُساعِدُ أتباعَ الشَّياطين مَن وجدَ الخلاصَ مِن صُحبتِهم، فأبصرَ الغيَّ في صفتهم؟!

﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: أُمِرنا بملازمةِ الصَّلاة، وهي محلُّ المناجاة، ولسانٌ تعوَّد نجوى السُّلطان، متى يَنطقُ بمكالمةِ أخِسَّةِ أهلِ الزَّمان[٦].

---

(١) «وهو»: ليس من (ف).

(٢) ذكر سبب النزول هذا أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٤٩٤) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٥٩) دون نسبة.

(٣) روى قوليهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠)

(٤) العقوة: الساحة. انظر: «الصحاح» (مادة: عقا).

(٥) في النسخ الخطية: «الجنة»! والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٣).

(٧٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: للحقِّ، ولم يَخلقهُما[1] باطلاً.

وقيل: أي: لمنافعِ العباد، ولاستبداءِ الشُّكرِ منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ متَّصلٌ بقوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ يومَ، أو هذا ابتداءٌ، وأضمرَ فيه: واحذروا يومَ يقولُ لذلك اليوم: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: يُكَوِّنهُ سريعاً، وعلى هذا تمَّ هذا، ثمَّ قولُه تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأٌ وخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كذلك، وهما كلامان تامَّان مطلقان.

وقيل: هذا يتَّصِلُ بالأوَّل ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: يوم القيامة، يكونُ[2] ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: يَتحقَّقُ قولُه الصِّدقُ، ويَقعُ حكمُه الفصل، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يومئذٍ، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ هو تقرير قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هو موصولٌ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالمُ ما غابَ علمُه عن الخلقِ، وعالمُ ما يشهَدُه الخلقُ، ويَحتملُ: عالمُ السِّرِّ والعلانية.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيبُ في أقوالِه وأفعالِه؛ مِن الإماتةِ والإحياء، والإيجادِ والإفناء.

---

(١) في (أ): «يجعلهما».

(٢) في (ر): «يقول».

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بأعمالِ عبادهِ؛ ظاهرِها وباطنِها، والعالمُ بجزائِها.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله في الآية[١]: أي: لا يَعتاصُ على قدرتِه حدوثُ مقصودٍ، ولا يَتقاصَرُ حكمُه عن تصريفِ موجود[٢].

* * *

(٧٤) ـ ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؛ أي: اذكرْ لهؤلاءِ العادلينَ بربِّهم قصَّةَ إبراهيم، وهو أبو العرب، وهم أولى النَّاس بالاقتداء به؛ لأنَّهم ذرِّيَّتُه، وبه مفاخرتُهم، إذ قال إبراهيمُ لأبيه آزرَ منكراً عليه، ومتعجِّباً منه.

قوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾؛ أي: أتجعلُ الأصنامَ معبودةً لك تَعتقِدُها[٣] آلهةً.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بعبادتِكم ما دونَ الله.

ومن قال: إنَّ اسمَ والد إبراهيم تارح[٤] في الرِّوايات المشهورة في نسبه، لا آزر؛ فإنَّه يُقالُ له: يجوزُ أن يكون له اسمان، أو أحدُهما اسماً له، والآخرُ لقباً له عُرِفَ به، فيُنسَبُ إليه، ومَن قال: ﴿آزرُ﴾ بالرَّفع، وهو في بعض القراءات[٥]، فله وجوه:

---

(١) بعدها في (ر): «الأولى».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٣).

(٣) في (ر): «تتخذها».

(٤) في (ر) و(ف): «تارخ». وهما روايتان، قال الآلوسي في «روح المعاني» (٨/ ٢٤٩): بتاء مثناة فوقية وألفٍ بعدها راءٌ مهملة مفتوحة وحاءٌ مهملة، ويروى بالخاء المعجمة.

(٥) هي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٩).

قيل: هو نداءٌ بمعنى[1]: يا آزر.

وقيل: معناه: يا شيخ.

وقيل: معناه: يا عوج[2]؛ أي: معوجٌّ عن الدِّين.

وقيل على قراءة النصب: إنَّه اسمُ صنمٍ لهم، وتقديره: أتعبدُ آزرَ، أتتَّخِذُ أصناماً آلهة.

وقال وهب: هو إبراهيمُ بنُ تارح بنِ ناحور بن أشرع بن أرغو بن فالغ بن عابر[3] بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. وفي التَّوراة: شاروع مكان أشرع[4].

* * *

(٧٥) - ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ قيل: أي كما أريناهُ ضلالَ أبيه وقومِه حتَّى قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، أريناهُ ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿نُرِيٓ﴾ مستقبلٌ بمعنى الماضي، كما في قوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ أي: وإذ قلتَ.

وقيل: أي: وكما أريناكَ ملكوتَ السَّماوات والأرض والآيات، كذلك أرينا إبراهيم.

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بمعنى الملك، وهو السُّلطان، وتقديرُه: ملكوتَنا في السَّماوات والأرض.

---

(١) في (أ): «يعني».

(٢) في (ر): «أعوج».

(٣) في (أ): «عامر».

(٤) انظر: «المعارف» لابن قتيبة (ص: ٣٠).

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: عُرِجَ بإبراهيمَ إلى السَّماء، فرأى عبداً على فاحشةٍ، فدعا اللهَ تعالى عليه، فأهلكَه، ثمَّ رأى عبداً آخرَ على فاحشةٍ، فدعا الله عليه، فقال اللهُ تعالى[1]: يا إبراهيم، اكفُف دعوتَك عن عبادي؛ فإنَّ عبدي بين خِلالٍ ثلاثٍ؛ إمَّا أنْ أُخرِجَ منه ذُرِّيَّةً طيِّبةً، أو يتوبَ فأغفرَ له، أو النارُ من ورائه، أوَما علمتَ أنَّ مِن أسمائي الحليم؟[2]

وقال مجاهد: فُرِجَت له السَّماوات السَّبعُ، فنظرَ إلى ما فيهنَّ، حتَّى انتهى نظرُه إلى العرش، وفُرِجَت له الأرضون السَّبع، حتَّى نظرَ إلى ما فيهنَّ[3].

وقال الضَّحَّاك: أُقيمَ على صخرةٍ، وفُتِحَت له السَّماواتُ فنظرَ إلى مُلْكِ اللهِ تعالى في السَّماوات، حتَّى نظرَ إلى مكانِه في الجنَّة، وفُتِحَت له الأرضون، حتَّى نظرَ إلى أسفلِ الأرضين، فذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ أي: أُريَ مكانَه في الجنَّة[4].

وقال قتادة: أراهُ الله تعالى ملكوتَ السَّماوات والأرض؛ ملكوت السَّماوات: الشمسُ والقمرُ والنجوم[5]، وملكوتُ الأرض: الجبالُ والأشجارُ والبحار[6].

---

(١) بعدها في (ر): «له».

(٢) لم أقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥٠) نحوه عن سلمان رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٢٦) (٧٥٠١).

(٤) لم أقف عليه من قول الضحاك، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٢٦ ـ ١٣٢٧) (٧٥٠٢).

(٥) في (ر): «والكواكب».

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٢١)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٢٧) (٧٥٠٥).

وقيـل: نظـرَ في المصنوعـات، فرأى ما فيهـا من الدّلالـةِ على وحدانيـةِ[(١)] الله تعالـى، والشـهادةِ له بالحكمـةِ والتَّعالي عـن الأضداد والأنـداد، وإبطـالِ أن يُعدَلَ به شـيءٌ سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾؛ أي: وليكون مِن الموقنين أريناهُ الملكوت.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الإيقانُ بالشَّيء: هو العلمُ بحقيقتِه بعد النَّظرِ والاستدلال فيه، ولذلك لا يوصَف الله تعالى باليقين[(٢)].

ثمَّ ليس هذا دلالةَ الشَّكِّ في الابتداء أو الجهلِ للحال، لكن لبيان إيقاعِ العلمِ له ابتدأ بهذه الدلائل، كقوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، ليس هذا رفعاً عن وضعٍ، وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ليس هذا إخراجاً عن إدخال، وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، ليس هذا تركاً بعد شروع، بل هذا كلُّه إثباتُ ابتداءٍ فكذلك هاهنا[(٣)].

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: إنَّ إبراهيم ولد في زمن نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح، وكان جبَّاراً، وكان له كهَّان يخبرونَه بما يكونُ في الأرض، فقالوا له: إنَّه يولدُ في هذه السَّنة غلامٌ يُفسِدُ

---

(١) لفظ: «وحدانية» من (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ١٣١).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

آلهةَ الأرض، ويَدعو النَّاس إلى غير دينِهم، ويكونُ هلاكُ ملكِك على يديه[١].

وقيل: إنَّهم وجِدوا ذلك في كتبِ الأنبياء.

وقيل: قالت المنجِّمةُ ذلك.

وقيل: إنَّ نمرود رأى ذلك في المنام، فهالَه[٢]، وقال: الأمرُ في هذا أنْ يعزل الرِّجال عن النِّساء، وينظر كلُّ حبلى في مملكتي، فإذا ولدَت غلاماً قتل، وإذا ولدَت جاريةً تركت، إلى أن تمضيَ هذه السنة التي قلتم، فعمد فعزلَ الرِّجال عن النِّساء، وجعلَ على كل عشرةٍ رجلاً، فإذا طهُرَت امرأةٌ حيلَ بينها وبين زوجِها إلى أن تحيض، فرجعَ آزرُ أبو إبراهيم إلى أهله فوجد امرأتَه قد طهُرت مِن الحيض، فوقعَ عليها في طُهرها، فحملَت[٣].

فقال الكهَّان: إنَّ الغلامَ الذي أخبرناك به قد حملته[٤] أمُّه الليلة، قال نمرود ـ لعنه الله ـ: كلُّ امرأةٍ قد استبانَ حملُها خلوا سبيلها، واحبسوا اللَّواتي لم يَستبِن حملُهن، وكلُّ مَن ولدَت غلاماً فاقتلوه، فلمَّا دنت ولادةُ إبراهيم وأخذَها الطَّلقُ خرجَت هاربةً؛ مخافةَ أن يُطَّلعَ عليها، فيُقتل ولدها، فوضعَتهُ في نهرٍ يابسٍ، ثمَّ لفَّتهُ في خِرقةٍ، ووضعَتهُ في حَلْفاء، ورجعَتْ وأخبَرَت زوجَها بأنَّها ولَدَت، وأنَّه في موضعِ كذا[٥]، فانطلقَ أبوه، فأخذَهُ مِن ذلك المكان، وحفر له سَرَباً عند نهرٍ، فواراه

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦١ ـ ١٦٢) ونسبه للمفسرين.

(٢) بعدها في (ر): «ذلك».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦٢) من قول السدي.

(٤) في (ف): «حملت به».

(٥) بعدها في (ف): «وكذا».

فيه، وسدَّ عليه بصخرةٍ؛ مخافة السِّباع، وكانت أمُّه تَختلِفُ إليه وتُرضِعُه، فأرضعَتهُ وفطمَتهُ حتَّى شبَّ، فإذا رجَعَت مِن عنده مصَّ إبهامَهُ[١].

وقال أبو روق: كلمَّا دخلَت أمُّ إبراهيمَ عليه وجدتهُ يَمَصُّ أصابعَهُ، فقالت ذات يوم: لأنظُرَنَّ إلى أصابعِه، فوجدَتهُ يَمَصُّ مِن أصبعٍ ماءً، ومن أصبعٍ لبناً، ومِن أصبعٍ عسلاً، ومن أصبعٍ تمراً، ومن أصبع سمناً[٢].

وفي حديث السُّدِّيِّ: لما عظُم بطنُها، وخشيَت عليه، انطلقَ بها آزرُ إلى أرضٍ بين الكوفةِ والبصرة، فأنزلَها في سَرَبٍ مِن الأرضِ، وجعلَ عندها ما يُصلِحُها، فولدَت إبراهيمَ في ذلك السَّرَب، وشبَّ، وكان وهو ابنُ سنةٍ كابنِ ثلاث سنين[٣].

وفي حديث محمَّد بن إسحاق: لـمَّا بلغَ إبراهيمُ خمسةَ عشر شهراً، قال لأمِّه: أخرجيني أنظر، فأخرجَتهُ عِشاءً، وذكر حديث رؤية الكوكب[٤] والقمرِ والشَّمس[٥].

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦٢) من قول ابن عباس رضي الله عنهما. قال الإمام ابن كثير في كتابه «تفسيره» عند تفسير الآيات (٥١ ـ ٥٥) من سورة الأنبياء: وما يذكر من الأخبار عن إبراهيم عليه السلام في إدخال أبيه له في السَّرب وهو رضيع، وأنه خرج بعد أيام فنظر في الكوكب والمخلوقات، فتبصر فيها، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة، لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخَّص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم، لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٣).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٢).

(٤) في (ف): «الكواكب».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥٦ ـ ٣٥٩) مطولًا.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: قال لأمِّه ذات يومٍ: مَن ربِّي؟ قالت: أنا، قال: فمَن ربُّك؟ قالت: أبوك، قال: فمَن ربُّ أبي؟ قالت له: اسكُتْ، فسكتَ، ثمَّ رجعَت إلى زوجِها فأخبرَتهُ بذلك، فأتاهُ أبوه، فقال لأبيه: مَن ربِّي؟ قال: أمُّك، قال: فمَن ربُّها؟ قال: أنا، قال: فمَن ربُّك؟ قال: نمرود، قال: فمَن ربُّ نمرود؟ فلطمَه لطمةً[1].

وقال مقاتلٌ رحمه الله: انطلق آزرُ بإبراهيمَ عليه السَّلام حين غابَت الشَّمسُ، فنظرَ إبراهيمُ إلى الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه: ما هذه؟ قال: إبلٌ وخيلٌ وغنم، فقال في نفسه: ما لهذه بدٌّ مِن أن يكون لها ربٌّ وخالق، وطلعَ المشتري، وكانت تلك الليلةُ آخرَ الشَّهر، فرأى الكوكبَ[2] قبل القمر، فـ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[3]، فلم يمكث أنْ سقطَ الكوكبُ، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾؛ يعني[4] يقول: لا أحبُّ ربًّا يَغيبُ[5]، ثمَّ طلعَ القمرُ، فرآهُ أعظمَ وأضوأ مِن الكوكب، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وأصبحَ وطلعَت الشَّمسُ، فرآها أعظمَ وأضوأ مِن القمر[6]، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ونودي: أن أسلم لربِّ العالمين، فأسلمَ، وكان لا يَرى شيئاً إلَّا قال: ما لهذا بدٌّ مِن أن يكونَ له رَبٌّ، وأخذَ في طعنِ آلهتهم، وجعلَ أبوه يزيِّنها له، فلا يزداد لها إلا بُغضاً، ومنها بعداً.

---

(١) ذكره عن ابن عباس ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٧٣)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٣).

(٢) في (ف): «الكواكب».

(٣) لم أقف عليه في «تفسير مقاتل»، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦٣) دون نسبة.

(٤) لفظ: «يعني» من (أ).

(٥) بعدها في (ف): «فلما رأى القمر بازغاً أي».

(٦) بعدها في (ف): «وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: رُوي في التَّفسير(١) عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه رُبِّيَ في السَّرَب، ولم يكن نظرَ إلى شيءٍ مِن خلق السَّماء، فنظرَ عند باب السَّرب في أول الليلة، فرأى الزُّهرةَ بضوئها وتلألئها، وكان في علمِه أنَّ له ربًّا، وأنَّه يَرى، فلم يرَ أضوأَ منها ولا أنور، فـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ علمَ أنَّ الرَّبَّ دائمٌ لا يَزول، فقال: لا أحبُّ هذا؛ يعني: ليس هذا بربٍّ، والأفول الغروب عند أهل التفسير، وهو عندنا على غيبوبته في(٢) سلطان القمر(٣)، وقَهرَ سلطانَ القمر(٤) سلطانُ النَّجم، والرَّبُّ لا يُقهَر وسلطانُه لا يَزول.

قال: وقال جماعةٌ مِن أهل الكلام: كان هذا منه في وقتٍ لم يَكن جَرى عليه القلمُ، سمعَ الخلقَ يقولون: اللهُ خالقُ السَّماوات والأرض، ولله(٥) ما في السَّماواتِ وما في الأرض، ثمَّ رآهُم عَبَدوا الأصنامَ، وسمَّوها آلهةً، فتأمَّلَها، فوجدَها لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ، ولا تَنفعُ ولا تَضرُّ، وعلمَ أنَّ مثلَها لا يحتملُ أنْ يكون يخلق(٦) ما ذكرت، وأنَّ الذي ذلك فعلُهُ عليٌّ عظيمٌ، يجبُ طلبُ معرفتِه مِن العُلُوِّ بما كان يَسمعُ نسبةَ الملائكةِ إلى السَّماءِ، ونزولُ الغيثِ منها، ومجيءُ النُّورِ والظُّلمةِ، وكلُّ(٧) أنواعِ البركات وغيرِها منها، فصرفَ تدبُّر طلبِ الذي نُسِبَ [إليه] الخلقُ إليها(٨).

---

(١) في (ف): «بعض التفاسير».

(٢) بعدها في (ف): «قهر».

(٣) بعدها في (ر): «سلطان النجم».

(٤) قوله: «سلطان القمر» ليس في (ف)، وبعدها في (ر): «في».

(٥) في (ف): «فعلم أن لله» بدل: «لله».

(٦) في (أ): «لخلق».

(٧) بعدها في (ف): «نوع من».

(٨) في (ف): «إليه». وما سلف بين حاصرتين من «تأويلات أهل السنة».

ثمَّ أوَّل ما أخذَ في التَّأمُّل والنَّظر، لم يقع بصرُه على أحسن وأبهى مِن الزُّهرة، فظنَّ ذلكَ، ثمَّ لـمَّا قُهِرَ، علمَ أنَّه ليس هو، وكذلك القمرُ والشَّمسُ؛ إذ رأى في الكل آثارَ التَّسخير، فرجعَ إلى ما سمعَ أنَّه خلقَ السَّماوات والأرض، فوجَّه نفسَهُ إليه بالعبوديَّة، واعترف له بالربوبيَّة، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وكان ذلك أوَّلَ أحوال الاستدلال.

قال: وقال الحسنُ: كان بالغاً قد جَرى عليه القلمُ، وقد كان رأى ما ذكرَ غيرَ مرَّة، لكنَّ اللهَ تعالى لمَّا أرادَ أنْ يَهديَهُ، ألهمَهُ ذلك، فألقى في نفسه، فانتبهَ انتباهَ الإنسانِ لشيءٍ كان عنه غافلاً، فرأى كوكباً أحمرَ يَطلُع عند غروبِ الشَّمس، فراعاهُ إلى أنْ أفَلَ، فعلمَ أنَّ ربَّه لا يزولُ ولا يَتغيَّر، ففزعَ إليه، وقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾، وكذلك في القمر والشمس، إلى أنْ تَبرَّأَ ممَّا كانوا يُشرِكون، ووجَّهَ التَّوحيدَ والعبادةَ إليه[1].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ونحن نَتبرَّأُ إلى الله تعالى أنْ نَجعلَهُ رجلاً بالغاً جرى عليه القلم، وهو عن اللهِ تعالى كان بهذه الغفلة، حتَّى يَتوهَّم ذلك في نجمٍ أو قمرٍ أو شمسٍ، مع ما يرى فيها[2] الظهورَ بعد أن لم يكن، والأفولَ بعد الطلوع، ثمَّ آثارَ التَّسخيرِ والعجز عن التَّدبير، ثمَّ نقولُ ذلك مع ما قال الله تعالى في حقِّه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فنقول: إنَّ إبراهيمَ كان مؤمناً في ذلك الوقتِ، عارفاً بربِّه حقَّ المعرفةِ، ولكن كلَّمَ قومَه كلامَ مستدرِجٍ؛ بإظهارِ المتابعة لهم؛ ليكونوا به أوثقَ، وإليه أميل، وذلك أبلغُ في الحِجاجِ، وألطفُ في المكيدة، فبدأَ بتعظيمِ ما عظَّموه؛ إذ هم قومٌ كانوا يُعظِّمون

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) بعدها في (ر): «من».

النُّجوم، وبالعلمِ بأمرِها أخبروا نمرودَ بولادةِ مَن يَهلِكُ على يديه هو ويزولُ ملكه، ولذلك قال: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨]؛ أي: في مقايسِها وعلمِها، لا أنَّه نظرَ إليها. قال: وإلى هذا ذهب القتبيُّ[١].

ثمَّ ذكرَ وجوهاً لذلك، ونحن نذكرُ بعضَها وبعضَ ما ذكرَ غيرُه مِن الأقاويل الصَّحيحة فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ يقال: جنَّهُ اللَّيلُ، وجنَّ عليه، وأجنَّه، وأجنَّ عليه؛ أي: ستره.

وقيل: جنَّه؛ أي: سَتَرهُ، وجنَّ عليه؛ أي: أظلمَ عليه، قال الهذلي:

وماءٍ وَردتُ قُبيلَ الكَرى ... وقد جنَّهُ السَّدفُ الأدهَمُ[٢]

ومنه اشتقاق الجَنَّة والجُنَّة والجِنَّة، والجِنان، والجنين، والجنون، والجَنن.

قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ قيل: الزُّهرة، وقيل: المشتري.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ قيل: في أوَّله ألفُ الاستفهام، وهو بمعنى الإنكار، وحَذْفُ ألفِ الاستفهام في كلام العربِ سائغ، قال الشاعر:

رفوني وقالوا يا خُويلِدُ لا ترع ... فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[٣]

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص:٣٣٧-٣٣٨)، وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٣٦ - ١٣٨).

(٢) هو للبُريق بن عياض الخُناعي أو لعامر بن سدوس. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٢/ ٧٥٢، ٨٣١)، وفيه: «الصباح» بدل: «الكرى»، وهو بمثل رواية المصنف في «تفسير الطبري» (٩/ ٣٥٥). والسدف: السواد في آخر الليل.

(٣) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣/ ١٢١٧). قال شارحه: رفوني: أي: سكنوني.

أي: أهم هم. ونظيرُه في القرآن: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]؛ أي: أَيُخادِعون اللهَ، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]؛ أي: أعبادٌ، ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أي: أوَ تلكَ نعمةٌ.

وقيل: أضمرَ فيه القولَ؛ يعني: يقولون: هذا ربِّي، وإضمارُ القول في القرآن كثيرٌ، منها: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ أي: يقولون: ربَّنا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ أي: غاب، قال ذو الرُّمَّة:

مصابيحُ ليسَت باللَّواتي يَقودُها نجومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوالكِ[1]

وصدف[2] مِن باب ضرب[3] ودخل جميعاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾؛ أي: لا أُثني على الذي يَتعاقب عليه الأحوالُ، ويَعتريه التغيُّر والزَّوال باستحقاق الربوبيَّة، ولا أعطيهِ المحبَّة التي تَجِبُ لله الذي يَستحيلُ عليه الزِّيادةُ والنُّقصان، والذَّهابُ والإتيان.

***

(٧٧) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾؛ أي: طالعاً بارزاً، وثَمَّ قومٌ يَعبدون القمرَ،

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٣/ ١٧٣٤).

(٢) في (أ) و(ر): «والصرف».

(٣) في (ف): «صرف». ولم يظهر لي وجه ارتباط هذه العبارة بالكلام!!

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: أهذا[١] ربِّي؟ على وجه الإنكار؛ أي: ليس هذا ربِّي، وأضمرَ القولَ لما مرَّ[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: لئن لم يُثبِّتني اللهُ تعالى على هدايتِه، لأصيرنَّ مِن الذين ضلُّوا السَّبيل، ولا يجوزُ ذلك على الأنبياء؛ فإنَّهم معصومون، لكنَّه تنبيهٌ لغيرِه، والهدايةُ هي التَّثبيت هاهنا، كما في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

***

(٧٨ ـ ٧٩) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾؛ أي: فلمَّا أصبحَ ورأى الشَّمسَ طالعةً بارزةً ـ وهناك قومٌ يَعبدون الشَّمس ـ أرادَ أن يُنبِّهَهم، ويُبطِلَ اعتقادَهُم.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: أهذا الطَّالعُ؟ أو أهذا النُّور؟ أو أهذا[٣] الشَّخصُ؟ وذلك لأنَّ الإشارةَ تقعُ إلى[٤] الشَّخص لا إلى الاسم، وهو استفهامٌ بمعنى النَّفي أيضاً.

قوله تعالى ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أشارَ إلى الشَّخصِ أيضاً، وأراد أنَّه أكبر[٥] شخصاً ونوراً من القمر والكواكب[٦].

---

(١) في (ر) و(ف): «هذا».

(٢) «لما مر»: ليس من (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «هذا» في المواضع الثلاثة.

(٤) في (ر) و(ف): «على».

(٥) في (ر): «أعظم».

(٦) في (أ): «والكوكب».

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: فلمَّا غابَت، وعرضَ لها ما عرض للأوَّلين تبرَّأ منها ظاهراً، ونبَّههم بهذا أنَّ الصَّانعَ هو الذي لا يجوزُ عليه شيءٌ مِن علامات الحدوث.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام كان يلاحظُ الآثارَ والأغيارَ بالله، ثمَّ كان يرى الأشياء لله تعالى ومن الله، ثمَّ طالعَ الأغيار محواً في الله، فصح منه قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إشارةً إلى الله.

وقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ يعني: أحاطَ به سجوفُ[1] الطَّلب، ولم يَتجلَّ له صباحُ الشُّهود، وطلعَ له نجمُ العقل، فشاهدَ الحقَّ بسرِّه بنورِ البرهان، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، ثمَّ زيدَ في ضيائه، فطَلعَ له قمرُ العلمِ، فطالعَهُ بحقيقةِ البيان، فـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، ثمَّ أسفرَ الصُّبح ومتعَ النهار[2]، وطلعَتْ شموسُ العِرفان، فلم يبقَ للطَّلبِ مكانٌ، ولا للتُّهَمة قرارٌ، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾؛ إذ ليس بعد العين ريبٌ ولا بعد الظُّهورِ سترٌ[3].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان يَنظرُ إلى هذا كلِّه وهو في السَّرب، فلما أفلَت الشَّمسُ أتى باب السَّرب، فرفعَ الصَّخرةَ عن بابِه، وخرجَ وهو ابنُ سبعِ سنين، فنظرَ إلى السَّماء والأرض، ثمَّ قال: ربِّي الذي خلقَ هذا، ثمَّ مضى حتَّى أتى قومَهُ فإذا هم يَعكفون على أصنامٍ لهم، فلمَّا رآهم قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ فقالوا: فمَن تعبُدُ أنت؟ فقال، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾؛ أي: أخلصتُ دِيني، وسَلَّمتُ نفسي.

---

(١) السجوف جمع سَجْف، وهو الستر. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: سجف).

(٢) في (ف): «وظهر النهار». يقال: متع النهار متوعاً: ارتفع قبل الزوال. «القاموس المحيط» (مادة: متع).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٥).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: خلقَها جميعاً، مُبتدِئاً خلقَهما.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مستقيماً، وقيل: مُخلِصاً، وقيل: حاجًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: باللهِ شيئاً من خلقه.

وقال الكلبيُّ ومحمَّدُ بن إسحاق: كان ذلك لـمَّا أتت عليه خمسَ عشرة سنة.

وقال الإمام القشيريُ رحمه الله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾؛ أي: أفردتُ قصدي لله، وطهَّرتُ عقدي عن غير الله، وحفظتُ عهدي في الله لله، وخلَّصتُ وجدي بالله، فأنا لله وبالله بل محوٌ في الله، فالله الله[1].

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾؛ أي: خاصموه بالباطل، وجادلوهُ، وخوَّفوهُ بآلِهتهم، كما قال بعضُ المشركين لنبيهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، فأجابهم وذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾؛ أي: بالباطل.

﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ هو لمعرفتِه، ولا تَرِدُ شبهةٌ على ما هداني له، فأمَّا الخوفُ فلستُ أخافُ آلهتكم التي تُشرِكونها بالله؛ لأنَّها لا تَضرُّ ولا تَنفع وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: إلَّا أنْ يُصيبَني اللهُ مِنها بضُرٍّ، فاللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يجعلَ فيما شاء نفعاً، وفيما شاء ضرًّا، فاللهُ هو المالكُ للنَّفع والضُّرِّ، والقادرُ عليهما، لا الأصنام؛ فإنَّها مواتٌ لا فعلَ لها.

وقالوا: كان القوم يعبدون النجوم والأصنام.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٥).

وقيل: كانوا صوَّروا أصناماً على هيئات النُّجومِ السَّبعة في السَّماء، وبنَوا لكلِّ واحدٍ مِنها هيكلاً يحاكي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يصيبُ عبداً شيءٌ مِن ضُرٍّ أو نفعٍ إلَّا وقد علمَه، فهو إنْ شاءَ عصمَني عن كلِّ(١) ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفلا تتَّعِظون بما أقولُ، وتَتفكَّرون أحوالَ أصنامِكُم، فتعلمون أنَّها لا تَستحِقُّ العبادة.

وقيل: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾: هو استثناءٌ منقطِعٌ، بمعنى «لكن»؛ أي: لكن لو شاءَ ربِّي أنْ يُصِيبَني ضررٌ، فذاكَ الذي أخافُه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ فقال لهم: أتَرومون سَتْرَ الشَّمسِ بإسبالِ أكمامِكم عليها، أو تريدون أنْ تَجرُّوا ذيولَكم، أو تُسدِلوا سجوفَكم على ضياءِ النَّهار، وقد تعالى سلطانُه، وتوالى بيانُه(٢).

* * *

(٨١) - ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «كيف» هنا للإنكار.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: خاصمَهُ قومُه، وخوَّفوهُ أصنامَهم(٣)، فقال: وكيف

---

(١) لفظ: «كل» من (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٥).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٥١).

أخافُ الأصنام، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ عذراً في كتابِ الله.

وقيل: أي: لا حجَّة معَكم على جوازِ إشراكِه؛ إذ لا حجَّةَ لهم في عبادةِ الجمادِ الذي لا يَقدر على ضرٍّ ولا نفعٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: أهل الدينين أنا وأنتم ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقالوا: أما تخافُ آلهتَنا وأنت تشتِمُها؟ قال إبراهيم: ولا تَخافون أنتم منها، قالوا: ولم ونحن نعبدُها؟ قال: لأنكم تُسوُّونَ بين الصَّغيرِ والكبير، والذَّكرِ والأُنثى، أما تَخافون الكبيرَ إذا سوَّيتموهُ بالصَّغير، أما تخافونَ الذَّكر إذا سوَّيتموهُ بالأنثى، ثم قال لهم: أمَن يَعبدُ إلهاً واحداً أحقُّ أن يأمنَ، أمَّن يَعبدُ آلهةً شتَّى، فقالوا: مَن يعبدُ إلهاً واحداً، قال: فأنا أعبدُ إلهاً واحداً لا شريكَ له، وأنتم تَعبدون آلهةً شتَّى، فقَضوا له على أنفسِهم.

وقيل: وكيف أخافُ الأصنامَ وهي لا تضر ولا تنفع؟ ولا تَخافون أنتم إلهي الذي خلقَكُم فأشركتُم به؟ ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أنا من آلهتِكُم، أم أنتم من إلهي؟!

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾؛ يعني: أيُّ خوفٍ يَقعُ على قلبي ظِلُّهُ ولم أُلِمِ بشركٍ، ولم أجنَحْ قطُّ إلى جَحدٍ؟ وأنتم ما شممتُم رائحةَ التَّوحيدِ في طول عمركم، ولا ذقتُم طعْمَ الإيمانِ في سالفِ دهرِكُم، ثمَّ بسوءِ غفلتِكم تجاسرتُم وما ارعويتُم، وخسِرْتُم [1] فما باليتُم، فأيُّنا أوْلى بأنْ يُلاحظَ بعينِ سرِّه ما هو بِصددِه مِن سوءِ مكرِهِ وعاقبةِ أمره[2].

---

(١) «وما ارعويتم وخسرتم»: ليس من (ف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٦).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذا مبتدأ، واختُلِف في أنَّه ممَّن، قال ابنُ زيدٍ وابنُ إسحاق: هو مِن اللهِ على فصلِ القضاء بذلك بينَ إبراهيمَ وبين قومِه[1].

وقال ابنُ جريجٍ رحمَه الله: هذا جوابُ قومِه لـمَّا سألَهم: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، فقالوا هذا[2].

وقال الزجاج رحمه الله: وهو جواب إبراهيم كما يسأل العالم ويجيب بنفسه[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: لـمَّا نزلت هذه الآيةُ قالوا: يا رسولَ الله، وأيُّنا لم يَظلم؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما هو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[4].

ورويَ أنَّه ﷺ سُئِلَ عن هذه الآية، فلم يُجِبهم، حتى جاء رجلٌ فأسلمَ، فلم يَلبث قليلاً حتَّى جاهدَ فاستشهد، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا مِنهم»[5].

وعن أبي بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنه: أنَّه كان يُفسِّرُهُ بالشِّرك[6].

وعن عمرَ رضي الله عنه: أنَّه كان يُفسِّره بالذَّنب.

والظُّلـمُ يَقـعُ علـى ذلك كلِّـه، فعلى تفسـيرِ الصِّدِّيق معنـاه: أولئكَ لهـم الأمنُ

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٦٩)

(٣) لم أقف عليه في «معاني القرآن» للزجاج، وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٥٤) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٩٣٧)، ومسلم في «صحيحه» (١٢٤).

(٥) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٨٨٥ ـ تفسير) عن إبراهيم التيمي، وهو مرسل.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٧٢).

من العذابِ المؤبَّدِ، وعلى تفسير الفاروق معناه: أولئك لهم الأمنُ مِن بعد العذابِ المؤقَّت.

وقال الحسنُ والكلبيُّ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ في الآخرة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدُّنيا.

وقال أبو روق: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ مِن العذاب، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحُجَّة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: الذين أشاروا إلى الله، ثمَّ لم يَرجِعوا إلى غير الله؛ فإنَّ مَن قال: الله، ثمَّ رجعَ بالتَّفضيلِ عند حاجاته أو مطالباتِه أو شيءٍ مِن حالاته إلى غير الله، فخصمُهُ في الدُّنيا والعُقبى هو الله.

والظُّلمُ في التَّحقيق: وضعُ الشَّيء في غيرِ موضعِه، وأصعبُه حسبان الحدثان ممَّا لم يَكُن فكان، فإنَّ الـمُنْشِئ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، والمجري الله، ولا إله إلَّا الله، وسقطَ[١] ما سوى الله[٢].

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾؛ أي: وتلك الحُجَّةُ التي حاجَّ بها إبراهيمُ قومه حجَّتُنا ﴿آتَيْنَاهَا﴾؛ أي: أرشدناهُ إليها، ووفَّقناهُ للوقوف عليها، وقد ذكرَ في سورةٍ أُخرى ما حاجَّ به قومَه حين كسر أصنامَهم[٣]، وفي سورةٍ

---

(١) في (ر): «وأسقط».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٦).

(٣) في سورة الأنبياء الآيات: (٥١ ـ ٦٧).

أُخرى ما قال للنُّمرود ـ لعنه الله ـ حين قال: أنا أحيي وأميت(١)، فيجوزُ أنْ يكون اسمُ الحجَّة شاملاً هذا كلَّه.

وقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قرأ عاصمٌ والكسائيُّ وحمزةُ وخلف ويعقوب(٢) بالتنوين، وهي مفعولُ ﴿نَرۡفَعُ﴾، و﴿مَّن﴾ مفعول ثان هاهنا، وقرأ الباقون بغير تنوينٍ على الإضافة وإفرادِ المفعول(٣)، ومعناه: ﴿نَرۡفَعُ﴾ مراتبَ ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا، فنؤتيه النُّبوَّة والملكَ والإمامة في الدِّين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنَّه يَضعُ الأشياءَ مواضعَ استحقاقِها، ومِن الحكمةِ إرسالُ الرُّسل، وتخصيصُ النَّبيِّين بالرِّسالة، وتأييدُ الرُّسلِ بالمعجزات، وهو أعلمُ حيث يَجعلُ رسالاته.

* * *

(٨٤) ـ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ أي: رزقناهُ جزاءً على نصرةِ الدِّينِ ومحاجَّةِ المشركين إسحاقَ ولداً، ويعقوبَ نافلةً.

وقوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيۡنَا﴾؛ أي: هدينا كلَّ واحدٍ مِنهم للحقِّ، ومِن أجلِّ الكرامةِ، وأتمِّ السرورِ: أنْ يكونَ للمرء بعد وفاتِه ولدٌ صالحٌ، خصوصاً إذا كانوا أئمَّةً في الدِّين، فكيف وهم أنبياء؟

---

(١) في سورة البقرة الآية: (٢٥٨).

(٢) قوله: «وخلف ويعقوب» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٤)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

وقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ قال الفرَّاء: أي: ومن ذريَّةِ نوح[1]؛ لأنَّه نسق عليه ذكرَ يونسَ ولوط، وليسا من ذُرِّيَّة إبراهيم، بل هما من ذُرِّيَّة نوحٍ عليه السَّلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهو إعطاءُ الذُّرِّيَّة الطَّيِّبةِ المهديَّةِ.

وقيل: أي: بالذِّكرِ والشَّرفِ والثَّناءِ الحسن.

وقيل: بالثَّواب والدَّرجات في الآخرة.

* * *

(٨٥ ـ ٨٧) ـ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ذكر في فريقٍ أنَّهم محسِنون، وفي فريقٍ أنَّهم صالحون، وفي فريقٍ: فضَّلناهم على العالمين، وفي فريقِ الهدايةَ والاجتباءَ، وهذا ليس على تخصيص كلِّ فريقٍ بما ذكرَ من الوصفِ، ولكنَّه على الجمع أنَّهم كذلك، ثمَّ[2] التفضيلُ يَحتمِلُ أنَّه بالنُّبوَّة[3]، ويَحتملُ أنَّهم

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤٢).

(٢) بعدها في (ر): «هذا».

(٣) من قوله: «أنهم كذلك» إلى هنا ليس في (ف).

كانوا مفضَّلين على العالمين بالإحسانِ والصَّلاح لو لم يكنْ رسالةٌ ولا نبوَّةٌ.

قال: وقوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾ هم مَن تقدَّمهم، ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ مَن تأخَّر عنهم، ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ من قارنوهم(١).

وقيل: ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ محمدٌ ﷺ.

وقيل: المؤمنون بعدَهم.

والاجتباءُ يكون بالرِّسالةِ، وهو خاصٌّ لهم، ويكونُ بالتَّوحيد والإسلام، وهو يَعُمُّ الأنبياءَ والمؤمنين، ويَحتملُ أنَّه برفعِ الدَّرجاتِ والفضائل. **وقوله تعالى**: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ للتَّبعيض؛ لأنَّ مِنهم مَن لم يجتبِهم.

وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، و﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ يَنقضُ قولَ المعتزلة؛ فإنَّهم يقولون: أعطى الكلَّ مِن الهُدى ما أَعطى الأنبياءَ والرُّسل، وشاءَ لكلِّ أحدٍ أنْ يَبلغَ المبلغَ الذي إذا بلغَ ذلك، صَلَحَ للنبوَّة والرِّسالة، لكنَّهم شاؤوا ألَّا يَبلغوا ذلك المبلغَ، فيجعلون المشيئةَ في ذلك إلى أنفسهم دون اللهِ تعالى(٢).

ودلَّت الآياتُ أنَّ مَن نالَ درجةً أو فضيلةً، فإنَّما نالَ بفضلِ اللهِ ومنَّته.

ثمَّ ذكرُ عيسى فيهم دليلٌ على أنَّ النَّسبَ يَثبتُ مِن قِبلِ الأمِّ، كما يثبتُ مِن قِبل الأب؛ لأنَّه جعلَهُ مِن ذُرِّيَّة نوحٍ، وهو لا يتَّصلُ به إلا بالأمِّ.

وحكي أنَّ يحيى بنَ يَعمر كان يُنازِعُ الحجَّاج في أنَّ العلويِّين أولادُ النَّبيِّ ﷺ، وكان الحجَّاجُ يَنفي ذلك، ويقول: هم أولادُ عليٍّ رضي الله عنه لا غير، حتَّى أحضرَهُ

---

(١) في (ف): «قاربوهم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

مقيَّداً في يوم مظالم، وقال: لتأتيني بحُجَّةٍ ظاهرةٍ على ذلك وإلا لأقتلنك[١]، فقرأ يحيى هذه الآية، وقال: إن عيسى عليه الصلاة والسلام ما كان لهُ أبٌ، ومع ذلك جعلَهُ مِن ذُرِّيَّةِ نوحٍ بسبب[٢] أمِّه[٣]، ولذلك[٤] احتُجَّ بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أنه دعا يومئذٍ الحسنَ والحسين رضي الله عنهما[٥]، فكانا من أبنائِه، فأطلقه.

***

(٨٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: ما ذكرَ في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، وفي قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ = هو هُدى الله، ولهُ أنْ يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عباده[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا إنباءٌ عن الحكمِ فيهم لو أشركوا، إلا أنهم لا يشركون؛ لأنَّ اللهَ تعالى

---

(١) في (ف): «قتلتك».

(٢) في (ف): «بنسب».

(٣) خبر الحجاج مع يحيى بن يعمر رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٥) (٧٥٥٤) بنحوه عن أبي حرب بن أبي الأسود، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٧٧٢) عن عبد الملك بن عمير وعاصم بن بهدلة.

(٤) في (ر) و(ف): «وكذلك».

(٥) خبر دعوة الحسن والحسين رضي الله عنهما عند نزول هذه الآية رواه مسلم في «صحيحه» (٢٤٠٤): (٣٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٦) بعدها في (ر): «من عباده».

قد عصمَهُم واختارَهُم لرسالتِه، وذكر هذا ليَعلموا أنَّ الحكمَ واحدٌ فيمن أشركَ بالله غيرَه، وضيعاً كان أو شريفاً، وكذا قال في حقِّ الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وقولُه: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي من الحسناتِ والخيرات قبل الإشراك[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: بيَّنَ أنَّه لولا تخصيصِه إيَّاهم بالتَّعريف، وتفضيلِه لهم على من سِواهم بغاية التَّشريف، لم يكن لهم استحقاقُ ذلك، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لو لاحظوا غيراً، أو شاهدوا[٢] من دوننا شيئاً، أو نسبوا شيئاً مِن الحوادث إلى غير قدرتِنا، لتلاشى ما أسلفوهُ مِن عرفانِهم وإحسانِهم؛ فإن الحقَّ لا يَغفِرُ الشِّركَ بحالٍ، وإنْ كان يَغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء، ما يشاء من عصيانهم[٣].

* * *

(٨٩) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: الكتبَ مِن الصُّحف والتَّوراةِ والإنجيل والزَّبور، ووحَّدَ لأنَّه جنسٌ، أي: أوحينا إليهم، وجعلناهُم الحكَّامَ على الأُمم، وأرسلناهُم بالنُّبوَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: فإن يَجحَد بهذه الأشياءِ أهلُ مكَّةَ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٥٦).

(٢) في (أ) و(ف): «وشاهدوا».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٧).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: قد هيَّأنا للإيمانِ بها قوماً ليسوا بها جاحدين، قيل: هم أهلُ المدينةِ، وهو بشارةٌ بإيمانِ الأنصار؛ لأنَّ السُّورةَ مكيَّةٌ.

وقيل: قد أقمنا لمراعاةِ النُّبوَّة والشَّرائعِ والقيام بها هؤلاء الأنبياء، وقد بشَّروا بخروجِكَ، ووَصفوا حالَك، وهذا أرفعُ لقدرِكَ مِن تصديقِ أشراف أهل مكَّة.

وقيل: الموكَّلون بها هم الملائكة.

وجملتهُ: أنَّه لا ضعفَ في حالِكَ بتكذيبِ أهل مكَّة، فقد صدَّقكَ الأنبياءُ والملائكةُ، ومن آمنَ مِن الجنِّ والإنس.

قال الزهري: هم العجمُ.

وقال مجاهد: هم الفرس، وهو كالأوَّل.

وقال أبو روق: هم علماءُ أهل الكتاب الذين أسلموا[١].

والقولُ الأوَّل أنّهم أهلُ المدينة والأنصار: قولُ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما[٢] والكلبيِّ.

* * *

(٩٠) ـ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الاقتداءُ: الاتِّباع، وقد

---

(١) انظر: أقوال الزهري ومجاهد وأبي روق في «التفسير البسيط» (٨/ ٢٦٧).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٩) (٧٥٧٤).

قداهُ يَقدُوهُ؛ أي: تبِعَهُ، والقدوة بفتح القاف وضمِّها وكسرها: الأسوة، و﴿ٱقْتَدِهْ﴾ أمرٌ، والهاءُ للاستراحة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يعني أولئكَ الذين طهَّرَ اللهُ عن الجحدِ أسرارَهُم، ورفعَ على الكافَّةِ أقدارَهُم، فاقتفِ يا محمَّدُ هداهُم المختار؛ فإنَّ مَن سلك الجدد[1] أمِن العِثار[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الهدى: اسم لما يُدانُ به، وليس باسم للأفعال، لا يقال لتارك الصلاة أو الصَّوم أو الزَّكاة: ضالٌّ، ودلَّ هذا على أنَّ الأنبياءَ كانوا على دينٍ واحدٍ، والدِّينُ لا يَحتمِلُ النَّسخَ والتَّغييرَ، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، فأمَّا الشَّرائعُ فهي مختلفةٌ، تَحتَمِلُ النَّسخَ[3].

وقيل: معناه أنَّ الأنبياءَ كانوا صابرين صالحين، خاشعين عابِدين، زاهدين[4] محسنين، كما ذكروا في آياتٍ، فكن كذلك، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ [الحجر: ٩٩]، ونحوها.

وقيل: أراد به ما بعدَه؛ أي: لم يكونوا يسألون الأجرَ مِن الأُمَم على التَّبليغ، فكن كذلك، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وكان الأنبياءُ كذلك، قال في قصَّة هودٍ: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ الآية [هود: ٥١]، وقال في قصَّة صالحٍ: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾

---

(١) في (ر): «الجداد»، وفي هامشها ـ وكأنها ملحقة بها ـ: «الأرض الصلب». وكذا فسرت في هامش (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٤) لفظ: «زاهدين» من (ر).

[هود: ٥١]، وقال في قصَّة نوحٍ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وقال في قصَّة شعيبٍ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٨٠]، فكذلك في حقِّ نبيِّنا في هذه السُّورة، وفي سورة حم عسق[1]، وقال في سورة الطُّور: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

والآيةُ دليلٌ على أنَّ أخذَ الأُجرة على تعليم القرآنِ والعلمِ وروايةِ الأحاديث ونحوها، وعلى الإمامةِ والأذانِ لا تجوزُ[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: ما هو، يعني: القرآن، إلَّا عظةٌ للجنِّ والإنس، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[3].

ثمَّ في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أضاف الهدى إلى الأنبياء، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أضافَهُ إلى نفسِه؛ لأنَّ اللهَ هو الهادي به، والأنبياء هم المهتدون به، وهو كما قلنا في الأجل: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

* * *

(٩١) ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

---

(١) يعني سورة الشورى في الآية (٢٣) منها.

(٢) اختلف في حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن وغيره من القرب. انظر تفصيل ذلك في «الموسوعة الفقهية» (٣٣/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ قال مجاهدٌ رحمه الله: الآيةُ نزلَت[1] في مشركي قريش؛ لمَّا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾، قالوا: ما أرسل الله رسولاً ولا أنزل كتاباً، فقال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

وقال أبو العالية: وما وصفوا الله حقَّ صفته[2].

وقيل: أي: وما عرفوه حقَّ معرفتِه.

وقيل: أي: وما عظَّموه حقَّ تعظيمه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: قل يا محمَّد للمشركين هذا الكلام؛ فإنَّهم وإنْ كانوا لا يؤمنون بموسى والتَّوراة، فإنَّهم يَرجعون إلى أهلِ الكتابِ في كثيرٍ مِن أمورِهم، ويُصدِّقونَهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَجعلونَهُ قراطيسَ يُبدونَها ويُخفون[3] كثيراً﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بياء المغايَبةِ فيها[4]؛ خبراً عن أهلِ الكتاب أنَّهم يَجعلون التَّوراةَ صحفاً وكتباً.

والقراطيس: جمعُ قِرْطاس، وهو الكتابُ والصَّحيفة، وقد قرطسَ؛ أي: كتبَ، وقال زهير:

بهـا أخاديـدُ من آثـارِ كاتبِـهـا ... كما تـردَّدَ فـي قرطاسِـهِ القلمُ[5]

---

(١) لفظ: «نزلت» من (أ).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٧٤).

(٣) في (أ): «تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون»، وهما قراءتان متواترتان.

(٤) وقرأ الباقون بالتاء فيها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٥) كذا نسبه لزهير الماورديُّ في «النكت والعيون» (٢/ ٩٥)، ولم أقف عليه في «ديوانه»، والراجح أنه لعدي بن الرقاع، وهو في «ديوانه» (ص: ١١٦)، وفيه وفي «النكت والعيون» «ساكنها» بدل: «كاتبها»، وهو الصواب.

وقيل: أي: طوامير[١].

وقال عبدُ العزيز بن يحيى: ﴿قَرَاطِيسَ﴾؛ أي: كتباً متفرِّقة، وذلك ضربٌ مِن الاستخفاف والتَّهاون، ولذلك نُهي أنْ يصغَّر المصحف[٢].

﴿ويخفون كثيراً﴾ عن العامَّة ما فيه نعتُ محمَّدٍ ﷺ والإسلام، ويبدون صحفاً قد عزلوها عن الجملة في مدحِ بني إسرائيل، وتثبيتِ دين موسى عليه السَّلام، وتأكيدِ أمرِهِ، ونحو هذا.

وقيل: يُبدون قراءةَ بعضها، ويُخفون قراءةَ بعضها، وهي في أحكامٍ لا يَرضون بها، كالرَّجمِ والقِصاص ونحوهما ممَّا ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ قال مجاهدٌ: هو خطابٌ للمسلمين مِن هذه الأمَّة[٣].

وقال الحسنُ: هو خطابٌ للعرب الكفَّار؛ أي: عُلِّمتُم بهذا القرآنِ ما لم تَعلموا أنتم، ولا عَلِمَهُ آباؤكم مِن أخبارِ ما يكون وما كان، ومِن الاحتجاجِ على الكلِّ، ولا يجوزُ أن يعلمَهُ محمَّدٌ إلَّا بوحيٍ، فمن أين جاء إنْ كان اللهُ لم يُنزِل على بَشرٍ مِن شيء؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ يعني: إذا قلت: مَن أنزلَ الكتابَ؟ فلم يجيبوا، فقل أنت: اللهُ أنزلَهُ، وقيل: أي: هو الله، وقيل: أي: اللهُ الحكمُ بيننا؛ بإضمارٍ قبلَه أو بعده، والأصحُّ هو الأوَّلُ؛ فإنَّه تامٌّ بغيرِ إضمار.

---

(١) جمع طامور أو طومار، وهو الصحيفة. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: طمر).

(٢) روي كراهة ذلك عن عمر وعلي، رواه عنهما أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٩٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٣) (٧٦٠٦).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: دَعهم وما هم فيه من التَّخليط والتَّكذيبِ بالكُتب على غير معرفةٍ، فإنَّهم إنَّما يَلعبون، فيَأتيهم الجزاءُ على خوضِهم ولعبِهم، وهي كلمةُ وعيدٍ.

وقيل: هو أمرٌ بالكفِّ عن القتال إلى أنْ يُؤمَر به.

قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ ومجاهدٌ ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ والرَّبيعُ بنُ أنس: الآيةُ في اليهودِ والنَّصارى(١)، والسُّورة مكِّيَّةٌ، لكنَّ هذه الآيةَ والتي تليها مدنيَّةٌ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مالكُ بن الصَّيف رأسَ اليهود، وكان سميناً، فأتى رسولَ الله ﷺ بمكَّة، فقال له رسولُ الله صلى الله عيه وسلم: «أنشدُكَ اللهَ الذي أنزلَ التَّوراة على موسى، هل تجد فيما أنزلَ اللهُ تعالى أنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ الحبرَ السَّمين؟» فقال: نعم، قال: «فأنت الحبرُ السَّمينُ، قد سَمِنتَ مِن مأكلَتِك التي يُطعِمُك اليهودُ» فضحِكَ القومُ، فغضبَ مالكٌ، ثمَّ التفتَ إلى عمر رضي الله عنه، فقال: يا عمر، ما أنزلَ الله على بشرٍ مِن شيءٍ، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٩١]، فلمَّا رجع مالكٌ إلى قومِه، قالوا: يا ويلَك، ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنَّه أغضبَني، فلذلك قلتُ ما قلت، قالوا له: أو كلَّما غضِبتَ كفرتَ، فنزعوهُ، وجعلوا مكانَه كعبَ بن الأشرف(٢).

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما في روايةٍ أخرى: إنَّ اليهودَ قالوا: يا محمد، أنزلَ اللهُ عليك كتاباً؟ قال: «نعم»، قالوا: واللهِ ما أنزل اللهُ تعالى مِن السَّماءِ كتاباً،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٥ـ ٣٩٦) عن محمد بن كعب وقتادة وابن عباس.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٤) دون نسبته لابن عباس. وكذا أورده أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٠٠)، وليس فيه التفاته إلى عمر رضي الله عنه. وأخرج نحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٣ـ ٣٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٢) (٧٥٩٧) عن سعيد بن جبير.

فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾[١]، أي: ضياءً مِن الضَّلالة، ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾[٢]؛ أي: تكتبونه[٣] في قراطيسَ مقطَّعةٍ، حتى لا تكونَ مجموعةً؛ لتُخفوا مِنها ما شِئتم، ولا يشعرَ بها العوام، ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بتاء المخاطبة على قراءة الأكثر؛ لأنَّه كان يُواجِهُهم بها، قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ على هذا التَّأويل خطابٌ لأهل الكتاب أيضاً، علموا بالتَّوراة ما لم يَعلموا هم ولا آباؤهم.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: لو كان هؤلاء أهلَ الكتاب في الحقيقة ما أنكروا الرُّسلَ، ولا الكتبَ؛ لأنَّ أهلَ الكتاب يؤمنون ببعضِ الرُّسل، وببعضِ الكُتُب، وإنْ كانوا يَكفرون ببعض، لكن هؤلاء أنْكَروا الرُّسل لـمَّا كانوا أهلَ نفاقٍ، ويكونُ من اليهود أهلُ نفاقٍ، كما يكونُ مِن أهل الإسلام، كانوا يُظهِرونَ الموافقةَ لهم، ويُضمِرون الخلافَ لهم، والموالاةَ لأهل الشِّرك، ويُظاهِرون عليهم، كما كان يفعل ذلك منافقو أهلِ الإسلام، كانوا يُظهِرونَ الموافقةَ لرسولِ الله ﷺ، ويُضمِرون الخلافَ له، ويُظاهِرونَ المشركين عليه، فأطلعَ اللهُ رسولَه على نفاقِهم؛ ليعلمَ قومُهم خلافَهم، وأنَّ ما كان من تحريفٍ وكتمانٍ كان منهم[٤].

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤٢) (٧٥٩٥)، (٧٥٩٦).

(٢) في (ر) و(ف): «يجعلونه»، ولم ينقط حرف المضارعة في (أ)، وسلف قريباً ما فيها من قراءات، وأثبتها بالتاء لتوافق ما سيأتي.

(٣) في (أ): «مكتوبة»، وفي (ر) و(ف): «يكتبونه»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٦٦).

(٩٢) ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ البرَكةُ: ثبوتُ الخيرِ على الازدياد، قال الشاعر:

ولا يُنجي مِن الغَمَراتِ إلَّا بُرَاكاءُ القتالِ أو الفرارُ[1]

أي: الثّبوت للقتال؛ يعني: وهذا القرآنُ كتابٌ كثيرُ الخيرِ، موافِقٌ للتّوراة التي كانَت قبلَه، وكانت ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وقد أنزلناهُ عليك.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: ولتُخوِّفَ أهلَ مكَّة، فأضمرَ الأهل، كما في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وسُمِّيَت مكَّةُ أمَّ القرى؛ لأنَّها مجتَمَعُ أهلِ القُرى، كما تَجتمِعُ الأولاد إلى الأمِّ.

وقال السُّدِّيُّ: لأنَّها أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ[2]، فكأنَّ القُرى تنشَّأت عنها.

وقال الزجاج: لأنَّها معظَّمةٌ عليها كتعظيم الأمِّ[3].

وقيل: هي من الأَمِّ، وهو القصدُ؛ لأنَّها مقصِدُ الخلقِ.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلاد والبوادي؛ أي: لإنذارِ أهل مكَّة ومَن حولَهُم مِن سكانِ كلِّ المواضع أنزلناه، دلَّت الواوُ على إضمار ذلك في آخره، كما في

---

(١) البيت لبشر بن أبي خازم، وهو في «ديوانه» (ص: ٧٩). والبراكاء ـ بفتح الباء وضمها ـ: الثبات في الحرب والجدّ. انظر: «لسان العرب» و«تاج العروس» (مادة: برك).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٥) (٧٦١٦).

(٣) نص قول الزجاج في «معاني القرآن» له (٢/ ٢٧١): سميت أمَّ القرى لأنها كانت أعظم القرى شأناً.

قولـه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أضمر: «أريناه» في آخره[١].

وقيل: تقديره: ليُصَدِّقَ الذي بين يديهِ وليُنذِر به هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾؛ أي: الذين يُصدِّقون بالآخرةِ مِن[٢] أتباعِ محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وقد تَدبَّروا هذا القرآنَ، فدلَّهم ذلك على أنَّه مُنزَّلٌ مِن عند الله، فصدَّقوا به، فهم به مؤمنون، وللصَّلواتِ الخمسِ ـ التي هي أعظمُ العبادات بعدَ الإيمان، وأجمعُها للخضوعِ والخشوعِ وخصالِ الخير ـ مؤدُّون، وعليها مداومون.

وقوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى القرآن، وقال الفرَّاء: إلى النَّبيِّ ﷺ[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإن قيل: إنَّ أهلَ الكتابِ يُؤمنونَ بالبعثِ، ولا يؤمنون بهذا الكتاب، فما معنى هذه الآية؟ والجواب عنه من وجوه:

أحدها: أنَّ هذا في قومٍ مخصوصين منهم، آمَنوا بالبعثِ وآمنوا به.

والثَّاني: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بالعلم والحُجَج، آمنوا بالقرآن؛ لأنَّ القرآن جاءَ بتأييد حججِ البعث وتأكيدِه، فلا يجوزُ أنْ يُؤمنوا بما يُؤيِّدُه القرآنُ، ولا يُؤمنوا بالقرآن.

والثالث: أنَّه إخبارٌ عن أوائلِهم أنَّهم كانوا آمَنوا بالبعثِ وبالآيات والحجج، فلمَّا جاءَ محمَّدٌ بالقرآنِ آمَنوا به[٤].

---

(١) ما بين معكوفتين ليس من (ف).

(٢) في (ف): «لمن».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤٤).

(٤) لفظ: «به» ليس في (ر)، وموضعه في (ف): «بالبعث وبالآيات والحجج».

والرَّابع: أنَّ الآيةَ في المؤمنين؛ أخبرَ أنَّهم آمَنوا بالآخرةِ، وآمنوا بالقرآن.

والخامس: أنَّ معناه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يَحِقُّ لهم أنْ يُؤمِنوا بالقرآن؛ لأنَّه به يَتزوَّدُ إلى الآخرة[1].

وقال غيره: إنَّ أهلَ الكتاب وإنْ آمنوا بالبعثِ، ولكن لا يعتدُّ[2] بإيمانهم؛ لأنَّ إيمانَهم بالآخرة للجزاءِ بالثَّواب والعقاب يَدعوهم إلى الإيمانِ به، والمحافظةِ على الصَّلواتِ، وسائرِ الطَّاعات.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخطرِ، جليلُ الأثرِ، فيه سلوةٌ عند غَلَباتِ الوجدِ، ومن بقي عن الوصول تذلَّل للرسول، وقيل في معناه:

وكُتبُكَ حولي لا تُفارِقُ مضجعي ... وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ
كأنِّي ملحوظ من الجن نظرة[3] ... وهنَّ حواليَّ الرُّقى والتَّمائِمُ[4]

***

(٩٣) ـ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٧٢).

(٢) في (ف): «لا يعبأ».

(٣) في (ف): «لحظة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٩).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: ومَن أظلمُ لنفسِه وعقلِه، وأوضعُ للشَّيء في غيرِ موضعِه، ممَّن اختلقَ على الله كذباً، وادَّعى أنَّه أرسلَهُ نبيًّا وأوحى إليه، ولم يكن أوحى إليه، كمُسيلِمةَ والعَنسيِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وممن قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ وهو عبدُ الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نزلت[1] في مسيلمة الكذاب الحنفي. وكذا قال مقاتل[2]، قال: زعمَ أنَّ اللهَ تعالى أوحى إليه، وكان أرسلَ إلى النَّبيِّ ﷺ رسولين، فقال لهما رسولُ الله ﷺ: «أتشهدان أنَّ مسيلِمةَ نبيٌّ؟» قالا: نعم، فقال ﷺ: «لولا أنَّ الرُّسلَ لا يُقتَلون لضَربتُ أعناقكما»[3].

وقال جابر رضي الله عنه: قال النبيُّ ﷺ: «رأيتُ في المنام كأن في[4] يديَّ سوارينِ من ذهبٍ، فكبُرا عليَّ، فقيل لي: انفخْهُما، فنفختُهما فطارا عنِّي، فأوَّلتُهما الكذَّابين اللذين أنا بينهما؛ كذابُ اليمامةِ مسيلمة، وكذابُ صنعاء الأسود العنسي»[5] قتله قيس بن مكشوح على عهدِ رسول الله ﷺ.

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ...﴾. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٤٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٨٥).

(٢) بعدها في (ر): «مسيلمة».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦). وخبر رسولي مسيلمة رواه أبو داود في «سننه» (٢٧٦١) من حديث نُعيم بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «بين».

(٥) لم أقف عليه عن جابر، وأخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٢١)، ومسلم في «صحيحه» (٢٢٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح، من بني عامر بن لؤي، أخو عثمان من الرَّضاعة، وكان تكلَّم بالإسلام، فدعاهُ النَّبيُّ ﷺ ليكتبَ له، فكان إذا ألقى عليه رسولُ الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، كتب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأشباه ذلك، فلمَّا نزل قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، أملى عليهِ رسولُ الله ﷺ الآيةَ، فعجبَ عبدُ الله مِن تفصيلِ خلق الإنسان، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فقال له رسولُ الله ﷺ: «اكتبها فهكذا نزلت[١]» فشكَّ عبدُ الله، وقال: لئن كان محمَّدٌ صادقاً، لقد أوحيَ إليَّ كما أوحيَ إليه، وإنْ كان كاذباً لقد قلتُ كما قال، ثم ارتدَّ عن الإسلام[٢].

وقال السُّدِّيُّ: فلحقَ بمكَّة بالمشركين، ووشى بعمَّار بنِ ياسر وبعبد ابن[٣] الحضرميِّ، فأخذوهما وعذبوهما حتَّى كفرا باللِّسان، وجُدِعت أذن[٤] عمار، وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ يعني: عماراً، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ يعني: عبدَ الله بنَ سعد بنِ أبي سَرْح[٥].

---

(١) في (ف): «أنزلت».

(٢) بعدها في (ر): «ونعوذ بالله». والخبر أورده الثعلبي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٦) من رواية الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما دون ذكر تبديله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأشباهها، وهذا المعنى أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) عن عكرمة والسدي.

(٣) في «تفسير الطبري» (٩/ ٤٠٦): ووشى بعمار وجبير عند ابن الحضرمي.

(٤) في (أ): «أنف». والمثبت موافق لمصدر التخريج.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).

وقال عطاء: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد المستهزئين، النضر بن الحارث وأصحابَه، والمقتسمين، قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أخبرَ عمَّا يَجري على هؤلاء الظَّالمين المذكورين في أوَّلِ هذه الآية عند موتِهم، فقال: ولو تَرى يا محمَّدُ، إذ هؤلاء المشركون الظَّالمون أنفسَهم وعقولهم في شدائدِ الموتِ وسكراتِه التي تَغمرُ عقولَهم؛ أي: تُزيلُها وتَغلبُ عليها كغمرةِ الماء، ورجلٌ مغامِرٌ؛ أي: مخاطِرٌ بنفسِهِ ملقٍ لها في الغَمَرات.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين هم قابِضو الأرواحِ مِن ملائكة العذاب، ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بعنفٍ وغِلْظَةٍ، يَقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ القولُ هاهنا مضمَرٌ لدلالة الحال عليه؛ أي: أخرجوا أرواحَكم مِن أبدانِكم.

وقال الحسن رحمه الله: أي: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ مِن هذه الشَّدائدِ لو قدَرتُم، وهذا توبيخٌ وصيغتُه صيغةُ الأمر، ومعناه التَّقريع، كقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [الأنعام: ٣٠][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: الهوانِ والذُّلِّ، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: بشركِكُم، وكذبِكم على الله، وتَعظُّمِكُم على الانقيادِ للحقِّ.

وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، وتقديرُه في آخره: لرأيتَ أمراً عظيماً، ونحو ذلك.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٦٩) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٢/ ١٤٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٩٠).

وقال الحسن: هذا في النار[١]، ومعنى قوله: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في شدائد العذاب، ولم يُرِدْ به حقيقةَ الموت، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وعلى هذا قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾، وله وجهان دون إخراج الأروح:

أحدهما ما حكيناه عن الحسن: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ مِن هذه العقوبات.

والثاني: بمعنى لاقوا شِدَّة العذاب، كما يُقال للواقع في الشِّدَّة والغيظ: أخرج نفسَك، وانْزِع روحَك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾: إنَّ الذين يَتنزَّلون منزلةَ المحدَّثين، ولم يلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب، فالحقُّ سبحانه وتعالى عنهم[٢] بريء، والمتشبِّعُ بما لم يَنَل، كلابس ثوبَي زورٍ ـ كما روي[٣] ـ، وأنشدوا في معناه:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود   تبيَّنَ مَنْ بكى ممَّن تباكى[٤]

* * *

(٩٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٩٠).

(٢) في (ر): «منهم».

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٥٢١٩)، ومسلم في «صحيحه» (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٨٩)، والبيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (بشرح المعري) (٤/ ٤٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ ويقال لهم في الآخرة هذا، أضمَرَ في أوَّله[١]، أو ذَكرَهُ بصيغة الماضي والمرادُ به المستقبل، كما ذكر في كثيرٍ مِن أمورِ يوم القيامة؛ لقربِه وتحقُّقه؛ إلحاقاً بالماضي، كالكائن المتحقِّق.

و﴿فُرَادَىٰ﴾ جمعُ فرد عند الفرَّاء[٢]، وعند بعضِهم جمعُ فريد، كما يُقال: قرين وقُرانى، ورَديف ورُدافى، ولا يَنصرفُ للياء المرسلةِ الزائدة في آخره؛ أي: جئتمونا مُنفرِدين[٣] عن الأعوانِ والشفعاء، وقيل: عن الأموالِ والخدَمِ والحشَم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: بهذه الصِّفة جئتُم، لا يَصحبكم ما كنتم تتكثَّرون به مِن الأعوان والأنصار والأموال، ولا معكم ما كنتم تعبدونَهُم وتزعمون أنَّهم[٤] شركاءُ لله شفعاءَ لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ التَّخويلُ: تَمليكُ الخَول؛ أي: الخدم والأتباع، وواحدُهم خائل.

وقيل: التَّخويلُ: الإعطاءُ على غير جزاء؛ أي: خلَّفتُم في الدُّنيا ذلك، وتَركتُموهم لا تَنظرون إليهم ولا تلتفتون، كالمنبوذِ وراءَ الظَّهر، إنَّما نظرُكم إلى أعمالِكم التي قدَّمتموها.

وقيل: أي: لم تُقدِّموا ما خوَّلناكم فتَنتفِعوا به، بل تركتموه لمن يَخلُفُكم مِن الورثة.

---

(١) بعدها في (ف): «هذا».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤٥).

(٣) في (أ): «متفردين».

(٤) في (ف): «أنتم» بدل: «وتزعمون أنهم».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: أصنامَكم التي قلتم: إنها شفعاءُ لكم وشركاءُ لي.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافعٌ وأبو جعفر[١] والكسائيُّ، وعاصم في رواية حفص: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنَّصب؛ أي: ما بينكم، أو: تقطَّعَ الودُّ بينكم، أو السَّببُ الذي[٢] بينكم.

وقرأ الباقون: ﴿بينُكم﴾ برفع النُّون[٣]؛ لأنَّه في معنى الاسم، ومعناهُ: تقطَّع وصلُكم.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: بَطَلَ ما قلتُم: إنَّها شفعاؤكم.

وقال عكرمة: قال النَّضر بن الحارث: يَشفعُ لي اللَّاتُ والعُزَّى، فنزلَت هذه الآيةُ[٤].

والآيةُ الأولى وعيدٌ لهم عند الموت، وهذا وعيدٌ لهم بعد البعث، و﴿بينُكم﴾ بالرَّفع؛ أي: وصلُكم، والبينُ الفصلُ أيضاً، وهو مِن الأضداد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ دخلتَ الدُّنيا بخِرْقَةٍ، وخرجتَ منها بخِرقَةٍ، ألا وتلك الخِرْقةُ أيضاً لبسة[٥]، وما دَخلتَ إلَّا بوصفِ التَّجرُّد[٦]، ولا خرجتَ إلَّا بحكمِ التَّجرُّد، ثمَّ الأثقالُ والأوزارُ والأحمالُ والأوضار

---

(١) قوله: «وأبو جعفر»: زيادة من (ف).

(٢) لفظ: «الذي» من (أ).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٠) (٧٦٤٤).

(٥) كذا، ولم يتبينها محقق «لطائف الإشارات» فترك موضعه نقاطاً، فالله أعلم.

(٦) في (ر): «التردد».

لا يَأتي عليها حصرٌ ولا مقدار، فلا مالُكم أغنى عنكم، ولا حالُكم يرفع منكم[١]، ولا شفيعَ يُخاطِبُنا فيكم، لقد تَفرَّقَ وصلُكم، وتَبدَّد شملُكم، وتلاشى ظنُّكم[٢]، وخابَ سعيُكم[٣].

***

(٩٥) ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ الذي أنتم أيُّها المشركونَ معترِفون به هو اللهُ الذي فلقَ الحبَّ؛ أي: شقَّ الحبَّ في الأرضِ، فأخرجَ منه النَّباتَ والزَّرع، وفلقَ النَّوى؛ أي: شقَّ النَّوى، فأخرجَ مِنهُ الغِراسَ والأشجار.

وقيل: أي: يَشُقُّ الحبَّ اليابسَ، فيُخرِجُ منه الورقَ الأخضرَ.

والحبُّ: جمعُ حبَّة، والنَّوى: جمعُ نواة.

وقال مقاتل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ أي: خالق البُرِّ والشَّعيرِ والذُّرة والحبوبِ كلِّها، ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ يعني: كلّ ثمرةٍ لها نوى؛ الخوخُ والنَّبَقُ والمشمشُ والغُبيراء والإجَّاص، وما كان من الثِّمار لها نوى[٤].

وقيل: هو ما يُوجدُ من الشَّقِّ في الحبِّ والنَّوى، ووجودُ ذلك على هذه الهيئةِ فيه أعجوبةٌ ودلالةٌ على صنعِ صانعٍ.

---

(١) في (ر) و(ف): «يدفع عنكم»، وفي (أ): «يدفع منكم»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٢) في (أ): «حلفكم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٩٠).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٧٩).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أخبرَ أنَّه يَشقُّ النَّواةَ مع شدَّتِها وصلابتِها، ويُخرِجُ منه نبتاً أخضرَ ليِّناً، ما لو اجتمعَ كلُّ الخلائقِ على إخراجِ مثلِه ما قَدَروا عليه، وإنَّ مَن قدَرَ على هذا لقادرٌ على إعادة الخلقِ وبعثِهم بعد موتهم.

وفيه دليلٌ أنَّه فعلُ صانعٍ واحدٍ؛ لأنَّه لو كان فعلَ عددٍ لكان إذا أرادَ هذا شقَّه منعَهُ الآخرُ.

وفيه دليلٌ على أنَّه على تدبيرٍ خرجَ، لا جُزافاً، حيث اتَّفقَ ذلك كلُّه في كلِّ عامٍ على وجهٍ واحدٍ[1].

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: الإنسانِ من النُّطفة[2].

وقال الحسن: أي: المؤمنِ مِن الكافر[3].

وقيل: الطائعِ مِن العاصي.

وقيل: الطيرِ من البيضة.

وقيل: أي: السُّنبلة مِن الحبَّة، والشَّجرة من النَّواة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: هو مخرجُ الميِّت من الحيِّ؛ النُّطفةِ مِن الإنسان، والبيضةِ مِن الطير، والكافرِ مِن المؤمن، والعاصي من الطَّائع، والحبَّةِ مِن السُّنبلة، والنَّواةِ مِن الشَّجرة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (عند تفسير الآية ٢٧ من سورة آل عمران) (٥/ ٣١٠).

و«مخرج» موصولٌ بقوله: ﴿فَالِقُ﴾، وبينهما: ﴿يُخْرِجُ﴾؛ لأنَّه فعلٌ دائمٌ، والاسمُ المأخوذُ مِن الفعلِ يَدلُّ عليه، فتجانسا.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: القادرُ على هذه الأشياء، والمنعمُ بها هو اللهُ وحدَهُ، لا الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فإلى أين تُصرَفون عن هذا حتَّى تَعدِلوا به غيرَهُ.

***

(٩٦) ـ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾؛ أي: هو الآتي بالنَّهار معاشاً، والفَلْقُ: الشَّقُّ، و﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾: الصُّبح.

وقوله تعالى: ﴿وجاعلُ اللَّيلِ سكناً﴾ قرأ حمزةُ وعاصمٌ والكسائيّ وخلف[1]: ﴿وَجَعَلَ﴾ وهو فِعلٌ، و﴿ٱلَّيْلَ﴾ نُصِبَ لأنَّه مفعول، و﴿سَكَنًا﴾ مفعولٌ ثانٍ.

وقرأ الباقون: ﴿وجاعلُ اللَّيلِ سكناً﴾[2] وهو صفةٌ، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ﴾، و﴿الليلِ﴾ مضافٌ إليه، و﴿سَكَنًا﴾ مفعولٌ بالفعلِ الذي دلَّ عليه قولُه: ﴿وجاعلُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بالنَّصب على القراءتين المتقدِّمتين؛ أمَّا على قراءة من قرأ: ﴿وَجَعَلَ﴾ فظاهرٌ أنَّهما معطوفان على قوله: ﴿ٱلَّيْلَ﴾، وأمَّا على قراءةِ مَن قرأ: ﴿وجاعلُ اللَّيلِ﴾ فبتأويل وقوع ﴿جاعلُ﴾ على ﴿اللَّيلِ﴾؛ لأنَّهم

---

(١) قوله: «وخلف» من (ف).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

يَذهبون بالفعلِ الدَّائم إذا أضافوهُ مذهبَ الماضي، يقولون: وحشيٌّ قاتلُ حمزة؛ أي: الذي قتلَ حمزة، فإذا نَسقوا على ما خفضوهُ بظاهرِ لفظة الإضافةِ، نَسقوا عليه بالنَّصبِ؛ لأنَّه عندَهم في تأويلِ منصوبٍ.

ومعنى قوله: ﴿حُسۡبَانٗا﴾ أنَّهما يَسيرانِ في الفلَكِ بحسابٍ معلومٍ، لا يَختلِفُ على مرورِ الزَّمان[1]، وذلك قولُ الكلبيِّ[2]، منازلُهما بحسابٍ معلومٍ لا يُجاوزانِه، حتَّى يَنتهيا إلى أقصى منازِلِهما، والحُسبان جمعُ حِساب، كالشُّهبان جمعُ شهاب.

وقيل: أي: بحساب ما يَحتاجُ إليه العبادُ في معايشِهم ومعاملاتهم؛ أما الشَّمسُ فللثِّمار والحرثِ والنَّسل، وفي ذلك قِوَامُ العالم، وأمَّا القمرُ فلآجال الدُّيون، ومواقيتِ الأشياء، كما قال في الأهِلَّة: ﴿هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ أي: هو تقديرُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالَبُ، و﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بمصالحِ العباد، وما يَعبدون مِن دونِه عاجزٌ عن هذا كلِّه، وليس بعزيزٍ ولا عليم، فكيف يُعدَلُ بالله.

* * *

(٩٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ قال

---

(١) في (ف): «الأزمان».

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٥٠٣).

قتادة: جُعِلَت النُّجومُ لثلاثة أشياء؛ ليُهتدَى بها في ظلماتِ البرِّ والبحر، وجُعِلت زينةً للسَّماء[١]، وليُرمى بها الشَّياطين[٢].

وقال مقاتل: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ نوراً[٣]؛ لتَعرِفوا بها الطَّريق ليلاً إذا سرتُم ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[٤].

وقوله: ﴿لَكُمُ﴾ ليس للملكِ بل للانتفاع.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفيه دليلُ وحدانيَّة الرَّبِّ وتدبيرِه وحكمتِه؛ لأنَّه جعلَ في السَّماءِ أدلَّة يَهتدون بها، ويَستدِلُّون بها على معرفة الطُّرق[٥]، مع بعدِ ما بين السَّماءِ والأرض مِن المسافة، وسوَّى أسبابَهما، وعلَّقَ منافعَ بعضِها ببعض؛ ليُعلمَ أنَّه كان بواحدٍ مدبِّرٍ حكيمٍ[٦].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قد بيَّنَّا العلاماتِ الدَّالَّات[٧] على انتفاءِ الأضداد والأندادِ لقومٍ يَفهمون.

وقيل: تفصيلُ الآياتِ أن يُؤتَى بها فصولاً، حتَّى يُفردَ كلُّ فصلٍ بالتَّأمُّلِ، فيكون أبلغَ في الاعتبارِ، وأبعدَ مِن الالتباس.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فلقَ صُبحَ الكونِ فأشرقَت به

---

(١) من قوله: «قال قتادة» إلى هنا من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٣) (١٦٥٣٦).

(٣) من قوله: «وليرمى بها الشياطين» إلى هنا ليس في (ف).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٠).

(٥) في (ر) و(ف): «الطريق»، والمثبت موافق لما في «تأويلات أهل السنة».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٨٤).

(٧) في (ف): «الدالة».

الأقطارُ، كذلك فلقَ صبحَ القلوبِ، فاستنارَت به الأنوارُ، وكما جعل اللَّيلَ سكناً، تَسكنُ فيه النُّفوسُ مِن كَدِّ التَّصرُّف في أسباب المعاش، كذلك جعلَ اللَّيلَ سكناً للأحبابِ، يَسكنون فيه إلى روحِ المناجاة إذا هدأَت العيونُ مِن الأغيار، كما قيل:

اللَّيلُ للعاشقين سِترٌ   يا ليتَ أوقاتَهُ تَدومُ[١]

وجعلَ الشَّمسَ والقمرَ يجريان بحسابٍ معلومٍ، على حدٍّ معلوم، فالشَّمس بوضعها[٢] منذ خلقت لم تَنقُص، ولم تَزدَد، والقمرُ لا يَبقى ليلةً واحدةً على حالةٍ واحدةٍ، بل هو أبداً في الزِّيادةِ والنُّقصان، فلا يَزالُ يَنمو حتَّى يصيرَ بدراً، ثمَّ يَنقُصُ حتَّى لا يُرى، ثمَّ يأخذُ في الظُّهورِ، كذلك دأبُهُ أبداً إلى أن تَنقضي العادةُ، فلا نقصانَ ولا زيادة.

قوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم﴾ الآية، فكما أنَّ نجومَ السَّماءِ يُهتدى بها في الفلَوات، فكذلك نجومُ القلوبِ يُهتدَى بها في معرفةِ ربِّ الأرض والسَّماوات[٣].

❊ ❊ ❊

(٩٨) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي آدمُ صلوات اللهِ عليه، وقد فسَّرنا ذلك في أوَّلِ سورة النساء.

---

(١) من قوله: «كما قيل» إلى هنا ليس في (ف)، ولا ورد البيت في «لطائف الإشارات» وهو لأبي فراس الحمداني، انظر: «ديوانه» (ص: ٣٤٤).

(٢) في «لطائف الإشارات»: «بوصفها».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٠ ـ ٤٩١).

وقوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وسهلٌ ويعقوب[١]: ﴿فمستقِرٌّ﴾ بكسرِ القاف، وهو نعتٌ، ومعناه: فمِنكم مُستَقِرٌّ، ومِنكم مُستودَعٌ.

وقرأ الباقون بفتح[٢] القاف[٣]، وهو مصدرٌ أو موضعٌ، ومعناه: فلكم مستقَرٌّ ومستودَعٌ.

واختلف فيهما؛ روى عوفٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كلُّ مخلوقٍ قد فُرِغَ من خلقه فهو المستَقَرّ، والمستودَعُ ما في الأصلاب الذي هو مودَعُ خالقِه[٤].

وكتب حَبْرُ تيماءَ إلى ابن عباسٍ رضي الله عنهما يسألُه عن هذه الآية؟ فكتبَ إليه: المستودَعُ الصُّلب، والمستقر الرحم، ثم قرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥][٥].

وقال ابنُ الحنفية على عكسه: المستقر: الصُّلب، والمستودَعُ: الرَّحم[٦]؛ لأنَّ في الآيةِ تقديمَ ذكرِ المستقَرِّ على المستودَع.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: ويَحتمل ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في كلِّ حال؛

---

(١) قوله: «وسهل ويعقوب» من (ف)، وهي رواية روح عن يعقوب، وقرأ رويس عنه بفتح الراء. انظر: «النشر» (٢/ ٢٦٠).

(٢) في (أ): «فمستقر بنصب» بدل: «بفتح».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٨) من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٣١٣). ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩)، وفيه أن ابن عباس هو سأل حبر تيماء عن المستقر والمستودع فأجابه الحبر!!

(٦) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٦، ١٣٥٧) (٧٦٩٠)، (٧٦٩٧).

لأنَّه مستقرٌّ إلى أنْ يَنتقل[١]، ومستودع؛ لأنَّه على شرف أن يَنتقل، ويَحتمِلُ مستقرٌّ في اللَّيل، ومستودعٌ في النَّهار[٢].

وقال مِقْسَم: المستقرُّ: حيث يَأوي، والمستودَعُ: حيث يَموت[٣].

وقيل: المستقرُّ في الدُّنيا مدَّة حياتِه، والمستودَعُ: القبرُ إلى أنْ يُبعَثَ.

ورويَ عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الميِّتَ إذا بُعِثَ قالت الأرض التي كان مقبوراً فيها: اللَّهمَّ هذا ما استودعتَني»[٤].

والاستيداعُ: جعلُ الشَّيء في الشَّيء للاحتفاظِ به.

وقال سفيانُ بنُ عيينة: مستقرُّها في الدُّنيا، ومستودَعُها في الآخرة[٥].

وقال الحسنُ وقتادة: المستقرُّ: في القبر، والمستودَعُ في الدُّنيا حتَّى يَلحقَ بصاحبِه[٦].

وكان الحسن يقول: يا ابنَ آدم، أنت وديعةٌ في أهلِك، وأنشد قول لبيد:

وما المالُ والأهلون إلَّا وَديعَةٌ ... ولا بُدَّ يوماً أنْ تُرَدَّ الوَدائِعُ[٧]

---

(١) في (أ): «سفل».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٤) عن مقسم. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٨٤) عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٣٤) عن ابن عيينة بإسناده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه من طريق عبد الرزاق الطبريُّ في «تفسيره» (٩/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦)، وابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧) (٧٦٨٤)، (٧٦٩٥).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٤٢) عن قتادة عن الحسن.

(٧) انظر قول الحسن في «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٧٣)، والبيت في «ديوان لبيد» (ص: ١٧٠).

وعنه أيضاً أنه قال: المستقر من مات والمستودع أنتم[١]، وأنشدَ لسليمان بن يزيد العدويِّ:

فُجِعَ الأحِبَّةُ بالأحِبَّة قبلَنا ... فالنَّاسُ مَفجوعٌ به ومُفَجَّعُ
مستودَعٌ أو مُستَقَرٌّ قد خلا ... فالمستقرَّ يَزورُه المستودعُ[٢]

وقيل: المستودَعُ: ما دامَ في البطن؛ لأنَّه قليلُ اللُّبثِ، وتَختلفُ به الأحوال، فإذا خرجَ فلهُ مستَقَرٌّ في الأرض، على ظهرِها، ثمَّ في بطنِها ثمَّ في الجنَّة، أو في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، وقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقال كُريب عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: المستودَعُ: في الصُّلب، وفي الرَّحم، وفي القبر، والمستقَرُّ: يوم القيامة. فجعلَّ كلَّ موضعٍ لا قرارَ فيه مستودَعاً، وجعلَ المستقرَّ في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يَفهمون[٣].

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: الفقهُ: معرفةُ الشَّيء بمعناهُ الدالِّ على نظيرِه، ولهذا لا يقال: الله[٤] فقيهٌ، والعِلمُ ما يُعلم بنفسه، والله تعالى عالمٌ بالأشياء بذاتِه، لا بأغيارها ونظائرها[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٦، ١٣٥٧) (٧٦٨٩)، (٧٦٩٦).

(٢) البيتان لسليمان بن يزيد في «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٧٤)، وليس فيه إنشاد الحسن لهما.

(٣) بعدها في (ف): «الشيء».

(٤) في (أ) و(ر): «لله».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٨٦).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كما أنَّ للنُّفوسِ والأبشارِ مُستَقرًّا ومستودَعاً، فإنَّ للضَّمائرِ والأسرارِ مستقرًّا ومستودعاً، فمِن عبْدٍ مستقَرُّ قلبِه أوطانُ الشَّهواتِ والمُنى، ومِن عبدٍ مستقرُّهُ مربعُ الزُّهدِ والتُّقى، ومن عبدٍ مستقرُّهُ حيث لا مسكنَ ولا مثوى وراءَ الورى(١).

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ نقلَ الكلامَ مِن المغايبةِ إلى الإخبار عن نفسِه جمعاً بخطاب الملوك، وهو متعارفُ أهلِ اللِّسان.

قوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالماء وهو المطر.

وقوله تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ يعني: نباتَ ما تُنبِتُهُ الأرضُ مِن كلِّ شيءٍ.

وقيل: أي: غذاءَ كلِّ شيءٍ، وما يَنبتُ به ويَنمو كلُّ شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾؛ أي: مِن النَّباتِ ﴿خَضِرًا﴾؛ أي: زرعاً أخضرَ أوَّل ما يَظهر.

وقوله تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: مِن الزَّرعِ الأخضر ﴿حَبًّا﴾؛ أي: حباتٍ كثيرةً متراكبةً بعضُها فوق بعضٍ؛ لالتفافها، والحَبُّ جمعُ حبَّة، وإنَّما لم يقل: متراكبة؛ لظاهرِ اللَّفظِ الذي هو للواحدِ في الوضع.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾؛ أي: ومِن طلعِ النَّخل، وكرر «من»؛ لأنَّ الأُولى تقدَّمَت موضعَها، فأُعيدَت في موضعِها.

وطلعُها: أوَّلُ ما يطلُعُ من ثمرِها.

والقنوان: جمعُ قِنو، وهو الكِباسَة[١]، وقُنوان بضمِّ القاف لغةٌ.

والدَّانية: الـمُتدلِّيةُ القريبةُ مِن المتناوَل، وهذا عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما والبراءِ بن عازب وقتادةَ والضَّحَّاك[٢].

وقال الزَّجاج: وفيه حذفٌ، وتقديرُه: مِنها دانيةٌ، ومنها بعيدةٌ، كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحرَّ والبرد[٣].

وقال الحسنُ: أي: متدانيةً بعضُها إلى بعض[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ بكسرِ التاء وهو نصبٌ، وهي قراءةُ العامَّة؛ أي: أخرجنا به نباتَ كلِّ شيءٍ وجناتٍ أيضاً، أو[٥] عطفاً على قوله: ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾، وبالرَّفع ـ وهي روايةُ الأعشى والبرجميّ[٦] ....

---

(١) الكباسة: العذق، وهو من التمر كالعنقود من العنب. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: كبس).

(٢) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٧٥).

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ١٨٨).

(٥) في (أ): «أي»، وليست في (ف)، والمثبت من (ر)، وهو الصواب.

(٦) هو أبو صالح، عبدُ الحميد بن صالح بن عجلان، البرجميُّ التَّيميُّ الكوفي، مقرئٌ ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر بن عيَّاش ثم عن أبي يوسف الأعشى بحضرة أبي بكر، توفي سنة (٢٣٠هـ). انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

عن أبي بكر[١] عن عاصم[٢] ـ هي معطوفةٌ على قوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾، أو يُضمَرُ في أوَّله: ومنه جناتٌ، أو هناك جنات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بالنَّصبِ عطفاً على ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ على قراءة النصب، أو على قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أو ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في المنظر، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في المطعَم[٣].

وقال قتادة: ﴿مُشْتَبِهًا﴾ ورقُه، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ثمرُه[٤].

وقال مقاتلُ بن حيان: يشبهُ ورقُ الزَّيتونِ ورقَ الرُّمان[٥].

وقيل: أي: يَتشاكلُ بعضُها في الخِلقةِ والصُّورةِ والطَّعمِ واللَّون، ويَختلفُ بعضُها.

وقيل: ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في الألوان، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الطُّعوم، أو على العكس.

وإنَّما قال: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، ولم يقل: مشتبهة؛ لأنَّه أرادَ به جنسَ الثَّمرِ كلِّه، أو أراد[٦] به المذكور، وخصَّ الرُّمَّان والزَّيتونَ بالذِّكر مِن بين سائر الأشجار[٧]؛ لقربِ مكانِهما مِن القوم المخاطَبين، وعظَمِ خطرِهما عندهم.

---

(١) قوله: «الأعشى والبرجمي عن أبي بكر» من (ف).

(٢) انظر: «جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٠)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥٤٥)، والقراءة المشهورة عن أبي بكر عن عاصم كقراءة الجمهور.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٩٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٩) (٧٧١٣).

(٥) وهو قول مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٥٨١).

(٦) في (أ) و(ر): «وأراد».

(٧) في (أ): «الأشخاص».

وقال الزَّجاج: هما شجرتان تَزعُمُ العربُ أنَّ ورقَهما يَشتمل على الغصنِ مِن أوَّلِه إلى آخره، والبركة في ورقه اشتمالُه على عودِه كلِّه[1].

وقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[2]: ﴿ثُمُره﴾ بالضمِّ، وهو صيغةُ الجمع، وقرأ الباقون بالفتح[3]، وهو صيغةُ الفرد.

وذكرَ فعله على التَّذكير؛ لظاهر[4] اللفظ، وكذلك قال: ﴿ثَمَرِهِ﴾، ولم يقل: ثمرها؛ ذهاباً به إلى المذكور، أو إلى الذي سبقَ ذكره.

واليَنعُ: النُّضجُ والبلوغ، وقد يَنَع يَيْنَعُ وأينعَ، ويقال: ﴿وَيَنْعِهِ﴾ هو جمعُ يانع؛ أي: انظروا إلى اليانعِ منه، وهو كالتَّاجِر، وجمعُه التَّجْر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فيما ذكرنا دلالاتٌ على أنَّ لها صانعاً عليماً حكيماً حيًّا، قادراً على تتابعِ نعمه على عبادِه، وعلى البعثِ بعد الموت؛ بما تَرونَ مِن إعادةِ النَّباتِ بعد التَّلاشي، وعلى وجوب الشكرِ له، وبطلانِ إشراكِ غيرِه به، وخصَّ المؤمنين بها؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في هذه الآيات بيانُ قدرتِه، وسبوغ نعمتِه، وفيه محاجَّة المشركين في إبطالِ إشراكِهم بالله غيرَهُ، وتوجيهِهم الشُّكرَ إلى غيرِه.

وقال في قوله: ﴿خَضِرًا﴾: إنَّ الثَّمرَ أوَّل ما يخرجُ يكون خَضِراً، ثمَّ يَتحوَّلُ إلى لونٍ آخر، وأراد به بقاءَ النَّضرةَ بالماء، ولولاه ليبس.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٧٦).

(٢) قوله: «وخلف» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص:٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

(٤) في (أ): «على ظاهر».

وقال في قوله: ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾: هو إخبارٌ عن لطفِه وصنعِه؛ إذ ليس في وِسع البشرِ إخراجُه وتركيبُهُ على ذلك الوجه، وفيه إثباتُ إنشاءِ الشَّيء لا مِن شيء؛ لأنَّه أخرجَ مِن الحبَّةِ والنَّواةِ نباتاً أخضر، ولم يكن في الأصل ذلك.

وفيه نقضُ قولِ الدَّهريَّةِ في كون الأشياءِ في شيءٍ واحد؛ إذ لا يَحتمِلُ كونُ عشرةِ آلاف نواةٍ، أو حبَّةٍ في نواة، أو حبَّةٍ واحدةٍ، أو الشجرةِ بطولها: في النَّواة.

وقال في قوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾: لمَّا كان التُّرابُ والماءُ واحداً، واختلفَ الخارجُ، عُلِمَ أنَّه بتدبيرِ الله وتخليقِه، لا بالماءِ والتُّراب، وفي إخراجِ الثِّمارِ والحبوب على التَّعاقُب، وإنزالِ المطرِ على التَّفاريق، قطراتٍ لا تَختلِطُ مع كثرتها وازدحامِها وبعدها؛ ما لو اجتمعَ الخلائقُ على حفظه ما قدروا عليه = دلالةٌ أنَّه بمدبِّرٍ عليم حكيمٍ. وكذلك انتقالُ الثَّمرِ مِن حالٍ إلى حالٍ إلى ينعها، على وجوهٍ مختلفةٍ؛ دليلُ ما قلنا[1].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: تَجانسَت أجزاءُ الأرضِ، وتوافقَت أقطارُ الكون، وتباينَ النَّباتُ في الطَّعم واللَّون، فدلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسانٍ فصيحٍ، وبيانٍ صريح، أنَّه لا يَستقِلُّ بنفسِه، وأنَّه موجودٌ بإيجادِ ربِّه[2].

❊ ❊ ❊

(١٠٠) ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾؛ أي: جعلَ المشركون الجنَّ شركاءَ لله، وهم الذين قالوا: بيزدان وأهرمن.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٩).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٢).

وقيل: هو ردٌّ على بني مليح؛ قالوا: إنَّ اللهَ صاهر الجنَّ، فولدت له الملائكة، وهم بناتُه.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾؛ أي: هو خلقَ الكُلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾؛ أي: اختلقوا وافتروا عليه بنسبةِ البنين والبنات إليه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: جهلاً.

وقيل: هم الذين قالوا: عزيرٌ ابن الله، والمسيح ابنُ الله.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أمرَ عبادَهُ بتنزيهِه عن ذلك، ونصبُه على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: تنزَّهَ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: من الشَّريك والولد.

* * *

(١٠١) ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مبدِعُها، وقد فسَّرناه في سورة البقرة بأتمَّ مِن هذا[1].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؛ أي: أبدعَ السَّماوات والأرض، ومن فيهما، وما فيهما من الملائكةِ والجنِّ، وكلَّ ما أشرك هؤلاء بالله، فلا يجوزُ أنْ يُسوَّى به شيءٌ مِن خلقِه في العبادة، ولا يجوزُ أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّ الولدَ إنَّما يُحتاجُ إليه للاعتضاد به، أو للخدمة منه، أو للاستئناس به، أو لبقاءِ الذِّكرِ به بعد موت الوالد، واللهُ تعالى يَتعالى عن ذلك كلِّه علوًّا كبيراً.

(١) عند تفسير الآية (١١٧) منها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾؛ أي: زوجة؛ أي: مِن أين يكونُ له ولدٌ؟ وكيف يكون له ولد؟ فالولدُ إنَّما يَكون عن ملاقاةِ زوجةٍ، والملاقاةُ والمماسَّة والمحاذاةُ تَستحيلُ في وصف[١] الباري جلَّ وعلا، والصاحبةُ لا تكونُ إلَّا كفؤاً، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي[٢]: الأشياء كلّها بتخليقِه وفي ملكه وحكمه، فلا كفؤَ له مِن خَلْقِهِ، ولا حاجةَ له إلى غيرِه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فله العِلمُ والقدرةُ على الكمالِ، فلا مثلَ له، ولا مثال.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ أي: الموصوفُ بكمالِ القدرةِ والعلمِ والمُلكِ، والمنزَّهُ عن شبه[٣] المخلوقين، هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وحدَه، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يَستحِقُّ هذا، فإياه فاعبدوا.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: حافظٌ مُدبِّرٌ، مصرِّفٌ على إرادته[٤]، فلا يَستحِقُّ العبادةَ غيرُه.

---

(١) في (ر): «حق».

(٢) بعدها في (ر): «خلق».

(٣) في (ف): «سمة».

(٤) في (ر): «ما يريد بإرادته» بدل: «إرادته».

وقال الإمام القشيريُّ رحمَهُ الله: تَعرَّف إليهم بآياتِه، ثمَّ تَعرَّف إليهم بصفاتِه، ثمَّ كاشفَهم بذاتِه، بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعريفُ العوامِّ والأصاغر، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريفُ الخواصِّ والأكابر[1].

* * *

(١٠٣) - ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: لا تحيطُ به؛ لأنَّ الإحاطةَ تكون بالمحدود والمتناهي، واللهُ يَتعالى عن ذلك، وحملَهُ المعتزلةُ على نفي الرؤية، وليس كذلك؛ فإنَّ الإدراكَ ليس باسم الرُّؤية، ونفيُه ليس بنفيِ الرُّؤية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، نفى الإدراكَ مع إثبات الرؤيةِ، فصحَّ ما قُلنا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: تُحيطُ رؤيتُه وعِلْمُه بالأشياءِ كلِّها، فله كمالُ العلمِ والصِّفات، والمخلوقاتُ كلُّها تحت قدرتِه وسلطانِه ومملكتِه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ في فعالِه[2] بالعباد، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العالمُ بالعبادِ وأعمالِ العباد.

قال: وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: البارُّ الرَّحيم.

قال: وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: العليمُ بخفيَّاتِ الأشياء، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: العليمُ بظواهرِ الأشياء[3].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٣).

(٢) في (ف): «أفعاله».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٠٠).

وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: الذي لا يَخفى عليه شيءٌ.

وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: العالمُ بدقائقِ الأمورِ ومشكلاتِها.

وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: الذي أَعطى فوق الكفايةِ، وكلَّفَ دون الطَّاقة.

وقيل: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: المحسِنُ المتفضِّل الرَّفيق.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: حُجَجٌ ظاهرات.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فمَن تَدبَّر فيها منصِفاً لا معانِداً[1] ولا متعصِباً، أبصرَ الرُّشدَ، وكان نفعُه له.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: مَن تَعامى عنها فضَررُ ذلك على نفسِه.

وقال الكلبي: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: القرآن ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ صدق القرآن وآمن بمحمَّدٍ، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عَمِلَ وأحرزَ الثَّواب، ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ فلم يُصدِّق، فعلى نفسِه جنى[2] العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: قل يا محمَّد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم﴾ في هذه الحالة برقيبٍ أقهرُكم على قَبولِه، بل ذاك إلى الله سبحانَه، ونسخَتهُ آيةُ القِتال.

---

(١) في (ف): «مقلداً».

(٢) في (ف): «جِدّ». ولعل صوابها: «جرَّ».

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أوضحَ السَّبيلَ، وألاحَ الدَّليلَ، وأزاحَ العِلل، وأنارَ السُّبلَ، ولكن قيل[١] في معناه شعر:

وما انتفاعُ أخي الدُّنيا بمقلتِهِ ... إذا استوَت عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ[٢]

***

(١٠٥) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: وكما صرَّفنا الآياتِ في هذه السُّورةِ[٣]، نُصَرِّفُها بعد هذا في سائر السُّور.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: ﴿دارستَ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿دَرَسْتَ﴾ بغير ألف، بفتح التَّاء على الخطاب، إلَّا ابن عامر، فإنَّه قرأ: ﴿دَرَسَتْ﴾ بتسكينِ التَّاء[٤].

و﴿دارست﴾ معناه: ذاكرتَ به أهلَ الكتاب وقارأتهم، وهو عن ابن عباس وسعيد بن جبير[٥].

﴿دَرَسْتَ﴾ بغير ألف؛ أي: قرأتَ عليهم، وتعلَّمتَ منهم.

و﴿درسَتْ﴾ بتسكين التاء؛ أي: هذه أخبارٌ قد دَرَسَتْ وانمحت آثارُها؛ لتَقادُم العهد، وهو عن الحسن[٦].

---

(١) في (ر) و(ف): «ولكن قيل».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٣)، والبيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (بشرح المعري) (٣/ ٢٥٢).

(٣) بعدها في (أ): «تصرفها».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٧٧).

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نُبيِّنُ الآياتِ في القرآن، في كلِّ وجهٍ نَدعوهم بها ونُخوِّفُهم، ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ يعني: أهلُ مكَّة حين تقرأ عليهم القرآن: ﴿دَرَسْتَ﴾ يقولون: تَعلَّمتَ مِن يسار أبي فُكيهة، وجبرٍ مولى قريش، وقرأت علينا، تَزعُمُ أنَّه مِن عند الله(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: واختلافُ القراءات(٢) لاختلافِ أقوال(٣) الكفَرة لرسول الله ﷺ؛ منهم من قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فهو تأويل ﴿دارسْتَ﴾، ومنهم من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فهذا تأويل ﴿درسَتْ﴾ بالسكون، ومنهم من قال: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] فهذا تأويلُ ﴿دَرَسْتَ﴾ بالفتح(٤).

ثمَّ معنى الكُلِّ عند بعضهم أنَّ فيها إضمارَ: لا، وتقديرُه: وكذلك نُصرِّفُ الآيات لئلَّا يَقولوا دارسْتَ أهلَ الكتابِ، أو(٥) أخذت منهم، أو هذه أخبارٌ قد مضَت، إذا تأمَّلوا في الآياتِ وعرَفوا الدِّلالات، وهذا الإضمارُ كما في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقوله: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقيل: هو بغيرِ إضمار، وهو بيان العاقبة؛ أي: صرَّفنا الآياتِ، فعاندَ بعضهم، وقالوا ذلك، وصارَ بياناً للعالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٣٣٨، ٣٤٠)، و«تفسير البغوي» (٣/ ١٧٥).

(٢) في (أ): «القراءة».

(٣) في (ر): «أقاويل».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٠٤).

(٥) في (أ): «أي». وفي (ف): «و».

أي: المؤمنين العلماء؛ فإنَّ الآياتِ تقعُ بياناً لهم، وزيادةَ علمٍ بالله وبدينِه، فأمَّا المعانِدون فيقولون: هذا شيءٌ أخذتَهُ مِن أهل الكتاب، أو سمعتَ الأخبارَ، فجعلتها كتاباً مِن عندِك، وأضفتَهُ إلى الله كاذباً، فإذا قالوا ذلك، حقَّ العذابُ عليهم.

ثمَّ الواو في: ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾[١] ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ إمَّا أن تكون صلةً، أو يُضمر في آخره فعلٌ؛ أي: وكذلك صرَّفنا الآياتِ، كما مرَّ في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

* * *

(١٠٦) ـ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٢]، قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: دعا المشركون رسولَ الله ﷺ إلى ملَّةِ آبائه، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن القرآن[٣].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإيَّاه فارجُ، وإيَّاه فخَفْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا تُعاقِبهم في الحال[٤] إلى أنْ يرِدَ الأمرُ بالقتال.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

---

(١) في (أ): «قوله» بدل: «وليقولوا».

(٢) بعدها في (ف): «من القرآن».

(٣) ذكر نحوه أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٠٦) دون نسبة.

(٤) في (ر): «للحال»، وليست في (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ بيَّنَ أنَّهم لا يُشرِكون على خلاف مشيئة الله قهراً له، وأنَّه لو علم منهم[1] اختيارَ الإيمان لهداهُم للإيمان، ولكن علمَ مِنهم اختيارَ الشِّرك، فشاءَ لهم الشِّركَ، فأشركوا بمشيئته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: مراعياً لأعمالِهم، مأخوذاً بإجرامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمسلَّطٍ على إكراهِهم على الإسلام، وليس عليك الآنَ إلَّا التَّبليغُ، إلى أنْ تؤمرَ بِقتالِهم.

***

(١٠٨) ـ ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ السَّبُّ: الشَّتم والعَيب والطَّعن، و﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: يَعبدونه ويَدعونه إلهاً، ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ نصب لأنَّه جوابُ النَّهي بالفاء، و﴿عَدْوًۢا﴾؛ أي: تجاوزاً عن الحقِّ إلى الباطل، وهذه الآيةُ تحقيقُ قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: قالوا: يا محمَّد، لتَنتهينَّ عن سبِّ آلهتِنا، أو لنَهجوَنَّ ربَّك، فنهاهُم اللهُ أنْ يَسبُّوا أوثانَهم[2].

وقال السُّدِّيُّ: لـمَّا حضر أبا طالبٍ الوفاةُ، دخل عليه أبو سفيان، والنَّضرُ بنُ الحارث، وأبو جهل، وأميَّة وأبيّ ابنا خلف، والأسودُ بن البختريِّ، وعمرو بن

---

(١) في (أ): «فيهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٦) (٧٧٦٠).

العاص، فقالوا له: إنَّا نستحي أنْ نقتلَ محمَّداً بعد موتِك[١]، فتقولَ العربُ: كان أبو طالبٍ يَمنعُه، وأنت كبيرُنا وسيِّدُنا، وإنَّ محمَّداً قد آذانا وآذى آلهتَنا، فادْعُه حتَّى يدَعَنا وآلهتَنا، وندعَهُ وإلهَهُ، فدعاهُ، فقال له: إنَّ هؤلاء قومُك وبنو عمِّك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» قالوا: نَدَعُكَ وإلهَكَ، وتَدَعُنا وآلهتنا، فقال أبو طالب: لقد[٢] أنصفَكَ قومُك، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «هل تعطوني كلمةً إنْ تكلَّمتُم بها ملَكتُم العربَ، ودانت لكم العجم»، قال أبو جهل: نُعطيكَها وعشرةَ أمثالِها، قال رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»، فأبوا، فقال أبو طالب: فهل غيرُها، فإنَّ القومَ قد فزِعوا منها؟، فقال: «لا أريدُ غيرَها»، فقالوا: لتكفَّنَّ عن شتمِ آلهتِنا، أو لنَشتُمَنَّكَ ونَشتمَ مَن يَأمرك به، فذلك قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كيف نهانا عن سَبِّ مَن يَستحِقُّ السَّبَّ؛ مخافة سبِّ[٤] مَن لا يَستحِقُّه، وقد أُمِرنا بقتالهم، وإذا قاتلناهُم قتلونا، وقتلُ المؤمنِ بغير حقٍّ منكرٌ، وكذا أمرَ النَّبيَّ ﷺ تبليغَ الوحيِ والتلاوةَ عليهم، وإن كانوا يُكذِّبونَه؟!

قيل: إنَّ السَّبَّ لأولئكَ مباحٌ غيرُ مفروض، وقتالُهم فرضٌ، وكذا التَّبليغُ، وما كان مباحاً فإنَّه يُنهَى عما يَتولَّدُ مِنه ويَحدثُ، وما كان فَرضاً لا يُنهى عن المتولِّدِ منه. وعلى هذا يَقعُ الفرقُ لأبي حنيفة رحمَه الله في مَن قطعَ يدَ قاطعِ يدِه

---

(١) في (ف): «وفاتك».

(٢) في (أ): «قد».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٨١ ـ ٤٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٧) (٧٧٦٢).

(٤) في (ر) و(ف): «لئلا يسبَّ» بدل: «مخافة سب».

قصاصاً، فماتَ منه؛ فإنَّه[١] يضمنُ الدِّيَةَ؛ لأنَّ استيفاءه حقَّهُ مباحٌ، فأُخِذَ بالمتولِّدِ منه، والإمامُ إذا قطعَ يدَ السَّارقِ، فمات، لم يَضمن شيئاً؛ لأنَّه فرضٌ عليه فلم يُؤخَذ بالمتولِّدِ منه[٢].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾؛ أي: كما زيَّنَّا لهؤلاء المشركينَ عنودهم وجحودَهم طبعاً[٣]، باختيارهم ذلك وإصرارهم على ذلك طوعاً، ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ قبلَهم ﴿عَمَلَهُمْ﴾.

والمعتزلةُ يَحمِلون هذا على وجهٍ آخر، وقالوا معناه: زيَّنَّا لهم الإيمانَ والطَّاعةَ بالأمرِ والوعد، لكنَّهم تَركوا ذلك، واتَّبعوا ما زَيَّن لهم الشيطانُ مِن الكفر والمعصية، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى ذكرَ تَزيينَهُ في حقِّ الإيمان، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وذكر تزيين المعاصي مِن الشَّيطان، فقال: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فلا يَجوزُ أنْ يُزَيِّنَ اللهُ ما يُزيِّنُ الشَّيطان.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: التَّزيين على وجهين:

تزيينٌ في العقول، وهو تزيينٌ مِن طريقِ الآيات والبراهين، وذلك لا يَحتمِلُ في الكفر والضَّلال أنْ يكونَ مِن جهةِ الآيات.

وتزيينٌ في الطِّباعِ والشَّهوات، ويجوزُ أنْ يكون ذلك للكافر[٤] في الكفرِ

---

(١) بعدها في (أ): «لا»، وهو خطأ.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٣) في (ف): «طمعاً».

(٤) في (أ): «للكافرين».

والمعصيةِ مِن الله، وليس إضافةُ ذلك إليه بأكبرَ مِن إضافةِ الإغواءِ والإضلال إليه، فقد ثبتَ ذلك، ومعناه ما مر مرَّات[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ثمَّ يكونُ إلى جزاءِ الله تعالى مصيرُهم يومَ القيامةِ، فيُخبِرُهم بما عمِلوا ويَجزيهِم عليه.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: حلفَ هؤلاء المشركون باللهِ مجتهدين في الحَلِفِ، مظهِرينَ للوفاء به.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾؛ أي: كالآياتِ الظَّاهرةِ التي كانت لموسى وعيسى وغيرِهما، ممَّا لا يمكنُ معارضتُه وإنكارُه.

وقيل: هي ما ذُكِرَ في قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقيل: هي ما اقترحوهُ ممَّا ذُكِرَ في قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيات[2]، قالوا: لو جاءت هذه الآية لنصدقنَّ بها، ولنَشهدَنَّ لك بالنُّبوَّةِ ولنَدعَنَّ عبادةَ الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هي مِن عندِهِ تجيء، وهو يَأتي بها، لا أنا.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢١٢).

(٢) في سورة الإسراء من الآية (٩٠) إلى الآية (٩٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وسهلٌ ويعقوب وخلفٌ وقتيبةُ ونصيرٌ عن الكسائيِّ وأبو بكر وحمَّاد[1] عن عاصم[2]: ﴿إنها﴾ بالكسر، وهو على الابتداء، ومعناه: وما يُدريكم أنَّكم تؤمنون بها، ثمَّ ابتدأ خطابَ المؤمنين، فقال: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾؛ أي: الكفَّار؛ لأنَّهم معاندون.

وقرأ عاصمٌ في رواية حفصٍ والمفضَّلُ[3] وحمزةُ والكسائيُّ بالفتح[4]، وله وجهان:

أحدهما: أنَّ معناه: لعلَّها إذا جاءَت لا يؤمنون، كما تقول للرَّجل: ائتِ السُّوقَ؛ أنَّك تَشترِ لنا شيئاً، وقال عديُّ بنُ زيد:

أعاذِلُ ما يُدريكَ أنَّ مَنيَّتي … إلى ساعةٍ في اليومِ أو في ضُحى الغَدِ[5]

والثاني: ما قال الفرَّاء: ﴿لَا﴾ هاهنا صلة، ومعناه: وما يُشعركم أنَّها إذا جاءَت لا يؤمنون، وهو كقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢][6].

وقال الكلبيُّ: لمَّا نزلت الآيةُ التي في «الشعراء»[7]، قال المشركون ـ لعنهم الله ـ:

---

(١) بعدها في (ف): «عن حماد»، وهي مقحمة.

(٢) من قوله: «وسهل ويعقوب» إلى هنا من (ف).

(٣) قوله: «والمفضل» من (ف).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٦)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠١ ـ ٥٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٦١).

(٥) انظر: «الشعر والشعراء»: (١/ ٢٢٦)، و«ديوان عدي بن زيد» (ص: ١٠٣).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٠).

(٧) يعني قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

أنزِلْها علينا إن كنتَ مِن الصَّادقين، حتَّى نؤمنَ بها، فقال المسلمون: يا رسولَ الله، أنْزِلْها عليهم حتَّى يؤمنوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآية[١].

* * *

(١١٠) - ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن قَبولِ الحق ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن رؤيةِ الحقِّ عند نزول[٢] الآية التي اقترحوها، فلا يؤمنوا بها، وهذا مضمَرٌ، وليس هذا بإجبارٍ، ولكن جزاءٌ لهم على سوءِ الاختيار، وعقوبةٌ لهم على الإصرارِ.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾؛ أي: بالله، فقد سبقَ ذِكرُه.

وقيل: أي بما[٣] سبق ذكره من الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: حين انشقَّ القمرُ، وظهرَت الآياتُ المتقدِّمةُ على هذه الحالة.

وقيل: أي:كما لم يؤمن به المتقدِّمون عندَ رؤية الآية، كقوم صالح عند خروجِ النَّاقة، وقومِ عيسى عند نزول المائدة، ونحو ذلك.

وقيل: أي: كما لم يُؤمن هؤلاء ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهو عند مجيء النَّبيِّ ﷺ ووحي القرآن، وقد أخبرَ اللهُ تعالى عنهم أنَّهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ

---

(١) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٢/ ١٥٦)، ونسبه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٠٣) لأبي صالح عن ابن عباس.

(٢) بعدها في (أ): «هذه».

(٣) في (ف): «إن» بدل من «أي بما».

لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي: النَّصارى واليهودِ والمجوس، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: ونتركُهم في تماديهِم يَتحيَّرون، وظهر بآخرِ الآيةِ أنَّ الأوَّل جزاءُ فعلِهم، وفيه إثباتُ الخلق مِن الله تعالى، والفعلِ من العبد، وهو كقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ الكافُ للمجازاة كما تقول: فعلتُ بك[(١)] كما فَعَلتَ بي؛ أي: هذا الخذلانُ جزاءُ تلك المعاندة.

وقيل: ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي بالتقليب؛ أي: بسببِه.

* * *

(١١١) ـ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: إلى هؤلاء المقترحين كلَّ الملائكةِ، فشَهِدوا لك، وإن كانوا سألوا مَلَكاً واحداً، بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: وأحيينا لهم كلَّ الأمواتِ، فشهِدوا لك، وإنْ كانوا سألوا منك إحياءَ اثنين من موتاهم؛ قصيٍّ بنِ كلاب وجدعان بنِ عمرو، وكانا كبيرين فيهم، صدوقين منهم، قالوا: لو أحييتَهما، فشهدا لك بالنُّبوَّةِ لشهدنا نحن أيضاً.

---

(١) بعدها في (أ): «كذا».

وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قيل: أي: وبَعثنا كلَّ حيوانٍ، مِن الفيلِ إلى البعوض؛ أي: أقمنا القيامة.

وقيل: أي: جمَعنا لهم كلَّ النَّاس[١].

﴿قُبُلًا﴾ قرأهُ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وابنُ كثير وأبو عمرو بضمِّ القاف والباء، وهو جمعُ القبيل والقبيلة؛ أي: قبائل، وهو قول مجاهد: فوجاً فوجاً[٢]، وقول[٣] يمانُ بن رئاب: جيلاً جيلاً.

وقيل: هو جمعُ القبيل الذي هو الضَّمين، كما قال: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]؛ أي: جمَعنا لهم كلَّ الناس ضمناءَ بصحَّةِ أمرِ نبوَّتِك، وبالوفاءِ بوعدِ الثَّواب.

وقيل: هو القُبُل الذي هو ضِدُّ الدُّبُر؛ أي: أتَوْهُم مِن قِبَلِ وجوهِهم، وهو قولُ الفرَّاءِ[٤]، وهذا يكون نصباً على الظَّرف، والأوَّلُ على الحال.

وقرأ أبو جعفر[٥] ونافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿قِبَلاً﴾ بكسر القافِ وفتح الباء[٦]، ومعناه: أي: عياناً ومقابلة، ومنه القِبلةُ.

وقيل: أي: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كلَّ ما غابَ عنهم مِن ثوابِ الآخرة وعقابِها فرأوهُ معاينةً.

---

(١) في (ف): «إنسان».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٩٦).

(٣) في (ف): «وقال».

(٤) ذكره الفراء في «معاني القرآن» له (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) مع أقوال أخرى، واختار أنه بمعنى الكفالة.

(٥) قوله: «أبو جعفر» من (ف)، ووقع فيها تقديم وتأخير عند ذكر القراءات في هذه الآية ومعانيها.

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢).

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لم يؤمنوا برؤيةِ هذه الآيات إلَّا أنْ يشاءَ الله إيمانَهم فيؤمِنوا، فدلَّ على عنادِهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ودلَّ هذا على أنَّ الآيةَ وإن عظُمت، فإنَّها لا تَضطرُّ إلى الإيمان، فلا آيةَ أعظم مِن قيام السَّاعة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ويكون معنى قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]؛ أي: إنْ شاءَ الله أنْ يخضعوا، لا أنَّ الآيةَ تَضطرُّهم إلى ذلك[1].

ودلَّ أنَّهم إنَّما[2] لم يؤمنوا؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَشأ، ولو شاءَ لآمَنوا، ومَن عَلِمَ اللهُ مِنهم اختيارَ الكفرِ والإصرارَ عليه، شاءَ لهُ ذلك، ومَن علمَ منهُ اختيارَ الإيمانِ، شاءَ له ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل: كلهم، وإن كانت جهالةُ الكفرِ تَعمُّهم[3]؛ لأنَّ المراد - والله أعلم -: ولكنَّ أكثرَهم يَجهلون أنَّه لو آتاهُم كلَّ آيةٍ يَقترِحُونها ما آمنوا طوعاً.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: بيَّنَ أنَّ الآياتِ وإن تَوالَت، وشموسَ البُرهانِ وإنْ تَعالَت، فمَن قصمتهُ العِزَّةُ، وكَبَسَتْهُ القسمةُ، لم يَزِدهُ ذلك إلَّا ضلالاً، فلم يَستجِدَّ إلا للشقوةِ حالاً[4].

وقال الكلبيُّ: هم المستهزئون بالقرآن، وهم خمسةُ رهطٍ: الوليد بن المغيرة،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢١٨).

(٢) في (أ): «وذلك أنهم لما».

(٣) في (ف): «بعلمهم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٥).

والعاص بن وائل، والأسودُ بنُ عبدِ يَغوث، والأسودُ بنُ عبد المطَّلب، والحارث بن غيطلة، أَتَوا رسولَ الله ﷺ في رهطٍ مِن أهلِ مكَّة، فقالوا: يا محمَّد، ابعثْ لنا بعضَ موتانا حتَّى نسألَهم عنك، أحقٌّ ما تقولُ أم باطل، فنؤمن بك؟ أو ائتِنا بالملائكة يَشهدونَ لك، أو ائتِنا بالله والملائكة قبيلا؛ أي كفيلاً على ما تَقولُ أنَّه الحقُّ، فنزلَت الآيةُ[1].

***

(١١٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾؛ أي: وكما جعلنا لك يا محمَّد أعداءً مِن المشركين، مجتمعين على عداوتِكَ، يَسألونك الآياتِ المقترحةَ، ويصوِّرونَ عند أصحابِهم أنَّك عاجِزٌ عن الإتيان بها، فكذلك جعلنا لكلِّ نبي عدوًّا، وهذه تسليةٌ له وتعزية.

و﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ هم الخبثاءُ والبُعداءُ عن الخيرِ منهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال الكلبيُّ: إنَّ إبليسَ قسمَ جندَهُ فريقَين، فبعثَ منهم فريقاً إلى الإنسِ، وفريقاً إلى الجنِّ، فشياطينُ الجنِّ والإنسِ أعداءٌ لرسولِ الله ﷺ ولأوليائه، وهم يَلتقون في كلِّ حينٍ، فيقول شيطانُ الإنس لشيطان[2] الجنِّ: أضللتُ صاحبي بكذا،

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٠٦) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) في (أ) و(ر): «شياطين الإنس لشياطين» بدل: «شيطان الإنسان لشيطان».

فأَضِلَّ صاحبَك بمثلِه، ويقول شيطان الجنِّ لشيطان[١] الإنس كذلك، فذلك وحيُ بعضِهم إلى بعض[٢].

وقال قتادةُ: مِن الجنِّ شياطين، ومِن الإنس شياطين، ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾[٣].

وقال مالك بن دينار: إنَّ شياطينَ الإنسِ أشدُّ عليَّ مِن شياطين الجنِّ، وذلك أنِّي أتعوَّذُ بالله ذهب شيطانُ الجنِّ عنِّي، وشيطانُ الإنسِ يَجيئُني، فيَجرُّني إلى المعاصي عياناً[٤].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾؛ أي: يوسوِس ويخطرُ بالبال بزخارفِ الأقوال، والزُّخرف: الزِّينة؛ أي: يُزيِّنون لهم الكفرَ والمقام على دين الآباء، فيُفسِدون قلوبَ الضَّعفةِ بذلك، ويَمنعونهم عن الإيمان، وهذا غرورٌ مِن شيطان[٥] الجنِّ بالوسوسةِ والتَّمويه، ومِن شياطين الإنس بالقبول، كتزيين إبليس لأبي جهل ما زَيَّن له، وهما عدوَّان للنَّبيِّ ﷺ، كما كان مثلُه لسائر الأنبياءِ، وهم صبَروا حتَّى أتاهمُ الفرجُ، فاقتدِ بهم يا محمَّد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ فدلَّ أنَّ كلَّ ذلك بمشيئتِه[٦]، وكذلك

---

(١) في (أ) و(ر): «شياطين الجن لشياطين» بدل: «شيطان الجن لشيطان».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٨١) عن عكرمة والضحاك والسدي والكلبي. وأخرج الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٩٨) نحوه عن السدي.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٤٦)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٠٠ ـ ٥٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧١) (٧٧٨٨).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٢)، و«التفسير البسيط» (٨/ ٣٧٢).

(٥) في (أ): «شياطين».

(٦) في (ف): «بمشيئة الله».

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبادِ كلَّها بخلقِ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ جعلَهم عدوًّا يَخلقُ العداوةَ في قلوبهم، وعداوتُهم كفرٌ، فدلَّ أنَّ الأفعالَ[1] خيرُها وشرُّها مخلوقةٌ لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: على الله تعالى وعليكَ[2]، فإنَّ اللهَ يَجزيكَ ويَنصرُك ويُخزيهِم، وهو كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ الآية [الحجر: ٣].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كلَّما كان المحلُّ أعلى، كانت البلايا أوفى، والمطالباتُ أقوى، فلمَّا كانت رتبةُ الأنبياء أشرفَ، كانت العداوةُ معهم أشدَّ وأصعب[3].

* * *

(١١٣) ـ ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ ليُغروهم[4]، وليَميلَ إلى زخرفِ القول الذين لا يُصَدِّقون بالبعث.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾؛ أي: وليُحِبُّوا ذلك.

---

(١) بعدها في (ر): «كلها».

(٢) بعدها في (ف): «يا محمد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٥).

(٤) في (ف): «ليغرهم».

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾؛ أي: ولِيَكتَسبوا مِن المعاصي ما يُريدون أنْ يقترفوا، كما قال: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾؛ أي: ما تُريدُ أن تَقضيه.

وقيل: أي: ولِيَجْتَهدوا في تكذيبِ الأنبياء، وصَدِّ النَّاس عنهم ما في وسعِهم، فليس ذلك بضائرٍ لهم.

والصَّغْو والصُّغوُّ والصَّغَى[1]: الميل، وصرفُه من باب: صنعَ وعَلِم.

والاقترافُ: الاكتساب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورى: ٢٣].

وقيل: تتَّصلُ هذه الآيةُ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾؛ لينكشف بامتحاني إيَّاك بهم إيمانُ المؤمنين، وكفرُ الكافرين.

وقيل: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهم الأتباعُ، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ فعلَهم ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ الرؤساء؛ أي: ليَشتركوا في الكفر.

* * *

(١١٤) ـ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ استفهامٌ بمعنى الجَحْد، وبمعنى التوبيخ أيضاً.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: أي: قل لأهل مكَّة: أغيرَ الله أبتغي ربًّا أعبدُه؟!.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيَّناً مفرَّقاً في عشرين سنة سورةً سورةً وآياتٍ آيات.

---

(١) شكلت في (ف): «والصُّغِيُّ». وانظر: «لسان العرب» (مادة: صغا).

وقال عطية العوفي: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؛ أي: قاضياً في نزول العذاب[1].

وقال مقاتل: ﴿حَكَمًا﴾ في نزول العذاب ببدر، فليس أحدٌ أحسنُ قضاءً مِن الله تعالى[2].

وقيل: أي: قُل للذين التمَسوا الآياتِ المقترحةَ، بعدما أخبرتَهم أنَّ اللهَ غيرُ مجيبِهم إليها إذْ هم متعنِّتون؛ أنَّ حكمَ الله في مَن اقترحَ آيةً، ثمَّ كذَّب بها[3] إذا أتته آيةٌ مصطَلِمةٌ، قل لهم: هذا حكمُ الله فيما سألتموه[4]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ أطلبُ لكم حاكماً، وهو الذي كفاكم مؤنةَ مسألة الآيات التي حكمُها هذا بما أنزلَ إليكم من الكتاب المفصَّل، الذي قد أتى على تفصيلِ ما بكم الحاجةُ إليه في دِينِكم، وهو الكتابُ الذي أتى بما يُفصِّل بين الصَّادقِ والكاذب، وفصَّل فيه الحلالَ والحرامَ، والأمرَ والنَّهيَ، والوعدَ والوعيد، والإيمانَ والكفر، ونحو ذلك، وهو الكتابُ الشَّاهدُ بصدقي.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قيل: أي: أهلُ الكتاب الذين تَرجعون في كثيرٍ مِن أمورِكم إليهم، يَعلمون أنَّ القرآنَ منزَّلٌ مِن ربِّك بالحقِّ.

قال عطاء: والمؤمنون الذين آتيناهم القرآنَ يَعلمون ذلك[5].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: الشَّاكِّين أنَّه مِن عند الله. خاطب

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٣٨٤).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٥).

(٣) بعدها في (ر): «أنه».

(٤) في (ر): «سألتموني».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٣).

رسولَه ﷺ، وأرادَ به أمَّتَه؛ أي: دُوموا على يقينِكم بحقِّيَّته. وله وجوهٌ أخرُ بيَّنَّاها في سورة البقرة[1].

وقيل: أي: لا تكوننَّ مِن الشَّاكِّين أنَّهم قد غيَّروا ما في كتبِهم.

* * *

(١١٥) ـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وسهلٌ ويعقوب[2]: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ كلامَ اللهِ واحدٌ لا يَتعدَّد.

وقرأ الباقون: ﴿كلماتُ ربِّك﴾[3] على التَّفخيمِ والتَّعظيم ولموافقةِ قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: ما أنزلتُه عليكَ مِن كلامي في الاحتجاج على المشركين قديمٌ في معاني الصِّدق والعدل[4]، وزالَ عنه الكذبُ والجورُ في الاحتجاج، فلا أحدَ يَقدِرُ على تبديلِ شيءٍ منه، فيجعلَهُ جوراً أو كذباً، ولزمَت به[5] الحجَّةُ، والله سميعٌ عليم؛ أي: سميعٌ لما يَقولونَه، عليمٌ بما يُريدونَه.

وقيل: أرادَ به جميعَ ما وردَ في القرآن مِن وعيدهم أنَّها صدقٌ وعدلٌ، فليَستعِدُّوا له إنْ لم يَتوبوا منه.

---

(١) عند تفسير الآية (١٤٧) منها.

(٢) قوله: «وخلف وسهل ويعقوب» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢).

(٤) في (أ): «والكذب».

(٥) في (أ): «منه».

وقيل: هو في معنى قولِه ﷺ: «سبقَ القضاءُ، وجفَّ القلمُ بالسَّعادةِ لمن آمنَ واتَّقى، والشَّقاوةِ لمن كفرَ وعصى»(١)، وكلماتُ الله تعالى: أقضياتُه.

وقال قتادة: هي كتابُ اللهِ، لا يَزيدُ فيه المفترون، ولا يَنقصون(٢).

وقال: هو ﴿صِدْقًا﴾ فيما وعد، ﴿وَعَدْلًا﴾ فيما حكم(٣).

وقال الكلبيُّ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ هو قولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر: ٥١].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ يعني: لا إله إلا الله، ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: لا إله إلا الله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ تفسير قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولهذا قال أصحابُنا: مَن قال لامرأته: أنتِ طالقٌ أتمَّ الطَّلاق؛ أنَّه طلاق واحدٌ رجعيٌّ، ولا يَرجِعُ إلى تمامِ العدد، بل إلى تمامِ معنى العدل وموافقةِ الشَّرع.

* * *

(١١٦) - ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: تمَّت كلماتي على هؤلاء المشركين، فلا تُطِعهُم وإنْ كثُر عددُهم؛ فإنَّهم ضالُّون، وإنْ أطعتَهم أضلُّوك عن دينِ الله.

---

(١) كذا أورده الواحدي في «التفسير البسيط» (٨/ ٣٧٨)، ولم أقف عليه عند غيره.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٤) (٧٨٠٧) (٧٨٠٨).

وقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يَتَّبعون إلَّا الشَّكَ، قيل: هو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: وما هم إلَّا يَكذِبون، قيل: أي: في قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

قيل: إنَّ المشركين قالوا لرسولِ الله ﷺ: إنَّا نعبدُ الأصنامَ، وهي في الحقيقة عبادة الله؛ لأنَّا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وكانوا يقولون: هم[١] شفعاؤنا عند الله، وكانوا يرتكبون الفواحشَ ويقولون: اللهُ أمرَنا بها، ودعَوا رسولَ الله ﷺ إلى موافقتِهم، فنزلَت[٢] الآية.

***

(١١٧) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ كان المشركون يقولون: نحن مهتدون وأنتم ضالُّون، فقال اللهُ تعالى هذا، وهو لطفٌ في الخطاب، وتحقيقُه: إنَّ الله تعالى يَعلمُ أنَّ المشركين ضالُّون، وأنَّ المسلمين مهتدون، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ الآية [سبأ: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: تَقاصرَت علومُ الخلقِ عن إدراك غيبهِ إلَّا بقدرِ ما عرَّفهم مِن أمرِه؛ فإنَّه لا يَخفى عليه شيءٌ مِن أمورِ خلقِه[٣].

---

(١) في (ر): «هؤلاء».

(٢) بعدها في (ر): «هذه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٦).

(١١٨) ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: اتِّصالُها بما قبلَها أنَّها في محاجَّةِ المشركين أيضاً.

قال عكرمة: لمَّا نزلَ تحريمُ الميتة، كتبَ مجوسُ فارس إلى مشركي قريش: إنَّ محمَّداً وأصحابَه يزعُمون أنَّهم يتَّبعون أمرَ الله، وما ذبحَ الله بسكينٍ مِن ذهب ـ يعنون به: ما أماته ـ فلا يأكلونَهُ، وأمَّا ما ذبحوه، فيأكلونَه، فكتب بذلك المشركون إلى أصحابِ محمَّدٍ ﷺ، فوقعَ في أنفس ناسٍ مِن المسلمين من ذلك شيءٌ، فنزلت الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾[1].

الشياطين: أهل[2] فارس، وأولياؤهم: قريش، وكانت العربُ لا تَأكلُ ما مات حتف أنفِه، وإنَّما حملَهم المجوسُ ـ لعنهُم الله ـ على المحاجَّة به تظاهراً؛ لأنَّهم كلَّهم مشركون، وتعلَّق به المشركون؛ لما أنَّ المسلمين كان يَعدُّون ذبائحَهم للأصنامِ ميتاتٍ، ويَعيبونَهُم على أكلها، فأوردوا هذا النَّوعَ مِن الشُّبهةِ؛ دفعاً عن أنفسِهم هذا العيب، فردَّ اللهُ تعالى عليهم، وأمرَهم بأنْ يُحِلُّوا ما أحلَّ الله، ويُحرِّموا ما حرَّمَ الله، ومجموعُ ذلك في هذه الآية والآيات[3] بعدها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: صرفَ أهلُ التَّأويل[4] الآيةَ إلى أهل الكفر بهذه القِصَّة، والأشبهُ أنْ يُصرَفَ إلى أهل الإسلام؛ لأنَّه ذكرَ في آخره: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، ويكونُ هذا في حقِّ قومٍ امتَنعوا عن الطيِّبات، كما قلنا في قوله:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٢١).

(٢) في (أ): «مجوس» بدل: «أهل»، ووضعت في (ر) فوق قوله: «أهل».

(٣) بعدها في (ر): «التي».

(٤) في (أ): «التأويلات».

﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، فنُهوا عن ذلك بتلك الآية، وأُمِروا بأكلِها في هذه الآية.

أو[١] علمَ اللهُ تعالى أنَّ قوماً من المتقشِّفةِ والمتزهِّدةِ يُحرِّمون ذلك على أنفسِهم، فنهاهم عن ذلك.

وإنْ حُمِلت الآيةُ على المشركين، فمعنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لما تعلمونَ أنَّ الخلقَ له، والأمرَ له، وقد بيَّن في الآيات ما تَعلَمون به ذلك[٢].

***

(١١٩) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أي: وأيُّ عذرٍ لكم في ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: عند الذَّبح.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿فُصِّلَ﴾ و﴿حُرِّمَ﴾ على ما لم يسمَّ فاعلُه[٣].

وقرأ نافعُ وأبو جعفر[٤]، وعاصمٌ في رواية حفص، وسهلٌ ويعقوبُ جميعاً بالفتح[٥]: ﴿فَصَّلَ﴾ و﴿حَرَّمَ﴾ على الفعل الظاهر؛ إخباراً أنَّ اللهَ تعالى فعلَ ذلك.

---

(١) في (أ): «إذ».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

(٣) من قوله: «قرأ ابن كثير» إلى هنا ليس في (ف)، وتأخر إلى ما بعد قوله التالي: «وشارع الحلال والحرام».

(٤) قوله: «وأبو جعفر» من (ف).

(٥) قوله: «وسهل ويعقوب جميعا بالفتح» من (ف).

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر، وحمادٌ[1] وحمزةُ والكسائيُّ وخلف[2]: ﴿فَصَّلَ﴾ بفتح الفاء والصاد، و﴿حُرِّمَ﴾ بضمِّ الحاء وكسرِ الرَّاء[3]؛ ومعناه: وقد فصَّل اللهُ ذكرَ أجناسِ المحرَّمات؛ وهي الميتةُ والموقوذةُ والمنخنقةُ والمتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أكلَ السَّبُع، وأحلَّ المذكَّى، وهو مالكُ الأعيانِ، وشارعُ الحلالِ والحرام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: المجوسُ يَحتجُّون بقولِهم: تأكلون ما أمَتُّم، ولا تأكلون ما أماتَهُ اللهُ تعالى، وهذا قولٌ بالهوى، والحكمُ في التَّحليلِ والتَّحريم لمالك الأعيان، وهو اللهُ تعالى، فالحلالُ ما أحلَّهُ اللهُ، والحرامُ ما حرَّمَهُ الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: المعتدين مِن الحلالِ إلى الحرام.

***

(١٢٠) ـ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أصلُ كلِّ الإثم: الشِّركُ[4]، وظاهرُهُ: تكذيب اللِّسان، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ جحودُ القلبِ، والسُّورةُ في محاجَّةِ أهلِ الشِّرك.

---

(١) قوله: «وحماد» من (ف).

(٢) قوله: «وخلف» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢).

(٤) بعدها في (أ): «والعناد بالله تعالى».

وقيل: هو تفسيرُ الاعتداء المذكورِ في آخر الآية التي قبلها، وهو ظاهرُ الإثمِ وباطنُه، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال قتادة: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: سرُّه وعلانيتُه(١).

وقال عطاء: قليله وكثيره.

وقال مجاهد: العمل والنية(٢).

وقال الكلبيُّ: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: الزِّنى، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ المخالَّة.

وقال السُّدِّيُّ: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ الزِّنى في منازلهنَّ المتَّخذةِ لها، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الزنا بالصَّديقةِ سرًّا(٣).

وعن الكلبيُّ في روايةٍ: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: طوافُ الرِّجالِ بالنِّساء نهارا، وباطنُه طوافُ النِّساء باللَّيل(٤).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما للأغيار عليه اطِّلاعٌ بوجه، وباطنه الإثم: ما هو سرٌّ بينَك وبين الله، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه.

قال: ويُقال: باطنُ الإثمِ: خفيَّاتُ العقائدِ، ومُسترَقاتُ الألحاظ.

ويقال: باطن الإثم: ما تُلَبِّسُهُ على نفسِك بنوع تأويلٍ(٥)، قال النَّبيُّ ﷺ: «استفتِ قلبَك وإنْ أفتاكَ المفتون»(٦).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٧) (٧٨٢٥) (٧٨٢٩).

(٤) انظره مع الأقوال السابقة في «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٥).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٧).

(٦) روى نحوه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٠٠٦) من حديث وابصة الأسدي رضي الله عنه بلفظ: «يا =

ويقال: ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: ما يَظهرُ لجنسِك، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ما يَختصُّ به الملَكُ الموكَّلُ بكَ.

ويقال: باطَنُ الإثم على لسان أهل المجاهدات: الرُّكونُ إلى تَتبُّع الرُّخَص.

وقيل: ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: الشِّركُ الجَلِيُّ، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الشِّركُ الخَفِيُّ.

قال: ويقال: أسبغت عليكم النِّعمَ ظاهراً وباطناً، فذَروا لي الإثمَ ظاهراً وباطناً، فإنَّ مِن شرط الشُّكرِ تركُ استعمالِ النِّعَم في مخالفةِ المنعِم[١].

وقيل: ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: رؤيةُ الأفعال، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: طلبُ الرُّكون إليها في السِّرِّ باطناً.

وقيل: ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: طلبُ الدُّنيا، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: طلبُ الجنَّة والنَّعيم، وهما يَشغلان عن الحقِّ، وما يَشغلُ عن الحقِّ فهو إثمٌ.

وقال سهيل[٢]: اتركوا المعاصيَ بالجوارح، وحبَّها بالقلبِ[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾؛ أي: يكتسبون.

***

(١٢١) ـ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.

= وابصة استفت قلبك، واستفت نفسك» ثلاث مرات، «البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٨).

(٢) كذا في (ر)، ولعل صوابها: «سهل»، وهو سهل التستري، وقوله هذا في «تفسيره» (ص: ١٤٣).

(٣) من قوله: «وقيل ظاهر الإثم رؤية الأفعال» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: عند الذبح، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾؛ أي: إنَّ متروكَ التَّسميةِ عند ذبحِه عمداً حرامٌ، وهو كقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال في آخر آيةِ تحريم الميتة: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]، وسُمِّيَ به؛ لأنَّ متناوِلَهُ فاسقٌ.

وقيل: أي: تناولُه فسقٌ؛ أي: خروجٌ عن الطَّاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾؛ أي: يُوسوسُ الشَّياطينُ إلى المشركين ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بقولهم: تأكلون ما أمتُّم، ولا تأكلون ما أماتَهُ اللهُ، وقد ذكرنا أيضاً عن عكرمة: أنَّ الشياطينَ هم المجوس، يُلقِّنون المشركين ذلك في مُحاجَّةِ أهلِ الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أطعتُم الكفَّار في استحلالِ ما حرَّم الله، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلَهم.

والآيةُ نصٌّ على تحريمِ متروكِ التَّسميةِ عمداً عند الذَّبْح، وهو حجَّةٌ لنا على الشافعيِّ رحمه الله[1]، وتعلَّقَ بظاهرِهِ داودُ بنُ عليٍّ[2]، وحرَّمَ متروكَ التسميةِ ناسياً، وعندنا يحلُّ ذلك، وعن ابن عبَّاسٍ وجماعةٍ أنَّ الآيةَ محمولةٌ على تركِها عامداً.

* * *

(١٢٢) ـ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

---

(١) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١١/ ٢٣٦)، و«روضة الطالبين» للنووي (٣/ ٢٠٥).

(٢) انظر: «المحلى» لابن حزم (٦/ ٨٧).

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ يتَّصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: ولا تُطيعوا المشركين فيما يَقولون، فإنَّهم ضالُّون مُضِلُّون، وليس الضالُّ كالمهتدي.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن﴾ الألفُ للاستفهام، والواو للعطف، وهو استفهامٌ بمعنى النَّفي، ومعناه: أو من كان كافراً فهديناهُ؟ والموتُ هو الكفرُ، والحياةُ هي الإيمان.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ قيل: هو القرآنُ، وقيل: هو الإيمان، وقيل: هو نورُ يومِ القيامة.

وقوله: ﴿يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ يَمضي به بين الناس، يُرشِدُهم إلى الهدى، أو يَمضي به على السَّلامة في العقبى.

وقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قيل: المثلُ صلةٌ، ومعناه: كمن هو، وهو كقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]؛ أي: الجنَّة.

وقيل: المثل: الصِّفة؛ أي: كمَن صِفتُه أنَّه: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧].

وقيل: ذكر المثل لأنَّه ضربَ به المثل؛ أي: مثلُه كمثلِ مَن كان في الظُّلمات.

وقيل: هي ظُلمات الدُّنيا.

وقيل: ظلماتُ البطن.

وقيل: ظلماتُ القيامة؛ أي: ليسا يَستويان.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: زُيِّن لهؤلاء الكفرةِ عملُهم فعملوه، كما زُيِّنَ لسائرِ الكفَّار عملُهم.

وقال الكلبيُّ: نَزلت الآيةُ في عمَّارِ بن ياسر، صدَّقَ بمحمَّدٍ رسولِ الله ﷺ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ إيماناً يمشي بهِ مع المسلمين[١]، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ يعني: أبا جهل[٢] في ظلمات الكفرِ بالله، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ليس بمؤمنٍ أبداً، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أبي جهلٍ وذويه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال يمانُ بن رئاب: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ هو عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هو أبو جهل بن هشام[٣]، وكانا جميعاً يؤذيانِ رسولَ الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ لأحدِهما، فاستُجيبَ له في عمر[٤].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنَّه قال: زاحَمْنا بني عبدِ منافٍ في الشَّرف، حتَّى إذا صِرنا كفرسَي رهانٍ ـ هذا مثلٌ يُضرَب به عند التساوي[٥] ـ، قالوا: منَّا نبيٌّ يُوحى إليه، واللهِ لا نؤمِنُ لهُ، ولا نتَّبعُهُ أبداً، إلَّا أنْ يأتينا وحيٌ كما يأتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤][٦].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ يريدُ به حمزةَ بنَ عبدِ المطَّلِب، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ يَعني: أبا جهلٍ، رمى رسولَ الله ﷺ بفرث،

---

(١) في (ف): «الناس».

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٥١١)، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١١٦) من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٧). ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٣٤) عن عكرمة.

(٤) روى الترمذي في «سننه» (٣٦٨١) عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب»، قال: وكان أحبهما إليه عمر. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) قوله: «هذا مثل يضرب به عند التساوي» من (ر).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٧).

وحمزةُ لم يؤمن بعدُ، فأُخبِرَ حمزةُ[1] بما فعل أبو جهل، وبيدِ حمزةَ قوسٌ، فأقبلَ غضبان، حتَّى علا أبا جهلٍ بالقوس، وهو يقول: أبا يعلى، يَتضرَّعُ إليه ويستكين، يقول: يا حمزة، أما تَرى ما جاء به، سفَّهَ عقولَنا، وسبَّ آلهتَنا، وخالفَ آباءَنا، فقال حمزةُ: ومَن أسفهُ منكم؟! تَعبدون الحجارةَ مِن دونِ الله تعالى! أشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه[2].

وقيل: الحياةُ أنواع:

حياةٌ بالرُّوح، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وحياةُ الأرضِ بالمطر، قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

وحياةٌ بالإيمان، كما في هذه الآية.

وحياةٌ بالطَّاعة، كما في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قولُه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ يَنقضُ قولَ المعتزلة؛ فإنَّهم يَقولون: العبدُ هو الذي يَجعلُ لنفسِه نوراً يَمشي به، وهو تحريفٌ لظاهرِ القرآن، وعلى هذا قولُه بعد هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الآية.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ اختلف في من زيَّنها:

قال الحسن: زيَّنها الشيطانُ لهم.

وقال غيرُه: زيَّنها الأكابرُ على الأصاغر.

وقال قائلون: زيَّنَها الله.

---

(١) في (ر): «فحضر حمزة فأخبر» بدل: «فأخبر حمزة».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢١٩).

وقال: وما أضيف إلى الشيطان فهو وسوسةٌ، وما أُضيفَ إلى الكفَّار فهو دعوة، وما أُضيفَ إلى الله فهو تخليقٌ وقضيَّة[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أهلُ الغفلةِ إذا أُلهِموا الذِّكرَ، فقد صاروا أحياءَ بعد الممات، وأربابُ الذِّكر إذا اعتراهُم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياةِ، والذي هو في أنوارِ القُرْب، وروحِ الاستبصار، لا يُدانيهِ مَنْ هو في أسر الظُّلمات، ولا يُساويهِ مَن هو رهينُ الآفات[2].

***

(١٢٣) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾؛ أي: جَعلنا في كلِّ بلدةٍ مجرميها أكابرَ ورؤساءَ للنَّاس.

واتِّصالُها بما قبلها أنَّ تقديرَهُ: وكما جعلنا لمنْ أحْييناهُ بالإيمان نوراً يَمشي به، فكذلك جعلنا المجرمين أكابر، والأوَّل توفيقٌ، والثَّاني خذلانٌ.

وقيل: وكما وسَّعنا على أكابرِ قريشٍ في الدُّنيا حتَّى يَرأسوا على أهل مكَّة، فكذلك فعلنا بكلِّ قومٍ في كلِّ قريةٍ، وهو إبطالُ وهمِ الكفَّارِ أنَّهم فُضِّلوا على فقراء المسلمين بما أُعطوا من الرِّئاسةِ والسَّعةِ والبَسطة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: ليَقولوا الكذبَ[3]، وليَتَجبَّروا على النَّاس فيها، ويَعملوا بالمعاصي.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٨).

(٣) أورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١١٨).

وقيل: أي: لِيَظهرَ مِنهم ما علمَ اللهُ منهم، وقد علمَ اللهُ مِنهم[1] أنَّه إذا جعلهم أكابرَ أنَّهم يَمكرون؛[2] أي: يَقصدون إهلاكَ الأنبياءِ في خُفية.

والمعتزلة يقولون هذه لامُ العاقبة، وما جعلَهُم اللهُ أكابرَ ليمكروا، لكن وجدَ مِنهم في العاقبة كذلك، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهم ما التقطوهُ لذلك، لكن صار كذلك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا يخلو هذا؛ إمَّا أن يقال: إنَّه خلقَهم لغيرِ المكرِ والضَّلال، وهو يَعلمُ أنَّهم لا يَكونون لما يخلقُهم، وذلك ليس فعلَ حكيم؛ أنْ يَعملَ عملاً يَعلمُ أنَّه لا يكون، أو يقال: خلقَهم لذلك، وهو لا يَعلم أنَّهم يكونون كذلك، وهو جهلٌ بالعواقب، واللهُ تعالى يَتعالى عن ذلك، والحقُّ أنَّه خلقَهم ليكونوا على ما علمَ أنَّهم يكونون كذلك، ويختارون ذلك[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: وما يَرجِعُ ضررُ ذلك إلَّا عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يَعلمون أنَّه واقعٌ بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠].

* * *

(١٢٤) - ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

---

(١) قوله: «وقد علم الله منهم» من (ر).

(٢) بعدها في (ف): «وهو قوله تعالى ليمكروا فيها».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ قد بيَّنَّا قبل هذا بآيتين أنَّ أبا جهلٍ ـ لعنه الله ـ قال ذلك.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: إذا أنزلت عليهم آيةٌ مِن السَّماء قال الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ مِن الآياتِ فنكونَ أنبياء[١].

وقيل: أي: نؤتَى من الآياتِ مثلَ ما أوتوا، فيُعظِمَنا النَّاسُ[٢] بها، وهذه غاية السَّفه؛ أن يُقالَ لرجلٍ[٣]: آمن، فيقول: لا أؤمن حتَّى يَجعلني اللهُ نبيًّا.

وقال الضَّحَّاك: سأل كلُّ واحدٍ مِن القوم أنْ يُخَصَّ بالوحي والرِّسالة، كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾[٤].

وقال مقاتل: قال الوليد بن المغيرة: والله لو كانت النبوَّة حقًّا، لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبرُ منك سِنًّا وأكثر منك مالاً، أو أنزلت على أبي مسعودٍ الثَّقفيِّ، فنزلت: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][٥]؛ يعني: مكَّة والطائف، ونزل قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: ليس إعطاءُ النَّبوَّة بالشَّهوات، وإنَّما هو بتخصيصِ الله بها مَن رآهُ أهلاً لها، وهؤلاء الكفار محرومون[٦]، وعن صفاتِ الحمد مُتعَرُّون[٧].

(١) ذكر نحوه أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥١١) دون نسبته لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «الله».

(٣) في (ف): «للرجل».

(٤) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٤١٢).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٨)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٧).

(٦) في (ر) و(ف): «محرمون».

(٧) في (ر): «مبعدون».

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سينالُهم ذِلَّةٌ وتَصغيرُ قدرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قيل: أي: من عِند الله، وقيل ـ وهو قولُ الفرَّاء ـ: إنَّ أَنَفتَهُم مِن اتِّباعِ الحقِّ صغارٌ لهم عند الله[١].

وقال الزَّجَّاجُ: أي ﴿صَغَارٌ﴾ في الآخرة ومجازاةٌ؛ أنَّه يَنالُهم ذلك إذا صاروا إلى جزائه[٢].

وقيل: ﴿صَغَارٌ﴾ معدٌّ لهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، والصغار والصُّغرُ بضمِّ الصَّاد هو الذُّلُّ، وصرفُه مِن حدِّ: عَلِم، ونعتُه الصَّاغِر، فأمَّا الصَّغيرُ الذي هو نقيضُ الكبير، فصرفُه من حدِّ[٣]: شَرُفَ، ومصدرُه الصِّغَر؛ بكسرِ الصَّاد وفتح الغين.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ وقد أصابَهم ذلك يومَ بدر.

وقيل: هو في المستهزئين به، وقد قُتِلَ كلُّ واحدٍ منهم بقتلٍ غيرِ قتل صاحبِه.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: بعد إزاحةِ[٤] العِلَّة، وبيانِ الحُجَّة، وزوالِ الشُّبهة، إقدامٌ[٥] على سوءِ الأدب، وذاك محال من الحال، والتَّصدِّي لمساواةِ أهل الاستحقاق نوعٌ مِن تَسويلات النَّفس، بل موجبٌ لدوامِ الهوان والرِّجس[٦].

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٣).

(٢) لم أقف عليه في «معاني القرآن» للزجاج.

(٣) في (ر): «باب» في الموضعين.

(٤) في (أ): «إزالة».

(٥) تمام العبارة في «لطائف الإشارات»: «فالتعلل باستزادة البصيرة إقدام».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٩).

(١٢٥) ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: فمَن يشاءُ اللهُ أنْ يُرشِدَهُ ويُثبِّتَ له صفةَ الاهتداء؛ يُوسِّع قلبَه للانقياد للحقِّ، والتأمُّلِ في الآيات للقَبول والأخذ، فخَفَّ عليه اتِّباعُ مَن اختارهُ اللهُ تعالى للرِّسالة، وخرجَ مِن أن يكونَ مجرِماً يَنالُهُ الصَّغارُ والعذابُ الشَّديدُ في الدُّنيا والآخرة، وإنَّما يريدُ ذلك في حقِّ مَن علمَ منه اختيارَ الرُّشدِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾؛ أي: يَخذلَه، ويُثبِّتَ له صفةَ الضَّلالة.

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وسهل[١]، وعاصم في رواية أبي بكر، وحمَّاد[٢]: ﴿حَرِجاً﴾ بكسرِ الرَّاء، والباقون بالفتح[٣].

وقال سيبويه: بالفتح مصدرٌ، وبالكسر نعتٌ، وهو أشدُّ الضِّيق[٤].

وقيل: هما واحدٌ كالدَّنِف والدَّنَف، والوَحِد والوَحَد، والفَرِد والفَرَد، وللنَّعت كلاهما.

وروى محمد بن جريج: أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه أتى على هذه

---

(١) قوله: «وأبو جعفر وسهل» من (ف).

(٢) «وحماد»: زيادة من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٦)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٤)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢).

(٤) ذكره عن سيبويه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٨٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ١٨٦).

الآيـة، فـرأى راعيـاً، فسـأله[١]: مـا الحرج؟ قـال: هي الشَّـجرةُ التـي لا تصِـلُ إليها الرَّاعيـة؛ لالتفـافِ أغصانِها، واحدتهـا حرجة[٢].

وقال عبيدُ بن عمير: قرأ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما هذه الآية، فقال: هل هاهنا أحدٌ مِن بني بكر؟ فقال رجلٌ: نعم، فقال: ما الحرجة فيكم؟ قال: الوادي الكثيرُ الشَّجر، المستمسِكُ الذي لا طريق فيه، فقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كذلك قلبُ الكافر[٣].

وقال النَّضرُ بن شميل: ﴿حَرَجًا﴾؛ أي: قلقاً[٤].

وقال قتادة: ملتبساً[٥].

وقال مجاهد: أي شاكًّا[٦].

وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ[٧].

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ ابنُ كثير: ﴿يَصْعَدُ﴾ مخفَّفاً، مِن الصُّعود، وهو الرُّقيُّ.

---

(١) في (أ) و(ف): «فسأل راعياً» بدل من «فرأى راعياً فسأله».

(٢) لم أقف عليها من طريق ابن جريج، وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) نحوه من رواية أبي الصلت الثقفي.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٨).

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٤٦).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٤٥).

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٨٨) (طبعة دار إحياء التراث)، (١٢/ ٢٠٥) (طبعة دار التفسير).

وقرأ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ وحمَّاد[١]: ﴿يصَّاعد﴾ مشدَّداً مع الألف.

والباقون: ﴿يَصَّعَّدُ﴾[٢] مشدَّداً بغيرِ ألف، وأصله: يتصعَّد؛ أي: يَتكلَّفُ الصُّعود، فأُدغِمت التَّاءُ في الصَّاد، كما في قوله: ﴿يُذَّكَّرِ﴾.

و﴿يصَّاعد﴾ أصله: يتصاعد، وأُدغمَت التَّاء في الصَّاد.

وقال مقاتل بن سليمان: أي: لا يَقدِرُ على الإيمانِ مَن أضلَّهُ اللهُ تعالى عن الهدى، كما لا يَقدِرُ المتكلِّفُ على الصُّعودِ إلى السَّماء[٣].

وهذا الإضلالُ والخُذلان في حقِّ مَن علمَ اللهُ منه اختيارَ الضَّلال، والآيةُ دامغةُ المعتزلةِ في إنكارِهم الهدايةَ والإضلالَ مِن اللهِ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: العذاب، وقيل: الإثم، وقيل: اللَّعن، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١][٤].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَن شرح الله صدره للإسلام فآيتُه ألَّا يَتحرَّك في باطنِه عِرْقٌ لمنازعةِ التقدير[٥]؛ لأنَّ الإسلامَ يَقتضي تسليمَ الكُلِّ، ومَن استثقلَ شيئاً مِن التَّكليفِ، أو بقيَ فيه نفسٌ لكراهةِ شيءٍ فهو غيرُ مستسلمٍ لحكمِه.

---

(١) قوله: «وحماد» من (ف).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٦ ـ ١٠٧)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٤)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٨).

(٤) بعدها في (ف): «وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد تقدم الكلام عليه» وما بعد الآية في الهامش، وفوقه حرف: «خـ» يشير إلى أنها نسخة.

(٥) في (أ): «القدير».

ويقال: نورٌ في البداية هو نورُ العقل، ونورٌ في الوسائط هو نورُ العلمِ، ونورٌ في النِّهايةِ هو نورُ العرفانِ، فصاحبُ العقلِ مع البُرهان، وصاحبُ العلمِ مع البيان، وصاحبُ المعرفةِ في(١) حكم العِيان.

ويقال: مَن وَجَدَ أنوارَ الغيبِ، ظهرَ له خفايا الأمورِ، ولم يُشكِل عليه شيءٌ عند ظهورِ النُّور، قال النبيُّ ﷺ: «اتَّقوا فراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنظرُ بنورِ اللهِ تعالى»(٢).

ويقال: أوَّل آيةٍ لأنوارِ الغيبِ في العبد: تنبُّهُهُ على نقائصِ قدرِه، ومساوئِ عيبِه، ثمَّ تَشاغُلُه عن شهودِ نفسِه بما يَلوحُ له مِن شهودِ ربِّه، ثمَّ غلباتُ الأنوارِ على سِرِّه، حتَّى لا يشهدَ السرَّ بعدما كان يشهد، كالنَّظرِ في قرصِ الشَّمس، يَستهلِكُ أنوارَ بصرِه في شُعاع الشَّمس، فكذلك تستهلِكُ أنوارُ البصيرة حقائقَ الشُّهود، وفيه خمود العبدِ بالكُلِّيَّة، وبقاءُ الأحديَّةِ بنعتِ السَّرمديَّة(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: يعني الإسلام(٤)، وقد ذكر في الآية الأولى.

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: هو القرآنُ(٥)، وقد ذكر قبله بآيات(٦).

و﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ نُصِب على القطع؛ لأنَّه نكرةٌ ذُكِرَت بعد معرفة.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتذكرون، ومعناه: يتَّعِظون.

---

(١) في (ف): «الحكمة مع» بدل: «المعرفة في».

(٢) رواه الترمذي في «سننه» (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٥٤).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٨٩).

(٦) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ [الآية: ١١٤].

(١٢٧) ـ ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: للمتذكِّرين الجنَّة.

وقال الحسنُ والسُّدِّيُّ: السَّلام هو الله تعالى[١]، والدَّارُ أُضيفَت إليه.

وقال الزجاج: أي: دارُ السَّلامة الدَّائمةِ مِن كلِّ آفةٍ وبليَّةٍ[٢].

وقيل: هي دارُ السَّلام الذي هو التَّحيَّة، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مضمونةً عند ربِّهم، حتَّى يوصلَها إليهم.

وقيل[٣]: أي: هي[٤] في الآخرةِ يُعطيهم إيَّاها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾؛ أي: حبيبُهم، وقيل: ناصرُهم، وقيل: متولِّيهم، وقيل: حافظُهم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مِن الطَّاعات؛ أي: يتولَّاهم بكرمِه وفضلِه ونُصرتِه؛ جزاءً لهم بأعمالِهم الصالحة.

وقال الحسينُ بنُ الفضل: يتولَّاهم في الدُّنيا بالتَّوفيق، وفي الآخرةِ بالجزاء[٥].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله[٦]: دارُ السَّلام: دارُ السَّلامة[٧]، ومَنْ كان في

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٥٤) عن السدي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٩١).

(٣) لفظ: «وقيل» ليس في (أ).

(٤) بعدها في (ر): «لهم».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٠).

(٦) بعدها في (ر): «لهم».

(٧) «دار السلامة» ليس من (ف).

رِقِّ شيءٍ مِن الأعراض، لم يجدِ السَّلامة، وإليه تشيرُ أنَّ القومَ في الجنَّة، لكنَّهم ليسوا في أسْر الجنة.

ويُقال: من لم يسلم اليوم عن الكونين، لم يجد غداً سلامَ مكوِّنِ الكَونين.

ويُقال: دارُ السَّلام غداً لمن سَلِمَ اليومَ لسانُه مِن الغيبة، وجَنانُه مِن العيبة، وظاهرُه مِن الزَّلَّةِ، وباطنُه مِن الغفلةِ، وعقيدتُه مِن البدعةِ، ومعاملتُه مِن الجفوة، وأعمالُه مِن الرِّياءِ والسُّمعةِ، وأحوالُه مِن العُجبِ والملاحظة.

ويقال: قيمةُ الدَّار بالجار، قال قائلهم:

إنِّي لأحسُد جارَكُم[١] لجوارِكُم ... طُوبى لِمَنْ أضْحى لدارِكَ جارَا

يا ليتَ جارَكَ باعَ لي مِن دارِه ... شِبْراً لأعطيه بِشبرٍ دارا

والحقيقةُ وإنْ كانت منزَّهةً عن قَبول الجِوار، وليس القربُ مِنه بتداني[٢] الأقطار، فإطلاقُ هذا اللَّفظِ مؤنِسٌ لقلوب الأحباب، وقاطعٌ للوسائطِ والأسباب.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذي آثرَهم على أشكالهم، فآثروه في جميع أحوالهم، وليُّهم في أولاهم، ووليُّهم في أخراهم، وليُّهم الذي يَطلب رضاهم، وليُّهم الذي لم يَكِلْهُم إلى هواهم، لا إلى دنياهم، ولا إلى عُقباهم، وليُّهم الذي بإفضالِه يُلاطِفُهم، وبجمالِه وجلالِه يُكاشِفُهم، وليُّهم الذي اختطَفهم عن كلِّ حظٍّ ونصيب، وحالَ بينَهم وبين كلِّ حميمٍ ونسيب، وليُّهم الذي حرَّرهُم مِن كلِّ مرجوٍّ ومرهوب، وممنوعٍ وموهوب، وليُّهم الذي ليس لهم سواه، وليُّهم الذي لا يشهدون إلَّا إيَّاه، لا في بدايتِهم يَقصِدون غيرَه، ولا في وسائِطهم يَشهدون غيرَه، ولا في نهايتِهم يَجدون غيرَه[٣].

---

(١) في (ف): «داركم»، وفي «لطائف الإشارات»: «داراً في» بدل: «جاركم».

(٢) بعدها في (ف): «اختطفهم»، وهي مقحمة.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(١٢٨) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾(١)؛ أي: خوِّفهُم يومَ يبعثُهم(٢) فيه جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: ويَقول ـ هذا مضمَرٌ يَدُلُّ عليه الحال ـ: يا معشرَ الشَّياطين، قد أضللتمُ الخلقَ الكثيرَ مِن الإنس، إشارةً إلى قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨]، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: أولياءُ الجنِّ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الجنُّ بالإنسِ، والإنسُ بالجنِّ.

قال الكلبيُّ: كان استمتاعُ بعضِهم ببعض: أنَّ الرَّجلَ مِن الإنسِ كان إذا سافرَ أو خرجَ، فصارَ بأرضٍ قفرةٍ، أو أصابَ صيداً مِن صيدِهم، فخافَ على نفسه مِنهم، قال: أعوذُ بسيِّد هذا الوادي مِن سفهاءِ قومِه، فيَبيتُ في جوارٍ منهم، فهذا استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ، واستمتاعُ الجنِّ بالإنس: أن قالوا: قد سُدْنا الإنسَ والجنَّ حين عاذَ الإنسُ بنا، فيَزدادون بذلك شرفاً في قومِهم، وعِظَماً في أنفسِهم(٣). وكذلك قال عكرمةُ ومجاهد(٤) وجماعة(٥).

---

(١) في (ف): «نحشرهم».

(٢) بعدها في (ف): «الله».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٠).

(٤) في (ف): «وقال مجاهد».

(٥) ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (٨/ ٤٣٦) عن الحسن وابن جريج والكلبي وعكرمة.

وقال عبد العزيز بن يحيى: [هو طاعةُ بعضِهم بعضاً، وموافقةُ بعضهم بعضاً.

وقيل:](١) استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ: ما كانوا يُلقونَ إليهم مِن الأراجيفِ والسِّحرِ والكهانة، واستمتاعُ الجنِّ بالإنس: قولُهم: نعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من سُفهاءِ أهله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وقيل: أي: تعاونَ بعضُنا ببعضٍ في المعصيةِ والمخالفةِ؛ هؤلاءِ بالدُّعاء، وهؤلاء بالإجابة.

وقيل استمتاعُ الجنَّ بالإنس: أنَّ عظامَنا طعامُهم، وأرواثَ أنعامِنا علفُ دوابِّهم(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: قيل الموت، وقيل: البعثُ يومَ القيامة؛ لأنَّهم كانوا ينكرون ذلك، فأقرُّوا به حينئذٍ(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: قال الله تعالى: جهنَّمُ مقامُكم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في النَّار، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلَّا مقدارَ وقوفِكم خارجاً منها للعرضِ والحساب، فهم في هذا الوقت مستثنَون عن ذلك.

وقيل: أي: معذَّبون بالنَّار إلَّا ما شاءَ اللهُ مِن تعذيبكم بغير النَّار.

وقال عطاء: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَن سبقَ في علمه أنَّه يؤمنُ كما في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]؛ فمِنهم مَن آمنَ قبل الفتح: بجيد بن وهب(٤)، وخالد بن

(١) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٥٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٥٨).

(٤) في (أ) و(ر): «بجير»، ولم أقف عليه.

الوليد، وعمرو بن العاص، وجبيرُ بن مُطعِم، وعِدَّةٌ، ومِنهم مَن آمنَ بعد الفتح[١]؛ عكرمة بن عمرو، والحارثُ بن هشام، وحكيمُ بن حِزام، وسهيل[٢] بن عمرو، وضرارُ بن الخطَّاب، وهبَّارُ بنُ الأسود، وصفوانُ بن أمية، وعبدُ الرَّحمن بن أبيٍّ بن خلف[٣]، وأبو سفيان بن الحارث، وصخرُ بنُ حرب، وأبو قحافة، وعِدَّة.

وقال الحسن: إلَّا ما شاءَ اللهُ مِن كونِهم في الدُّنيا بغيرِ عذاب[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بما يَفعلُ بأوليائِه وأعدائِه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمطيعين والعاصين، يَجزي كلًّا على وفقِ عملِه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يَعتذِرون فلا يُسمَع، ويَحتجُّون فلا يَنفع، ولقد كانوا مِن قبلُ لو أتَوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم، لكن سبقتِ القِسمةُ، فحقَّت الشِّقوة[٥].

* * *

(١٢٩) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قيل: أي: نُولِّي ظلمةَ الإنسِ ظلمةَ الجِنِّ، وظلمةَ الجنِّ ظلمةَ الإنس في الآخرة؛ أي: نَكِلُ بعضَهم إلى بعض، كما قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]؛ فلا يَنفعُ بعضُهم بعضاً، كقول إبليس لعنه الله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، و﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ [الأنعام: ٢٢].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٠).

(٢) في (ف): «وسهل».

(٣) لعل صوابه: عبد الله بن أبي بن خلف، أسلم عام الفتح. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٨٦٥).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٠) دون نسبة.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٣).

وقيل: ﴿نُوَلِّي﴾؛ أي: نُسَلِّطُ بعضَهم على بعضٍ، فيَلعنُ بعضُهم بعضاً، ويَتبرَّأُ بعضُهم مِن بعضٍ، ويَدعو بعضُهم بزيادةِ العذابِ على بعض، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقال قتادةُ: أي: يَتبعُ بعضُهم بعضاً في النَّار[1].

وقيل: هو مِن الولايةِ، فقال في حقِّ المؤمنين: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، وقال في حقِّ الكافرين: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾؛ أي: نَجعلُ بعضَهم أولياءَ بعض، كما قال في حقِّهم.

ذلك وإذا كان الله وليَّهم، فهو يَنصرُهم ويَحفظُهم، والكفَّار هم أولياء بعض، يَصيرون يومئذٍ أعداء، كما قال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقيل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: يَقتضي مشبَّهاً ومشبَّهاً به؛ أي: كما يَفعلُ بهم ذلك في الآخرةِ، يَفعلُ بهم في الدُّنيا.

قال مالكُ بنُ دينار: قرأتُ في كتب الله المنزلةِ: أن الله تعالى قال: أُفني أعدائي بأعدائي، ثمَّ أفنيهِم بأوليائي[2].

وقال النبيُّ ﷺ: «إن اللهَ يَنتصِفُ مِن الظَّالم بالظَّالم، ثمَّ يَنتصِفُ مِنهما في القيامة»[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩١)، وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٩) (٧٩٠١).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأورده العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٣٩) بلفظ: «إن الله ينتقم من الظالم بالظالم» ثم نقل عن النجم قوله: لا يعرف بهذا اللفظ، لكن روى ابن أبي شيبة وابن أبي =

(١٣٠) - ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: يُقالُ لهم[1] يوم يحشرون: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ استفهامٌ بمعنى الإثبات؛ أي: ما عذرُكم في الكفر، وقد أتاكم رسلٌ منكم؟ وهذا[2] خطابٌ للجنِّ والإنس.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: اختلف فيه:

قال بعضُهم: لم يَكن مِن الجنِّ رسلٌ، إنَّما كانتِ الرُّسلُ مِن الإنس، لكنَّه أضافَ إلى الفريقين جميعاً، كما قال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنَّما يَخرجُ مِن أحدِهما، وهو المالحُ منهما، وكما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح: ١٦]، وإنَّما جعلهُ في واحدةٍ منهنَّ، وكقولِ النَّاس: في سبع قبائلَ مسجدٌ واحدٌ، وإنَّما يكونُ في واحدةٍ منهنَّ.

وقال بعضهم: كان مِن الفريقين جميعاً الرُّسل؛ مِن الجنِّ جنِّيٌّ، ومِن الإنسِ إنسيٌّ؛ لأنَّ الجِنَّ يَستترونَ مِن الإنس، فإنَّما يُرسَلُ إلى الجنِّ رسلٌ يَظهرون لهم، فيُبعَثُ إلى كلِّ فريقٍ الرَّسولُ مِن جوهرِهم.

وقال بعضُهم: كان الرَّسولُ مِن الإنسِ إلى الفريقين جميعاً، وكان مِن الجنِّ

= حاتم عن مالك بن دينار قال: قرأت في الزبور: إني أنتقم بالمنافق من المنافق ثم أنتقم من المنافقين جميعا، وذلك في كتاب الله تعالى. ثم ذكر الآية. وسلف قول مالك قريباً.

(١) بعدها في (ف): «يوم القيامة».

(٢) من قوله: «استفهام بمعنى الإثبات» إلى هنا وقع مكانه في (ف): «أي من ربكم وهو».

النُّذر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩][1].

وقال غير الإمام أبي منصور رحمه الله: وقد قيل[2]: إنَّ الرُّسلَ مِن الجنِّ كهؤلاء، وهم الذين يَسمعون مِن رسلِ الإنس، ويبلغون بأمرِهم إلى قومهم.

وقال أبو العباس المبرد: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أي: مِن أهل الأرض، والإنسُ والجنُّ مِن أهلِ الأرض[3] بخلافِ الملائكة لأنهم من أهل السماء.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وليس لنا إلى معرفة هذا حاجةٌ، إنَّما الحاجةُ إلى معرفةِ الآياتِ والحُجَج التي يأتي بها الرُّسلُ، وقد عجزَ عنها الجِنُّ والإنسُ جميعاً، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فالجنُّ أقوى على أشياء من الإنس، فإذا عجَزوا عن ذلك فغيرُهم أعجز.

قال: وجائزٌ أنْ يكون الرُّسلُ وإن كانوا من الإنس، فإنَّ الجنَّ يَستمعون مِن الرُّسل، فلَزِمَتهمُ الحجَّةُ، والعملُ بها، والتَّبليغُ إلى قومِهم مِن غير أنْ يَعلمَ الرُّسلُ بذلك[4].

وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ أي: يَتلونها عليكم في الأمرِ بالإيمانِ والطَّاعة، والنَّهي عن الكفرِ والمعصية.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٥٩).

(٢) في (أ): «وقيل» بدل: «وقد قيل»، وليست في (ر).

(٣) قوله: «والإنس والجن من أهل الأرض» من (ر).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٦٠).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: يخوِّفونكم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾؛ أي: أقرَرنا بذلك، كما قال ـ خبراً عنه(١) ـ: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بيَّن أنَّ مخالفتَهم الرُّسلَ إنَّما كانت لأنَّهم اغترُّوا بالحياةِ الدُّنيا، وظنُّوا أنَّها تدومُ لهم، وتوهَّموا أنَّ ما أُعطوه(٢) لِكرامتِهم على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بتكذيبِهم، فيقول للمشركين: احذروا أن تكون هذه حالُكم يومَ القيامة.

* * *

(١٣١) ـ ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: ذلك الإرسالُ إلى الجنِّ والإنس؛ لأجلِ أنَّ ربَّك ليس مِن صفتِه أنْ يُهلِك القُرى بظلمٍ.

قال الكلبيُّ: أي: يُعذِّبَ أهلَها ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشركٍ، ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: لم يكن ليهلِكَهم مِن قبل أنْ يأتيَهم رسولٌ فينهاهم(٣)، فإنْ رجَعوا، وإلَّا أتاهمُ العذاب.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: لا يَستأصِلُ اللهُ قوماً إلَّا بعد تَقدُّم الوعيدِ؛ لئلَّا يَحتجُّوا فيقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وإن لم يكن لهمُ الاحتجاجُ بذلك، لما مكَّن لهم، وركب فيهم ما

---

(١) قوله: «خبراً عنه» من (ر).

(٢) في (ف): «أعطوا».

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يَعرفون به أنَّه لم يَخلقهُم عَبَثاً، ولا يَترُكُهم سداً، لكنَّ سنَّتَهُ في الأوَّلين قد مضَت أنَّه لا يُهلِكُهم إلَّا بعد الوعيدِ؛ فضلاً منه ورحمةً، لا أنَّه لا يَسعـ[ـه] ذلك[1].

***

(١٣٢) ـ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: ولكلِّ عاملٍ بطاعةٍ أو معصيةٍ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: مراتبُ في الجزاء.

قال الكلبي: أي: بعضُهم أشدُّ عذاباً مِن بعض، وكذلك في الفضائلِ بعضُهم أعلى درجةً مِن بعض، على قدرِ أعمالِهم في الدُّنيا.

وقال القشيريُّ رحمه الله: المحسنُ في روحِ الثَّوابِ متنعِّمٌ، والمجرمُ[2] في نوحِ العقابِ متألِّـمٌ[3].

وتَعلَّقَ أبو يوسف ومحمَّدٌ رحمهما الله بظاهرِه؛ في أنَّ الجِنَّ لهم ثوابٌ؛ فإنَّه قدَّمَ ذكرَ الجنِّ والإنس، ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾؛ أي: مِن الفريقين.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: الكلامُ في أكثرِ هذه الآيات، وكذلك في الآية التي قبل هذه الآيةِ، في مشركي الإنسِ ومؤمنِيهِم، فالظَّاهرُ أنَّه فيهم، والأصلُ أنَّ الثَّوابَ لا يُستحَقُّ بالعمل، بل هو محضُ فضلِ الله تعالى، فلا نَشهدُ به إلَّا لِمَن سبقَ له الوعدُ به، ولا نَتيقَّنُ بذلك في حقِّ الجنِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ بتاء المخاطبة؛ ردًّا

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٦١)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في (ر): «والمسيء».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٤).

على قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، والباقون بياء المغايبة؛ ردًّا على الآية التي قبلها[١].

ومعناه عند الإمام أبي منصورٍ رحمه الله على وجهين:

أحدهما: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ عن أعمالِهم التي يَعملونها مِن المعصية، ولكن يؤخِّرُ تَعذيبَهم؛ رحمةً منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

والثاني: أنه على علمٍ بأعمالِهم خلقَهم، لا عن جهلٍ؛ لما أنَّ ضررَ أعمالِهم يَرجِعُ إليهم، لا إليه[٢].

* * *

(١٣٣) ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ فلا يَنتفِعُ بالطَّاعةِ، ولا يَتضرَّرُ بالمعصية، ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ فلا يُعاجِل بالعقوبة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ يُشيرُ إلى عزِّه، و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ يُشيرُ إلى لطفه، أخبرَ بقوله: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن جلالِه، وبقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ عن أفضالِه، فبجلالِه يُكاشِفُهم فيُفنيهم، وبأفضالِه يُلاطِفُهم فيحييهم، وسماعُ غِناه يُوجِبُ محوَهم، وسماعُ رحمتِه يُوجِبُ صحوَهم، فهم في سماعِ هذه الآية بين فناءٍ وبقاء، واصطلامٍ وإكرام، وتذويبٍ وتقريب، واحتياجٍ وارتياح[٣].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٤).

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: يُهلككم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ يجعل فيها مَنْ يَخلُفُكم مِن غيرِكم مِن النَّاس، أو مِن غيرِهم؛ فإنَّه قال: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، ولم يقل: من يشاء، فلا يَختصُّ بالعُقلاء.

وقيل: ﴿مَّا﴾ هاهنا بمعنى: من، والمراد به: ويأت بقومٍ[1] أطوعَ منكم.

قال عطاء: هم الأنصارُ والتَّابعون بإحسانٍ[2].

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: نسلِ قومٍ كانوا قبلَكم.

قال مقاتل: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ يعني: أهل سفينة نوح[3].

وقيل: ﴿مِّن﴾ للبدل، كما يُقال: أعطيتُك مِن دينارٍ ثوباً؛ أي: أنشأكُم بدلاً مِنهم.

* * *

(١٣٤) - ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾؛ أي: مِن مجيء الساعة.

وقيل: مِن العذابِ في الدُّنيا والآخرة.

وقيل: مِن إظهارِ محمَّدٍ ﷺ.

وقال الكلبيُّ: ﴿لَأَتٍ﴾؛ أي: لكائنٌ لا خُلفَ فيه.

---

(١) بعدها في (ر): «هم».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٩٠).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الإشارةُ في هذه الآية إلى قِصرِ الأمل، ومَنْ قَصُرَ أملُه، حَسُنَ عملُه، وكلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ أجلُه[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين؛ أي: يُدرِكُكم حيث كنتم، وقد قَصدتُ فلاناً فأعجزني؛ أي: سبقَني ففاتَني.

***

(١٣٥) ـ ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ قرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر وحماد[٢]: ﴿على مكاناتكم﴾ بالجمع؛ لأنَّه خطابُ الجمع، وقرأ الباقون: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ على الواحد[٣].

والمكانةُ: الطَّريقةُ والجهة.

وقيل: أي: النَّاحيةُ، وهو عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما[٤] والحسن.

وقال الزَّجَاج: هي مِن التَّمكُّن؛ مصدر المكين، وصيغتُه صيغةُ الأمر، ومعناهُ التَّهديد، كما قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠][٥].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٤).

(٢) قوله: «وحماد» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٧)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٥).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٩٠) (٧٩٠٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٩٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾؛ أي: قد أنذرتُكم ونصحتُ لكم، وأنتم مقيمون[١] على تكذيبي، فاثبتُوا على ما أنتم عليه مِن الكفر والمعاصي، وأنا أثبتُ على الإيمانِ والطاعةِ، والصَّبرِ على إيذائكم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[٢] بياءِ التَّذكير؛ لتقدُّمِ الفعل، ولأنَّ تأنيثَ العاقبةِ غيرُ حقيقيٍّ.

وقرأ الباقون بتاء التأنيثِ[٣]؛ لأنَّها مؤنَّثةٌ لفظيَّةٌ؛ أي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ العاقبةُ[٤] المحمودةُ في دار السَّلام.

ويَحتملُ عاقبةَ دارِ الدُّنيا؛ في النَّصرِ والظَّفر ووراثةِ الأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأنتم ظالمون لا تُفلِحون.

وقال مجاهدٌ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: الظَّفرُ في الدُّنيا، والفوزُ في الآخرة.

وعاقبةُ الشَّيء وعُقباهُ وعُقْبُه: آخرُه ومنتهاه.

وقال الكلبيُّ: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ في منازِلكم في أمري، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في أمرِكم بالهلاك، فسوف تعرفون[٥] مَن تكونُ له الجنَّة، إنَّه لا يَأمنُ الظَّالمون.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (أ): «تقيمون».

(٢) قوله: «وخلف» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

(٤) في (ف): «عاقبة الدار» بدل: «العاقبة».

(٥) في (أ): «تعلمون».

(١٣٦) ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهذا ممَّا يُوحي شياطينُ الجنِّ والإنس مِن زخرف القول[١]، ومِن ضلالات أهل الشِّرك وجهلِهم وافترائهم على الله، وشرعِهم ما لم يأذن به الله، يقول: سمَّوا لله ممَّا خلقَ مِن الزَّرع الذي يزرعونه، ومن الحيواناتِ التي يَقتنونها مِن البقر والإبل والغنم حظًّا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قرأ الكسائيُّ وحدَه: ﴿بزُعمهم﴾ بضمِّ الزَّاي، والباقون بفتحها[٢]؛ أي: بقولِهم الباطل، ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: أصنامِنا، وكانوا يجعلونَها شركاءَ لله، وإنما أضافوها لأنفسِهم لاعتقادِهم إيَّاها كذلك.

ثمَّ كان من حكمِهم أنَّ ما جعلوهُ لله مِن حرثِهم، فاختلطَ منه شيءٌ بالذي عزلوهُ لآلهتهم قالوا هذا لآلهتنا، واللهُ غنيٌّ عنها[٣]، ولم يَردُّوه إلى ما عزلوه لله، وما اختلطَ منه شيءٌ ممَّا سمَّوه لآلهتِهم بالذي سمَّوه لله، أخذوهُ وردُّوه إلى نصيبِ آلهتِهم، وقالوا: هذا كان لها، فهي أحقُّ به، وكانوا إذا زرعوا خَطُّوا خطًّا، فقالوا: هذا لله[٤]، وهذا لآلهتنا، وإذا حصدوا ممَّا وقع منه فيما جعلوهُ للآلهةِ؛ بأن ذهبت به الريح أو

---

(١) بعدها في (أ): «غروراً».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٣) في (ف): «عن هذا».

(٤) بعدها في (أ): «بزعمهم»، وفي (ر): «تركوه».

غير ذلك، تركوه، وما وقع منه فيما جعلوه لله، أعادوه إلى موضعه، وكان إذا نما وحسُن ما لله، وانتقص ما لآلهتِهم، جعلوا ذلك النَّامي لآلهتهم، ولم يَجعلوا ذلك في عكسه.

هذا في الحرث، فأمَّا في الأنعام، فكانوا يُسمُّون بعضها لله، وبعضَها لآلهتهم، فكانت إذا ولدَت ما لله إناثُها ميتاً، أكلوه، وإذا جعلوا لآلهتهم، فولدَت ميتاً، عظَّموهُ فلم يأكلوه، وبيان ذلك في تفسير البَحيرة والسَّائبةِ والوصيلة والحامي(١).

وقال قتادة: إنْ أصابَتهُم سنةٌ، أكلوا ما جعلوا لله، وتَركوا ما جَعَلوا لآلهتِهم(٢).

وقيل: ما سمَّوه للأصنام كانوا يُنفِقون عليها، وما سمَّوه(٣) لله نحروه(٤) للأضياف والسُّؤَّال، وكذا من الحرث.

وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ في شرعِ ما لم يَشرعِ الله.

وقيل: أي: في تفضيلِ الأصنامِ على الله(٥) في هذه المعاملة.

وقيل: إنَّ الله تعالى قال: لو كان معي شريكٌ كما يقولون، فهذا ليس بعدلٍ في القسمة؛ أن تأخذوا منِّي ولا تُعطوني.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: فيه وجوه سفهٍ منهم:

أحدها: أنَّهم كانوا مقرِّين أنَّ اللهَ خلقَ الأشياءَ كلَّها، ثمَّ جعلوا ممَّا خلقَ نصيباً للأصنام.

---

(١) عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة المائدة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٧١).

(٣) في (أ): «سموا».

(٤) في (ف): «نحروا منه».

(٥) قوله: «على الله» ليس في (ف).

ومنها: أنَّهم لم يُسوُّوا في هذه القسمة على ما حكينا، فأخبرَ أنَّه بئسَ الحكم، وهو كما قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١].

ومنها: أنَّ الأصنامَ لا تملكُ شيئاً، ولا تَعقِلُ شيئاً، فلا معنى لفعلِهم هذا[١].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لـمَّا بنَوا قاعدةَ أمرِهم على موجبِ الهوى، صارت فروعُهم لائقةً بأُصولهم، فهو كما قيل:

إذا كان القضاءُ إلى ابن آوى فتعديلُ الشُّهودِ إلى القرودِ[٢]

* * *

(١٣٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾؛ أي: كما زيَّنوا لهم تحريمَ هذه الحروثِ والأنعام بخلافِ حكم الله، كذلك زيَّن لكثيرٍ منهم شركاؤهم قتلَ أولادِهم بغير أمر الله به، وإذنِه فيه.

والشركاء: الشَّياطين هاهنا، لا الأوثان، فكانوا يُعظِّمون الشَّياطينَ ويَقبلون منهم، فصاروا شركاءَ لهم، أشركوهم بالله مِن هذا الوجه، كما كان الأوثانُ شركاءَ لهم، أوقعوا في قلوبِهم[٣] بطريقِ الوسوسة قتلَ البنات؛ خشيةَ الإملاقِ ولحوقِ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٥)، والبيت ذكره الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ١٩٣) دون نسبة.

(٣) بعدها في (ف): «من هذا الوجه»، وهي مقحمة.

العار، وإنما قال: ﴿لِكَثِيرٍ﴾، ولم يقل: للكلِّ؛ لأنَّ بني كنانة كانوا لا يَئِدون البنات، روي ذلك عن الحسن ومجاهد والسُّدِّي(١).

وله وجه آخر: قال الكلبيُّ: كان لآلهتهم سَدَنَةٌ وخُدَّامٌ، هم الذين يُزيِّنون للكفَّارِ قتلَ أولادِهم، وكان الرَّجلُ يَحلِفُ في الجاهليَّة: لئن وُلِدَ له كذا غلاماً، ليَنحرنَّ أحدَهم، كما حلف عبدُ المطَّلب على ابنِه عبد الله(٢)، وشركاؤهم هم السَّدنَةُ، وقتل الأولاد بهذا الوجه، وهو ممَّا لم يَأذن به الله.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم وقد رَدِيَ يَرْدَى ردىً، من باب: عَلِمَ؛ أي: هلك، وأرداهُ غيرُه إرداءً.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؛ أي: ليُشبِّهوا ويُخلِّطوا؛ أي: يُدخِلوا الشُّبهات والتَّخاليطَ في الدِّين الذي شرعَهُ اللهُ لهم، فيَتركوه.

وقال الكلبيُّ: وكانوا على دينِ إسماعيل(٣).

ويحتمل: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الباطل، وهو الشِّركُ فيَلزموه، والدِّينُ يَقعُ على الحقِّ والباطلِ، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ فثبَتَ أنَّ الكائناتِ كلَّها بمشيئةِ اللهِ تعالى جلَّ جلالُه، وبطلَ به مذهبُ المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يَكذبون بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

---

(١) المروي عن مجاهد والسدي عند الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦) تزيين الشياطين للمشركين قتل أولادهم، وليس فيه استثناء بني كنانة من هذا الفعل.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩٤).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٤٦٢).

وقرأ ابنُ عامر: ﴿زُيِّن لكثيرٍ مِن المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم﴾ بضمِّ الزَّاي، ونصب الأولاد، وخفضِ الشُّركاء[١]، وتقديره: قتلُ شركائِهم أولادَهم، ففصل بين المضافِ والمضاف إليه، وقد وردَ مثل ذلك في الشعر، قال قائلهم شعر:

فزَججتُها بِمِزَجَّةٍ زجَّ القلوصَ أبي مَزَادَهْ[٢]

أي: زجَّ[٣] أبي مزادةَ القلوصَ.

وأكثرُ النَّحويين على أنَّه لا يجوزُ؛ لأنَّ القرآنَ لا يُحمَلُ على الشَّاذِّ القبيح[٤]، وقالوا: إنَّما حملَهُ على هذه القراءة؛ لأنَّها في مصاحفِ أهل الشام: ﴿شركائهم﴾ بالياء.

ويجوزُ حملُ ذلك على وجهٍ آخرَ أحسن من هذا: ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بالخفض، و﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ كذلك؛ على أنَّه بدلٌ عنه.

وسُمُّوا شركاءَ لأنَّهم يَشْرَكونَهم في النَّسب والنَّعم والميراث.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) البيت في «الكتاب» (١/ ١٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٩)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٠٦)، و«خزانة الأدب» (٤/ ٤١٥) وغيرها دون نسبة. قال عبد القادر البغدادي في «الخزانة»: (٤/ ٤١٥): قال ابن خلف: هذا البيت يروى لبعض المدنيين المولدين، وقيل: هو لبعض المؤنثين ممن لا يحتج بشعره.
يقال: زججتُهُ زجًّا: إذا طعنته بالزُّجِّ، وهي الحديدة التي في أسفل الرمح. والقلوص: الناقة الشابة. وأبو مزادة: كنية رجل.

(٣) في (أ): «كزج».

(٤) وقد بين الإمام أبو حيان وجوه هذه القراءة، ورد على منكريها في «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٣ ـ ٤٢٦)، فانظره.

وقال الفرَّاء: ويجوز «شركايُهُم» بالياءِ ورفع الياء، على لغة من قال: عشايٌ، في عشاء[١]، قال الشاعر:

إذا الثُّريَّا طَلعت عشايا فبِعْ لراعي غنمٍ كِسايا[٢]

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ قيل: لو شاءَ اللهُ لأهلكَهُم فلم يَفعلوا ذلك.

وقيل: لأعجزَهم ومنعَهم عن ذلك.

وقيل: لأراهُم قبحَ فعلِهم، فلم يفعلوا، ولكن علمَ اللهُ مِنهم أنَّهم يَختارون ذلك، وشاءَ لهم ذلك، فذَرهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ فإنَّ ضررَ ذلك الافتراءِ عليهم، ليس علينا ولا عليك.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَهُ الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ صرَّح بأنَّ المدارَ على المشيئة، والاعتبارَ لسابق القضيَّة[٤].

* * *

(١٣٨) ـ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٧).

(٢) الرجز دون نسبة في «الأضداد» للأصمعي (ص: ٣٠)، وفيه: «عشيَّهْ... كُسَيَّهْ».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٦٨).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ ﴿حِجْرٌ﴾؛ أي: حرامٌ، مِن الحَجْرِ، وهو المنعُ، وهذه الأنعامُ والحرثُ هي التي ذُكرت قبل هذا في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ وقد فسَّرناهُما.

﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أي: قولِهم الباطل، وهو ما ذكرنا مِن الأصناف والمساكين(١).

وقال الكلبيُّ: أي: الرِّجالُ دون النِّساء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هذا في الحامي كان الفحلُ إذا رُكِبَ ولدُ ولدِه قالوا: حمى ظهره، فلا يُركَبُ، ولا يُحمَلُ عليه، ولا يُمنَع عن مرعًى ولا ماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قيل: هي أنعامٌ كانوا لا يُحرِّمونها، ويُبيحونَ الانتفاعَ بها، لكن كانوا لا يَذكرون اسمَ اللهِ عليها عند حملٍ أو ركوبٍ أو حَلْبٍ أو غيرِ ذلك.

وقيل: بل كانوا لا يَنتفعون بها، ولو انتفَعوا بها لذكروا اسمَ الله عليها، خصوصاً(٢) إذا حجُّوا عليها؛ فإنَّهم كانوا يَذكرون اسمَ الله عليها بالتَّلبية وغيرها.

وقال أبو وائل: لا يَحجُّون عليها.

وقال السُّدِّيُّ: لا يَذكرون اسمَ اللهِ عليها إذا ذبحوها(٣).

---

(١) في (ف): «الأصناف والمشركين».

(٢) بعدها في (أ): «يحرمونها».

(٣) قولا أبي وائل والسدي رواهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣).

وذكرَ الإمامُ أبو منصور رحمه الله بعضَ هذه الأقاويل وغيرها، قال: وقيل: أي: لا يَذبحوها للأكل، ولا يَذكرون اسمَ الله عليها وقت الرُّكوب، وهو قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ الآية [الزخرف: ١٣]؛ لأنَّهم لا يَركبونها، ولكن يُسيِّبونها.

قال: والأقربُ إلى الصَّواب: لا يَنتفِعون بها ليَعرفوا نعمَ الله، ويَشكروا لهُ عليها[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾؛ أي: كذِباً على الله أنَّه أمرَهُم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وهذا وعيدٌ[٢].

***

(١٣٩) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قراءةُ العامَّة: ﴿خَالِصَةٌ﴾ بالرَّفع والتَّنوين، وليست للتأنيث، بل يقال في الاسم: خالصٌ وخالصةٌ، قال الشاعر:

كنتَ أمينِي وكنتَ خالِصَتي ... وليس كلُّ امرئٍ بمؤتَمنِ[٣]

والخالصُ: الذي لا شوبَ فيه.

وقيل: الهاءُ للمبالغة، كما يقال: راويةٌ للشِّعرِ، وعلَّامةٌ، ونسَّابةٌ، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٢٧١).

(٢) في (ف): «وعد ووعيد»، والمثبت هو الصواب.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٦)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٦٥) دون نسبة.

وقرأ سفيانُ بن الحسين: (خالصةً) بالنَّصب والتَّنوين[1] على أنَّها مصدرٌ، كالعافية والعاقبة واللَّاغية والطَّاغية؛ أي: خلوصاً لذكورنا.

وقرأ ابن عباس: (خَالِصُهُ لذكورنا) برفعِ الصَّاد وهاءِ الإضافة؛ أي: الخالصُ مِنه لذكورنا[2].

وفي مصحفِ عبد الله بن مسعود: (خالِصٌ لذكورنا)[3] على التَّذكير؛ لأنَّه نعتُ ﴿مَا﴾، وكذا بعده: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾.

ومعناه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ﴾ البحيرة ونحوِها من الألبان، في قول ابن عباسٍ والشعبيِّ[4]، وقيل: من الأجِنَّة: مباحٌ لذكورِنا، فيتناولون مِنها، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: إناثنا؛ لأنَّ الإناثَ هنَّ أزواجُ الرِّجال في الجملة، فلا يَحِلُّ لهنَّ شيءٌ مِن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ قرأ ابنُ كثير: ﴿يَكُن﴾ بياء التَّذكير، ﴿ميتةٌ﴾ بالرفع، وهو اسمُ كان، والفعلُ مقدَّمٌ.

وقرأ ابنُ عامر: ﴿وإن تكن﴾ بتاء التَّأنيث، ﴿ميتةٌ﴾ رفع؛ لأنَّها مؤنَّثةٌ لفظاً.

وقرأ أبو جعفر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء، ﴿ميِّتةٌ﴾ بالتَّشديد والرَّفع[5].

---

(١) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٣٢)، وزاد نسبتها لابن عباس ـ بخلاف عنه ـ والأعرج وقتادة.

(٢) ذكرها ابن خالويه في «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٤٦)، وابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٣٢)، وزاد الأخير نسبتها للزهري والأعمش وأبي طالوت.

(٣) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٣٢)، وزاد نسبتها لابن عباس والأعمش بخلاف، ونسبها ابن خالويه في «مختصره» (ص: ٤٦) لابن عباس فقط.

(٤) رواه الطبري عنهما في «تفسيره» (٩/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).

(٥) من قوله: «وقرأ أبو جعفر» إلى هنا ليس في (أ) و(ر).

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر وحمَّاد[1]: ﴿وإن تكن﴾ بتاء التَّأنيث، ﴿مَّيۡتَةً﴾ بالنَّصب؛ لأنَّه خبرُ كان، والاسمُ مضمَرٌ على التَّأنيث؛ وإن تكن الأنعام؛ لأن ما في بطونِ الأنعامِ أنعامٌ.

وقرأ الباقون: ﴿وَإِن يَكُن﴾ بياء التَّذكير، ﴿مَّيۡتَةً﴾ بالنَّصب[2]، والاسمُ: ما في بطون، وهو مذكَّرٌ، معناه: وإن يكن ما في البطن ميتاً، فالذُّكورُ في حلِّ أكلِه والإناثُ سواءٌ.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ﴾ ما تَصِفُ ألسنتُهم مِن التَّحليل والتَّحريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ في جزائهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم.

وروَتْ عمرةُ عن عائشة رضي الله عنها قالت: يَعمد أحدُهم إلى مالِه، فيَجعلُه للذُّكور مِن ولدِه دون الإناث، فتَجيء المرأةُ الغريبةُ فتَتَبحبحُ في ماله، وجعلَت ابنتُه تَمتدُّ عيناها إلى مالِ أبيها، ما فعلوه إلَّا كما أخبرَ اللهُ عنهم: ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾[3].

وقال الإمام القشيريَّ رحمه الله: أخبرَ عن أشياءَ ابتدعوها على ما أرادوا، وأمورٍ شرعوها على الوجهِ الذي اعتادوا، ثمَّ أضافوا ذلك إلى الحقِّ بغير دليل، ولا

---

(١) قوله: «وحماد» من (ف).

(٢) انظر القراءات المذكورة في «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٧٠ ـ ٢٧١)، و«التيسير» (ص: ١٠٧)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٥٠٥ ـ ٥٠٦)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٣) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٧) مختصراً.

من جهة إذنٍ ورسول[١]، والإشارةُ فيه أنَّ مَن نحا نحوَهم في زيادةِ شيءٍ في الدِّين، أو نقصانِ شيءٍ مِن شرعِ المسلمين فهو مُضَاهٍ لهم في البطلان، ومنخرطٌ في سلكِهم في الطُّغيان[٢].

***

(١٤٠) ـ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: هَلَكوا وخابوا، والسَّفهُ: خفَّةُ الحِلم بالعَجلة إلى ما لا ينبغي له أن يَعجلَ إليه، ومِن السَّفهِ قتلُ النُّفوسِ المحرَّمةِ، خصوصاً من هو ولدُك وبعضٌ منك، ومَن لم يُذنب إليك ولا إلى غيرِك، ولا جنى جنايةً، وفيه قسوةُ قلبٍ، وقِلَّةُ رحمةٍ، وقطيعةُ رحمٍ، وإساءةٌ إلى بريءٍ، وجُرأةٌ على الله.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: انسدَّتْ عليهم طرقُ الثِّقةِ بخالقِ العباد، فحملَتهُم خشيةُ الفقرِ على قتلِ الأولاد، ومن حقائقِ اليقين: كثرةُ العِيال على قلَّة المال[٣].

***

(١٤١) ـ ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

---

(١) في (ف): «ولا رسول» بدل: «إذن ورسول».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٦).

(٣) المرجع السابق (١/ ٥٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ بيَّن تحريمَ المشركين بعضَ الحروثِ والأنعام، وبيَّن في هذه الآية أنَّها خُلِقَت لنا، وهي حلالٌ ليست بحرام.

و﴿أَنشَأَ﴾؛ أي: خلقَ وابتدأ، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين.

وقوله: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما والسُّدِّيُّ: هي ما عُرِشَ مِن الكُروم[1] ونحوها[2]، وهو رفعُ بعضِ أغصانِها على بعض.

وقيل: هو ما رُفع[3] له حِظارٌ كالحائط.

والعرش في اللُّغة: هو الرَّفعُ، وسُمِّيَ السَّريرُ عرشاً؛ لارتفاعه، **وقوله تعالى:** ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ أي: أعاليها. وقيل: هي الكرومُ يُجعَل لها عرائشُ، وهي كالسُّقوف، والعَرْشُ: السَّقف.

وقيل: المعروش[4]: ما يَقومُ على السَّاق، وغير المعروش: ما يَنبسِطُ على الأرض.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ: المعروشات: الـمَسْموكات، وغيرُ المعروشات: ما خرجَ من الجبالِ والبرِّيَّة من الثِّمار[5].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ عطف على: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وهي مفعولةٌ بـ﴿أَنشَأَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ نُصِب على القطعِ؛ لأنَّه نكرةٌ هي صفةٌ لمعرفة،

---

(١) في (ر) و(ف): «الكرم».

(٢) روى قوليهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤).

(٣) في (أ): «يرفع».

(٤) في (أ): «العروش» في هذا الموضع والذي يليه.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٩٣).

والأُكُل: الثَّمرُ؛ لأنَّه يُؤكَل، والنَّخل ألوانٌ كثيرةٌ، وكذلك الزَّرع، والهاء في ﴿أُكُلُهُۥ﴾ راجعةٌ إلى ما ذُكِر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ عطف على ﴿جَنَّـٰتٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ نصب على القطعِ، وتفسيرُه ما مرَّ في قوله: ﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، والاشتباهُ والتَّشابهُ واحدٌ، يُقال: اشتبهَتِ الأمورُ وتَشابهت.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ أي: ثمرِ ما ذُكر، ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي: استبيحوا أكلَهُ، ولا تحرِّموه كتحريمِ المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ بكسر الحاء، والباقون بفتحها[(١)]، وهما لغتان، كما في الجدادِ والصّرام والقطاف. وحقُّه العشر.

ويومُ حصادِه: وقت بلوغِه وفصله.

وقال الرَّبيع: هو لُقاطُ السُّنبل[(٢)].

وقال مجاهدٌ: إذا حصدتَ وحضرَكَ المساكين فاطرَح لهم مِنه، وإذا دُستَهُ وذَرَيْتَهُ فاطرَحْ لهم مِنه، وإذا عرفت كيله، فاعزل زكاته[(٣)] أي: عشره.

وقال الشَّعبيُّ: تعطي منه ضغثاً[(٤)].

---

(١) في (ف): «قرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب وابن عامر وعاصم بفتح الحاء والباقون بكسرها» بدل قوله: «قرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي بكسر الحاء والباقون بفتحها»، وهي نسخة بهامشها. وانظر القراءة في «السبعة» (ص: ٢٧١)، و«التيسير» (ص: ١٠٧)، و«النشر» (٢/ ٢٦٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٠٦).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٩٢٣ ـ تفسير)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٣٩٨) (٧٩٥١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٠٥).

وقال مجاهد: كانوا يُعلِّقون العِذقَ عند الصِّرام، فيأكلُ منه الضيف ومن مر به(١).

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان رجالٌ يَتبرَّعون(٢) عند صرامِه، فيقولُ الرَّجل: لا أمنعُ سائلاً حتَّى أُمسي، فعَمَدَ ثابتُ بنُ قيس بنِ شمَّاس إلى خمس مئةِ نخلةٍ، فجذها، ثمَّ قسمها في يومٍ واحدٍ، ولم يَترك لأهلِه شيئاً، فنزلت الآية: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يعني في العطية(٣)، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أسرفَ حتَّى لم يَترك لأهلِه شيئاً.

ومَن حملَهُ على العُشر فمعنى قوله: ﴿وَءَاتُواْ﴾؛ أي: التزموا أداءَه، كما قال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي: التزموا؛ لأنَّه لا يُسلَّمَ حين يحصد(٤) حتَّى يتمَّ.

وقال سعيدُ بنُ جبير: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ أي: لا تُعطوا كلَّه(٥).

وقال الزُّهريُّ: لا تسرفوا؛ أي: لا تُنفِقوا في المعصية(٦).

وقال عبدُ الرحمن بنُ زيد: هو أمرٌ للسَّلاطين؛ أي: لا تَأخذوا فوق حظِّكُم(٧).

---

(١) لفظ: «به» من (أ)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٦١)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٠٧).

(٢) بعدها في (أ): «أنه».

(٣) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٧) (طبعة دار التفسير)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٨١). وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦١٥) نحوه عن ابن جريج.

(٤) في (أ): «يحصده».

(٥) لفظ: «كله» ليس في (ف). ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٣٩٩) (٧٩٦٧) عن السدي.

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٢٣٨) (طبعة التفسير).

(٧) كذا في النسخ الخطية، ولعل صوابها: «حقكم» كما في «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٢٣٩) (طبعة دار التفسير)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٠٠) (٧٩٦٨).

وقال مقاتلٌ وعطيَّة العوفي: أي: لا تشركوا الأوثان في الحرثِ والأنعام[١].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كلُّ ما أنفَقْتَهُ في حظِّ نفسِك فهو إسرافٌ، وإن كانت سِمسِمةً، وما أنفقتَهُ في سبيلِهِ فليس بإسرافٍ، ولو أربى على الآلاف[٢].

* * *

(١٤٢) ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾؛ أي: وأنشأ مِن الأنعامِ حَمُولةً، وهي كبارُ الإبلِ التي تُطيقُ الحملَ، ﴿وَفَرْشًا﴾؛ أي: صِغارُها، وهو عن ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما والحسنُ ومجاهد[٣].

وقيل: الحَمولة: ما حُمل [عليه] من الإبل والبقر، وأما الفرشُ فهي الغنم، [٤] عن الحسن في روايةٍ[٥]، وهو قولُ قتادةَ والرَّبيع والسُّدِّيِّ والضَّحاك وابنِ زيد[٦].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ: إنَّ الحَمولة ما حُمِل [عليه] مِن الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، وأما الفَرْشُ فهي الغنم[٧].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٢/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٧).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦١٩ ـ ٦٢٠).

(٤) بعدها في (ر): «وهذا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٠٠) (٧٩٧٣).

(٦) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٢١ ـ ٦٢٢).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٢١)، وما بين حاصرتين منه.

والحَمولةُ جمعٌ لا واحدَ لها مِن لفظِها، وسُمِّي صغارُ الإبلِ فرشاً؛ لاستواء أسنانِها في الصِّغر والانحطاط، كاستواءِ ما يُفترَش.

وقال أبو عمرو: الحَمولةُ: الإبلُ، والفَرْشُ: البقرُ والغنم[1]، يقول: أنشأ مِن الأنعامِ حَمولةً يُنتفَع بها بالحملِ، وصِغاراً يُنتفَع بها من وجوهٍ أُخَر.

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: استبيحوا كلَّ هذه الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ والغنم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ولا تَسلكوا سبيلَ الشَّيطان، ولا تتَّبعوا آثارَهُ في تحريمِها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوة. وقيل: أي: مظهِرها، وأبان لازمٌ ومتعدٍّ، فاتَّهموه على أنفسكم وأديانكم.

* * *

(١٤٣) ـ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ترجمةٌ عن قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

وقيل: نصب لأنَّه مفعولٌ بقوله: ﴿كُلُواْ﴾.

وقيل: هو على الإغراء؛ أي: عليكم بها، فانتفعوا بها؛ فإنَّ اللهَ أباحَها لكم.

و﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ أي: ثمانيةَ أصنافٍ، أو ثمانيةَ أفرادٍ، كل ذكرٍ وأنثى زوجان.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال الزَّجَّاجُ: الضأنُ جمع ضائن، كالتَّجْر جمع تاجر[2].

---

(١) انظر: «الغريبين» للهروي (٥/ ١٤٣٠) (مادة: فرش).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٩٩).

وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له مِن لفظِه، ويُجمَع على: ضَئين، كعبد يُجمَعُ على عبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بتحريك العين(١)، وهي جمع ماعِز، وهي التُّيوسُ والعنوز.

وفي مصحف أبيّ: «ومن المِعْزَى»(٢)، وهي جمعٌ أيضاً، وقال امرؤ القيس:

إذا ما لَمْ تَكُن إبلٌ فمِعْزَى ... كأن قرونَ جِلَّتِها العصيُّ(٣)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الألفُ ألف الاستفهام.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: حَوَتهُ وجمعَتهُ وانضمَّت عليه، والأرحام جمعُ رَحِم، وهي المشيمةُ، وهي موضعُ الولد.

وجَمَعَ الأرحام، وإن أضيفَت إلى اثنين؛ لأنَّ ما كان في الحيِّ مِنه عضوٌ واحدٌ، فالإضافة إلى الاثنين بالجمع، قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، يقول: أنشأ لكم ثمانيةَ أزواجٍ مِن الغنمِ ذكراً وأنثى، ومن المعزِ ذكراً وأنثى، ومن الإبل كذلك، ومن البقر كذلك، كلُّ ذكرٍ زوجٌ للأنثى، وكلُّ أُنثى زوجٌ للذَّكر، فهي ثمانية أزواجٍ، وهم كانوا يُحرِّمون مِن هذه الأصناف الأربعة، فأمرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أنْ يُحاجَّهم، ويُبطِلَ وجهَ تحريمِهم، فقال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي:

---

(١) في (ف): «قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وعاصم وخلف وابن فليح وزمعة والخزاعي عن البزي وابن فليح والقواس عن ابن مجاهد وأبي عون عن قنبل [عنه] بتسكين العين، والباقون بتحريك العين» بدل من «قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بتحريك العين». وانظر القراءة في «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٧١)، و«التيسير» (ص: ١٠٨)، و«جامع البيان» للداني (ص:٥٠٦)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(٢) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص: ٤٧).

(٣) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص: ١٣٦).

الذَّكر من الضَّأنِ والذَّكرُ مِن المعز[١] حرَّم؟ أم الأنثى مِن هذه والأنثى[٢] من هذه؟ أم حرَّم الأجنَّةَ التي اشتملَت عليها الأرحام دون الأصول كالذُّكور والإناث؟ فإنْ كان حرَّم الذُّكور، فيجبُ أن يكونَ كلُّ ذكرٍ حراماً، وإنْ كان حرَّم الأُنثى، فيجبُ أن تكونَ كلُّ أنثى حراماً، وإنْ كان حرَّم الجنينَ، فيجبُ أن يكونَ كلُّ جنينٍ حراماً، وهم لا يقولون ذلك، فتناقضَت مقالاتُهم، وظهرَتْ محالاتهم.

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: أخبروني بحجَّةٍ ما تَقولون مِن طريقِ العِلم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

* * *

(١٤٤) ـ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: ذكراً وأنثى أيضاً، ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: مِن الإبلِ والبقر كالأوَّل.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾، وحاصِلُه أنَّ العلومَ ثلاثةٌ: استدلالٌ، وعِيانٌ، وخبر، فقد

---

(١) في (أ): «والمعز» بدل من «والذكر من المعز».

(٢) في (ف): «أم الأنثى».

أبطلَ الاستدلالَ بأوَّل هذه الآية، ولا عِيان أيضاً؛ فإنَّهم لم يقولوا: شهدنا اللهَ أمرَ به، ولا خبرَ لهم مِن صادقٍ؛ فإنَّهم لا يَقولون بالرُّسل، فثبتَ أنَّه لا علمَ لهم أصلاً في هذا، فلم يبقَ إلا الافتراء، وهو ظلم، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ورُوي أنَّ مالك بن عوف النَّصريّ الجُشَميّ، وكنيتُه: أبو الأحوص[1] جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا محمَّدُ، بلغَنا أنَّك لا تُحرِّمُ ما كان آباؤنا يُحرِّمونَه، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الله تعالى خلقَ ثمانيةَ أزواجٍ، وساق الكلامَ إلى آخر الآيتين، فتحيَّر مالكٌ، وعرفَ أنَّه محجوجٌ، فقال: كذلك فعل آباؤنا.

وفي روايةٍ قال: إنَّ معي جماعةً مِن قومي، فآتيهم فأخبرهم، فأتى قومَه، فقالوا له: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُه رجلاً معلَّماً.

* * *

(١٤٥) ـ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي روايةٍ قال: يا محمَّد، فما هذه التي حرَّمَها آباؤنا مِن البحيرة والسَّائبةِ والوصيلة والحامي، فنزل قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٩٧)، وليس فيه: «النصري»، وكأنه اختلط رجلان؛ الأول مالك بن عوف النصري رئيس المشركين يوم حنين، وكنيته أبو علي، والثاني مالك بن عوف الجشمي، ويروي عنه أبو الأحوص، واسم أبي الأحوص: عوف بن مالك بن نضلة. انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٢٠٩)، و«معجم الصحابة» للبغوي (٥/ ٢٠٤)، و«الإصابة» لابن حجر (٩/ ٦٤، ٦٥ ـ ٦٦).

﴿يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾؛ أي: مصبوباً، وعنى به السَّائلَ، فلا يَحرم الدَّمُ الذي في اللَّحم، ولا الكبد، ولا الطِّحال.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾؛ أي: نجسٌ، والهاءُ تَرجِعُ إلى الخنزير، فدلَّ على أنَّه نَجِسُ العين.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: مفسوقاً به، وهو المذبوحُ للصَّنم[١].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ المحرَّمَ من الميتةِ أكلُها، فلا يَحرُمُ شعرُها وعظمُها وقرنُها، والجلدُ قبل الدِّباغِ يَحرمُ؛ لأنَّه قد يُشوى فيؤكل، فإذا دُبغ خرجَ عن الأكل، وجاز الانتفاعُ به.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تعلق بِشْرٌ بظاهرِه، ولم يُحرِّم شيئاً سوى ما ذُكِر في هذه الآية، وقال في نهيِ النَّبيِّ ﷺ عن كلِّ ذي نابٍ مِن السِّباع، وكلِّ ذي مخلبٍ مِن الطير[٢]: إنَّه خبرُ الواحد، فلا يُترَكُ به النصُّ، ولكنَّا نقولُ: الآيةُ في إخبارِه أنَّه لا يَجِدُ فيما أُوحيَ إليه يومَ قال إلَّا ذلك، ثمَّ ثبتَ حرمةُ أشياءَ بالقرآن، وحرمةُ أشياء بقول النبيِّ ﷺ، وهذا الخبرُ مشهورٌ، تلقَّتهُ العلماءُ بالقَبول، فجازَ به الزِّيادةُ على النَّصِّ[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: اضطرَّ إلى شيءٍ مِن هذه المحرَّمات ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ بمجاوزة قدرِ الحاجة، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ بالتَّزوُّد، وقد بيَّنَّا فيه أقاويل أُخرَ في سورة البقرة[٤].

---

(١) في (ر): «لأجل الصنم» بدل: «للصنم».

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٨).

(٤) عند تفسير الآية (١٧٣).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفِرُ له الأكلَ عند الضَّرورة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإثباتِ الرُّخصةِ.

***

(١٤٦) ـ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أخبرَ أنَّه حرَّمَ على اليهودِ أشياءَ ببغيِهم على أنبيائِهم وتَحاسُدهم فيما بينهم، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ منها أكلُ كلِّ ذي ظفر.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما وسعيدُ بنُ جبير ومجاهدٌ وقتادةُ والسُّدِّيُّ: هو كلُّ ما ليس بمفرَّجِ[١] الأصابع، كالإبلِ والنَّعامِ والوزِّ والبطِّ[٢].

وقيل: يدخلُ فيه أنواعُ السِّباعِ والكلاب والسَّنانيرِ، وسائرِ ما يَصطادُ بظُفرِه مِن الطَّير.

وذكر القتيبيُّ أنَّ كلَّ ذي مخلبٍ مِن الطَّير، وكلَّ ذي حافرٍ مِن الدَّوابِّ داخلٌ فيه، وحكاهُ عن بعض المفسِّرين[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ ومحَرَّمٌ آخرُ عليهم شحومُ البقر والغنم، واستثنى من ذلك شحمَ الظُّهور والحوايا أنَّه لم يُحرِّم

(١) في (ر): «متفرج».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠).

(٣) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٥٣).

عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ جمعَ الظَّهر لأنه فردٌ مِن اثنين أضيف إليهما، كما في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع حَوِيَّة وحاوياء، فالفعيلةُ تُجمَعُ على فعائل، كالسَّفينة والسَّفائِن، والفاعلاء على فواعل، كالقاصِعاء والقواصع، وفي المعتل يجمع بألفٍ في آخره، كالبليَّة والبلايا، والعَطِيَّة والعطايا، وفي عطفِه وجهان:

قيل: هو رفع عطفاً على قوله: ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾، وتقديره: أو حملَتهُ الحوايا مِن الشُّحوم.

وقيل: هو عطفٌ على: ﴿إِلَّا مَا﴾؛ أي: وإلَّا شحومَ الحوايا.

وقال ابنُ عباس وسعيدُ بنُ جُبير وقتادةُ ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: المباعر[1].

وقال أهلُ اللُّغة: هي ما تَحَوَّى في البطن، فاجتمعَ واستدار.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو كلُّ وَدَكٍ اتَّصلَ بعظمٍ كالألْيَة، وما في القوائم والجُنوب والرؤوس والعيون والآذان والمخ، فإنَّه مستثنًى أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخْبَرْنا به، لا أنتم فيما قلتُم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾[2] هو سمينُ اللَّحم، وقيل: هو غيرُ ذلك، وكذا اختلفَ في ذي الظُّفر وفي قوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، وليس بنا إلى معرفةِ ذلك حاجةٌ؛ لأنَّ تلك شريعةٌ قد نُسِخَت، ولكن

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٤٤ ـ ٦٤٦).

(٢) بعدها في (أ): «ما».

بنا أن نَعرفَ أنَّ ذلك التَّحريمَ كان بِبغيِهم، وبطل بذلك دعواهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]؛ فإنَّ الأبَ والحبيبَ لا يُحَرِّمُ الحلالَ على الابن والحبيبِ بأدنى ظلمٍ.

ودلَّت الآيةُ على صدقِ رسالة النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّه أخبرَ عمَّا كانوا يُخفونَهُ، ولم يكن ذلك ظاهراً عند أحدٍ مِن غيرِهم، فدلَّ أنَّه بالله علمَ ذلك بوحيٍ منه إليه[1].

* * *

(١٤٧) ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾؛ أي: فيما أوحيتُ إليك مِن هذا، ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾[2] وبها يُمهِل المكذِّبين، ولا يعاجلهم بالعقوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إنَّ عذابَهُ وإن تأخَّر، فإذا جاء لم يُرَدَّ عن المجرمين؛ أي: لا يمكنُ ردُّه.

وقيل: ذكر قولَهُ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ بعد التَّكذيبِ؛ دعاءً لهم إلى ترك التَّكذيب، وبيان أنَّهم إذا تركوه رحمَهم وأكرمَهم، قاله الحسن[3].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾؛ أي: بالمصدِّقين، ولا يُرَدُّ بأسُه عن المكذِّبين، وفيه بيانُ تَخصيص الأولياءِ بالكرامةِ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «لهم إن»

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٠٤).

والرَّحمة(١)، وتخصيصِ الأعداءِ بالطَّرد واللَّعنة، فالصُّورةُ الإنسانيَّةُ جامعةٌ(٢) لهم، والقسمةُ الأزليَّةُ فاصلةٌ بينهم(٣).

***

(١٤٨) - ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: يَتعلَّقون بمثلِ هذا الكلام في تكذيبِك، وثبوتِهم على شركِهم، وتحريمِهم ما لم يُحرِّمهُ الله.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كتكذيبهم إيَّاك كان تكذيبُ المتقدِّمينَ رسلَهم، وتعلُّقُهم بمثلِ هذا، فلم يَنفعهم ذلك، إذ لم(٤) يقولوا ذلك عن اعتقادٍ(٥)، بل قالوه استهزاءً.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾؛ أي: لاقوا عذابَنا، فالكلامُ حقٌّ، لكن قالوه استهزاءً فذُمُّوا به لذلك، وهو كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، وكقوله: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، فالقولان حقَّان، لكن لم يقولوا ذلك عن اعتقادٍ، فرُدَّ عليهم ذلك،

---

(١) في (أ): «بالرحمة» بدل: «بالكرامة والرحمة».

(٢) في (أ): «حاصلة».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥٠٩).

(٤) في (ر): «ولم»، وفي (ف): «وإذا لم».

(٥) بعدها في (ف): «بك».

وذُمُّوا به، وهذا يكشفُ بطلان وَهْمِ[١] المعتزلة أن الله عابَهم بالإضافة إلى المشيئةِ، فدلَّ أنَّه باطلٌ؛ لأنَّا بيَّنَّا وجهَهُ، ولأنَّه لم يقل: كذلك كَذَبَ الذين؛ بالتَّخفيف، ليكون وصفاً لهم بالكذبِ في هذا القولِ، بل قال بالتَّشديد، فكان المردودُ عليهم تكذيبَهم؛ لأنَّهم[٢] جعلوا مشيئتَهُ حجَّة لهم على أنَّهم معذورون به، وهذا مردودٌ، لا الإقرارُ بالمشيئة.

ثمَّ المعتزلةُ مِن هذا الوجه شرٌّ مِن المشركين؛ لأنَّ المشركين أقرُّوا بمشيئة الله تعالى، والمعتزلةُ نفَوها، مع أنَّ الله تعالى أثبتَها في آياتٍ، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وكلُّها في هذه السُّورة، وكذا قال تعالى بعد هذا: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقال الحسن: أرادوا بالمشيئة هاهنا الرضا، وقالوا: لولا أنَّ اللهَ رضيَ به لعاجَلَنا بالعقوبة، فردَّ اللهُ عليهم[٣].

وقيل: كانوا يَدعون مِن هذا الوجهِ أمرَ اللهِ به، كما قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فرَدَّ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾؛ أي: مِن حُجَّةٍ في هذا تُعدُّ عِلماً في أنَّ مشيئتَه شركَكم تُبيحُ لكمُ المقامَ عليه، وفي أنَّه رضيَ بهِ، وفي أنَّه أمرَ به؛ أي: فلا حجَّة لكم مِن جهةِ العلم بوجهٍ يَصِحُّ التَّعلُّقُ به.

---

(١) في (ف): «قول».

(٢) في (ر): «ولأنهم».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٠٥).

وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتبعون إلَّا الظَّنَّ[1]، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: وما أنتم إلَّا تكذِبون، وظنُّهم: وهمُهم أنَّ مشيئةَ الله تعالى عذرٌ لهم.

***

(١٤٩) ـ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ نهايتَها عليهم، بأوامرِه ونواهيه، ولا حجَّة لهم على الله بمشيئتِه وإرادته.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهي دامغةُ المعتزلين[2] المبطِلين.

***

(١٥٠) ـ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ «هلمَّ» يوحِّدُه أهلُ العالية في كلِّ حال، وأهلُ نجدٍ يقولون: هلمَّ، هلمَّا، هلمُّوا، هلمِّي[3]، هلمُمْن[4].

وقال سيبويه: هو هاء التنبيه ضُمَّ إليها: لم[5].

---

(١) قوله: «إلا الظن» من (أ).

(٢) في (ف): «المعتزلة».

(٣) بعدها في (أ): «هلما».

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٦٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٠٣).

(٥) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥٢٩).

وقال الأخفش: هو «هل»[1] ضمَّ إليها «أم»[2].

وهو يكون لازماً، كما في قوله: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، ويكون متعدِّياً، كما في هذه الآية: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾؛ أي: قرِّبوا وأحضِروا الذين يَشهدون لكم.

قيل: أرادَ به الأصنام فإنهم كانوا يسمُّونها شهداء، قال الله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ ولا يُتصوَّرُ منها الشهادة، ولكنَّ هذا مبالغةٌ في النَّفي، كما قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقيل: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ ولا يَجِدون مَن يَشهَدُ لهم بذلك إلَّا أنفسُهم، ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ لأنفسهم بأنفسهم أو بعضُهم لبعض، فلا تُحقِّقْ شهادتَهم، ولا تُصغِ إليها، ولا تَقبلها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: دعاويهم المبنيَّة على الأهواء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: الأصنامَ، كما افتتح به السُّورة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أشار إلى أنَّ ما تجرَّدَ عن برهانٍ يُصحِّحُه، وبيانٍ يُوَضِّحُه، فغيرُ مقبولٍ من قائلِه، ولا عذرِ لقائلِه[3].

---

(١) في (أ): «متى» بدل من «هو هل».

(٢) لم أقف عليه في «معاني القرآن» للأخفش، وهو قول الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٢٠٣)، ونص قول الأخفش في «معاني القرآن» له (١/ ٣١٧): «هلم» قد تكون للواحد والاثنين والجماعة. اهـ.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٠).

(١٥١) ـ ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآيةُ وآيتان بعدَها آياتٌ محكماتٌ، كانت أحكامُها ثابتةً في كلِّ الأُمم، لم تُنسَخ، ولا تُنسَخ، وهنَّ جوامعُ أصولِ الدِّين ومعالي الأخلاق، وفيها مصالحُ الدَّارين، يقول: قل للمشركينَ: احْضُروا أقرأ عليكم ما حرَّم ربُّكم عليكم، فهي المحرَّمة دون ما تُحرِّمون ممَّا عددنا، يعني البحيرةَ ونحوها[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ قال الزَّجَّاج: أي: وصَّى ألَّا تشركوا به شيئاً فقد قال تعالى: ﴿وَصَّاكُم﴾ في آخر هذه الآية[2].

وقيل: تقديره: وهو أن قال: لا تشركوا به شيئاً.

وقيل: يقع عليه: ﴿حَرَّمَ﴾، ويحذف: «لا»، وتقديرُه: حرَّم عليكم أنْ تشركوا به شيئاً، كما في قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وإنَّما ذكرَه في المحرَّمات لأنَّ إيجابَ الإحسان تحريمٌ لتركِ الإحسان، فهو معطوفٌ على المحرَّم معنًى لا لفظاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾؛ أي: مِن خوفِ فقرٍ.

---

(١) قوله: «يعني البحيرة ونحوها» من (ف).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٠٤).

وقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾؛ أي: رزقُكم ورزقُهم منَّا لا منكم، فما يَحمِلُكم على قتلِهم؟ ذكرَ حقوقَ الأولادِ بعد حقوقِ الوالدين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: اجتنبوا القبائحَ كلَّها، ظاهرَها وباطنَها؛ فإنَّ اللهَ مطَّلِعٌ على جميعِها.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان من الكفَّار مَن لا يرى بأساً بالزِّنى سرًّا، وكذا قال الضَّحَّاك والسُّدِّيُّ(١).

وقيل: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ الزِّنى، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها المخالَّةُ.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: قيل: الظَّاهرُ ما بينَك وبين الخلق، والباطنُ ما بينَك وبين الله تعالى.

وقيل: الظَّاهرُ بالجوارح، والباطنُ بالقلب(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بما يحقُّ به قتلُها، ومن ذلك ما قال النبيُّ ﷺ: «لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلَّا بأحدِ معانٍ ثلاثة؛ كفرٍ بعد إيمان، وزِنًى بعد إحصان، وقتلِ نفسٍ بغيرِ حقٍّ»(٣).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: هذه الأشياءُ أكَّدَ اللهُ الأمرَ بها؛ لتعقِلوا عظمَها عند الله، فتمتثلوا أمرَهُ فيها.

---

(١) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٩ ـ ٦٦٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣١٤).

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٤٥٠٢)، والترمذي في «سننه» (٢١٥٨)، والنسائي في «سننه» (٤٠١٩)، وابن ماجه (٢٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. وسلف عند تفسير الآية (٣٢) من سورة المائدة.

وقال الرَّبيعُ بنُ خثيم لأخٍ له: هل لك في صحيفةٍ عليها خاتَم محمَّد، ثمَّ قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى آخر الآيات(١).

***

(١٥٢) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قيل: هو جمعُ شَدّ، بفتح الشين، وهو القوَّة، قال عنترة في رواية المفضل الضبِّي:

عهدي به شَدَّ النهارِ كأنَّما خُضِبَ البنانُ ورأسُهُ بالعِظْلِمِ(٢)

أي: قوَّةَ ضيائِه عند ارتفاعِه.

وقيل: هو جمعُ شِدَّة، كالأَنْعُم، جمع نعمة، قاله(٣) ابن الأعرابي، وهو بلوغُ كمالِ قوَّتِه وعقلِه(٤).

وقال مالكٌ وربيعةُ وعبدُ الرَّحمن بنُ زيد ويحيى بنُ يعمر: هو أنْ يحتلم أو يبلغ أوانه(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٨).

(٢) انظر: «ديوان عنترة» (ص: ٢١٣)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٦٦٣)، وفيهما: «اللَّبان» ـ وهو الصدر ـ بدل: «البنان». والعظلم: عصارة شجر، أو نبت يصبغ به. انظر: «القاموس المحيط»: (مادة: عظلم).

(٣) في (ف): «وقال».

(٤) انظر: «الغريبين» للهروي (٣/ ٩٧٨) (مادة: شدد).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٤) عن مالك وربيعة، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٠٤) عن يحيى بن يعمر

وقال الشَّعبيُّ: هو حين يُكتَبُ عليه عملُه[١].

وقيل: أوانُه هو بلوغُ خمس عشرةَ سنة.

وقيل: ثماني عشرة سنة.

وهذا خطابٌ للقضاةِ والأوصياء في حقِّ الصِّغار والصغائرِ الذين لا آباءَ لهم، ألَّا يتصرَّفوا في أموالِهم إلَّا بالعقود التي هي أحسن؛ أي: أنفعُ وأنظرُ لهم، إلى وقت البلوغ، ثمَّ تَنقطعُ ولايتهم عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: أتِمُّوا الكيلَ في المكيلات، والوزنَ في الموزونات، إذا أدَّيتم ما عليكم مِنها، والميزانُ بمعنى الوزنِ كالميعادِ بمعنى الوَعد، والميقاتِ بمعنى الوقت[٢]، والميزانُ اسمٌ لما يُوزَنُ به، والكيلُ هاهنا اسمٌ لما يُكالُ به، ويكونُ بمعنى المكيال، وهو إطلاقُ اسم المصدر[٣] على اسم الآلة، وإنَّما حملناه على الأوَّل، وهو المصدر فيهما، أو على الثاني، وهو الآلةُ فيهما؛ ليتَّفِقا ولا يَختلفا.

والقِسْطُ: العدلُ، وهو التَّسويةُ في الإيفاء والاستيفاء، دون الازديادِ في الاستيفاء، والنُّقصان في الإيفاء؛ فإنَّه جورٌ، وفيه وعيدٌ بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الآية [المطففين: ١].

قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: طاقتَها، فلا يُؤاخِذُها بتقصيرٍ يَقعُ في الكيلِ والوزنِ مِن غير قصدٍ، مع الاجتهادِ في مراعاة العدل.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٤).

(٢) قوله: «والميقات بمعنى الوقت» من (ر).

(٣) في (أ): «المصدر» بدل: «اسم المصدر».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ وهذا في الشَّهادة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المشهودُ له أو المشهودُ عليه ذا قرابةٍ، فما يَنبغي لكم أنْ تَميلوا وتَتركوا العدلَ.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾؛ أي: بأوامرِه ونواهيهِ، وبأيمانِكم ونذورِكم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾[1]؛ أي: أمرَكُم به، وأكَّد الأمرَ لتتَّعظوا، وأصلُه: تتذكرون، فأُدغِمت التَّاءُ الثَّانيةُ في الذَّال.

* * *

(١٥٣) ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف[2]: ﴿وإنَّ﴾ بالكسر على الابتداء، أو على تقدير: وأقول: إنَّ هذا صراطي مستقيماً.

وقرأ ابنُ عامر بفتح الألفِ وتسكين النُّون؛ عطفاً على قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ ﴿وأنْ هذا﴾.

وقرأ الباقون بفتح الألفِ وتشديد النُّون[3]؛ عطفاً على ذلك أيضاً، وإنَّما شدَّد لدُخولِها على الاسم هاهنا.

وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾، وبـ ﴿أنَّ هذا صراطي﴾.

وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نُصبَ على القطع؛ لأنَّه نكرةٌ نُعِتَ به مضافٌ، وهو معرفةٌ،

---

(١) هي بتشديد الذال قراءة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(٢) قوله: «وخلف» من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٨)، و«النشر» (٢/ ٢٦٦).

يقول: ما تقدَّم ذكرُه هو[١] طريقي، وهو مستقيمٌ يُفضِي بسالكه إلى الجنَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: اسلكوهُ ولا تَزيغوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: ما سواه من الطُّرقِ الجائرة.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ أرادَ به دينَ الإسلام، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: قائماً، وهو الطريقُ الأعظم، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة وعبادةَ الأوثان[٢].

وقال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: البدعَ والشُّبهات[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: تتفرَّق بكم عن هذا السَّبيل المستقيمِ بجعلكم مفارقيه.

وقيل: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾؛ أي: تُفرِّقُ بعضَكم عن بعضٍ بالاختلاف، ومعنى ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: بعد الاجتماع في سبيلِه، كما يقال: كسوتُكَ عن عُرِي، أي: بعد عُرِي.

وروى ابنُ مسعود رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه خطَّ بأصبعِه خطًّا مستقيماً، وقال: «هذا صراطُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً يميناً وشمالاً، ثم قال: «هذه السُّبل مشتركةٌ، وليس مِن هذه السُّبل سبيلٌ إلَّا وعليه شيطانٌ يَدعو إليه»، ثمَّ قرأ هذه الآية[٤].

---

(١) في (أ) و(ر): «وهو».

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٥٣٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٠).

(٤) رواه النسائي في «الكبرى» (١١١٠٩)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧١).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكَرَ أوَّلاً: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا عقَلوا تَفكَّروا فتذكَّروا؛ أي: اتَّعظوا، فاتَّقوا المحارمَ والمهالك(١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ الآيات؛ هذه أشياءُ عشرةٌ تَضمَّنتها هذه الآيات:

أوَّلُها: الشِّركُ، فإنَّه رأسُ المحرَّمات، والذي لا يُقبَلُ معه شيءٌ مِن الطَّاعات، ويَنقسم ذلك إلى جليٍّ وخفيّ؛ فالجليُّ عبادةُ الأصنام، والخفيُّ ملاحظةُ الأنامِ بعين الإعظام.

والثاني من هذه الخصال: توقيرُ الوالدين، وتركُ العقوقِ بحفظِ ما يَجبُ لهم مِن أكيداتِ الحقوق.

وبعد ذلك: قتلُ الأولادِ خشيةَ الإملاقِ وإراقةُ دمائِهم بغيرِ استحقاق.

ثمَّ ركوبُ الفواحش ما بطنَ منها وما ظهر، وما بدا مِنها وما استَتر، ويدخل في ذلك جميعُ الآثام.

ثمَّ قتلُ النَّفسِ بغيرِ حقٍّ، وذلك إنَّما يكون لفقدِ شفقةِ الخلق.

ثمَّ مجانبةُ مالِ اليتيم، والنَّظرُ إليه بعين التَّكريم.

ثمَّ بذلُ الإنصافِ في المعاملات، والتَّوقِّي عن جميعِ التَّبِعات.

ثمَّ الصِّدقُ في القول، والعدلُ في الفعل.

ثمَّ متابعةُ السَّبيل بما يُشيرُ إليه لوائحُ الدَّليل.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣١٨).

فمن قابلَ هذه الأوامرَ بجميل الاعتناق، سَعِدَ في داريه، وحَظِيَ بعظائم منزلتيه[١].

***

(١٥٤) ـ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: ثمَّ اتلُ عليهم هذا.

وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لترتيبِ الأخبارِ لا الوجود؛ أي: ثمَّ نخبِرُكم أنَّا آتينا موسى الكتابَ كما آتيناك، وهو ما تتلو عليهم، وقد مرَّت له نظائر.

وقيل: هذا يتَّصلُ بقصَّة الأنبياء: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وكذا[٢]: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ قرأ يحيى بن يعمر: (أحسنُ) برفع النُّون[٣]، وقرأ العامَّةُ بفتحِها، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (على الذين أحسنوا)[٤]، و﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ في معناه؛ لأنَّه جنسٌ فيَصلُحُ للجمع.

وقيل: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بمعنى «ما»، وتقديره: على ما أحسنَ، ويكون معناهُ المصدر؛ أي: على إحسانِه وإنعامِه، ثمَّ في معناه خمسةُ أوقاويل:

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١١).

(٢) لفظ: «وكذا» ليس في (ف).

(٣) رواها الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٧)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٣٤)، والمهدوي في «التحصيل» (١/ ٧٠٢).

(٤) انظر القراءة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٦٥)، «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص: ٤٧).

قال الرَّبيع والفرَّاء: تماماً على إحسان موسى بطاعاته[١]، كأنَّه قال: ليُتِمَّ إحسانَهُ الذي يَستحِقُّ به كمالَ ثوابِهِ في الآخرة.

وقال مجاهدٌ: تماماً على المحسنين[٢]؛ أي: تماماً للنِّعمة على المحسنين الذين هو أحدُهم.

وقال ابنُ زيد: تماماً على إحسان اللهِ إلى أنبيائه[٣].

وقال الحسنُ وقتادة: أي: لتمام كرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا[٤].

وقال بعضُهم: تماماً على إحسانِ الله تعالى إلى موسى بالنُّبوَّة وغيرِها مِن الكرامة.

ومن قرأ: (أحسنُ) بالرَّفع، فمعناه: على الذي هو أحسنُ[٥].

وقيل في وجه النَّصب: إنَّه خفض، لكنَّه لا يَنصرفُ ففُتِح، وتقديرُه أنه بدلٌ عن ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وترجمةٌ عنه، كقولك: مررتُ بالذي خيرٍ منك، بالخفض، وكذا يفعلون بـ «من»، قال الشاعر:

فكفى بنا فضْلاً على مَن غيرِنا ... حبُّ النبيِّ محمَّدٍ إيَّانا[٦]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٢٣) (٨١١٣) عن الربيع، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٢٣) (٨١١٠).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٧٤)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٢٣) (٨١١٣)، وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣١٩) عن الحسن.

(٥) وضعفها ابن جني والمهدوي.

(٦) نسبه سيبويه في «الكتاب» (٢/ ١٠٥) للأنصاري، والفراء في «معاني القرآن» (١/ ٢١) لحسان، =

بخفض غير.

وقال الحسن: أي: مَن أحسنَ صحبتَهُ، تَمَّت عليه نعمةُ الله وكرامتُه[١].

وقيل: ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى: عَلِمَ، يقال: فلانٌ يُحسِنُ علوماً كثيرة.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: قيمةُ كلِّ امرءٍ ما يُحسِنُه[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ عطفاً على ﴿تَمَامًا﴾، ومعناه: إتماماً منَّا لكرامته، وبياناً لهم في كلِّ ما يحتاجون إليه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتملُ: تماماً بالنِّعمةِ والكرامة، ويَحتملُ: تماماً بالبيانِ والحجَّةِ، ويَحتملُ: تماماً بالعلمِ والحكمة[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾؛ أي: لعلَّ قومَه ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بالقيامة يُصدِّقون.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يُهوِّنُ عليهم مقاساةَ التَّكليف بما ذَكرَ مِن التَّعريف، فإنَّ الذين كانوا قبلَنا كانوا في الضَّعفِ والعجزِ مثلَنا، ثمَّ صبَروا فظفِروا، وأخلَصوا فتخلَّصوا[٤].

= ونسبه ابن الشجري في «أماليه» (٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، وعبد القادر البغدادي في «الخزانة» (٦/ ١٢٢) لكعب بن مالك، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٨٩)، وذكر البغدادي أنه نسب أيضاً لعبد الله بن رواحة.

(١) انظر: «تأويلات اهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣١٩)، وسلف بمعناه قريباً.

(٢) ذكره الباقلاني في «إعجاز القرآن» (ص: ٦٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٧) (٦٠٩)، والراغب في «محاضرات الأدباء» (١/ ٤٩)، والزمخشري في «ربيع الأبرار» (٤/ ١٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣١٩).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١١).

(١٥٥) ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ أي: وهذا القرآنُ كتابٌ[1] مباركٌ، كثيرُ الخيرِ لمن اتَّبعَه، أنزلناهُ إليك كما أنزلنا التَّوراةَ إلى موسى، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: اعملوا به، ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ أي: مخالفته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لِترحموا، و«لعلَّ» كلمةُ ترجٍّ؛ أي: اتَّقوا على رجاءِ الرَّحمة، والرَّحمةُ وإن كانت موعودةً للمتَّقين على القطع، فإنَّما ذكر كلمةَ «لعلَّ»؛ لأنَّ حصولَها بالختم على الإيمان، وفيه خطرٌ، فلذلك علَّقها بكلمة التَّرجِّي.

* * *

(١٥٦) ـ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾؛ أي: لئلَّا تقولوا، كما قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾؛ أي: اليهود والنَّصارى، ودلَّ هذا على أنَّ المجوسَ ليسوا من أهل الكتاب؛ إذ لو كانوا كذلك، لكانوا ثلاثَ طوائف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: وما كنَّا عن قراءتِهم الكتابَ إلَّا غافلين، لا علمَ لنا بشيءٍ مِن ذلك[2].

* * *

---

(١) في (ر): «أنزلناه» بدل: «كتاب».

(٢) في (ف): «اليهود» بدل: «ذلك».

(١٥٧) ـ ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أرشدَ وأطوعَ مِن اليهودِ والنَّصارى، وإنما جمع ﴿مِنْهُمْ﴾ وهما طائفتان؛ لأنَّهما جمعان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بيانٌ وقيل هي القرآن، وقيل: محمَّدٌ ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ صفتان للقرآن أو للنَّبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: لا أظلمَ لنفسِه، أو لا أحدَ أوضعُ للشَّيء غيرَ موضعه ممَّن كذَّب بالقرآن، وقيل: بحجج الله.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: أعرض، وقد صدفَ صدُوفاً مِن حدِّ: ضرب[1]؛ أي: أعرض، قال الهذليُّ:

صدفَتْ أميَّةُ لاتَ حينَ صُدوفِ ... صَدَفَتْ وآذنَ جيرتي بخفوفِ[2]

وقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: العذابَ السَّيء، وهو الموصوف بنهايةِ النِّكاية.

* * *

---

(١) في (أ): «صرف».

(٢) البيت لعمير بن الجعد. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (١/ ٤٦٣)، والخفوف: الرحيل.

(١٥٨) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: أقمنا حُجَجَ الوحدانيَّة وثبوتِ الرِّسالة، وأبطلنا ما يَعتقدون مِن الضَّلالات، ويَذكرون مِن المقالات، فما ينتظرون مِن ترك الإيمان إلَّا أحدَ هذه الأشياءِ الثَّلاثة، وهي: إتيانُ الملائكةِ لقبض الأرواح، وذلك عند الموت، أو: إتيانُ ربِّك؛ أي: أو إتيانُ أمرِ ربِّك كما صرَّحَ به في آيةٍ أخرى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: بإقامةِ القيامة، فإنَّها تقومُ بأمره، وقد قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]؛ أي: القيامة، أو: إتيانُ بعضِ آياتِ ربِّك مِن أشراطِ السَّاعة، وقيل: هي طلوعُ الشَّمسِ من مغربِها؛ أي: يَنتظرون ارتفاعَ الغيبِ بأحد[١] هذه الأشياء، ووقوع العيان، ولا قَبولَ للإيمان إلَّا بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، وتقديرُه: لا يَنفعُ نفساً لم تكنْ آمنت مِن قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً إيمانُها.

و﴿خَيْرًا﴾[٢]؛ أي: طاعةً.

وقيل: أي: إخلاصاً[٣]؛ أي: كما لا يُقبل إيمانُ الكافر بعد طلوعِ الشَّمسِ مِن مغربها، لا يُقبلُ إخلاصُ المنافقِ أيضاً.

---

(١) في (أ): «الغيب بارتفاع أحد» بدل: «ارتفاع الغيب بأحد».

(٢) من قوله: «فيه تقديم وتأخير» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

(٣) بعدها في (ر): «وقيل».

وقد روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وجماعةٌ رضي الله عنهم عن النَّبيِّ ﷺ: «﴿يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ هو طلوعُ الشَّمس مِن مغربِها»[١]، وعليه عامَّة المفسرين.

وروى صفوانُ بن عسَّال عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ مِن قبلِ المغرب باباً مفتوحاً للتَّوبة حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مغربِها مِن ذلك الباب، فإذا طلعَت مِنه، ثمَّ رُدَّت إليه أُغلِقَ، فلا يَنفعُ نفساً إيمانُها ولا توبتُها بعد ذلك»[٢] أو كلاماً هذا معناه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: إذا خرجَ أوَّلُ الآياتِ طُرِحَتِ الأقلامُ، وحُبِسَت الحفظةُ، وشهدتِ الأجسادُ على الأعمال[٣].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تَقومُ الساعة حتى يكون قبلها عشرُ آيات؛ الدُّخانُ، ودابَّةُ الأرضِ، وخَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرةِ العرب، والدَّجَّال، وطلوعُ الشَّمسِ مِن مغربِها، ويأجوج ومأجوج، ونزولُ عيسى بنِ مريم، ونارٌ تخرجُ من قعرِ[٤] عدن»[٥].

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: الآيةُ في قومٍ علمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يُؤمنون، فأيسَ رسولُ الله ﷺ عن إيمانِهم.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٥٧) من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي في «سننه» (٣٠٧١) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٧٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٧).

(٤) بعدها في (ر): «بئر».

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٩٠١) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه.
ووقع بعد هذا الحديث في (ف) كلام من تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ بدايته: «وقال الإمام أبو منصور: ذكر إرسال الرسل» وينتهي بقوله: «ومعناه في اللغة»، وسلف في موضعه.

وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينظرون[1] إلَّا أنْ تأتيَهم الملائكةُ لقبضِ أرواحِهم، مع اللَّعنِ والسخطِ، فحينئذٍ يؤمنون.

قال: وقيل: أي: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾؛ أي: عذابُ ربِّك.

قال: والأصلُ فيه أنَّ ما أُضيفَ إلى الله تعالى في موضعِ الوعيد، لا يُرادُ به الذَّات، لكن يُرادُ به نقمتُه وعذابُه، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: يَخافُ عذاب ربِّه، وقال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، و﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

ويحتمل البأسَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤]، ولا يَنفعُهم إيمانُهم حينئذٍ.

وقيل: هو طلوعُ الشَّمسِ من مغربها.

وقيل: خروجُ الدَّجال، وخروجُ دابَّة الأرض، وروي فيه أحاديثُ، فإن ثبتَ منها شيءٌ، فعليه الاعتماد[2].

والإيمانُ حينئذٍ ليس بإيمانِ اختيارٍ في الحقيقة، بل هو إيمانُ دفعِ العذابِ عن أنفُسِهم، ولذلك قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، وهذا كإيمانِ فرعون ـ لعنه الله ـ عند الغرق، وما[3] روي أنَّه لا تُقبلُ التَّوبة والإيمان بعد طلوعِ الشَّمس مِن مغربِها،

---

(١) في (ف): «ينتظرون».

(٢) سلف بعض هذه الأحاديث قريباً، وبعضها في الصحيح.

(٣) في (ر): «وهو ما».

وقد زال البأسُ، فمِن البعيدِ أنْ يُدعَو إلى الإيمانِ والطَّاعات، ثمَّ إذا أتَوا بها لا تقبل، لكنْ[1] معناه أنَّهم لا يُثابون عليها؛ لأنَّ الثَّوابَ بالوعد، ولا وعدَ في هذه الحالة[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ أي: إحدى هذه الثَّلاث، وليس هذا أمرَ تكليفٍ، بل هو تعريفٌ أنَّ العذابَ نازلٌ بهم كالمنتظَر له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾؛ أي: مستيقنون أنَّه نازلٌ بكم.

* * *

(١٥٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾ بالألف؛ أي: باينوهُ وزايلوه، وقرأ الباقون: ﴿فَرَّقُواْ﴾[3]؛ أي: شتَّتوا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ جمع شيعة، وهي الفرقةُ المتابعةُ بعضُها بعضاً، وقد شايعَهُ؛ أي: تابعَه، وشيَّعهُ؛ أي: اتَّبعَه.

وقال قتادة: هم اليهود[4].

وقال مقاتلٌ والسُّدِّيُّ: هم اليهودُ والنَّصارى، تَركوا دينَهم وكانوا فرقاً، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقال ﴿وَمَا

---

(١) لفظ: «لكن» ليس في (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٠) (٨١٥٥).

وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٧٦)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣١ ـ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٠) (٨١٥٤) عن قتادة أيضاً أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: لم تُؤمَر بقتالِهم، قال: ثمَّ أمِرَ بقتالهم في سورة براءة[١].

وقال مجاهد: هم أهلُ الأهواءِ والبِدع مِن هذه الأمَّة[٢]، وكذا رويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه[٣] وعائشة[٤] وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وقال ﷺ: «افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقةً، كلُّهم في النَّار إلَّا واحدة، وافترقت النَّصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، كلُّهم في النَّار إلَّا واحدة، وستَفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّهم في النَّار إلَّا واحدة»، قيل: ومن هم يا رسولَ الله[٥]؟ قال: «الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي»[٦].

ومعنى الآية في حقِّهم: ليس إليك شيءٌ مِن مجازاتهم أو العفو عنهم، إنَّما عليك إنذارُهم وتبليغُ الوحيِ إليهم.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٩٩)، وقول السدي أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٢، ٣٤).

(٢) ذكر نحوه عنه الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٥٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٩) (٨١٥١).

(٤) ذكره عنها الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٥٢).

(٥) قوله: «يا رسول الله» من (ر).

(٦) رواه بنحوه الترمذي في «سننه» (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ورواه ابن ماجه في «سننه» (٣٩٩٢) من حديث عوف بن مالك، وفيه أن رسول الله ﷺ أجابهم بقوله: «الجماعة».

ورواه أبو داود في «سننه» (٤٥٩٦)، والترمذي في «سننه» (٢٦٤٠)، وابن ماجه في «سننه» (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون قوله: «كلهم في النار...» إلى آخر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن شاءَ عاجلَهم بالعقوبة، وإن شاءَ أخَّرها إلى الآخرة، وإن شاءَ وفَّقهم للرُّجوع عنها، فعفى عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: في الآخرة، ويُجازيهم على ذلك.

وقيل: هم المشركون، فارقوا دينَ إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام، وكانوا أحزاباً مختلفين، كما عُرِفَ مِن اختلافهم في أمور الحج وكما اختلفوا في اتخاذ الأصنام واختيارها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله بعد ما ذكر هذه المقالات: وقيل: هم الحَروريَّة. ولا ندري مَن هم على التَّعيين، ولا حاجةَ بنا إليه، بل الحاجةُ إلى معرفةِ وعيد الموصوفين بذلك.

ومعنى قوله: فارقوا دينهم: الدِّينَ الذي أُمِروا به، ودُعوا إليه.

وقيل: أي: الدِّينَ الذي كانوا عليه في الأصل، ثمَّ فارقوه، كما قال: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ومعنى قوله: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾؛ أي: مِن دينِهم؛ لأنَّ دينَهُم تقليدُ آبائهم، ودينُك دينٌ بالحجج والبراهين.

وقيل: أي: لا تُسأَلُ عن دينِهم، ولا تُحاسَبُ عليه، كما قال: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢][(١)].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: لا يَجمعُك وإيَّاهم معنى؛ أنت على حقٍّ، وهم على باطلٍ، ولا اجتماعَ للضِّدَّين[(٢)].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٣).

(١٦٠) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ لم يقل: مَن عملَ؛ ليُعلَمَ أنَّ النَّظرَ إلى ما خُتِم به، وعلى ذلك قال النبيُّ ﷺ: «الأعمالُ بالخواتيم». قاله الإمام أبو منصورٍ رحمه الله[١].

والحسنةُ: الفعلةُ الجميلة، وهي الطَّاعة.

قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾؛ أي: عشرُ حسناتٍ أمثالها، وذلك معنى التَّأنيث وحَذْفِ الهاء في ﴿عَشْرُ﴾. وقرأ الحسن: (فله عشرٌ) بالتنوين (أمثالُها) بالرَّفع[٢]؛ إظهاراً لهذا المعنى.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يُرِد به القصر على هذا العدد، بل أرادَ به التَّفضُّلَ بالتَّضعيف، قال النبيُّ ﷺ: يقول اللهُ تعالى: «كلُّ عملِ[٣] ابن آدم الحسنةُ بعشْرِ أمثالها إلى سبعِ مئة ضعف، إلَّا الصَّومُ؛ فإنَّه لي، وأنا أجزي به»[٤]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بالفعلةِ القبيحةِ، وهي المعصية، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: واحدةً بواحدة، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقَصون مِن حسناتِهم، ولا يُزادون في سيِّئاتهم.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٣٤). وقوله: «الأعمال بالخواتيم» قطعة من حديث رواه البخاري في «صحيحه» (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص: ٤٧).

(٣) بعدها في (أ) و(ر): «يعمله».

(٤) رواه مسلم في «صحيحه» (١١٥١): (١٦٤).

وروى أبو ذرٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يقول الله تعالى: الحسنة عشر أو أزيدُها، والسَّيِّئةُ واحدةٌ أو أغفرُها»[١].

وقال سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: لـمَّا نزلت هذه الآية قال النَّبيُّ ﷺ: «ربِّ زدني»، فنزل قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]، فقال: «ربِّ زدني»، فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥]، فقال: «ربِّ زدني»، فنزل قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][٢].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: حسنةُ النَّفسِ: تَوفيرُ[٣] الخِدمة، وحسنةُ القلبِ: حفظُ الحُرمةِ وحسنةُ الرَّوح: مراعاةُ أدابِ الحِشمة.

وقيل[٤]: حسنةُ الزَّاهدين: تركُ الدُّنيا، وحسنةُ المريدين: رفضُ الهوى، وحسنةُ العارفين: قطعُ الـمُنى، وحسنةُ الموحِّدين: التَّخلِّي عن الدُّنيا والعُقبى، والاكتفاءُ بوجود المولى.

ويقال: حسنةُ المبتدِئين: الصِّدقُ في الطَّلب، وحسنةُ الـمُنتهين: حفظُ الأدب، فشرطُ الطَّلب ألَّا يَبقى ميسورٌ إلَّا بَذَلْتَهُ، وشرطُ الأدب ألَّا تَسموَ لك هِمَّةٌ إلى شيءٍ إلا قطعتَهُ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٣٧٧)، ومسلم في «صحيحه» (٢٦٨٧).

(٢) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٢). وروى نحوه ابن حبان في «صحيحه» (٤٦٤٨)، ولم يذكر فيه قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

(٣) في (أ): «توقير»، وفي «لطائف الإشارات»: «توفية».

(٤) لفظ: «وقيل» ليس في (ف).

ويقال: للزُّهاد والعُبَّاد وأصحابِ الأورادِ وأربابِ الاجتهاد جزاءٌ محصورٌ معدود، ولأهل المواجيد لقاءٌ غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوع(١).

***

(١٦١) ـ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لـمَّا بيَّنَ الذين فرَّقوا دينَهم وكانوا شِيعاً، أمرَه أن يقول: أرْشَدَني اللهُ إلى الدِّين(٢) المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿قيِّماً﴾ بالتَّشديد، وهو نعتٌ، كالجيِّد واللَّيِّن والهيِّن، والباقون بكسر القاف: ﴿قِيَمًا﴾ وتخفيف الياء(٣)، وهو اسمٌ، كالعنب، يُرادُ به النَّعت.

ونصب ﴿دِينًا﴾ على إرادة إعادة: ﴿هَدَانِي﴾، وذاك يُعدَّى بغير صلةٍ، وباللام وإلى، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال تعالى: ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو بدلٌ عن ﴿دِينًا﴾، وبيانُ أنَّ الدِّينَ القيِّم هذا، وإنَّما ذكرَ ذلك حثًّا لهم على اتِّباعه؛ لأنَّه دينُ أبيهم.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ نصب على القطع؛ لأنَّه نعتٌ بلفظِ النَّكرةِ للاسم المعرفة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٣ ـ ٥١٤).

(٢) في (ف): «الصراط».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله إشراكَكُم يا معشرَ قريش.

* * *

(١٦٢) ـ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: صلاتي كلُّها باللَّيل والنَّهار.

﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: حجِّي وعمرتي، وقيل: أي: قراءتي، وقيل: أي عبادتي، وقيل: أي: ديني.

﴿وَمَحْيَايَ﴾؛ أي: ما أعملُه في حياتي.

﴿وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أوصي به بعد موتي أنْ يُعمَلَ به.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: هو خالصٌ له.

* * *

(١٦٣) ـ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيءٍ مِن ذلك، ولا أشركُ به غيرَه.

وقوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ أي: به أمرَني الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أوَّل المنقادِينَ لأمره مِن أهلِ هذا الزَّمان.

وقيل: محياي ومماتي: كلمة تفويض؛ أي: جميعُ ما أتقلَّبُ فيه ملكٌ لله تعالى، جارٍ علي حكمه.

وقيل: محياي: في العملِ الصَّالح، ومماتي: على الإيمان: كلُّه لله تعالى.

أثبتَ الإخلاصَ لنفسِه في الدِّين، ونفى الإشراكَ، وخصَّ الحجَّ والعمرةِ بالذِّكر؛ لأنَّ المشركين كانوا يُدخِلون الشِّرك في التَّلبية، في قولهم: لبيكَ لا شريكَ لك، إلا شريك هو لك، تَملِكهُ وما ملك. ومَن حملَهُ على القربان، فإنَّما خصَّهُ به؛ لأنَّهم كانوا يَذبحون لآلهتِهم، وهو شركٌ، فنَفى ذلك كلَّه عن نفسِه.

وبدأَ بقولِه: ﴿قُلْ﴾، وختم بقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ بياناً أنَّه يقولُه ائتماراً لا افتخاراً.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: مَن عَلِمَ أنه لله، لم يبقَ فيه نصيبٌ لغيرِ الله، فاستسلمَ لحكمِ الله، ولم يَعترِض على تقديرِ الله، ولم يُعارِض باختيارِه اختيارَ الله، ولم يُعرِض عن اعتناقِ أمر الله[1].

***

(١٦٤) - ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: لا يجوزُ في العقل السَّليم أنْ أطلبَ لي مُدَبِّراً وحافظاً ومصرِّفاً غيرَ الله، وهو مصرِّفُ كلِّ شيءٍ، وهو ربُّ أصنامِكم وربُّكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾؛ أي: لا يكون جنايةُ[2] نفسٍ إلَّا عليها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتملُ أن يكون معناه: ولا يَقعُ عملُ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٥).

(٢) بعدها في (ف): «كل».

نفسٍ إلَّا على وجهٍ يكونُ عليها لا لها لو تُرِكَت واختيارِها، لكنَّ الله تعالى يُوفِّقُها، ويَعصِمُها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣][١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾؛ أي: لا تُحَمَّلُ نفسٌ حاملةٌ حِمْلَ نفسٍ أخرى.

قال عطاء: قال الوليد بنُ المغيرة: اتَّبعوا سبيلي، أحملْ عنكم أوزارَكم، فنزلَ هذا[٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ مِن الأديان[٣] التي فرَّقتموها، وإذا كان الأمرُ بدءاً وعَوْداً راجعاً إلى الله وحدَه، فلا عذرَ في ابتغاءِ ربٍّ سواه.

* * *

(١٦٥) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ جمع خليفةٍ، والخلفاءُ جمع خَليف.

قال الكلبيُّ: أي: وهو الذي جعلَكُم يا أمَّةَ محمَّدٍ خلائفَ الأممِ الماضية في الأرض.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٤٠).

(٢) ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (١٣/ ٢٨٢) (عند تفسير الآية (١٥) من سورة الإسراء) عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ر): «الآيات».

وقولـه تعالـى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: فـي الـرِّزقِ، والحـالِ، والعُمـر، والخِلقـة، وكلِّ شـيء.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: ليختبرَكم فيما أعطاكُم مِن النِّعم بالشُّكر، وفيما ابتلاكم به من المِحَن بالصَّبر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: لأعدائه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لأوليائِه.

وقال القشيري رحمه الله: صيَّر التوبةَ إليكم، وقصرَ حكمَ عصرِكُم عليكم، وفاوتَ الحالات؛ ليَختبرَكُم بالمعاملات؛ أنَّ حسابَهُ بكم لاحقٌ، وحكمَه فيكم سابقٌ(١). واللهُ أعلمُ بالصَّواب(٢).

* * *

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٥).

(٢) في (ر): «والله أعلم»، وفي (ف): «والحمد لله رب العالمين» بدل: «والله أعلم بالصواب».

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الَّذي أنزلَ الكتابَ على رسولِه لينذرَ به وذكرى للمؤمنين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الَّذي قصَّ فيه أنباء الأوَّلين تنبيهًا للآخِرين.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الَّذي وعد فيه الرَّحمة للمستمِعين له والمنصِتين.

وروى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «منْ قرأ سورةَ الأعرافِ جعلَ اللهُ بينَه يومَ القيامةِ وبينَ إبليسَ سترًا، وكانَ له آدمُ عليه السَّلام شفيعًا»(١).

وهذه السُّورةُ مكيَّةٌ كلُّها عندَ بعضِهم.

وقال عليُّ بنُ الحسينِ بن واقدٍ: هي مكيَّة إلَّا من قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، فإنها نزلت بالمدينة(٢).

وهي مئتان وخمس آيات، وقيل: ستُّ آيات.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مفرقًا عند كل سورة منه: الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣٤٧)، ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣) وقال: مصنوع بلا شكٍّ، وقال السيوطي في «نواهد الأبكار» (٣/ ٤٥٦): رواه الثعلبي عن أبي، وهو موضوع.

(٢) روى نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤١٢).

والاختلاف في خمس آيات: ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وكلماتُها ثلاثةُ آلاف وثلاثُ مئة وتسعَ عشرةَ، وحروفُها أربعةَ عَشَر ألفًا ومئةٌ وأربعة وثلاثون.

***

(١) ـ ﴿الٓمٓصٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال قتادة: هي من أسماء القرآن[١].

وقال الحسنُ: هي اسمُ هذه السُّورة[٢].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: هي اختصارٌ من كلامٍ فهمَه النَّبيُّ ﷺ[٣].

وقال عليُّ بنُ أبي طلحة: هي قسَم أقسم الله تعالى به[٤].

وقال عطاءُ بنُ أبي رباح: هي ثناءٌ أثنى الله تعالى بها على نفسه[٥].

وقال مجاهدٌ: الحروفُ المقطَّعة فواتح السُّور[٦].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٣)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٣٧).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ١٩٨)، والواحدي في «البسيط» (٢/ ٢١). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٧) عن الحسن، ولفظه: «﴿الٓمٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ فواتح يفتتح الله بها السور».

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ١٩٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٣) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٤).

(٦) في (ف) و(أ): «السورة». وقوله رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٣٧).

وقال السُّدِّي: هي هجاءُ: المصوِّر[١].

وقال أبو الضُّحى عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنا الله أفصِل[٢].

وقال سعيد بن جبير: أنا الله أَصْدَقُ[٣].

وقال أبو رَوْق: أنا الله الصَّادقُ[٤].

وقـال أبـو صالح عن ابن عبَّـاس رضي الله عنهمـا: هو[٥] من أسـماء الله تعالى مقطَّع[٦].

وقال محمَّد بن كعب: الألف افتتاح اسمه: أحدٌ أوَّلُ وآخِرُ، واللَّام افتتاح اسمه: لطيفٌ، والميم افتتاح اسمه: مجيدٌ مَلِكٌ، والصَّادُ افتتاح اسمه: صمدٌ صادقُ الوعد صانعُ المصنوعات[٧].

وقيل: ﴿الٓمٓصٓ﴾ معناه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وقال الزَّجَّاجُ: أراد بها جميع حروف الهجاء[٨].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٣٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٢).

(٣) ذكـره الثعلبـي فـي «تفسـيره» (٤/ ٢١٤)، ورواه الطبري في «تفسـيره» (١٠/ ٥٢) بلفـظ: «أنا الله أفضل».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٤).

(٥) في (ف) و(أ): «اسم».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٨).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٤).

(٨) في (ف) و(أ): «التهجي». وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣١٣).

(٢) ـ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: أي: هذا كتابٌ، كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١]؛ أي: هذه سورةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: قال الحسنُ: أي: ضِيق[١]؛ أي: لا يضيق صدرك لتشعُّب الفكر[٢] بك خوفًا؛ أي: ألَّا تقومَ بحقِّه.

وقال الفرَّاء أي: لا يضيقُ صدرُك بأنْ يكذِّبوك[٣].

وقال ابن عبَّاس ومجاهدٌ وقتادةُ والسُّدِّي: أي: فلا يكن في صدرك شكٌّ[٤]؛ أي: لا تشكَّ فيما نلزمك به، فإنما أنزل إليك لتنذرَ به.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أُنزل لإنذار الكافرين، ولتذكير المؤمنين.

وإعرابه نصبٌ، وهو كقولك: جئْتُكَ للزِّيارة وشوقًا إليك.

وقال الزَّجَّاجُ: هو رفعٌ؛ أي: هو ذكرى[٥].

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٩٩).
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٦٤٢) لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

(٢) في (أ): «الفكرة».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٤ ـ ٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣١٥)، وقد أجاز فيه الرفع والنصب والجر.

وقيل: تقديره: إنذارًا وتذكيرًا، ومعناه: أُنزل إليك لتنذرَ الأعداء أنَّه سريع العقاب، وتذكيرًا للأولياء(١) أنَّه غفور رحيم وهَّاب.

وهو وجهُ انتظامِ أوَّل السُّورة بآخر تلك السُّورة، وأمَّا انتظام السُّورتين: فتلك في محاجَّة المشركين، وهذه فيها مع زيادة التَّبيين.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ يحتمِل أن تكون هذه الحروف المقطَّعة خطابًا خاطبَ اللهُ تعالى بها رسلَه يفهمونها ولا يفهمها غيرُهم، على ما يكون للملوك بينهم وبين خواصِّهم إشاراتٌ يفهمونها ولا يفهمها غيرهم، ويكون ذلك بتفهيم الله إيَّاهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فهي من المتشابه على غيرهم، وليست بمتشابهةٍ عليهم(٢).

وقال في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾: يحتمِل أنه على ألَّا يحمِّل نفسَه ما فيه هلاكه، كما قال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال في آخر هذه السُّورة: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥](٣).

وفيه إثباتُ الأمان له من خوفِه من مكرهم وكيدهم.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾: كتابُ الحبيبِ تحفةُ الوقتِ، وشفاءٌ عمَّا يلاقيه من ألم البُعد، وهو لداء الضَّنى

---

(١) في (أ): «وتذكير الأولياء»، وفي (ف): «وتذكيرًا لأوليائه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٤٩).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

مُزيل، ولوشْكِ الشفاء مُنيل[١]، وعلى حفظ العهد دليل، وهو[٢] للعليل تبديل.

* * *

(٣) ـ ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: قيل: هو ابتداءُ خطابٍ للمشركين.

وقيل: فيه إضمار: قل يا محمَّد للمشركين: اتَّبعوا ما أنزل إليكم؛ أي: إلى نبيِّكم لنَفْعكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: أي: أربابًا وهم الأصنام.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في التَّحريم والتَّحليل، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: عظماءَكم، كالأرباب تتَّبعونهم فيما يحلِّلون ويحرِّمون، وهو كقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]؛ أي: يطيعونهم فيما يأمرون وينهون[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: قرأ[٤] حمزة والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خفيفة الذَّال، بحذف التَّاء الثَّانية، وأصله: تتذكَّرون، وقرأ الباقون[٥] بتشديد الذَّال[٦]، على إدغام التَّاء في الذَّال.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥١٨)، والعبارة الأخيرة فيه بلفظ: (ولشفاء الشك مقيل).

(٢) «هو» ليس في (أ) و(ف).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٥٧).

(٤) في (ف): «بإدغام التاء الثانية وأصله تتذكرون وقرأ».

(٥) «يذكرون خفيفة الذال بحذف التاء الثانية وأصله تتذكرون وقرأ الباقون» من (أ).

(٦) وقرأ ابن عامر: (يتذكرون) بياء وتاء. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٢٧٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٠٨، ١٠٩).

ومعناه: قليلًا ما يتَّعظون بتذكير هذا الكتاب؛ أي: قليلٌ مَن يؤمنُ منكم.

وقيل: أي: يتَّعظون بقليلٍ من القرآن، وهو بأخذ بعض ما ذكر فيه من مكارم الأخلاق دون التَّوحيد والشَّرائع.

وقيل: أي: لا يتذكَّرون به أصلًا، وهو إلطافٌ في الكلام بنفي الشَّيء كلِّه بذكر قليل منه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: استسلِموا لمطالبات التَّقدير، فقِفوا حيث ما[1] وقفتم، وتحقَّقوا بما عرفتم، وطالعوا ما به كُوشفتم، ولا تلاحظوا غيرًا، ولا تركَنوا إلى علَّةٍ، ولا تظنُّوا أنَّ لكم من دونه وسيلةً[2].

***

(٤) ـ ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾: وهذا من الإنذار والتَّذْكار بما نزل بالماضين من الكفَّار، ومعناه: وكم من أهل قرية، أُضمر الأهلُ فيه، كما في قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ويدلُّ عليه آخرُ هذه الآية: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾، وهذه[3] صفة الأهل.

وقوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾: أي: عذابنا المهلِكُ.

وطعن بعضُ الملحدين على هذا، وقالوا: الفاء للتَّعقيب، وكيف يجيء العذاب بعد تمام الإهلاك؟

---

(١) «ما» ليست في (ف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٩).

(٣) في (ف) و(أ): «وهذا».

وعنه جوابات:

منها: أهلكناها بخذلاننا إيَّاها في المعاصي، فجاءها[١] بأسُنا عقوبةً على المعصية، والمعصيةُ هَلَكَةٌ، وقال الأعرابيُّ: هلكْتُ وأهلكْتُ.

وقيل: أي: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ تقديرًا، ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ تحقيقًا.

وقيل: أهلكنا بتوجيه العذاب إليها، فجاءها بأسنا.

وقيل: الأوَّل تقريبٌ، والثَّاني تنفيذٌ.

وقوله: ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: في حال بيتوتتهم باللَّيل.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾: أي: حال قيلولتهم بالنَّهار. وهما حالتا غفلةٍ.

وقال الأزهريُّ: البيتوتةُ: الاستراحةُ باللَّيل، والقيلولةُ: الاستراحةُ بالنَّهار نصفَ النَّهار وإن لم يكن مع ذلك نوم، قال الله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤]، والجنَّةُ لا نومَ فيها[٢].

وإنَّما قال: ﴿أَوۡ هُمۡ﴾، ولم يقل: (وهم)؛ لأنَّ بعضهم أُهلكَ في وقتٍ، وبعضهم في وقتٍ، ولا يصحُّ الاجتماع في حقِّ قومٍ، وهو كقولنا[٣]: قاتلناهم فما نرى إلَّا قتيلًا أو جريحًا.

أخبر أنَّ عذاب الأوَّلين أصابهم غافلين[٤]، وهو تنبيهٌ للآخِرين.

***

---

(١) في (ف): «فجاء».

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٩/ ٢٣٣).

(٣) في (أ): «كقولك».

(٤) «غافلين» من (أ)، وفي (ف): «وهم غافلين».

(٥) ـ ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾: قال الكلبيُّ: أي: دعاؤهم؛ يعني: لَمَّا جاءهم أوائل العذاب اعترفوا على أنفسهم بالشِّرك والظُّلم، ولم ينفعهم ذلك، كما قال فرعون لمَّا أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، فقد قيل له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

وقيل: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: دعاؤهم[١] على أنفسهم بالويل، كما قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء: ١١] إلى أن قال: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٤].

وقيل: هو الدُّعاء بالخلاص، لكن ضاق الوقت فالتجؤوا[٢] إلى الاعتراف، فقام مقام الدُّعاء.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ركنوا إلى الغفلة، واغترُّوا بطول المهلة، فباتوا في خفض الدَّعَة، وأصبحوا في ظلِّ[٣] السَّعة، فصادفَتْهم البلايا بَغتة، وأدركتهم القضايا فجأة، فلا البلاء كُشف عنهم، ولا الدُّعاء سُمع منهم، ولا فِرارٌ نفعَهم، ولا صريخٌ منعَهم، حتى بادوا فلا عين ولا[٤] أثر، ولا ذكر ولا خبر؛ تلك ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وإذا أنزلَ بأسه بالآخِرين، فلا يملكون كشفَ الضُّرِّ عنهم ولا تحويلًا[٥].

---

(١) «دعاؤهم» ليس في (ف).

(٢) في (ف): «بالتجاوز».

(٣) في (أ): «حال».

(٤) «عين ولا» ليس في (أ).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٥١٩)، وفيه: (بادوا وكأنه لا عين ولا أثر، ولا لأحد منهم =

(٦) ـ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: فلنسألنَّ الأممَ سؤالَ تعنيفٍ وتعذيب، ولنسألنَّ الأنبياءَ سؤالَ تشريفٍ وتقريب، فلنسألنَّ هؤلاء عن القَبول فيتقنَّعون[1] بذلِّ الخجلِ، ولنسألنَّ هؤلاء عن البلاغ فيتكلَّمون بلسان الهيبة والوجل[2].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نسألُ الناس جميعًا عما أجابوا المرسَلين، ونسأل المرسَلين عمَّا بلَّغوا[3].

وقال الضَّحَّاك: يعني: الأممَ الذين أتاهم[4] الرُّسل: هل بلَّغكم الرسل ما أُرسلوا به إليكم؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: الأنبياءَ: هل بلَّغتُم قومكم ما أُرسلتُم به؟ وماذا أجابكم قومُكم[5].

وقال فرقدٌ السَّبَخيُّ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: هم الأنبياء ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: هم[6] الملائكة[7].

* * *

= خبر، تلك سنّة الله في الذين خلوا من الكافرين، وعادته في الماضين من الماردين).

(١) في (ف): «فينتقعون».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤).

(٤) في (ف): «أتتهم».

(٥) في (أ): «وماذا أجابهم قومهم». والخبر ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣٤٩).

(٦) «هم» ليس في (أ).

(٧) رواه عبد بن حميد في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٤)، و«فتح القدير» (٢/ ١٨٩).

(٧) ـ ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾: أخبر أن مسألتَه إياهم ليست بمسألةِ استخبارٍ ولا[1] استعلام، إنما هي مسألةُ تقريعٍ وتقريرِ إجرام، بأنْ يقولَ لهم: ألم أفعل بكم كذا؛ كما قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠].

وفي الخبر: يقول الله لهم: «ألم أجعلْ لك سمعًا وبصرًا، ألم أجعلْ لك مالًا وولدًا»[2]، وهذا اقتصاصُ ما كان منه جلَّ جلاله إليهم، يقول: فلنُخبرنَّهم بما كان منهم بعلمٍ منَّا بجميعهم[3]، إذ لم نكن عنها غائبين فتخفى علينا، بل كنَّا شاهِدين ذلك كلَّه.

وقوله: ﴿بِعِلْمٍ﴾ فيه إثبات العلم لله تعالى، وهو حجتُنا على المعتزلة النُّفاةِ للصفات.

وما ذكر في بعض الآيات من نفي السؤال؛ من قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وأثبتَها في هذه الآية، وفي قوله جل وعلا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾ [الحجر: ٩٢]، فلا تناقُضَ بينهما، بل في القيامة مقاماتٌ؛ في بعضها لا يُسألون وفي بعضها يُسألون، ولأنهم لا يُسألون سؤالَ استعلام ويُسألون سؤالَ توبيخٍ، ولأنهم لا يُسألون: ما فعلتُم؟ ويسألون: لمَ فعلتُم؟ وبأي نيةٍ فعلتُم؟ ولأنهم يُسألون في موضع الحساب، ثم ينقطعُ بعد ذلك فلا يُسألون بعد وقوعهم في العقاب[4].

---

(١) «لا» من (ف).

(٢) رواه البخاري (٣٥٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣) واللفظ له، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) «بجميعهم» ليس في (ف).

(٤) في (ر): «العذاب».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله بعد ما ذَكر بعض هذه المقالات: لا يسأَلُ عمَّا أُظهر وأُبديَ لأن الملائكة قد كتبوا ذلك وثَبت عليهم، ولكنْ يسأَلُ عمَّا أُسرَّ وأُخفيَ ليَثبت عليهم بإقرارهم.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يحتمِل أنه سؤالُ عما أجابوا ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أُجيبوا؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ويحتمل أن يكون سؤالُ الرسل سؤالَ الشهادة عليهم[١].

* * *

(٨) ـ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾: ذكر بعد السؤال وزنَ الأعمال، و﴿الوزنُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره؛ أي: هو الحقُّ الكائن المتحقِّق.

وقيل: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعتُ الوزنِ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظَرْفه وفيه خبرُه؛ أي: الوزن العدلُ يكون يومئذ.

وقال الحسن: ميزان الآخرةِ لها كفَّتانِ، وإن الحسناتِ والسيئاتِ توضعان في كفَّة الميزان[٢].

وكذا قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق، فتثقل حسناته على سيئاته فينجو به، وأمَّا

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٦٠).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٠١).

الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورةٍ، فيوضع في كفَّة الميزان، فيخِفُّ وزنه فيقعُ به[١] في النار[٢].

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: توضع صحائف الأعمال في الميزان فتوزَن[٣].

وقال عُبيد بن عُمير: يوزن الأشخاص، فيؤتَى بالرجل الطويل العظيم الأكول الشروب يوم القيامة فلا يَزِن جناح بعوضة، ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[٤].

وقال مجاهد: الوزن في الآخرة[٥] العدل[٦].

وفي صفة الميزان أحاديث[٧]، ....

---

(١) «به» ليس في (ف).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣٥٠). ومحمد ابن مروان هو السدي الصغير وهو كذاب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٧١)، وروي عنه أيضا حديث البطاقة الذي سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٠).

(٥) في (ر): «القيامة».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٨ و٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٤٤٠). وذكره الثعلبي في «تفسيره» بلفظ: (والقضاء يومئذ العدل). وروى عنه الطبري في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قَالَ: حَسَنَاتُهُ. وانظر التعليق الآتي.

(٧) منها حديث البطاقة الذي رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (٩) و(١٩٣٧) وصحَّحَه، من حديثِ عبد الله بنِ عمرو رضيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ سيخلِّصُ رجلاً من أُمتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامة فيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البصر، ثُم يقول: أَتُنْكِرُ مِن =

= هذا شيئًا؟ أَظَلَمكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَك عذرٌ؟ قال: لا يا رب، فيقولُ: بَلَى، إنَّ لكَ عندنا حَسَنةً وإنَّه لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فيقولُ: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلَّاتِ؟ فيقولُ: إنَّك لا تُظْلَمُ، قال: فتُوضَعُ السجلَّاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السجلَّاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ فلا يَثْقُلُ مع اسمِ الله شيء».

وقد اختلف العلماء في الميزان على قولين:

الأول: ما روي عن مجاهد: أن قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، معناه: العدل، وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ معناه: فمن كثرت حسناته، وذكره الرازي عن بعض السلف وعن كثير من المتأخرين، فقال: وهو قولُ مجاهدٍ والضَّحاكِ والأعمش: أنَّ المراد من الميزان: العدلُ والقضاءُ، وكثيرٌ من المتأخِّرين ذهبوا إلى هذا القول، وقالوا: حملُ لفظ الوزنِ على هذا المعنى سائغٌ في اللُّغة، والدَّليلُ عليه، فوجبَ المصيرُ إليه. انظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٢٠٢).

وأما أصحاب القول الثاني فقالوا: معنى ذلك: فمن ثقلت موازينه التي توزن بها حسناته وسيئاته. قالوا: وذلك هو الميزان الذي يعرفه الناس، له لسان وكفتان يُوزَن به أعمالُ العبادِ خيرُها وشرُّها. وقد تقدم هذا عن الحسن وابن عباس وعمرو بن دينار وغيرهم، وهو قول عامة المفسرين كما قال الرازي، وهو الذي صوبه الطبري فقال: والصواب من القول في ذلك عندي، القول الذي ذكرناه عن عمرو بن دينار، من أن ذلك هو الميزان المعروف الذي يوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات.

وقال مكي: قال مجاهد: ليس ثَمَّ ميزان، وإنما هو مَثَل ضُرِبَ. وأكثر الناس على أن ثَمَّ ميزاناً توزن به أعمال العباد كيف شاء الله وعلى ما شاء، نقول كما قال، ونوجب ما أَوْجَب، ونؤمن بما في كتاب الله، ولا نتقدم بين يدي الله، ولا نعترض، ولا نكيِّف ما لا علم عندنا منه، ولا نَحُدُّه. انظر: «الهداية» (١٢/ ٨٤١٢).

وقال البيضاوي: والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم. ثم أيد ذلك بحديث البطاقة. انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٦). =

والإقرارُ بالوزن يومَ القيامة من شرائط السنَّة والجماعةِ، والله تعالى أعلمُ بكيفيته.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾: إنما جُمع لأن الأعمال كثيرةٌ، فيَحتمل أنه يوزن[1] كلُّ جنسٍ ويكون ذلك موزونًا بميزانٍ، ثم يوزن جنسٌ آخر، فتحصل موزوناتٌ كثيرة، فلذلك جمعها.

وقيل: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ معناه[2]: فالذين ثقلت موازينُهم، و(مَن) للجنس

= وقال الزجاج: اختلف الناس في ذكر الميزان في القيامة، وجاء في بعض التفسير أنه ميزان له كِفَّتَان، وأن الميزانَ أُنزلَ إلى الدنيا ليتعامل الناس بالعدل وتوزن به الأعمال، وقال بعضهم: الميزانُ العدلُ... وقال بعضهم: الميزانُ الكتابُ الذي فيه أعمال الخلق، وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ، إلا أن الأَوْلَى مِن هذا أن يُتَّبَع ما جاء بالأسانيد الصحاح، فإن جاء في الخبر أنه ميزان له كِفَّتان ـ من حيث يَنقُلُ أهلُ الثقة ـ فينبغي أن يُقْبَلَ ذلك، وقد روي عن جرير [ولعل الصواب: جويبر] عن الضحاك أن الميزانَ العدلُ، والله أعلم بحقيقة ذلك، إلا أن جملة أعمال العبادِ موزونةٌ على غاية العدل والحق، وهو قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. انظر: «معاني القران للزجاج» (٢/ ٣١٩).

قلت: وقول الجمهور من أن المراد حقيقة الوزن والميزان هو الأرجح؛ للحديث، ولعدم الضرورة التي تدعو إلى صرف الكلام عن ظاهره، ولأن هذا لو جاز لفتح باباً للتأويل لا ينتهي كما أشار القشيري فيما نقله عنه القرطبي حيث قال: إذْ لو حُمِلَ الميزانُ على هذا فليحمل الصراط على الدِّين الحقِّ، والجنةُ والنارُ على ما يَرِدُ على الأرواحِ دونَ الأجسادِ، والشَّياطينُ والجنُّ على الأخلاقِ المذمومةِ، والملائكةُ على القُوى المحمودة. وقد أَجمعت الأُمةُ في الصدرِ الأولِ على الأخذِ بهذه الظواهِر من غيرِ تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل وَجَب الأخذُ بالظَّاهر، وصارت هذه الظواهرُ نصوصًا. انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٥٦).

(١) في (ف): «يزن».

(٢) في (ر): «فيحتمل معناه».

فصلَح[١] للجمع، ودليلُه أنه قال في خبره: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فالمضاف إلى الجمع كان جمعًا.

وقيل: معنى الجمع: إرادةُ الواحد من الجمع، كما يقال: فلانٌ خرج إلى مكة على الجِمال، وإن كان هو على جملٍ واحد، وخرج إلى البصرة في السفن، وإن كان في سفينة واحدة.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الفائزون بما أَمَّلوا، والآمنون مما خافوا.

وقيل: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الجزاء بالأعمال فيه بالاستحقاق؛ أي: على العدل، وعلى وِفاق الوعد والوعيد على الأعمال، وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: رجحت طاعاته ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ﴾ الناجُون المُنْجِحون.

* * *

(٩) ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: هم الكفار لا إيمان لهم يُعتبَر معه عملُ خيرٍ[٢]، فلا يكون في ميزانهم خيرٌ فتَخِفَّ موازينُهم، و(مَن) في هذا للجمع أيضًا بدليل خبره.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾: أي: غبَنوا، يعني[٣]: أهلكوها وباعوها بعَرَضٍ من الدنيا يسيرٍ، ووقعوا بذلك في عذابٍ مقيم.

---

(١) في (أ): «يصلح».

(٢) في (ف): «غيره».

(٣) في (ر): «أي».

وقولـه تعالـى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾: أي: بالكتـاب والرسـولِ يكفرون، والظلـم اسـم للكفـر؛ قـال تعالـى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقـرة: ٢٥٤] وقـال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمـان: ١٣]، ولذلـك عـدَّاه بالبـاء بقولـه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ـ وإن كان لا يقال: ظلَمَ به ـ لأنه قام مقام لفظة الكفر.

وقيل: الآيات: الحجج، والظلم بها: وضعُها غيرَ موضعها؛ أي: جحودُها[١] وتركُ الانقياد لها.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ توزن أعمالهم بميزان الإخلاص، وأحوالُهم بميزان الصدق، فمَن كانت أعماله بالرياء مصحوبةً لم تُقبل أعماله، ومن كانت أحواله بالإعجاب مَشُوبةً لم تُرفع أحواله[٢].

***

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: جعلنا لكم في الأرض أمكنةً[٣] تستقرُّون عليها وفيها[٤]، كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

وقيل: أي: مكَّنَّاكم يا أمةَ محمد، وهو بيانُ الإنعام عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: أي: هيَّأنا لكم أسبابَ العيش، جمعُ معيشةٍ من المكاسب.

---

(١) في (ف): «جحدها».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٠ ـ ٥٢١).

(٣) في (ف): «لكم الأرض مكنة».

(٤) «وفيها» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: قد لزمكم الشكرُ بذلك ولا تشكرون.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يُقِرُّون بأنَّ الله جلَّ جلاله خالقُهم ورازقُهم ويعبدون غيره.

وقيل: يَشكر المؤمنون دون الكفار، وهم قليلٌ في جنب الكفار.

وقيل: ليس في وُسعهم القيام بشكر جميع نِعمه لكثرتها، فما وُجد منهم من الشكر وإنْ كثر فهو قليل[١].

و﴿مَعَايِشَ﴾ لا يهمز لأن الياء فيه أصليَّة لم تَعْرِضْ فيها علةٌ كما عَرَضت في: مدائنَ؛ لأن الياء فيها[٢] زائدة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لاستعمالكم في الخلاف أبدانَكم، ولإنفاقكم في الإسراف أموالَكم، ولاستغراقكم[٣] في الحظوظ أوقاتَكم، فلا نعمة الفراغ شكرتُم، ولا مِن مسِّ العقوبة شكَوْتم، خسرتُم وما شعرتم[٤].

* * *

(١١) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: قال الحسن: ولقد خلقنا أباكم آدم؛ أي: أوجدناه ثم صوَّرناه[٥].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٦٧).

(٢) أي: في مدائن.

(٣) في (أ) و(ر): «ولاستفراغكم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢١).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٦٧).

والصـورة: البِنْيـةُ المخصوصـة على هيئـةٍ ظاهرة، وهي أحسـنُ الصـور، فإن الإنسـان خُلـق في أحسـن تقويم.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ والخطاب للأولاد بإنعامٍ كان على أبيهم، وهو كمخاطبات بني[١] إسرائيل بما كان من أسلافهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال الزَّجَّاج رحمه الله: أي: ابتدأنا خَلْقَكم بآدم[٢].

وقـال ابـن عبَّاس ومجاهـدٌ والربيـعُ وقتادةُ والضحـاكُ والسُّـدِّيُّ رحمهم الله: ولقـد خلقنـا أباكـم آدم ثـم صوَّرناكم فـي ظهـره[٣]، ثم نخبرُكـم أنَّا قلنـا للملائكة: اسجدوا لآدم.

وقيل: معناه: ولقد قدَّرنا وجودَكم فأَوْجَدْناكم نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظامًا، ثم كسونا العظام لحمًا، إلى أنْ أكملنا هذه الصورة التي هي في نهايةِ الحُسن، ثم نخبركم أن إكرامنا سبقَ في حقِّ أبيكم آدمَ بإسجاد الملائكة له، و﴿ثُمَّ﴾ على هذا تكون لترتيب الإخبار لا لترتيب الوجود، كما في قول الشاعر:

إن مَـن سـاد ثـم سـاد أبـوه ... ثم قـد سـادَ بعـد ذلك جـدُّه[٤]

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في حديث خَلْق آدم عليه السلام: ونَفَخ فيه الروحَ

---

(١) في (أ): «وهو كالمخاطبات لبني».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢١).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٧٥ ـ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٢).

(٤) البيت لأبي نواس من قصيدة مدح إبراهيم بن عبيد الله الحجبي. انظر: «ديوانه» (ص: ١٥٤)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ٣٦)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٣/ ١٩٥٩)، وروايته في هذه المصادر: (قل لمن ساد...). وتقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

من يافوخه، فلما أتى على عينيه أَبصر ولا يَعقِل، فلما أتى على قلبه عقَل ولمَّا يأت[١] على أسفله، فتحرك فرأى الجنة فعرف إنْ هو قام دخلها، فتحرك فوقع لأن بعضَه لحمٌ وبعضَه دمٌ وبعضَه طينٌ، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧][٢].

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: فسرناه في سورة البقرة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: ثم إنَّا نعرِّفُكم سابق أيادينا إلى أبيكم، ثم لاحقَ خلافه بما بقي عرقٌ[٣] منه فيكم، ثم ما عامَلْنا به مَن كان يحسدكم ويعاديكم[٤].

* * *

(١٢) ـ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾: أي: ما منعك مِن أنْ تسجدَ، و﴿لَا﴾ صلة مؤكِّدة.

وقال الفرَّاء: لمَّا تقدَّم الجحد في أول الكلام أكّد بـ﴿لَا﴾[٥]، كما قال أبو النَّجم:

---

(١) في (ف): «ولما أتى»، وفي (أ) و(ر): «ولم يأت»، والصواب المثبت.

(٢) رواه ابن المنذر في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٣٠) عن ابن جريج، ووقع في النسخ: «وخلق الإنسان عجولاً».

(٣) في (ف) و(أ): «عرف»، وفي (ر): «حرف»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) في (ف) و(أ): «ويناديكم»، وفي (ر): «قرينًا بكم أي يساويكم»، والمثبت من «اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢١).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٤).

فمــا أَلــومُ البِيــضَ أنْ لا تَســخَرا إذا رأَيْــنَ الــشَّمــط القَفَنْــدرا[١]

وقيل: إن في المنع طرفًا من القول فكأنه قال: مَن قال لك: لا تسجد؟ وعلى هذا معنى هذا البيت؛ لأن اللوم قولٌ.

وقولـه تعالـى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: أي: النـار لهـا علـوٌّ والطيـنُ لـه هبـوطٌ، فلـي عليـه العلوُّ.

تَوهَّم عدوُّ الله أن الجواهر تتفاضلُ بأعيانها، ولم يعلم أن الله تعالى هو الذي يفضِّل ما يشاء بما يشاء، فهو المالك والملك، وله الخلقُ والأمر، ولذلك قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أوَّلُ مَن قاس إبليس[٢]، وكفَر بقياسه، وذلك أنه أخطأ حيث فضَّل النارَ على الطين، والطينُ أفضل منها بوجوه:

منها: أن الطين جامعٌ للأشياء والنارَ مفرِّقةٌ لها.

ومنها: أن التراب يكون في الجنة، فقد روي أن ترابها مسكٌ أَذْفَرُ[٣]، وليس في الجنة نار.

ومنها: أن النار يعذَّب بها أعداء الله تعالى ولا تعذيبَ بالتراب.

ومنها: أن النار لا بد لها من مكانٍ، ومكانُها التراب، والتراب لا حاجةَ له إلى النار.

---

(١) انظر: «ديوان أبي النجم» (١٧٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٩١).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢١٩)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٣٥٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢١٧). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٨٧) عن الحسن وابن سيرين.

(٣) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «ترابها المسك». وروى البخاري (٦٥٨١) من حديث أنس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «بَيْنَما أنا أسيرُ في الجنة، إذا أنا بنَهَرٍ حافَتاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المجوَّف، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَ ربُّك، فإذا طِينُهُ ـ أو طِيبُه ـ مسكٌ أَذْفَرُ» شكَّ هُدْبَةُ.

ومنها: أن النار تتعالى وهو تكبُّرٌ والتراب يتسفَّل، وهو تواضعٌ.

ومنها: أن من صفة النار الطيشَ والخفَّةَ، ومن صفة التراب السُّكونَ والرزانةَ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إن جُعلت النار لصلاح الأغذية فالطينُ[1] جعل لوجود الأغذية، والصلاح قد يقع بغير النار من الشمس وغيرها، والطينُ يقوم للنار ويطفئها ويتلفها، والنار لا تقوم للطين ولا تُتْلفه[2].

وقال غيره: الطين مؤتَمَن حافظ، والنار محرِقة غيرُ حافظةٍ، والطين يزيدُ والنار تَنقُص، والطين يُربِّي والنار تُفني.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: قال مقاتل: أي: من الجنة[3].

وقيل: أي: من السماء؛ لأنه كان فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: والسماءُ مكانُ المتواضِعين.

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض إلى جزائر البحور، والأرض مقرُّ بني آدم، والجزائر ليست بموضعِ قرارٍ، قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض على بني آدم، بل تكون في الجزائر على خوفٍ وذلٍّ، ولا تدخل في مساكن الإنسِ إلا كالمتلصِّص.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ﴾: قال أبو رَوق: أي: مِن صورتك التي أنت فيها[4].

وقال عطاء: أي: من صورة الملائكة إلى صورة الأبالسة، وكان في صورةٍ

---

(١) في (ف): «فالتراب».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٦٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٠).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٦٩).

حسنةٍ فتحوَّل من صورته، فصار ذقنُه مما يلي جبينَه، وجبينُه مما يلي ذقنَه، ومنخراه مما يلي عينيه، وجفونُ عينيه شقُّهما مما يلي رأسَه، وتحولت أصابعُه مما يلي زنديه، وأصابع رجليه مما يلي عقبيه، وصار شعره نابتًا في رأسه منكوسًا كأنه أجمة له(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: أي: من الأذلَّاء، وهذه المخاطبات لم تكن من الله له بغيرِ واسطة، فإنه لا يستحق ذلك، بل كان على لسان ملَك أو ما شاء الله عز وجل.

***

(١٤) ـ ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: أي: أَمْهِلْني إلى يوم القيامة، أراد الخبيث أن لا يذوقَ الموت، فلم يُعطه الله ذلك لكنْ أمهَله إلى آخر الدنيا، وذلك قوله تعالى:

(١٥) ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: وقال في آية أخرى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨] ولم يعيِّنْه له وأبهَمَه.

وقال السُّدِّي: أُنْظِر إلى النفخة الأولى(٢).

وقيل: معناه: أخِّر عقوبتي إلى يوم القيامة، لمَّا خاف تعجيلَ العقوبة، فأُنظر بها،

---

(١) بعدها في (أ): (له)، وليست في المصدر. والخبر ذكره ابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ١٠٦) عن عطاء دون سند. وفيه: وصار شعره ناتئا في رأسه منكوشاً كأنه أجمة).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩٠).

أشار بذلك إلى أنه سأل الإنظار فأُجيب إليه، فلو سأل التوبة والمغفرة[١] بالتوبة لم يُردَّ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أجاب دعاءَه في الحال، ولكن كان ذلك شرًّا له؛ لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة، فلم يَزْدَدْ بذلك التمكينِ إلا شقاوةً على شقاوةٍ؛ ليَعلم الكافةُ أنه ليس كلُّ الإجابة للدعوة نعمةً ولطفًا، بل قد تكون بلاءً ومكرًا[٢].

***

(١٦) ـ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي[٣]: بسبب ما أغوَيْتَني.

وقيل: الباء بمعنى اللام؛ أي: لإغوائك إياي.

وقيل: الباء للقسَم؛ أي: أُقسم بإغوائك إياي، كما أَقسم بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: أضلَلْتني.

وقيل: أفسَدْتني، كما قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؛ أي: فسد عيشُه.

وقيل: أي: خيَّبتني، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]؛ أي: فما خاب، وقال الشاعر:

فمَن يَلْقَ خيرًا يَحمَدِ الناسُ أمرَه ... ومَن يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغيِّ لائما[٤]

---

(١) في (ر) و(ف): «فلو سأل المغفرة».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٢).

(٣) في (ف): «وقيل أي».

(٤) البيت للمرقش الأصغر. انظر: «المفضليات» (ص: ٢٤٧).

أي: ومَن يَخِبْ، لمَّا رأى غوايةَ نفسه جهد في إغواء غيره؛ كما قال: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: أي: في صراطك، أو: على صراطك، وهو جارٍ مجرى الظروف فجاز حذفُ الصلة فيه، وهو مجازٌ عن التعرُّض لهم للمنع، فإنَّ مَن قعد على الطريق منَعَ المارَّة عن المرورِ فيه.

وقال عكرمةُ: معناه: لأصدَّنَّهم عن دِينك دينِ[1] الإسلام[2]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: ٣٧]؛ أي: عن الإسلام.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو كتاب الله تعالى[3].

***

(١٧) - ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾:

ذكَر (مِن) في جهتين، و(عن) في جهتين؛ لأن في قدَّام وخَلْف معنى طلبِ النهاية، وفي اليمين والشمال الانحرافَ عن الجهة.

وقال مجاهدٌ: لآتينَّهم من حيث يُبصِرون ومن حيث لا يُبصِرون[4].

وقيل: أي: من كلِّ جهةٍ يمكنُ الاحتيالُ عليهم بها، ولم يقل: من فوقهم؛

---

(١) «دين» من (ف).

(٢) لم أجده عن عكرمة، وقاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣١).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٠).

لأن رحمة الله تنزل عليهم من فوقهم، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما[١].

وكذا قال قتادة: لا يستطيعُ أن يحولَ بينك وبين رحمةِ ربِّك[٢].

ولم يقل: من تحتهم؛ لأنه موضع سجودهم، وفيه وعدُ القُربة من الله تعالى.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وقتادةُ والحسن وإبراهيم والسُّدِّي والحكَم وابن جريج: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فأخبرُهم أنه لا بعثَ ولا جنةَ ولا نار، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من أمرِ الدنيا فأزيِّنها لهم وأدعوهم إليها وأخوِّفهم الفقر على أنفسهم وعلى مَن يَخْلُفهم مِن بعدهم، فلا يَصِلون رَحِماً ولا يؤدُّون زكاةً، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قِبَل حسناتهم فأثبِّطهم عنها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: فأزيِّنُ لهم السيئات وآمرُهم بها[٣].

وروى حيان عن الكلبيِّ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: الدنيا أُطغيهم فيها ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: الآخرة أشكِّكهم فيها فيكذِّبوا بها ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قِبَل حسناتهم حتى يُعجَبوا بها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾؛ أي: شهواتهم.

وفي روايةٍ عنه: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قِبَل الدِّين ألبِّس عليهم.

وقال شقيق بن إبراهيم[٤]: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعةِ مراصدَ:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩٧).

(٣) رواه عنهم ـ عدا الحسن ـ الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩٦ ـ ٩٩)، لكن إبراهيم والسُّدِّي والحكم وابن جريج قولهم في تفسير ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ على العكس مما ذكر، وأن المعنى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن قِبَلِ دنياهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن قِبَلِ آخرتهم. وكذا جاء في رواية ثانية عن ابن عباس.

(٤) شَقيق بن إبراهيم أبو عليٍّ الأَزْدِيُّ من أهل بَلخ، حسَن الجري على سبيل التَّوكُّل وحسَن الكلام فيه، وهو من مشاهير مشايخ خُراسان، كان أستاذ حاتم الأصم وصحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطَّريقة وأسند الحديث. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٥٣).

من بين يديَّ، ومن خَلفي، وعن يميني، وعن شمالي، أمَّا مِن بين يدي فيقول لي: لا تَخَفْ إن الله غفور رحيم، فأقول: ذلك لمن تاب وأقرأُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وأمَّا مِن خلفي فيخوِّفني بالضَّيعة على مخلفيَّ، فأقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وأما مِن قِبَل يميني فيأتيني من قِبَل الثناء فأقول: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وأمَّا مِن قِبَل شمالي فيأتيني من قِبَل الشهوات واللذَّات فأقول: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤][(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ قال ذلك ظنًّا ثم تحقَّق ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقال الحسن: قال: لمَّا استزْلَلتُ آدم ـ وذريتُه أضعفُ منه ـ فأنا على استزلالهم أقدَرُ[(٢)].

***

(١٨) ـ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: أي: من الجنة، وقيل: من السماء، وقيل: من الصورة الملكيَّة[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿مَذْءُومًا﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: مَقيتًا[(٤)].

وقال أبو روق: أي: ممقوتًا[(٥)]، وهو كالأول.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٩٣).

(٢) لم أجده.

(٣) في (ر): «صورة الملائكة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٦).

(٥) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣١٧) (ط: دار التفسير)، ورواه الطبري في «تفسيره» =

وقال أبو العالية: أي: مَعيبًا بأشدِّ العيب(١).

وقال ابن زيد: مذمومًا أشدَّ الذمِّ(٢)، وقد ذأَمه يَذْأمُه ذَأْمًا؛ أي: ذمَّه.

وقال ابن عرفة: ذأمه؛ أي: حَقَره وأَبعده(٣).

وقال مجاهد: أي: مَنْفيًّا(٤).

وقال الكلبيُّ: أي: مُبعَدًا(٥).

وقال الكسائي: أي: مقبوحًا، وقال النَّضْرُ بن شُميلٍ: محسورًا(٦).

وقوله تعالى: ﴿مَّدْحُورًا﴾ قال مجاهد: أي: مطرودًا(٧)، والدَّحر في اللغة: الدَّفعُ على وجه الهوان.

وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: اللام للقسَم.

وقال القشيريُّ رحمه الله: وأخرجه الله تعالى من درجته ومن حالته، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته، ثم يخلِّده في عقوبته، ولا يُذيقه ذرةً من بَرْد رحمته،

= (١٠/ ١٠٢) عن ابن عباس.

(١) ذكر عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣١٧) (ط: دار التفسير) قوله: ﴿مَذْءُومًا﴾: مُزْرًى به.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٤).

(٣) ذكره عن ابن عرفة الهروي في «الغريبين» (مادة: ذأم).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٧)، ورواه الطبري أيضاً عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: صغيراً منفيًّا.

(٥) ذكر عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٠٨) قوله: لئيماً. والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٢) قوله: ملوماً مَدْحُوراً مقصيًّا من الجنّة ومن كل خير.

(٦) القولان في «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٣١٧) (ط: دار التفسير).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٣).

أصبح وهو المقدَّم على الجملة فأمسى وهو أبعدُ الزُّمرة، وهذه آثارُ قهر العزة، وأيُّ كبد تسمع هذه القصة ثم لا تتفتَّت بهذه السياسة[١]؟!

* * *

(١٩) ـ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: وقلنا: يا آدم، وقد فسرنا الآية في سورة البقرة.

* * *

(٢٠) ـ ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: أي: أورد عليهما الخواطر المزيِّنة لهما أكلَ الشجرة، وأصل الوسوسة: الصوت الخفيُّ، فهي دعاءٌ على خفاءٍ؛ قال رؤبةُ:

وَسْوَسَ يدعو مخلصًا ربَّ الفلق[٢]

وقوله تعالى: ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾: الإبداء: الإظهار، والمواراة: الستر، والسوءة: العورة مجازًا؛ لأنه يسوءُ صاحبَها ظهورُها؛ أي: قصد بذلك إظهارَ عوراتهما.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾: قرأ يحيى بن

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٣).

(٢) الرجز في «ديوان رؤبة» (ص: ١٠٨)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ١٠٦).

أبي كثير بكسر اللام(١)، أخذها من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقرأ العامةُ بفتح اللام، وليس فيه تفضيلُ الملائكة على البشر، وما رغَّبهما في ذلك لنيلِ هذا الفضل، فإن آدم لمَّا رأى أن الملائكة أُمروا بالسجود له علِم أن المسجود له أفضلُ من الساجد، أو كان إبليس يعتقد بذلك، ولذلك قال: أنا خيرٌ منه، فوافق اعتقادُه اعتقادَ المعتزلة، فما كان يخفى على آدم ذلك، ولكن قيل: إن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة، فرغَّبهما في طول العمر.

وقيل: أراد به انقطاعَ الشهوة وسهولةَ الطاعة بحيث لا تلحقُهما الفترةُ، وعدمَ الحاجة إلى شيء من المؤنة، وقد أحبَّا(٢) ذلك كلَّه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾: فلا تموتان أبدًا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ما رَغِبا في الخلود لنصيبِ أنفُسهما بل للبقاء مع الله، وهذا أَولى ما يُظنُّ بهما، تنزيهًا لمحلِّ النبوة، وقد قيل: ساعات الوصل قصيرة، وساعات الفراق طويلة، ما لبثا في دار الوُصلة إلا بعضًا من النهار، دخلا ضحوةَ النهار وخرجا نصفَ النهار.

ويقال: إن الفراق عينٌ تصيب أهلَ الوصلة، وفيه قيل:

إنْ تكنْ عينٌ أصابَتْك فلا ... زالتِ العينُ تصيبُ الحسنا(٣)

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (ط: دار التفسير) (١٢/ ٣١٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٣٨٥)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٣). ونسبوها أيضاً لابن عباس والحسن بن علي والضحاك والزهري. ورواها الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٨) عن ابن عباس ويحيى بن أبي كثير.

(٢) في (ف): «أجاز».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٤)، والبيت فيه: =

(٢١) ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: حلف لهما إنِّي، بكسر الألـف لأن جوابه باللام.

وقال قتادة: خدَعهما بالله فانخدعا، وكذلك المؤمن[1].

* * *

(٢٢) ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾: أي: أوقعهما في المكروه بغروره بهذا القسَم، وأصله من التدلية في البئر؛ أي: الإرسال، وقد دَلَوْتُ الدَّلْوَ أَدْلُوْها: أرسلتُها في البئر لأملأها، وأَدْلَيْتُها: وأخرجتها، ودلَّيتُ فلانًا في البئر بحبلِ غُرورٍ تدليةً[2]، والغُرور: إظهارُ النُّصح مع إبطانِ الغش.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: أي: أكَلا منها، وهو ينبئ عن القليل منه.

وقوله تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾: أي: ظهرت لهما لا لغيرهما، وكانا لا يرَيَان

= إن تكن عين أصابتك فما ... إلا لأنّ العين تصيب الحسنا

وفي عجزه خلل في وزنه الشعري.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٩).

(٢) قوله: «ودلَّيتُ فلانًا في البئر بحبلِ غُرورٍ تدليَةً»، فيه نظر، والصواب إما بحذف: «في البئر» فيكون الكلام على سبيل المجاز بمعنى التغرير والتزيين، تقول: دلاني فلان بحبل غرور؛ أي: غرَّني وزيَّن لي القبيح حتى أرتكبه. وإما بحذف: (بحبل غرور)، فيغدو الكلام على الحقيقة. انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٨١)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٦٤)، وذكر الخطابي قول الشاعر:

وإن امرأً دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

من أنفُسهما ذلك، وكان عليهما لباس من الظُّفر فزال ذلك إلا ما بقي على رؤوس الأصابع[١].

وقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: ابتدأا يَلزقان على أنفسهما ورق التين[٢] فلا يلتزق، وقيل: الخصف: الترقيع، وقيل: الضم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: أي: عن قُربانها استفهام بمعنى الإثبات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾: أي: ألم أقل لكما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ يحتمِل أنه أوحَى[٣] بملَك إليهما، ويحتمل أنه إلهامٌ أَلْهمهما[٤].

وقيل: خجلُهما بهذا زاد على كلِّ محنة.

وقيل: كان حالُهما في أولِ اليوم وآخرِه كما قيل:

لله درُّهمُ من فتيةٍ بَكَروا ... مِثْلَ الملوك وراحوا[٥] كالمساكين[٦]

---

(١) روي هذا عن ابن عباس ولا يصح، فقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٥٢ و١٤٥٩) عنه من طريقين: الأول فيه الحسن بن أبي جعفر الجُفري، قال عنه البخاري: منكر الحديث، وضعفه أحمد والنسائي. انظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٧٣). وفي الثاني النضر بن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز، قال عنه أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال البخاري: منكر الحديث. انظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٢٥).

(٢) في (ف): «الجنة».

(٣) في (ف): «وحي».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٨٤).

(٥) في (ف): «وأمسوا».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٥).

(٢٣) ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾: لمَّا قال الله تعالى لآدم وحواء: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ الآيةَ اعترَفا بالخطيئة وتسارَعا إلى التوبة، وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾: نَقَصْناها ثوابَ الطاعة وعرَّضناها للعقوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾: أي: وإن لم تَستُر علينا ذنبنا ولم ترحمنا بقبول توبتنا.

وقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: أي: الهالكين الذين باعوا حظَّهم من الآخرة بقضاءِ شهوةِ ساعة.

قال الحسن هي الكلماتُ التي تلقَّاها من ربِّه[1]. وقد بينَّا اختلافَ الأحاديث فيه[2]، وبيَّن في تلك السورة قبولَ توبتهما.

وفي الحديث: أن آدم عليه السلام مشى حتى قام على الصَّفا، وحواء رضي الله عنها جاءت من الجُدَّة وقامت على المروة، وجَعَلا يدعوان ويبكيان مئةَ سنة ـ وفي رواية: مئتي سنة، وفي رواية: ثلاث مئة سنة ـ حتى قُبلت توبتُهما يوم الجمعة، وقال آدم: يا رب، مَن جاءك من ولدي يرجو رحمتك ويخاف عذابك فأَجِرْه من عذابك، قال: لك ذلك[3].

وفي الآية نقضُ قول المعتزلة: إنَّ الصغائر تقع مغفورةً ولا يجوز العقاب عليها، وآدمُ عليه السلام يقول: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٨٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١١٦) عن الضحاك.

(٢) أي: في تلك الكلمات، وقد تقدم ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

(٣) لم أجده.

(٢٤) ـ ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾: قال أبو صالح: الخطاب لآدم وحواء صلوات الله عليهما والحية[1].

وقال السُّدِّي: لآدم وحواء وإبليس[2]، لكن إبليس أُهبط قبلهما، فهذا إخبار عن هبوطهم جميعًا، وكان وقوع ذلك متفرقًا، ومعنى قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾: انزلوا إلى الأرض.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: فسرناه في سورة البقرة، وفيه تحذيرُ آدم وحواءَ عليهما السلام عند كيدِ إبليسَ ـ لعنه الله ـ في الأرض كما كادهما في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾: مر تفسيره أيضًا، وأراد به أنهم لا[3] يخلدون في الأرض.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أُهبطوا؛ لكنَّ إبليس أُهبط عن[4] رتبته فوقع في اللعنة، وآدمَ أُهبط عن بقعته فتداركتْه الرحمة.

وقيل: لم يخرج آدم عن رتبة الفضيلة وإنْ أخرج عن دار الكرامة، فلذلك قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢]، وأما إبليس فإنه أُخرج عن الحالة والرتبة فلم ينتعِش قط عن تلك السقطة[5].

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٧٢) و(١٠/ ١١٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٧٣) و(١٠/ ١١٧)، وفي الموضعين: (آدم وحواء وإبليس والحية).

(٣) في (ف): «أن لا»، بدل: «أنهم لا».

(٤) في (أ): «من».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٧).

(٢٥) ـ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾: قرأ ابن كثير ونافع وعاصمٌ وأبو عمرو: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاء وفتحِ الراء على ما لم يسم فاعلُه من الإخراج، وقرأ حمزة والكسائي بفتحِ التاء وضمِّ الراء على الفعل الظاهر من الخروج[١].

يقول: في الأرض تبقَون أحياءً، وفيها تموتون فتبقون في القبور إلى أن تُبعثوا منها، يُعْلمهم أنهم لا يعودون إلى الجنة إلى أنْ يحشروا من قبورهم، ثم يصيرَ السعداء إلى الجنة والأشقياء[٢] إلى النار.

وقيل: لمَّا قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ حزن آدم وظنَّ أنْ لا يعودَ إلى الجنة، فقال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ فتصيرون إلى الجنة، ففرح بذلك.

* * *

(٢٦) ـ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾: أي: أنزلنا المطر الَّذي يُنبت القطنَ ويقيم البهائمَ التي منها الأصوافُ والأوبار والأشعار، قاله الحسن[٣].

وقيل: أي: أنزلنا مع آدم وحواءَ ما به صار اللباسُ، فقد رُوي أنه أُهبط معه ثمانيةُ أزواج من الجنة: من الإبل ذكرٌ وأنثى، ومن البقر كذلك، ومن الغنم كذلك،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٢) في (ر): «السعيد... والشقي».

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢١٣).

ومن المعز كذلك[١]، وأتاه جبريل بالجلمَينِ[٢] وأمره أن يجزَّ الشاة ففعل، فغزَلته حواءُ وحاكه آدمُ، فاتَّخذ عباءتين إحداهما لآدم والأخرى لحواء.

ووجهُ ذكر هذه الآية بعد الآية الأولى ما ذكر: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراةً بتزيين الشيطان لهم ذلك، فبيَّن الله تعالى بهذه الآية أنَّ إبليس سعى في إعراء آدم وحواء عن اللباس، ثم إن الله تعالى ألبسهما ترغيمًا للشيطان، ثم سعى في إعرائكم عند الطواف، وقد أنزل الله لكم اللباس فلا تنزعوه ولا تُطيعوا الشيطان[٣].

قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قال ابن زيد الريش: ما فيه الجَمال[٤]، ومنه ريشُ الطائر.

وقيل: اللباس: ما وارَى العورة، والريش: ما وراء[٥] ذلك مما يجمِّل الهيئة.

وقيل: اللباس من القطن، والريش: التوزيُّ[٦] والقصب والملابس النفيسة، قال النَّبي ﷺ: «الإيمان عُرْيان، لباسُه التقوى، وريشه الحياء، وماله العفَّة»[٧].

---

(١) إلى هنا رواه ابن المنذر عن ابن جريج كما في «الدر المنثور» (١/ ١٣٨).

(٢) تحرفت في (أ) و(ف) إلى: «بالحكمين». والجلمان بلفظ التثنية مثل الجَلَم بلفظ المفرد، وهو المقراض، كما يقالُ فيه: المِقْرَاض والمِقراضان ويجوزُ أنْ يُجعلَ الجَلَمَانِ اسمًا واحدًا على فَعَلَان كالسَّرَطانِ والدَّبَرَان، وتُجعل النون حرفَ إعرابٍ، ويجُوز أنْ يَبْقَيا على بابهما في إعراب المثنَّى فيقالُ: شَرَيْتُ الجَلَمَينِ. وجَلَمْتُ الشيءَ جَلْمًا من باب ضَرَب: قطَعْتُه، فهو مجلوم، وجَلَمْتُ الصوفَ والشعرَ قطَعتُه بالجَلَمَيْنِ. انظر: «المصباح» (مادة: جلم).

(٣) ذكر هذا المعنى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٠) ورواه عن مجاهد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٤).

(٥) في (ر): «واری»، وسقطت الجملة من (ف).

(٦) في (ر): «التوري» وفي (ف): «التواري». والتوزي: ثياب تنسب لتوز بلد بفارس. انظر: «المصباح» (مادة: توز).

(٧) في (أ): «الفقه»، وكذا جاءت في بعض المصادر، وفي البعض الآخر كالمثبت. وهذا الحديث رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٦)، والديلمي في «الفردوس» (٣٨٠)، عن ابن مسعود =

وقال القُتَبي: الريش والرِّياش: ما ظهر من اللِّباس؛ مثل: اللِّبس واللِّباس، والحِرْم والحِرام، والدِّبغ والدِّباغ[١].

وقيل: الرِّيش: الأثاث من متاع البيت؛ من فِراشٍ ودثارٍ ونحوِ ذلك.

وقال ابن الأعرابيِّ: الرياش: المال المستفاد.

وقيل: الرياش: الخِصْب والمعاش.

وقيل: هو المأكول والمشروب.

وقيل: هو اجتماع كلِّ ما يحتاج إليه الإنسان من أسباب حياته.

ورُوي: أن النَّبي ﷺ أعطى النابغة الجعديَّ مئة ناقةٍ بريشها[٢]؛ أي: بجميع ما يُصلحها من آلاتها.

= رضي الله عنه مرفوعاً، وذكره الصغاني في «الموضوعات» (ص: ٣٦).

ورواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وفيه عند الخطيب: «وكنزه التفقه» ولم ترد العبارة في رواية ابن أبي الدنيا.

ورواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٧)، الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٠٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٣٨٩)، عن وهب بن منبه قوله، وذكره عن وهب أيضاً الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣١/ ١٤٨)، والذهبي في «السير» (٤/ ٥٥٠)، وغيرهم، وعندهم جميعاً: (وزينته الحياء)، بدل: «وريشه الحياء»، فلعل الريش من تحريف النساخ.

(١) انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٨٩)، و«غريب القرآن» له (ص: ١٦٦).

(٢) لم أجده حديثاً، إنما هو كلام لحسان رضي الله عنه كما في «الصحاح» (مادة: عصفر)، قال الجوهري: عصافير المنذر: إبل كانت للملوك نجائب، قال حسان بن ثابت: فما حسدت أحداً حسَدي للنابغة حين أمر له النعمان بن المنذر بمئة ناقة بريشها من نوق عصافيره.

وقد تريَّش فلانٌ؛ أي: صار له ما يعيش به، وقال الشاعر:

وريشـي منكـمُ وهَـوَايَ معكـمْ وإنْ كـانـت زيـارتُـكم لِمَامَـا[١]

ولما كان سترُ العورة أهمَّ ذكَرَه أولًا، ثم ذكَر ما يَستر كلَّ البدن، أو ذكَر اللباسَ ثم سائرَ أسباب المعاش.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿ولباسَ التَّقوى﴾ نصبًا عطفًا على لباسًا ﴿وَرِيشًا﴾، والباقون بالرفع على الابتداء[٢].

وقال زيد بن عليٍّ: اللباس: هذا الذي تلبسونه[٣] يواري سوآتكم، وريشًا: الجَمال الذي تتجمَّلون به من الثياب، ولباس التقوى: الدرع والـمِغْفَر والساعدان والساقان يُتوقَّى بها في الحروب[٤].

وقال قتادة والسُّدِّي وابن جريج: هو الإيمان[٥].

وقال الكلبيُّ: هو التوحيد والعفاف[٦].

وقال ابن عبَّاس وسعيد بن جبير رضي الله عنهم: هو العمل الصالح[٧].

---

(١) البيت للراعي كما في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٢٨٧)، وليس في ديوانه، وهو في «ديوان جرير» (١/ ٢٢٥)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٨)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٢٥٠)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٤٦٧).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩). والنصب قراءة الكسائي أيضاً.

(٣) في (ر) و(ف): «تلبسون».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (ط: دار التفسير) (١٢/ ٣٢٧).

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٥).

(٦) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٨٢)، وزاد: (لأن المؤمن لا تبدو له عورة وإن كان عاريًا من الثياب، والفاجر لا يزال تبدو له عورة وإن كان كاسيًا).

(٧) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٩/ ٨١)، ورواه عن ابن عباس الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٥).

وقال الحسن: هو الحياء[١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: أي: هذا أنفعُ لكم من التعرِّي.

وقيل: لباس التقوى هو الاكتفاء بالصوف والخشِن من الثياب، وهو خيرٌ من التجمُّل بالملابس الفاخرة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لباسُ الظاهر يَقِي آفَات الدنيا، ولباسُ التَّقوى[٢] يقي الآفَات التي توجِب سَخَط المولى، ولباسُ التقوى يجمعُ ظاهر العبد وباطنه، فلباسُ التقوى للنفس: لزومُ الزهد بحقيقة الورع، ولباسُ التقوى للقلب: صدقُ القصد بنفي الطمع، ولباسُ التقوى للروح: تركُ العلائق وحذفُ العوائق، ولباس التقوى للسرِّ: الإنقاء من المساكَنات، والتصوُّن عن الملاحظات.

ويقال: للعوامِّ التقوى، وللخواصِّ التَّقوى عن شهود التقوى[٣].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: تحصيلُ اللباس من الذي يَنبت بالماء من آيات وحدانية الله تعالى ودلالات على كمال قدرته، واتِّصالُ منافع السماء بالأرض مع بُعْدِ ما بينَهما دليلٌ على أن مُنشئهما ومدبِّرهما واحد، ومعرفةُ الناس كيفيةَ اتخاذ الملابس من ذلك لا يكون إلا ببيان الرسل، فدلَّ ذلك على إثبات الرسالات، أشار إلى ذلك كلِّه الإمامُ أبو منصور رحمه الله[٤].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: يتَّعظون بالتفكُّر في هذه الآيات.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٥) عن معبد الجهني.

(٢) في (ف): «الباطن».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٨).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٩٥).

(٢٧) ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: لا يُضلَّنكم[1]، وقيل: أي: لا يُزِلَّنكم؛ أي: تحرَّزوا عن الوقوع في فتنته.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: أي: سبَّب ذلك بالاستزلال، فيُسبِّب أيضًا لكم الوقوعَ في المخاوف بالاستزلال إنْ لم تتحرَّزوا عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: أي: نَزَع بطريق التسبُّب[2]، كما في قوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ أي: وإذ قلتَ، مستقبلٌ بمعنى الماضي.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾: أي: قصَد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾: أُظهر قوله: ﴿هُوَ﴾ ليصح عطفُ الاسم الذي هو بعده عليه، ويكونَ عَطْفَ اسمٍ على اسمٍ.

وقبيله عند الحسن: نَسْلُه، وكذا قال ابن زيد[3]، كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال أبو عبيدةَ: أمَّته[4]. وقال قطربٌ: جموعه. وقال المبرِّد: أشياعه[5].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٨٤).

(٢) في (ف): «التسبيب».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٣٦).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢١٣)، ولفظه: وجيله الذي هو منه.

(٥) ذكر قول قطرب وقول المبرد الواحدي في «البسيط» (٩/ ٨٥).

وقـال الزَّجَّـاج: أعوانـه(١). وقـال القُتبـي : أصحابـه(٢). وقال الكسـائي : جندُه.

وقولـه تعالـى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾: قـال ابـن عبَّـاس رضـي الله عنهمـا: صَدْرُ الإنسـان لـه مسـكنٌ، ويجـري منه مجـرى الدم.

وقال مالك بن دينار: وإنَّ عدوًّا يراك ولا تراه لشـديدُ المؤنة، إلا مَن عصمه الله تعالى.

وقال يحيى بن مُعاذٍ: الشيطان قديمٌ وأنت حديثٌ، والشيطانُ كيِّس وأنت سليمٌ، والشيطان يراك وأنت لا تراه، والشيطانُ لا ينساك وأنت تنساه، ومِن نَفْسك له عونٌ وليس لك منه عونٌ، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى. وفيه يقول:

ولا أَراه حيـث مـا يَـرانـي   وعـندما أَنسـاهُ لا يَنسـاني

فسـيِّدي إنْ لـم تُغِـثْ سَبَانـي   كـما سَبَى آدمَ مـن جِنَـانِ(٣)

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإن قالوا: كيف كلِّفنا محاربتَهم ونحن لا نراهم وليس في وسعنا ذلك؟

قلنا: لم(٤) نكلَّفْ محاربةَ أعيانهم بل دفعَ وسوستهم، ويمكن الوقوف على ذلك بما وُضع للفرق بين الإلهام والوسوسة فيما يقع في القلب، وقد علَّمَنا كيفيةَ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٩٧). وفي «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٨٣): يقال لِكل جماعة مِن وَلدٍ قبيلة، وكذلك يقال لكل جمع على شيء واحد: قبيلٌ، قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾.

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٦٦).

(٣) انظر الشعر مع الأقوال في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٧).

(٤) في (ف): «لا».

دفع ذلك بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧](١).

وقال ذو النون المصريُّ: وإن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى اللهَ، فاستعن بالله عليه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦](٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: خذَلْنا الكفار فاتَّخذوا الشياطين أولياء يطيعونهم ويتَّبعونهم ويجعلونهم بمنزلةِ مَن يتولَّى مصالحهم، وفيه إثبات خَلْق أفعال العباد.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾: قال الزَّجَّاج: الفاحشة: ما عظُم قُبْحُه(٣).

وقال الحسن: هم عبدة الأوثان، والفاحشة: الشرك(٤).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: وقال الحسن: قالوا: لو كَره الله ما نحن فيه لنَقَلنا عنه، فهو أمرٌ منه لنا به(٥).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٤/ ٣٩٧)، وفي كلامه بعض اختلاف مع زيادة.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٨٩ ـ ١٩٠)، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٩٩) هكذا: كانوا يقولون: لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه، وعن الحسن: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله، وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٣٠)

(٤) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٢/ ٢١٦)

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٧).

وقيل: توهَّموا أن آباءهم كانوا عليه بأمرِ الله تعالى.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والسُّدِّي: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ هي إبداء السوءات في الطواف(١).

قال الشاعر منهم ـ وقيل: هو من قول امرأةٍ منهم ـ:

اليـومَ يبـدو بعضُـه أو كـلُّـه ... وما بـدا منـه فـلا أُحِلُّـه(٢)

وقال الكلبيُّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾: هي(٣) تحريمُ البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحامي، قالوا: هو دين آبائنا وأجدادنا نتَّبعها والله أمرنا بها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: هي الفاحشة(٤)، وهي الفعلة التي ثبت قبحُها من كلِّ وجهٍ عقلًا وسمعًا، ودلَّ على ثبوت قبح الأشياء قبل ورود السمع، ولو كان القبح لا يثبت قبل ورودِ السمع لكان ما يُؤمر به لا يكون قبحًا، فلا معنى لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ولو أَمر به لم يكن فاحشةً.

وقولـه تعالـى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: أتدَّعـون أن الله أمَـر بهـا، وأمـرُ الله تعالـى يُعرف ببيان رسـله أو الذِّكرِ في كتابـه، وأنتم لا تُقرُّون برسـولٍ ولا كتـاب، فكان هـذا دعوَى بجهلٍ، وهذا اسـتفهامٌ بمعنـى التوبيخ.

وقال القشـيريُّ رحمه الله: اسـتَرْوَحوا في التعلُّل إلى سـلوكِهم نهجَ أسلافهم،

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٧)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ١٣٧)، «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٣٢)، قال السهيلي: ويُذْكَرُ أنَّ المرأةَ ضُبَاعةُ بنتُ عامرٍ مِن بني عامرِ بنِ صَعْصَعةَ، ثم من بني سَلِمةَ بنِ قُشَيْرٍ. انظر: «الروض الأنف» (٢/ ٢٩١).

(٣) في (ف) و(أ): «هو».

(٤) في (أ): «كالفاحشة».

فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ، فزلَّت بهم أقدامُ الغرور، فوقعوا في هذه المحنة[١].

* * *

(٢٩) - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل، وهو التوحيدُ، لا بما قلتُم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ولمَّا كان الشركُ ظلمًا بالنصِّ كان التوحيد عدلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي: وجِّهوها إلى الله تعالى دون الأصنام، ومنه قول المصلِّي: إني وجَّهتُ وجهي للذي فطَر السماوات والأرضَ حنيفًا.

قوله ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: موضعِ سجودٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي: واعبدوه؛ كما قال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء: ١١٧].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾: بلا إلهَ إلا اللهُ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى الكعبة حيث صلَّيْتُم.

وقال الضَّحَّاك: ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالتوحيد[٢].

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجدٍ فصلُّوا فيه، ولا يقولَنَّ أحدكم: أصلِّي في مسجدي، وإذا لم يكن عند مسجدٍ فليأتِ أيَّ مسجدٍ شاء ولْيصلِّ فيه ﴿وَادْعُوهُ﴾؛ أي: واعبدوه مخلِصين له العبادة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٩)

(٢) انظر القولين في «تفسير الثعلبي» (١/ ٢٢٧)

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: أي: خلقكم. ابْتَدَأ وبَدَأ وأَبْدَأ بمعنًى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

واتصال هذا بما قبله: أنه يقول: أخلِصوا الطاعةَ له فإنكم مبعوثون مَجْزِيُّون على أعمالكم، ثم ذكر الحجة على الإعادة وهو قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

* * *

(٣٠) - ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: قيل: نصب ﴿فَرِيقًا... وَفَرِيقًا﴾ على الحال للعَود، ولذلك قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كما بدأكم تعودون سعيدًا وشقيًّا[١].

وفي رواية قال: مؤمنًا وكافرًا كما بدأكم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢][٢].

وقال السُّدِّي: تعودون ضُلَّالًا ومهتدين[٣]. وقيل غيرُ ذلك.

وقال قتادة: بدأهم من التراب ويعودون إلى التراب، ثم يبعثون من التراب[٤].

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢١٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٢). ولعل هذا القول والذي قبله واحدٌ، لكن الماوردي ذكره بالمعنى تأثراً بما قدم له الطبري حيث قال: (قال بعضهم: تأويله: كما بدأكم أشقياء وسُعَداء، كذلك تبعثون يوم القيامة، ذكر من قال ذلك...)، ثم رواه عن ابن عباس بهذا اللفظ الثاني.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٤).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٦) بلفظ: (بَدَأَ خَلْقَهم =

وقال الربيع بن أنس: كما بدأكم عُريًا تعودون إليه عُريًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤][1].

وقال الحسن: كما بدأكم أحياءً تعودون أحياءً بالبعث[2].

وقيل: ﴿فَرِيقًا... وَفَرِيقًا﴾ نُصبا بقوله: ﴿بَدَأَكُمْ﴾.

وقيل: تم الكلام بقوله: ﴿تَعُودُونَ﴾ ثم قال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ فنصَبه بـ﴿هَدَىٰ﴾، **وقوله تعالى**: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ نُصب بتقديرِ فعلٍ متأخِّر عنه وهو: أَضَلَّ، فإنَّ قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ معناه: أضلَّهم، وهو كقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى: ٨] ﴿مَن﴾ نُصب بـ﴿يُدْخِلُ﴾، ثم قال: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١] نصَبه لتقدير أحد الفعلين؛ إما: يدخل الظالمين في عذابه، أو: يعذِّبُ الظالمين عذابًا أليمًا، وإنما حُمل على الفعل المقدَّر دون الظاهر تصحيحًا للمقابَلة، وهي من أقسام البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: يطيعونهم ويتولَّونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: هم عند أنفسهم مهتدون، وليسوا كذلك وذُمُّوا بذلك، فدلَّ أن الحجة والدليلَ يلزم وإنْ لم يُعْرف بعدُ أن يكون العبد بسبيلٍ من الوصول إلى ذلك[3]، وهذا يردُّ قولَ مَن يقول: إن فرائض الله تعالى لا تلزمُ العبدَ إلا بعد العلم بها[4].

= ولم يكونوا شيئًا، ثم ذهبوا ثم يُعيدُهم).

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٨)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٣) بلفظ: (كما خلَقناكم كذلك تَعودون، تَخرجون من بطون أمهاتكم).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٥).

(٣) في «التأويلات»: (وإن لم يُعرف بعد أن كيف يكون سبيل الوصول إلى ذلك).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٠٤)

وقال في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: اجعلوا عبادتكم لله ولا تشركوا به شيئًا.

وقيل: أي: أقيموا دِينكم لله، ومنه قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ أي: يخلِصْ دِينه.

ويجوز أن يكون الوجه عبارةً عن النفس، ومعناه: أقيموا أنفسَكم لله، وقيل على هذا في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومَن يجعلْ نفسَه سالمًا لله(١).

والآية حجة على المعتزلة في مسألة الهداية والإضلال.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إشارةٌ منه إلى استدامة شهوده في كلِّ حالة، وأنْ لا ينساه لحظةً في كلِّ ما يأتيه ويَذَرُه ويقدِّمه ويؤخِّره.

وقال في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: مَن كانت قِسمتُه منه سبحانه وتعالى له بالسعادةَ(٢) كانت فطرتُه على السعادة، ومن كانت فطرتُه على السعادة كانت حالتُه بنعت السعادة، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة. ومَن كانت قسمتُه بالضدِّ فالحالةُ(٣) بالضد.

وقال: جملةُ العلم بالقضاء والقَدر: أن(٤) يتحقَّق أنه عَلِم ما يكون أنه كيف يكون، وكما عَلِم الحادثات أن تكون أراد به(٥) أن تكون كما عَلِم بأنْ تكون(٦)، وما

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٠٢)

(٢) في (ف): «من كانت قسمته على السعادة».

(٣) في (أ): «كانت حالته».

(٤) في (ر): «أنه».

(٥) في (ف): «أراد بها» وفي (أ): «وأراد به».

(٦) في (أ): «أن تكون»، وليست هذه العبارة في (ف).

عَلِم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون، وكما أراد أن يكون أو لا يكون أخبر أنه يكون أو لا يكون، وعلى الوجه الَّذي أخبر قضى على العبد وقدَّر(١).

* * *

(٣١) - ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: أي: لباسَكم، في المساجد كلِّها مع المسجد الحرام، وكانوا يتعرَّون عنده في الطواف، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بأخذ اللباس للصلاة في المواضع كلِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: أي: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ ما أَحلَّ الله ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: ولا(٢) تجاوزوا حدَّ الشرع بتحريمِ ما أَحلَّ الله من البَحيرة والسائبة ونحوِ ذلك.

وقال طاوسٌ: لم يأمرهم بالحرير والديباج، ولكن كان أهل الجاهلية يطوف أحدهم بالبيت عُريانًا ويَدَع ثيابه وراء المسجد، فإن طاف وهي عليه(٣) ضُرب وانتُزعت منه، فنزلت الآية(٤).

وقال الكلبيُّ: إن بني عامر من أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراةً؛ الرجالُ بالنهار والنساءُ بالليل(٥)، وكانوا إذا قدِموا مسجدَ منى طرح أحدهم ثيابه في رَحْله،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٢٩ - ٥٣٠)

(٢) في (ر) و(ف): «أي لا».

(٣) في (ف): «وهو لابس».

(٤) انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ٣٦٣).

(٥) في النسخ: «الرجال والنساء بالنهار»، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ١٥٠) =

وهم قريشٌ وكنانةُ وخُزاعةُ[١]، وكانوا لا يصلُّون في ثيابهم، ويقولون: لا نصلِّي في ثيابٍ [٢] أذنبنا فيها، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتًا، ولا يأكلون دسِمًا في أيام حجِّهم يعظِّمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: يا رسول الله، نحن أحقُّ بذلك أن نفعل[٣]، فنزلت الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وكلوا اللحم والدسم ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أحلَّ الله الأكلَ[٤] والشرب ما لم يكن في سرفٍ ولا مَخِيلةٍ[٥].

= رواية عن ابن عباس، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٤٦١) رواية عن محمد بن كعب القرظي، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٩) نقلاً عن المفسرين، وكذا جاء في «تفسير السمعاني» (٢/ ١٧٤)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٢٢)، وغيرهما.

(١) قوله: «وهم قريشٌ وكنانةُ وخُزاعةُ»، كذا وضع هؤلاء ضمن مَن يطوفون عراة، والصواب عكسه، فقد روى البخاري (١٥٨٢)، ومسلم (١٢١٩) عن عروة قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء. وكذا جاء في «تفسير السمعاني» (٢/ ١٧٤) عن الزهري: كانت العَرَب يطوفون كذلك عُرَاة إلَّا الحمس، وهم قريش وأحلاف قريش، كانوا يطوفون في ثيابهم، وسموا حمساً؛ بشدتهم في دينهم، ومنه الحماسة لشدتها. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٥٤)، وروى (٣/ ٥٢٥) عن عروة قال: والحمس: ملة قريش وهم مشركون، ومن ولدت قريش في خزاعة وبني كنانة.

(٢) في (ف): «أثواب».

(٣) في (ف): «فنحن نفعل كما يفعلون» بدل: «نحن أحق بذلك أن نفعل».

(٤) في (أ): «﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ فيما أحل الله من الأكل».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٩) عن الكلبي بلفظ: (كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلاّ قوتا، ولا يأكلون دسماً في أيام حجِّهم يعظِّمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: يا رسول الله، نحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ﴾ يعني: اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يعني: الحرام). ومثله في «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٢٦)، لكن أوله: (كان أهل الجاهلية...).

وقيل: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾: هو التجمُّل بأجودِ ما يكون، وهو أجودُ[١] ما يجد إذا قصَد المسجد؛ تعظيمًا له، ولذا سُنَّ التجمُّل[٢] في الجُمع والأعياد.

وعن عطية العوفي وأبي رَوق: أن الزينة هي المشط[٣]، وهو ضربٌ من الزينة.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: إنه نهيٌ عن الأكل والشرب في وقت الحظرِ، ومِن مال الغير بدون الإذن، وتناولِ ما وراء الحاجة.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كُلْ ما شئتَ، والْبَسْ ما شئتَ، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ[٤].

وقيل: الإسراف: الإنفاقُ في المعصية.

وقال مجاهد: لو أنفقتُ مثلَ أحدٍ في طاعة الله تعالى لم يكن سرفًا، ولو أنفقتُ درهمًا أو مدًّا في معصية الله لكان إسرافاً[٥].

وقيل لبعض السلف: لا شَرَف في السَّرَف، فقال: لا سَرَف في الشَّرَف.

وقيل: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ أي: لا تُشركوا بالله غيرَ الله وأنتم تأكلون وتشربون من رزق الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: لأنه لا يحب الإسراف، فإنْ حُمل هذا على إسراف المسلم فإن الله لا يحبُّه لإسرافه ويحبُّه لإسلامه، وإنْ حُمل على الشرك فإنه لا يحبُّ المشرك مطلَقًا بل يبغضه مطلقًا.

---

(١) «ما يكون وهو أجود» من (ف).

(٢) في (أ): «التزيين»، وفي (ف): «التزين».

(٣) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٩).

(٤) علقه البخاري قبل الحديث (٥٧٨٣)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٨٧٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٥).

وحُكي أن الرَّشيد كان له طبيبٌ حاذقٌ نصرانيٌّ، فقال لعليِّ بن الحسين بن واقدٍ: ليس في كتابكم من علم الطبِّ شيءٌ، والعِلم عِلمان: علمُ الأديان وعلمُ الأبدان، فقال له علي بن الحسين: قد جمع الله الطبَّ في كلمةٍ واحدةٍ من كتابه، قال: وما هي؟! قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني: ولا يُؤْثَر عن رسولِكم في الطبِّ شيء؟ فقال: قد[١] جمع رسول الله ﷺ الطبَّ[٢] في خبرٍ واحد، قال: وما هو؟! قال: «المعدةُ بيتُ الدَّاء[٣]، والحميةُ رأسُ كلِّ دواء، وأعطِ كلَّ بدنٍ ما عوَّدْتَه»، فقال النصرانيُّ: ما ترك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوس طبًّا[٤].

وقال النَّبي ﷺ: «أَقِلُّوا التَّعَرِّيَ، فإنَّ معكم مَن لا يفارقُكم إلا عندَ الغائطِ، وحين يُفضي الرجلُ منكم إلى أهله، فاستَحْيُوهم وأكرِموهم»[٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ

---

(١) «قد» من (ر).

(٢) بعدها في (ر): «كله»، وليست في المصادر.

(٣) في (ف) و(أ): «الأدواء».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٣٠)، و«غرائب التفسير» للكرماني (١/ ٤٠٢)، و«الكشاف» (٢/ ١٠٠)، و«زاد المسير» (٣/ ١٨٨). قال ابن الجوزي: (هكذا نقلتُ هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يثبت). وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٦٤) عن القصة: (لم أجد لها إسناداً) وعن المرفوع: (لم أجده). وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٣٨٩): (لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره). وجالينوس فيلسوف يوناني له كتب في صناعة الطب وغيرها، وكان ـ كما ذكر المسعودي ـ بعد المسيح بنحو مئتي عام، وبعد بقراط بنحو ست مئة سنة. انظر: «أخبار العلماء» للقفطي (ص: ٨٦).

(٥) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٣٤٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مَسۡجِدٖ﴾؛ أي: صلُّوا في كلِّ مسجدٍ ولا تخصُّوا بالصلاة مسجدَ حيِّكم، والزينةُ نفسُ الصلاة، فإن العبادة زينةُ كلِّ عابدٍ[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: زينة العبدِ بحضور الحضرة، ولزومِ السُّدَّة، واستدامةِ شهود الحقيقة.

قال: ويقال: زينةُ نفوس العابدين آثارُ السجود، وزينة قلوب العارفين أنوارُ الوجود، فالعابد على الباب بنعتِ العبودية، والعارف على البساط بحُكم الحُرمة[2].

***

(٣٢) ـ ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾: استفهام بمعنى الجحدِ، ثم أمَر رسولَ الله ﷺ أن يوبِّخهم على الإسراف الذي نهَى عنه في الآية الأولى، وهو تحريم ما أحَلَّ الله من الطعام واللباس، والزينةُ بمعنى: المزيَّن، كالشهوة تذكر ويراد بها المشتهى.

و﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾: ما جعله زينةً لعباده وإباحهُ في شرعه.

و﴿أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: أَوجَد، وقيل: أَظهر.

وقيل: هو على حقيقته؛ لأنه كان في السماء أو في الأرض فأخرجه منهما لهم.

وجواب هذا السؤال متروكٌ؛ لأنه لا جواب لهم يصحُّ؛ لأنهم إن أضافوا التحريم إلى آبائهم، فليس إليهم ذلك، وإن أضافوه إلى الله فلا دليلَ لهم عليه؛ إذ لا تحريم من الله في كتابٍ ولا على لسانِ رسولٍ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥)

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٠)، وفيه: (بحكم الحرية).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ﴿هِيَ﴾ ترجع إلى الزينة والطيبات جميعًا لأنها للجمع؛ أي: هي للمؤمنين على الأصالة، وللكفار بطريق التبعيَّة، كما قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، ثم هي في الجنة على الخلوص للمؤمنين لا يَشْركهم فيها غيرُهم وذلك قوله تعالى:

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قرأ نافع: ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع بـ﴿هِيَ﴾، وقرأ الباقون بالنصب على الحال[1].

وقيل: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ صلةُ قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: المؤمنون في الدنيا لهم الطيباتُ على الخلوص في العُقبى، يقول للمشركين: استَبيحوا ما أخرجتُ لكم من ذلك في الدنيا واشكروا لي على النعم ولا تحرِّموها، فإنْ خالفتم أمري استباحها المؤمنون في الدنيا ثم يَخْلص ذلك لهم في العُقبى ولا شركة لكم معهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: كما نبيِّن لكم هذه الأحكامَ في الحلال والحرام[2]، نبين لكم جميعَ ما بكم حاجةٌ إليه من شرائع الإسلام.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال ابن كيسانَ[3]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي اللباس، كما مر في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

وقال الحسن: هي المراكب؛ كما في قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾: ألبانُها ولحومُها، وكانوا يحرِّمون ركوبها وأكلَها والشربَ من لبنها[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٢) «في الحلال والحرام» ليس في (أ).

(٣) كذا قال، والذي في «التأويلات»: (أبو بكر الأصم).

(٤) في (ف) و(أ): «والشرب منها».

قال: وقال بعض أهل التأويل: الزينة هي النبات[1] وما يخرج من الأرض رزقًا للبشر والدوابِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤][2].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: زينةُ القاصدينَ تركُ العادة، وزينةُ العابدين حسنُ العبادة، وزينةُ اللسان الذِّكرُ، وزينة القلب الفِكرُ، وزينة الظاهر السجود، وزينة الباطن الشهود، وزينة النفس حُسن المعاملة، وزينة الروح دوامُ المواصلة[3].

***

(٣٣) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: أي: لم يحرِّم الزينةَ والطيبات، وإنما حرَّم القبائح كلَّها ظاهرَها وباطنها.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانوا لا يَرَونَ بالزنا سرًّا بأسًا، وكانوا يستقبحونه علانيةً، فنُهوا عنهما جميعًا[4].

وقال قتادةُ ومجاهدٌ: الظاهر نكاحُ الدوابِّ، والجمعُ بين الأختين والأمِّ وابنتِها ظاهرًا، والباطن الزنا[5].

---

(١) في (ف): «الثياب».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٠٧)

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٠)، وفيه: (بحكم الحرية).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٩).

(٥) رواه عن مجاهدٍ ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٠)، والنحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١٨ و٦٦١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا =

وقال الكلبي: الظاهر الزنا، والباطن الـمُخالَّة.

وقال مجاهد الظاهر التعرِّي في الطواف، والباطن الزنا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾: أي: الذنبَ بينك وبين الله تعالى فيما دون الزنا مما لا يُوجب الحدَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: الاستطالةَ على الناس بغيرِ انتصافٍ يكون من الظالم[2].

وقال الحسن: الإثم: الخمر، من قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والبغي: الاعتداء[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي: حجةً؛ أي: الشركُ يكون بهذه الصفةِ بكلِّ حالٍ ـ إلا أنْ يكون من الشرك ما به سلطانٌ؛ أي: حجةٌ، وهو كما يقال: اجتنِبِ الخمر المذهِبةَ للعقل ـ ليس هو للتمييز بل هو للتحقيق أنه أبداً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من تحريم هذه الأشياء التي تحرِّمونها من الحرث والأنعام.

وقال عطاء: هو قولهم: الملائكةُ بنات الله[4].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: الكبائر؛ لظهور قبحها عقلًا

= ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٦٣).

(٢) في (ر) و(ف): «من المظالم».

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٦).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٠٩) من طريق عطاء عن ابن عباس.

وشرعًا ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾: الصغائر ﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾: هو أخذُ ما عُصم من مالٍ أو نفسٍ، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو كقولِهِ ﷺ: «فإذا قالوها عصَموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقها»(١)، وقولُه: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ أي: عذرًا وهو الإكراه ونحوُه، فإنه قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦](٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ما ظهر منها: الزلةُ، وما بطن منها: الغفلةُ.

ويقال: ما ظهر منها: ارتكاب المنهيِّ، وما بطن منها: خُطورُها بالبال.

ويقال: ما ظهر منها: هو ما كان ببيان الشريعة، وما بطن منها: هو ما كان بإشارة الحقيقة.

ويقال: فاحشةُ الخواصِّ: تتبُّعُ ما لأنفسهم فيه نصيبٌ.

ويقال: فاحشةُ المحبِّ: الصبرُ عن المحبوب.

ويقال: فاحشةُ قومٍ أن يلاحظوا الغيرَ بعينِ الاستحسان، وقال قائلهم:

يا قرةَ العين سَلْ عيني هل اكْتَحلَتْ ... بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن عيني(٣)

ويقال: فاحشةُ قوم أن تَبقَى لهم قطرةٌ من الدمع لم يسكبوها للفُرقة، أو يبقَى لهم نفَسٌ ولم يتنفَّسوا [به] في حسرة، وفي معناه أنشدوا:

لئن بقِيَتْ(٤) في العينِ مني دمعةٌ ... فإني إذاً في العاشقِينَ دخيلُ(٥)

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤١١ ـ ٤١٢).

(٣) في (ر): «بصري»، والمثبت موافق لما في «اللطائف».

(٤) في (أ): «نفيت».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٣٤) - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي: ولكلِّ أمةٍ مكذِّبةٍ للرسل مشركةٍ بالله مدةٌ معلومة عند الله[1] يوقِع بها العقوبة عندها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون، فكذلك أهلُ عصرك يا محمدُ.

ودلَّت الآية أنَّ الأجَل واحدٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وقيل: أجلُهم أن يبعث إليهم رسول فيكذبوه معاندِين، فيَهْلكون عند ذلك ويعذَّبون، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥][2].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لكل أمةٍ[3] مدةٌ، فإذا تناهَت تلك المدةُ زالت تلك الحالة راحةً كانت أو شدةً، وإذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار، فلا يزداد بعده إلا تراكمُ الظُّلمة، وإذا ارتحل عسكرُ الظلام لطلوع الشمس، فبعد ذلك لم يبق لتعالي النهار تهمة[4].

* * *

(٣٥) - ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «عنده».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤١٢)

(٣) في (ف) و(أ): «قوم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾: (إمَّا) كلمتان: (إنْ ما)[١]، (إنْ) للشرط و(ما) للتأكيد، والنون في آخره تأكيدُ الشرط على وجه القسم.

قيل: هذا معنى قوله لآدم ومَن معه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]؛ لأن خطابه يومئذٍ كان خطابًا لآدم وذريتِه، ولذلك جمعهم في الذكر.

وقيل: هذا كان خطابًا لهم حين أَخْذ الميثاق.

وقال مقاتل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هذا خطابٌ لمشركي العرب ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ يعني محمدًا وحده، وسماه باسم الرسل تشريفًا له، وقوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ أي: يتلون عليكم القرآن[٢].

وعلى القولين الأوَّلين قوله: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ معناه: وإن يأتكم ومتى يأتكم أنبياءُ من جنسكم ومن عشيرتكم ـ وهو أدعى إلى الألفة[٣]، وأبلغ في الثقة ـ وهم يحدِّثونكم بآياتي التي أوحيتُ إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾: أي: اتَّقى الشركَ والمعاصيَ وأصلحَ العمل في الإسلام.

وقيل: أصلح ما كان أفسده قبلَ ذلك؛ أي: جاء بها على ما يَصلح في الدين دون ما لا يَصلح؛ أي استبَدل النكاحَ بالسِّفاح، وأكلَ الحلال بأكلِ الحرام، والعقود الصحيحة بالفاسدة، والصلاةَ بأركانها وآدابها دون الصلاةِ بالمكَاء والتَّصْديَة ونحوِ ذلك.

---

(١) «إن ما» ليس في (أ) و(ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٥).

(٣) في (ف): «وهو إلى الألفة أقرب».

وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: أي: من الوقوع في العقوبات[١] ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفواتِ الثواب، وهذا لا يبطل مخافات القيامة[٢] لأن المراد به العاقبة وهو كقول الطبيب يقول[٣] للمريض: لا بأس عليك ولا خوفَ، وإن كان في وجعٍ وضعف.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: خلافَ مَن اتَّقى وأصلح ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: أي: تعاظَموا عن قبولها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا وعيدُ المخالفين، والأول وعدُ الموافقين، و(لا خوفٌ عليهم) ذُكر على الجمع ـ مع أن الشرط في الواحد ـ لأن معناه الجمع.

* * *

(٣٧) ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: ثم أخبر عن هؤلاء الذين يخلَّدون[٤] في النار أنهم هم الذين أَوردوا أنفسهم النار بظُلمهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أظلمُ ممن افترى ـ أي: اختلَق ـ على الله كذبًا.

---

(١) في (ف): «العقاب».

(٢) في (ف): «المخالفات» بدل: «مخافات القيامة».

(٣) «يقول» من (أ).

(٤) في (أ) و(ر): «خلِّدوا».

قال الكلبي: أي: جعل له صاحبة وولدًا.

وقيل: أضاف إليه تحريمَ ما لم يحرِّمه أو إحلال ما لم يحله.

وقيل: قال: إن الله أمرنا بها، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ قال الكلبي: بمحمدٍ والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: أي: هؤلاء مع نهايةِ ظلمهم ـ وهو وضعُ الشيء غير موضعه، ووصفُ الله تعالى بما لا يليق به، والإضافةُ إليه ما ليس منه ـ لا يَحرِمُهم في الدنيا ما كتب لهم في الكتاب[١]، بل يَصلُ إليهم حظُّهم بما كتب لهم من الرزق، فيمتَّعون في الدنيا بما كُتب لهم في الكتاب السابق، حتى إذا انقضت آجالهم وحضَرهم ملائكة قبض الأرواح وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، وهو بسطُ قول الربيع بن أنس: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: ما كتب لهم من الرزق[٢].

وفيه أقاويلُ أُخَرُ للمفسرين:

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: ما كتب[٣] من الأعمال والأعمار والأرزاق[٤].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: أنهم يعملون من خيرٍ أو شرٍّ ويُجزون بكلِّ ذلك[٥].

---

(١) «في الكتاب» من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٤).

(٣) «ما كتب» ليس في (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٥).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٣).

وقال مجاهد: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ما وُعدوا في الكتاب من خيرٍ أو شرٍّ[(١)].

وعن مجاهد في رواية: الأعمال التي لم يعملوها بعد لا بد لهم من أن يعملوها[(٢)].

وقال عطيةُ العوفي: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: من السعادة والشقاوة، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠][(٣)].

وقال الكلبي: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من العذاب[(٤)].

وقال السدِّي: زرقةُ العيون وسوادُ الوجوه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠][(٥)].

وقال الزجَّاج: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ما أخبر الله تعالى من جزائهم: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١][(٦)].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾: ملك الموت وأعوانه من الملائكة ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: يقبضون أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تعبدون من الأصنام ترجون شفاعتهم ومعونتَهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧١).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٩/ ١١٥). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧٠) بلفظ: (ما سبق لهم في الكتاب). وبنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٤).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١١٣).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١١٤)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٧). ووقع بعدها في (ف): «وكذا قال الكلبي».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: أي: افتقدناهم فما نرى لهم أعيانًا، ولا نرجو منهم مودة[١] ولا أعوانًا.

وقيل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأكابرُ الذين كنتم تستعينون بهم ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: شُغلوا عنا بأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾: أي: اعترفوا بكفرهم بلفظة الشهادة التي هي لتحقيق الخبر.

***

(٣٨) - ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾: أي: يقول الله تعالى لهم على ألسنة ملائكته يوم القيامة مُعْلِمين لهم بما يقعون فيه: ادخلوا[٢] في جملةِ مَن كان قبلَكم من كفَّار الجن والإنس الذين هم[٣] في النار.

وقال مقاتل: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: مع أمم؛ كما في قوله: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾[٤].

والإمام أبو منصور رحمه الله يقول في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: يحتمِلُ أنه أراد به خزنة جهنم، ومعنى ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: يعذِّبونهم

---

(١) في (ف) و(أ): «معونة».

(٢) في (أ): «فيما دخلوا» بدل: «فيه: ادخلوا».

(٣) «الذين هم» ليس في (ف).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤١) و(٤/ ٢٢).

بما فيه شدائدُ الموت[١] وإن كانوا لا يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧][٢].

فعلى هذا تكون الآيتان جميعًا في ذكر حالهم يومَ القيامة، وعلى التأويل الأول تكون الأولى في الدنيا والأخرى في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾: أي: دخلت النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾؛ أي: الأمَّةَ التي هي مثلُها في الدين ممن سبق إليها، وهي مجاز كما في قوله: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

وقال مقاتل: يلعن المشركون المشركين، واليهودُ اليهودَ، والنصارى النصارى، ويَلعن الأتباعُ القادة[٣].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾؛ أي: دَعَت على الأمة التي دخلت قبلها النارَ[٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾: أصله: تدَاركوا، وتفسيره: تلاحَقوا، ومعناه: اجتمعوا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾: أي: المتأخِّرون للمتقدمين: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾؛ أي: هم كذَّبوا الأنبياء فاتَّبعناهم في ذلك، فلو صدَّقوهم لصدَّقناهم.

ويقولون أيضًا: إنهم دَعَونا إلى ذلك وأمرونا به، قال تعالى خبرًا عنهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

---

(١) في (ر): «العذاب».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤١٧)

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٢١).

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: أي: يا ربنا أضعِفْ لهم العذاب؛ أي: عذِّبهم عذابًا مكرَّرًا زائدًا على عذابنا بضلالهم وإضلالهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾: أي: لكلٍّ منكم ومنهم عذابٌ مضاعَفٌ مكرَّر لا ينقطع؛ لاشتراككم في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾: قرأ عاصم في رواية أبي بكر بياء المغايبة[1]، ومعناه ما قال مجاهد: لكلٍّ ضعفٌ من القادة والرؤساء على عذابِ السَّفِلة والأتباع، ولكن لا يعلمُ الأتباع، ولو علموا لكان لهم فيه تسلٍّ وخفَّةٌ ونوعُ سرور[2]، وليس لهم شيءٌ من ذلك.

وقال الكلبي: إن أهونهم عذابًا يَرى أنه ليس في النار أشدُّ عذابًا منه.

وقرأ الباقون بتاء المخاطبة لهؤلاء المعذَّبين، ومعناه: لا علم لكم به في الحال.

وقال عطاء: لا علمَ لكم به في الدنيا حتى يَحلَّ بكم ذلك في الآخرة.

وقيل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا عذرَ لكم ولا حجةَ ولا خفَّة بسبب تقدُّمهم وتأخُّركم؛ إذ الحجةُ قائمةٌ عليكم كلِّكم.

وقيل: أي: لا تعلمون أنتم ما عليهم لشدَّة ما عليكم.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠). وقرأ الباقون بالتاء كما سيأتي.

(٢) في (أ): «وخفة وسرور».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: أي: في عقلٍ وتدبُّرٍ، فإنكم سمعتُم ما نزل[1] من المثُلات فلم تعتبِروا.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: من الكفر كما نحن نذوقُه بكَسْبنا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الأُولى والأخرى يحتمِلُ أن يكون المراد به: في الزمان؛ أي: في الأمم المتقدِّمة والمتأخرة، ويحتمِل أن يكون المراد بالأولى: القادةَ الذين دخلوا النار أولًا، والأخرى: الأتباعَ الذين دخلوا آخِرًا، وقوله: ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ دليلٌ على أن الكفار إخوةٌ بعضُهم لبعض كما أن المؤمنين إخوة بعضهم لبعض[2].

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾: فسَّرناه في هذه السورة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾: قرأ أبو عمرو: ﴿تُفْتَحُ﴾ بتاء التأنيث مخفَّفًا؛ لأن أصل الفعل الفتحُ والأبوابَ جمع.

وقرأ حمزة والكسائي بياء التذكير مخفَّفًا لتقدُّم الفعل.

وقرأ نافعٌ وعاصمٌ وابن عامر[3] [وابن كثير] بتاء التأنيث والتشديد[4]، من

---

(١) في (ر) و(ف): «ترك».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤١٨ ـ ٤١٩)

(٣) في (ر) و(ف): «وقرأ الباقون».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠)، وما بين معكوفتين منهما.

التفتيح وهو التكريرُ والتكثير، ومعناه: لا تفتَّح لهم أبواب السماء المعروفةِ لأرواحهم إذا ماتوا.

وروَى البراءُ بن عازب وأبو هريرةَ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في حديثٍ طويلٍ: أن روح الكافر يُستفتحُ لها في السماء فلا يُفتح وتردُّ إلى سجِّينٍ[١].

وقيل: أي: لا تُفتح لهم أبواب السماء لرفع الأعمال كما تُفتح للأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] بل يُردُّ عملُه[٢] إلى سجِّين، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المطففين: ٧]، وقال: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، وهو قول ابن عبَّاس والكلبي رضي الله عنهم[٣].

وجمع بينهما أبو العالية فقال: لا تُفتح[٤] أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: أراد بها أبواب الجنان، فإن الجنة في السماء قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]؛ أي: في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لا ينفي هذا التأويلَ، ولا يكون للتكرير فإن معناه: لا تفتح لهم أبوابها ولا يدخلونها.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٥٣٤) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) «عمله» من (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٣)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه الطبري أيضاً من طريق عطاء عن ابن عباس. وكلاهما رواه من طريق الضحاك عن ابن عباس بالوجه الأول، ولفظه عندهما: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: عنى بها الكفار، أنّ السماء لا تفتح لأرواحهم، وتفتح لأرواح المؤمنين.

(٤) بعدها في (ف): «لهم».

وقيل: تمثيل لِرفعةِ القَدْر(١)؛ قال النابغة الجَعْدي:

بلَغْنا السماء مجدُنا وفعالُنا(٢) وإنَّا لنرجو فوقَ ذلك مَظْهرا(٣)

وقال أبو تمَّامٍ الطائيُّ:

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتَبْرُزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ(٤)

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ قال ابن عباس: أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة(٥).

والسَّمُّ بفتح السين وضمِّها: ثقب(٦). وقرأ ابن سيرين بالضم(٧)، والعامة بالفتح.

والخِيَاط: المِخْيَط؛ قاله الفرَّاء(٨).

وهو تخييبٌ لهم عن دخول الجنة؛ أي: هذا لا يكون أبدًا كما لا يدخل الجملُ في سَمِّ الإبرة أبدًا، والجمل بحاله والسَّمُّ بحاله.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٢٠)

(٢) في (أ): «رفعًا لنا».

(٣) البيت في «ديوانه» (ص: ٥١ و٦٨)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٣٧ و٦٢٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٨٠)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ١٧٥)، و«العقد» لابن عبد ربه (١/ ٣٠٨)، و«الموشح» للمرزباني (ص: ٣١٠)، واختلفت روايات صدره في المصادر مع بقاء محل الشاهد فيه.

(٤) البيت من قصيدته المشهورة في فتح عمورية.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٩١).

(٦) في (أ): «خرق»، وفي (ف): «خرم».

(٧) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨ ـ ٤٩) عن أبي السمال.

(٨) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٩).

وقرأ ابن عبَّاس رضي الله عنهما: (الجُمَّلُ) بضم الجيم وتشديد الميم[١]، وهو حبلُ السفينة، وهو كبيرٌ غليظ.

وقيل: هو الحبلُ الذي يُصعَد به النخلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: وهكذا نُعاقِبُ المشركين.

* * *

(٤١) - ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال الحسن: ﴿مِهَادٌ﴾: فِراشٌ، و﴿غَوَاشٍ﴾: ظُلَلٌ[٢]، جمعُ غاشيَةٍ وهي المغطِّيَةُ، وهو كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: الظالمين أنفسَهم بالشرك بالله ووضعِهم الشيءَ غيرَ موضعه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كما أحاطت بهم الذنوب في الدنيا فتدَنَّس بالزَّلة ظاهرُهم وبالغفلة باطنُهم، كذلك أحاطت العقوبات غدًا بجوانبهم، فمِن فوقهم عذابٌ ومن تحتِهم عذابٌ، وفي قلوبهم استيلاءُ الوحشة وغلبةُ الدهشة[٣].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨) عن علي وابن عباس، ورواها الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٩٢) من طريق مجاهد عن ابن عباس، وزاد: (وقال: هو حبل السفينة)، وزاد في رواية عكرمة عنه: (قال: الحبل الغليظ). ونسبها أبو حيان في «البحر» (١٠/ ٩٠) لجمع منهم ابن عباس ومجاهد وأبو مجلز وابن يعمر والشعبي وغيرهم.

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٢٣).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٤).

(٤٢) ـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ذكر ثواب المصدِّقين بعد عقابِ المكذِّبين.

و﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ قيل[1]: هو اعتراضُ الكلام قبل التمام، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ جواب: ﴿وَالَّذِينَ﴾.

وقيل: بل هو جوابٌ بعد جوابٍ، وتقديره: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسًا منهم إلا طاقتها من الأعمال الصالحات في الدنيا وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون في العقبى.

***

(٤٣) ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: أي: حقد؛ أي: لا حقد لهم ولا حسد ولا تنافُس.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: هم في مواضعَ في غاية النزاهة والطِّيب، وقد زال عنهم الحسدُ فلا يتنافسون بتفاوت المنازل، ولم يبقَ ما كان بينهم في الدنيا من خشونةٍ وأذًى.

---

(١) «قيل» ليس في (ف).

قال قتادة: قال عليٌّ رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبير من أهل هذه الآية[١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هم المؤمنون من الصحابة وغيرِهم؛ يكونُ بينهم العداوةُ في الدنيا فيموتون على ذلك فيغفرُها[٢] الله لهم، فإذا أَدخلهم الجنة نزع ما كان في قلوبهم من غلٍّ فصاروا إخوانًا على سُررٍ متقابلين[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ قال سفيان الثوري: أي: لعملٍ هذا ثوابُه[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾:

قيل[٥]: أي: بالصِّدق.

وقيل: أي: بما هو حقٌّ في العقول وصوابٌ.

وقيل: أي: بالدِّين الحقِّ الذي يستحقُّه على عباده، وهذا بيانٌ منهم لاعتقادهم، وشكرٌ[٦] لله تعالى على إرشادهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: تناديهم الملائكة: أنْ تلك الجنة التي أُخبرتم عنها في الدنيا هي هذه أَوْرثَكُموها الله؛ أي: أعطاكم بأعمالكم، وهي إيمانُهم وطاعاتهم، وسمَّاها ميراثًا لأنه ليس مما يُستحق

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

(٢) في (ف): «فيغفر».

(٣) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٣٢).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٣٤)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ١٤٠).

(٥) «قيل» من (أ).

(٦) في (ف): «وشكرهم».

بالعمل، بل هو محضُ فضل الله تعالى وَعَدهم على[١] الطاعات؛ كالميراث من الميت لا يكون عوضًا مستحَقًّا عن شيء بل هو عطيةٌ خالصة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعض الناس: إن المعتزلة خالفوا الله تعالى فيما أَخبر، وخالفوا الرسلَ فيما أَخبروا عن الله تعالى، وخالفوا أهل الجنة والنار، وخالفوا إبليس:

أما مخالفةُ الله: فإنه قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

وأما مخالفة الرسل: فقد قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وأما مخالفة أهل الجنة: فقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وأما مخالفة أهل النار: فقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وأما مخالفة إبليس: فقول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] فهو أعلم بالله من المعتزلة[٢].

وقال مقاتل رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: وذلك أن أهل الجنة لمَّا انتهوا إلى باب الجنة إذا هم بشجرةٍ تنبع من ساقها عينان، فيميلون إلى إحداهما فيشربون منها، فيُخرج الله تعالى ما كان في أجوافهم من غلٍّ وقَذَر فيُطهِّر أجوافهم بذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، ثم يميلون إلى العين الأخرى فيغتسلون منها، فيطيِّب[٣] الله تعالى أجسادهم من كلِّ

---

(١) في (ر): «وعده من».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٢٧)

(٣) في (أ): «فيطهر»، والمثبت موافق لما في «تفسير مقاتل».

دَرَنٍ، وجَرت عليهم النُّضرة فلا تَشعَّثُ رؤوسُهم ولا تَغْبرُّ[١] وجوههم ولا تَشْحبُ أجسادهم، ثم تبشرهم خزنةُ الجنة قبل أن يدخلوها فينادونهم: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلما استقروا في منازلهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: لدِينه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾: بأنَّ هذا اليوم حقٌّ، فصدَّقناهم[٢].

وقيل: لمَّا لم ينظروا إلى أعمالهم بل ذكروا منَّة[٣] الله تعالى بالهداية، ذكر الله أنهم وَرِثوها بأعمالهم فحصل[٤] لها قيمة.

***

(٤٤) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾:

قرأ الكسائي: ﴿نَعِم﴾ بكسر العين[٥]؛ لِمَا رُوي عن أبي عثمان النهديِّ: أن عمر رضي الله عنه سألهم عن شيء، فقالوا: نَعَم، فقال: إنما النَّعَم الإبل، فقولوا: نَعِم[٦].

---

(١) في (ر) و(ف): «تتغير»، والمثبت موافق لما في «تفسير مقاتل».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٣) في (ف): «نعمة».

(٤) في (ر) و(ف): «فجعل».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠). وقرأ الباقون بفتح العين كما سيأتي.

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٠٣). وعزاه ابن عطية لكتاب أبي حاتم، وأبو حاتم هو سهل بن محمد السجستاني، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين، وروى عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي =

وقرأ الباقون: بفتحها، وهي لغةُ أهل الحجاز وعامةِ العرب.

ومعنى الآية: أن أهل الجنة ينادُون يومئذ أهلَ النار ـ لأنهم مشرِفون عليهم، فإن الجنة عالية وجهنمَ متسفِّلة ـ فيقولون لهم: إنَّا وجدنا ما وَعدنا الله من الثواب حقًّا، فهل وجدتُم ما وَعد ربكم[1] من العقاب حقًّا؟ قالوا: نعم.

وإنما يكون هذا تشفِّيًا لقلوب المؤمنين وزيادةَ تعذيب للكافرين، فإنهم كانوا يؤذونهم ويعيِّرونهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] إلى قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: أي: نادى منادٍ، وهو ملك أو مَن شاء الله:

﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائي وابن كثير بتشديد النون، والباقون بالتخفيف[2].

قال أبو حاتم: التخفيفُ أولى؛ ليكون موافقًا لقوله: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ ﴿أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال الأخفش: التشديد أولى؛ لأنها يليها الاسم.

﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: حصَلت على الكافرين دون المؤمنين، وهو إخبارٌ.

وقيل: هو ابتداءُ لعنٍ منهم لهم[3].

= زيد وغيرهم، له مصنفات كثيرة منها كتاب في القراءات، توفّي سنة خمسين ـ أو خمس وخمسين، أو أربع وخمسين، أو ثمان وأربعين ـ ومئتين، وقد قارب التسعين. انظر: «بغية الوعاة» (١/ ٦٠٦).
قلت: ولعل كثيراً مما ينقله الناس عن أبي حاتم هو من كتابه في القراءات، لكنهم لا يعيّنونه.

(١) «ربكم» ليس في (أ) و(ف).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠). وقراءة ابن كثير هذه هي من رواية البزي عنه.

(٣) بعدها في (ر): «من الله».

(٤٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: يمنعـون عـن دِيـن الله بالنهـي وإدخال الشُّـبَه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: أي: يطلبون لها[1] تغييرًا وإمالةً إلى الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾: أي: كانوا بها جاحدِين.

كلُّه نعتُ الظالمين الذين عليهم اللَّعنةُ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإن قالوا: ذكَر نداءَ أهلِ الجنة أهلَ النار، ونداءَ أهلِ النار أهلَ الجنة، ونداءُ بعضهم بعضًا لا يكون إلا بحيث يكون بعضهم قريبًا من بعض، وقد جاء في وصف الجنة أن أقلَّ ما يكون لواحدٍ من أهل الجنة مثلُ عَرْض الدنيا، وجاء أن الحور العين لو نظرت واحدةٌ منهنَّ إلى[2] الدنيا نظرةً لامتلأت الدنيا من ضوئها وعِطرها، وجاء في وصف النار أن شرارةً لو وقعت في الدنيا لأحرقتْها، فإذا كان[3] بعضُهم مِن بعضٍ بحيث يَسمع من بعض[4]، ألَا يتأذَّى أهل الجنة بأهل النار[5]، ولا يتنعمُ أهلُ النار بنعيم أهل الجنة؟

قلنا: إن الله قادر على أن يُوقع نداء هؤلاء بمسامعِ هؤلاء مع بُعْدِ ما بينَهما، ويُسمعَ كلَّ فريق نداءَ الفريق الآخر، أو يكونُ الله جعَلَ بِنْية هذا الخَلْق غيرَ هذه البِنية

---

(١) «لها» ليس في (ف).

(٢) بعدها في (ف): «أهل».

(٣) بعدها في (ف): «نداء».

(٤) في «التأويلات»: (فإذا كان بعضهم من بعض بحيث يسمعون بعضهم نداء بعض).

(٥) في (أ): «بالنار»، بدل: «بأهل النار».

مع ارتفاع الآفَات[١] والحجُب، فيَسمعُ بعضُهم نداءَ بعضٍ مِن بُعدٍ، ويُبصِرُ بعضُهم بعضًا؛ لأن في الدنيا المانعُ هي الآفَات والحجبُ وقد ارتفع ذلك، أو تُقرَّب الجنة من النار [والنارُ من الجنة] بحيث يُسمعُ بعضُهم بعضًا ما ذُكر من النداء[٢].

***

(٤٦) ـ ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾: قال بعض أهل التفسير: هو السورُ المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ الآية [الحديد: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: هي جمع عُرف، وهو المكان المرتفع، ومنه: عُرف الديك، وذلك لأنه بظهوره أَعْرفُ مما انخفض منه.

وقيل: سمي بذلك لأن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة من أهل النار.

وقيل في معنى الآية: أي: وعلى أعالي الحجاب ـ وهو السورُ ـ رجال.

قيل: هم ملائكةٌ موكَّلون بأعالي هذا السور يميِّزون المؤمنين من الكافرين[٣] قبلَ إدخالهم الجنةَ والنار، واسم الرجال وإن كان في الأظهر لذكورِ بني آدم، فغيرُ منكرٍ أن يقع على الملائكة كما وقع على الجن في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وسُمُّوا رجالًا لأنهم في صورة الرجال.

---

(١) في (ف): «الآلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٢٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) في (ف): «الكفار».

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾: أي: الكفارَ بسوادِ الوجوه وزُرقة العيون، والمؤمنين بنَضرة النعيم ونورِ الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: يبشِّرونهم بالسلامة من كلِّ مَخوف، وبسلامِ التحية في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾: أي: أهلُ الجنة بَعْدُ[1] ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: يرجُون، وهو طمع اليقين كما في قول الخليل: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وهذا هو قولُ الحسنِ وأبي مجلزٍ[2].

***

(٤٧) ـ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾: أي: أبصار هؤلاء الملائكةِ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ أي: حِذاءَهم، وهي جهة اللقاء.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي: قال هؤلاء الملائكةُ هذا بطريق الدعاء حين أَشرفوا على حال[3] أهل النار، وهم متعبِّدون مكلَّفون كبني آدم، فلا يُنْكر أن يدعوا اللهَ لأنفسهم بالأمن.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: هم أهلُ كرامة الله، أكرمهم بذلك فرفَعهم على السور لينظروا إلى حُكم الله في الخلق وعدلِه فيهم، وينظروا إلى إحسان الله تعالى فيمَن يُحسن إليه[4] [وعدلِهِ فيمَن يعاقبهم].

---

(١) «بعد» ليس في (ف).

(٢) انظر ما رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٦ و٢٢٧).

(٣) «حال» من (أ) و(ف).

(٤) في (ف): «إليهم».

قال: وقيل: هم الأنبياء، والأشبهُ أن يكونوا[١] الأنبياءَ، يكونون على الأعراف يَشهدون على الأمم، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١][٢].

وروى عبد الرحمن المزنيُّ قال: سُئل النَّبي ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «ناسٌ قُتلوا في سبيل الله، منَعَهم الجنةَ معصيتُهم آباءَهم، ومنَعَهم النارَ قتلُهم في سبيل الله عز وجل»[٣].

وقال مجاهد: هم أقوام رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم، وأمهاتُهم دون آبائهم، فلم يدخلهم الله الجنة لأن آباءهم أو أمهاتِهم غيرُ راضين عنهم، ولم يدخلهم النار لرضا آباءهم أو أمهاتهم عنهم، فيُحبَسون على الأعراف إلى أن يقضيَ الله تعالى بين الخلق ثم يدخلهم الله الجنة[٤].

وقال الكلبي: استوت حسناتُهم وسيئاتهم فوُقفوا عليه.

وقال حذيفةُ: هم قوم كانت لهم حسناتٌ وسيئاتٌ، فخالفت بهم حسناتهم عن

---

(١) في (أ) و(ر): «يكون»، وليست في (ف)، والمثبت من «التأويلات» (٢/ ٢٣٤) (ط: الرسالة).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٣١)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٩٥٤ ـ تفسير)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٨٤). وفي إسناده أبو معشر، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه كما في «الإصابة» (٤/ ٣١١). ورواه الطبري بإسناد آخر لكنه ضعيف جدًّا لتسلسله بالمبهمين. وانظر كلام الشيخ أحمد شاكر على الحديث في تحقيقه لـ «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٥٨).

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه محمد بن مخلد الرعيني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهما ضعيفان.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٣٦)، وما بين معكوفتين منه.

النار، وقصَّرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فكانوا كذلك حتى قضى الله فيهم ما قضى[١].

وعلى هذه الأقاويل المتأخِّرة: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أصحابُ الأعراف، وكذلك: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآية.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني[٢]: أصحاب الأعراف هم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدِّلوا دينهم.

وقيل: هم أولاد المشركين.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: رجالًا من الكفار يعرفونهم بسوادِ الوجوه ونحوِه: ما نَفَعكم جماعاتكم؟

وقيل: جَمْعُكم الأموالَ، وتكبُّركم عن الإيمان، أو تعَظُّمكم على الناس بالرياسة ونحوها.

وهذا توبيخ للكفار.

* * *

(٤٩) ـ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٣)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١١٠) و(١١١).

(٢) في النسخ: «عبد الرحمن بن يحيى الكتاني»، وفيه خطأ وتحريف، والتصويب من «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٦). وقد تكرر النقل عنه في هذا التفسير.

قولـه تعالـى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾: وهـم ضعفـاءُ المسـلمين كان الكفـار يسـتخفُّون بهـم، فيقـول أصحـاب الأعـراف: أهؤلاء الذيـن حلَفتـم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾؛ أي: لا يصيبهـم الله بكرامـة؟ فانظـروا إلـى حالهـم.

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾: أي: يقول أصحاب الأعراف للضعفاء من المؤمنين ردًا على الكافرين ما أقسموا به: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وقيل: يقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

وقال الكلبيُّ: إنهم ينادُون وهم على السور: يا أبا جهل، يا وليدَ بنَ المغيرة، ويا فلان، يعرفونهم بسيماهم، ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدنيا المالَ والولد، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن الإيمان بالله؟ ثم ينظرون إلى أهل الجنة فيَرون فيها الضعفاء والمساكين ممن كانوا يستهزؤون بهم مثلَ سلمانَ وصهيبٍ وخبَّابٍ وأشباههم، فنادَوهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ يعني: الضعفاء والمساكين ممن(١) حلفتم وأنتم في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ يعني: بالجنة، يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ حين يحزن أهل النار(٢).

وقال أبو العالية: يقول لهم أصحاب الأعراف: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ فأَقْسَم أهل النار أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة، فيقول الله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يا أصحاب الأعراف.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يحاسَبُ الناس يومَ القيامة، فمَن كانت حسناتُه

---

(١) «ممن» من (ف).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٣٧)، و«البسيط» (٩/ ١٥٧)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٣).

أكثرَ من سيئاته بواحدةٍ دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الآيةَ، وإن الميزان يخفُّ بمثقالِ حبةٍ أو يَرجَح، ومَن استوت حسناتُه وسيئاتُه كان من أصحاب الأعراف، فوُقفوا على الصراط ثم عَرفوا أهل الجنة والنار، فإذا نظروا إلى يمينهم فرأوا[١] أهل الجنة قالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا نظروا إلى يسارهم فرأوا[٢] أصحابَ النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأما أصحابُ الحسنات فيعطَون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطَى كلُّ عبد يومئذ نورًا وكلُّ أَمَةٍ نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلَب الله نورَ كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، فلما رأى أهلُ الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، وأمَّا أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم، فلم يُنزع النور من أيديهم، ومنعتْهم سيِّئاتهم أن يَمضوا بها، فبقي في قلوبهم الطمع إذ لم يُنزع النور من أيديهم، فذلك قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثم أُدخلوا بعد ذلك، وكانوا آخِرَ أهل الجنة دخولًا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وهو على المنبر: إنَّ العبد إذا عمِل حسنةً كتبت له بها عشرٌ، وإذا عمل سيئةً لم يُكتب عليه إلا واحدةٌ، ثم يقول: وقد هلَك مَن غلَب آحاده عشَراته[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أصحاب الأعراف أصحابُ الأشراف، خُصُّوا بأنوار[٤] البصائر اليومَ فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، وأشرفوا غدًا على

---

(١) «يمينهم فرأوا» من (أ)، ولم ترد في «تفسير الطبري».

(٢) في (ر): «فنظروا».

(٣) رواه بتمامه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٣)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي؛ قال عنه الحافظ في «التقريب»: أخباري متروك الحديث.

(٤) في (ف): «بأنواع».

مقامات الكلِّ بأبصارهم وعرفوهم بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوامٌ موسومون بأنوار القُرب، وآخرون موسومون بآثار الحَجْب، **وقوله تعالى**: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلِموا اليوم عن النكرة والجحود، وأُكرموا بالعرفان والتوحيد، وسلموا غدًا عن فنون الوعيد، وسُعدوا بلطائف المزيد(١).

***

(٥٠) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: فلا صبر لنا على العطش ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الطعام فلا قرار لنا على الجوع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: الطعامُ والشرابُ هاهنا كثير، ولكن الله تعالى حرَّمهما في هذه الدار على الكافرين، وهو تحريم منعٍ لا تحريمُ تكليفٍ، كما في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] قال تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي «تفسير المشافَهات»(٢): أن أهل النار ينادُون أهل الجنة بأسمائهم، فينادي

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٧).

(٢) في (أ): «المشابهات». والمثبت من (ر) و(ف)، ولعله كتاب «المشافهات» لعلي بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي السمرقندي، كما في «الأنساب» للسمعاني (٢/ ٢١٠). وسماه بذلك كما في «المغرب» للمطرزي (مادة: شفه) لأنه زَعَم أنَّ ما ذُكِرَ من التفسير كلُّه مسندٌ إلى رسولِ الله ﷺ فكأنَّه شافهه به. وتوفي علي بن إسحاق الحنظلي سنة مئتين وسبع وثلاثين كما في «الأنساب» (٥/ ٩٢). وكذا ذكر وفاته ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٦) وقال: يروي عن بن المبارك ثنا عنه الحسن بن سفيان. وذكره ابن حجر في «التهذيب» تمييزاً، ونقل عن الدارقطني قوله في «العلل»: علي بن إسحاق ثقة.

الرجلُ أباه وأمَّه وأخته وأخاه، فيقولون: إن النار قد أَعْمت أبصارنا، إن النار قد أَصمَّت أسماعنا، إن النار قد أَنضجت جلودَنا، إن النار قد اطَّلعت على قلوبنا، وإنا خرجنا من الدنيا عطاشًا، وسكنَّا القبور عطاشًا، وخرجنا من القبور عطاشًا، وقد قطع العطش اليومَ حلوقَنا، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيقول أهل الجنة: إن الله حرَّمهما على الكافرين.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: انظر كيف لا يسقيهم قطرةً، مع استغنائه عن تعذيبهم، وقدرته على أن يعطيَهم ما يريدون، ولكنْ قهرُ[1] الربوبية، والعزَّةُ الأحدية، وأنه فعَّال لِمَا يريد، فكما لم يرزقهم اليوم من عرفانه ذرة، لا يسقيهم غدًا في تلك الأحوال قطرة، وفي معناه أنشدوا:

وأَقْسَمْنَ لا يَسقيننا الدَّهرَ قطرةً ولو زخَرت[2] من أرضهنَّ بحورُ

قال: ويقال: إنما الْتَمسوا الماء ليبكُوا به؛ لأنه نفدت دموعهم، وفي هذا المعنى أنشدوا:

يا نازحًا نَزَحَتْ[3] دَمْعي قَطِيعتُه هَبْ لي من الدَّمع ما أبكي عليك به

وفي معناه أنشدوا أيضًا:

نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ عينًا لغيرك دمعُها مِدْرارُ

مَن ذا يُعيرك عينَه تبكي بها أرأيتَ عينًا للبكاء تُعار[4]

(١) أي: (ولكن هو قهرُ...)، فكلمة «قهر» خبر لمبتدأ محذوف، ولفظ «اللطائف»: (ولكنه قهر).

(٢) في (ر): «زحرت»، وفي «اللطائف»: (فجرت).

(٣) في (أ): «قرحت»، وفي «اللطائف»: (نزفت).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٨).

(٥١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: وهو نعتُ الكافرين.

وقيل: هو قولُ أهل الجنة في وصفهم.

وقيل: هو قولُ الله تعالى في حقِّهم[1] بعد ذكر أهلِ الجنة ذلك في خطابهم.

ومعنى ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾؛ أي: على متابعةِ أهوائهم يحرِّمون ما شاؤوا ويُحلُّون ما شاؤوا، غير دائنين لله ولا متَّبِعين أمره.

وقيل: كان دينُهم دينَ إسماعيل فغيَّروه.

وقال أبو رَوقٍ: أي: عيدَهم لهوًا ولعبًا[2]؛ أي: باطلًا وفرحًا، وكذا أهلُ كلِّ دِينٍ، والمسلمون اتَّخذوا عيدَهم صلاةً وطاعةً.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: خدعهم ما كانوا فيه من عزِّ الدنيا وسَعتها، وظنُّوا أن ذلك من كرامتهم على الله تعالى، وأن لهم مثلَ ذلك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾: يقول الله تعالى: فهذا اليومُ الذي يستغيثون بأهل الجنة نتركهم في النار كالمنسيِّين؛ ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: كما تركوا التفكُّر في الآخرة والجزاءِ على الأعمال كالمتناسِين لها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: عطفٌ على ﴿كَمَا نَسُواْ﴾؛ أي: وما كانوا يجحدون بآياتنا فلا يصدِّقون أنها مِن عندنا.

---

(١) «في حقهم» ليس في (ف).

(٢) انظر: «زاد المسير» (٣/ ٢٠٩).

وقال الحسن ومجاهد وابن عبَّاس والسدِّي: نتركُهم كما تركوا لقاء يومهم هذا[١].

وقال القشيريُّ رحمه الله: كما تركوا الطاعة تركتُهم في العقوبة، فتأتي عليهم الأحقابُ فلا كشفَ عذابٍ، ولا بردَ شراب، ولا حُسن جواب، ولا إكرامَ خطاب، ذلك جزاء مَن لم يعرف قَدْر الوُصلة في أوقات المهلة[٢].

***

(٥٢) ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: نسُوا أمرنا وجحدوا بآياتنا، ولقد كنَّا آتيناهم كتابًا فصَّلناه؛ أي: جعلناه فصولًا: أمرًا ونهيًا، وتحريمًا وتحليلًا، ووعظًا وضربَ أمثالٍ، بلسانٍ عربيٍّ مُبين، على علمٍ منا بإيضاحه وتقريبه إلى الأفهام، وعلى علمٍ منا بما أَوْدعْناه، وعلى علمٍ منا بمَن يتَّبعه وبمن لا يتَّبعه، وجعلناه هدى ورحمة لمن صدَّقه وعمل به.

وقال القشيري رحمه الله: ولقد أنزلنا إليهم من الكتاب، وأوحينا إليهم من فصل الخطاب، ما لو قابَلوه بحُسن الإصغاء، وتلقَّوه على قَدَم الاستواء، لتخلَّصوا به من محنةِ البِعاد، ولسُعدوا برتبةِ الوداد، ولوصلوا به في الدنيا والآخرة إلى المراد[٣].

***

---

(١) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٦١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨) عن ابن عباس ومجاهد، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٩٢) عن ابن عباس والسدي.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٩).

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٥٣) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: ما ينتظرون إلا عاقبتَه وما يؤول إليه الأمر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾: يرجع إلى الكتاب؛ أي: عاقبةُ تصديقه وتكذيبِه، وهو يومُ القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: تركوا العملَ بالكتاب في الدنيا ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾: حُذف النونُ للنصب بالفاء جوابًا للتمنِّي ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ بالرفع؛ لأن معناه: وهل نردُّ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ نصبٌ بالفاء جوابًا للتمني أيضًا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فنصدِّقَ ونتَّبع.

فآيسهم الله تعالى من هذا التمنِّي فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: أي: قد غُبنوا وصاروا إلى النار ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما كانوا[١] يكذِبون، وهو قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقيل: أي: بطَل عنهم ما كانوا يعبدونه من الأصنام ثم[٢] يرجون الانتفاع بها بالشفاعة والتقريب إلى الله زلفى.

وقال السدِّيُّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وقعةُ بدر[٣].

---

(١) «ما كانوا» من (ف).

(٢) «ثم» ليس في (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٩٤). كلاهما بلفظ: =

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا كُشف لهم عن أستار الغيب، وتشقَّقت[١] عن قلوبهم أغطيةُ الرَّيب، فهناك لا دعاء لهم يُسمع، ولا بكاء لهم يَنفع، ولا شكوَى لهم تُدفع، ولا بَلْوَى عنهم تُقْطع[٢].

* * *

(٥٤) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي: ليس ربُّكم ومالكُكم وخالقُكم ومدبِّرُكم وحافظُكم الأصنامَ ولا الملائكةَ ولا الجنَّ ولا الذين[٣] تزعمون، بل كلُّ ذلك مربوبٌ مخلوقٌ، بل ربُّكم وخالقُكم ومالكُكم ومدبِّرُكم وحافظُكم اللهُ الَّذي خلَق السماوات والأرض وما بينهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وإنْ لم يذكر في هذه الآية (وما بينهما)، ولكنَّ ذكر السماوات والأرض يدل على ذلك، وقد نصَّ عليه في الآية التي في أول سورة يونس[٤]، وفي آخر سورة الفرقان[٥]، وفي سورة ق[٦].

= (أما تأويله: فعواقبه، مثل وقعة بدر، والقيامة، وما وعد فيها من موعد).

(١) في (ف): «وانشقت».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٣٩).

(٣) في (أ): «ولا الجن الذين»، وفي (ف): «والجن الذي».

(٤) كذا قال، ويريد الآية الثالثة منها، وليس فيها: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

(٥) هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٩].

(٦) هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الآية: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: قيل: من يوم الأحد إلى يوم الجمعة.

وقيل: هي كأيام الدنيا.

وقيل: هي كأيام الآخرة كلُّ يوم ألفُ سنة.

وكان قادرًا أن يخلقها كلَّها في أقلَّ من لحظة فـ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، لِمَا قال[١] سعيد بن جبير رضي الله عنه: إنما فعَل ذلك تعليمًا لخلقه التأنِّيَ والتثبُّت في الأمور[٢].

وقيل: ذكرُ المدةِ عبارةٌ عن إحكام خَلْقهما وإتقانِ صُنْعهما، على ما تعارفه الناس فيما بينهم في الإخبار عن إحكام الشيء بإضافته إلى وقتٍ ممتدٍّ.

وقيل: هو دلالةٌ على تركه معاجَلة العصاة بالعقاب، لا لعجزٍ[٣] عن ذلك، لكن إظهارًا لحكمه[٤]، وتنبيهًا للعباد على الرجوع إلى بابه، وإمهالًا للعبد ليتمكَّن من إصلاح أمره.

وقيل: فعَل ذلك لاعتبارِ الملائكة بخَلْق شيءٍ بعد شيء.

وقيل: تدبيرُ الحوادث على إنشاء شيءٍ بعد شيءٍ على ترتيبٍ هو[٥] أدلُّ على عالِمٍ مدبِّر مريدٍ يصرِّفه على اختياره، ويجريه على مشيئته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: أي: الملك، يقال: ثُلَّ عرش فلان؛ أي:

---

(١) أي: لكن لم يفعل ذلك لما قال...

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٣٨)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ١٦٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥).

(٣) في (أ): «لا العجز»، وفي (ف): «لا لعجزه».

(٤) في (ف): «لحكمته».

(٥) «هو» ليس في (أ).

زال ملكه، والاستواء: ظهور التمام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] ومعناه ـ والله أعلم ـ فيما أشار إليه الإمام أبو منصور رحمه الله: أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، ثم في اليوم السابع خلق الممتحَنين؛ أي: الذين يتوجَّه عليهم خطابُ التكليف، ولهم فضيلةُ العقل والتمييز، وظهر لهم تمام ملك الله وعظمته وجلاله، وقبلَ ذلك لم يكن مَن له معرفةُ ذلك، وهم المقصودون بالتخليق، وغيرُهم خُلق لهم وجُعل لهم بالتسخير، فكان بهم ظهَر تمامُ الملك، ومعرفةُ النعم، والوقوفُ على الحجج.

قال: ووجهٌ آخر ما قال بعض أهل التفسير: إن ستة أيام هي ستة أيام الآخرة كلُّ يومٍ ألفُ سنة، فجائز أن يكون تدبير هذا العالم إلى ستة أيام بمعنى ستةِ آلافِ سنة، ثم يكون يومُ السابع يومَ القيامة، وفيه ظهورُ تمام الملك، فيُقِرُّ كلُّ ممتحَن فيه بأن الملك لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وقال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الحج: ٥٦] وقال: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقال: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] وقال: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] فيجوز أن تكون الآية إشارةً إلى ذلك[1].

وهذا ألطفُ ما قيل[2] فيه، وقد بيَّنا له وجوهًا أُخَرَ في سورة البقرة في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، فأما حملُ الاستواء على التمكُّن والاستقرار، وتفسيرُ العرش بالسرير، وتجويزُ الانتقال على الله على ما يقوله المشبِّهة، فهو باطلٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وظاهره متشابهٌ، وحملُ المتشابه على

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٤٣).

(٢) «قيل» ليس في (أ).

المحكم واجبٌ، وإجراؤه على ظاهره بدعةٌ، وتأويلُه على وفق الأصول لازمٌ[1]، وبالله المعونة.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ أبو عمرٍو وأهلُ المدينة بالتخفيف من الإغشاء كما في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [يونس: ٢٧] وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾

---

(١) واضح من كلام المؤلف رحمه الله أنه على مذهب الخلف القائلين بالتأويل في آيات الصفات، والذي لجؤوا إليه بعد ظهور الفرق الضالة من المشبهة والمعطلة وغيرهم، أما الذين ذهبوا مذهب السلف فقالوا: إذا وردَت صفةٌ من صفات الله تعالى موهمةٌ بمشابهةِ المخلوقين؛ كورودِ لفظ اليد والعين ونحوهما، فإننا نُؤمِنُ بها مع القطعِ بأنَّه تعالى ليس كمثلِه شيءٌ في صفاته ولا ذاته، ونُوْكِلُ معرفةَ كيفيَّتها وكيفيَّةِ تعلُّقِها به تعالى إلى الله، ونجريها على ما أجراها الله تعالى ورسوله عليه من غير تأويلٍ ولا تكييفٍ، وهو مذهبُ سلفِ الأمَّة، ويقال له: الطريقُ الأسلمُ، وطريقةُ المتأخِّرين في التأويل يقال لها: الطريقُ الأعلمُ. والحقُّ أنَّ الأَولى بالمؤمن هي الطريقُ الأُولى، فإنَّه لا يحيطُ بالصفة وكيفيَّتها إلا مَن أحاط بكيفيَّة ذات الموصوف، وقد ثبت فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وطريقةُ التأويل غايتُها الحملُ على المجازِ، وكونُه المرادَ أمرٌ غيرُ مقطوعٍ به، وإنَّما هو ظنٌّ وتخمينٌ. وقد ذكر أبو حيان رحمه الله في «البحر المحيط» (١٠/ ٥٢٦) عند تفسير هذه الآية قصة الإمام مالك التي تبين منهج السلف في هذا الأمر، وذلك حين جاءه رجل فسأله: كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلَتْه الرحضاء [عَرَق يغسل الجلد كثرةً] ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً. ثم أمر به فأُخرج. روى القصة البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٧).

وللزيادة في هذه المسألة يراجع كلام ابن القيِّم في شرح قول صاحب «منازل السائرين» في الصفات: إنه لا بدَّ من إثباتها باسمها من غير تشبيه، ونفيِ التشبيهِ عنها من غير تعطيلٍ، والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها. انظر: «منازل السائرين» لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ص: ١٣٩)، و«مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٣٤٥).

[يس: ٩] وقرأ أهلُ الكوفة غيرَ حفصٍ عن عاصم بالتشديد[1] كما في قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤].

ثم لمَّا ذكر الاستواء على العرش وهو إخبارٌ عن نفاذِ أمره وكمالِ ملكه واطِّراد تدبيره، بيَّن ذلك في عيانٍ فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يُلبِس الليل النهارَ بظُلمته فيُذهب نورَه.

وقيل: هذا مختصرٌ، وتمامه تقديرًا: ويغشي النهارَ الليل؛ أي: يُلبس النهارَ الليلَ بنوره فيُذهب ظلمته، وهو كقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا الاختصار كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحر والبرد.

وقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: أي: يَـتْبعه سريعًا على ذلك، جعَل الله تعالى تعاقُب الليل والنهار إلى آخِر مدة الدنيا، ولو انقطعتِ الحركاتُ المتعاقِبة المتواصلةُ لانتقَض العالم، وهو قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: يُظهِر النورَ في ابتداء النهار في طرفٍ من أطراف السماء والظلمةَ في أول الليل، ثم يَنشُر ذلك في جميع أطراف السماء والأرض وما بينهما في قَدْر لحظةٍ، ما[2] لو أُريد تقديرُ ذلك بجميع ما في الخَلق من المقادير ما قدروا عليه، ليُعلم أن الله على ما يشاء قدير[3].

وقوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ ليس على حقيقةِ الطلب، لكنْ لمَّا كان من كلٍّ واحد

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠). ويريد بالكوفيين هنا حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه، وقرأ باقي السبعة بالتخفيف.

(٢) في (ف) و(أ): «مما».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٥٨).

منهما للآخَر ما لو كان ممن يكون له الطلب كان طلبًا سمَّاه طلبًا[(١)]؛ كما قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] ولا غرور لها، لكن معناه: لو كان هذا ممن يكون منه الغرور كان غرورًا، فهذا كذلك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تعرَّفَ الله إلى العوامِّ بآياته الظاهرة الدالَّةِ على قدرته وهي أفعالُه، وتعرَّف إلى الخواصِّ منهم بآياته الدالةِ على نصرته التي هي أفضالُه وإقبالُه، وظهر لأسرار خواصِّ الخاصِّ بنعوته الذاتية التي هي جمالُه وجلاله، فشتَّان بين قومٍ وقومٍ.

ثم كما يَدخل في الظاهر الليلُ على النهار والنهارُ على الليل، فكذلك يَدخلُ[(٢)] القبضُ على البسط والبسطُ على القبض، ومنه الإشارةُ إلى ليل القلوب ونهارها، فمِن عبدٍ أحوالُه أجمعُ قبضٌ، ومِن عبدٍ أحوالُه أجمعُ بسطٌ، ومِن عبدٍ يكون مرةً بعينِ القبض ومرةً بعين البسط، كما أن في[(٣)] العالم في بعضِ الأقطار نهاراً بلا ليلٍ، وفي بعضها ليلٌ بلا نهار، وفي بعضها ليلٌ يدخل على نهارٍ، ونهارٌ يدخل على ليلٍ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وبيده الخير والشرّ، والنفعُ والضرّ ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: قرأ ابن عامر الكلَّ بالرفع على الابتداء والخبر، وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[(٥)]؛ أي: ذلَّل هذه الأشياءَ لِمَا خُلِقْن له.

---

(١) «سماه طلبًا» ليس في (ف). وفي هامش (أ): «لما كان أحدهما لا ينفك عن الآخر قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ وهو حال من أحدهما، ﴿حَثِيثًا﴾ حال أيضاً؛ أي: سريعاً».

(٢) «يدخل» ليس في (ف).

(٣) «في» ليس في (ف).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٠).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قيل: أي: بتسخيره.

وقيل: أي: بأمر الله يجرِيْنَ ويَنفعن الخَلْق.

وقيل: هو أمر التكوين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: له الخلائق ملكًا، وله أن يأمرهم بما شاء قطعًا.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى الله. وقيل: تعظَّمَ الله.

وقيل: كثُر خيره ودام بِرُّه، أثنى على نفسه بما فعَل في خلقه، ودلَّ بذلك على أنه يَلزمُ العبادَ الثناءُ عليه بذلك، ثم صرح ذلك بما بعدَه وهو قولُه تعالى:

(٥٥) ـ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: أي: اعبدوه علانيةً وسرًا، وارفعوا إليه حوائجكم ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: تذلُّلًا وتخشُّعًا، والضَّراعة: الذِّلة، من حدِّ عَلِم ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ أي: إخلاصًا؛ لأن الخفيَّ لا يدخله رياءٌ؛ قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: أي: المشركين؛ إذا جُعل الدعاء بمعنى العبادة، فأما على الدعوة والسؤال فمعناه: أي: المجاوِزين الحدَّ في الدعاء وفي غيره، وهو نهيٌ عن الجهر في غير موضعه.

وروى أبو موسى الأشعريُّ: أنهم كانوا مع النَّبي ﷺ في غزاةٍ، فأشرفوا على وادٍ فجعلوا يكبِّرون ويهلِّلون رافعي أصواتهم، فقال: «أيها الناس! اربَعوا على أنفسكم، لستُم تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم لتَدْعون سميعًا قريبًا إنه لمعَكم»(١).

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤). وفي هامش (أ): «الربع: الكف».

وقال الكلبيُّ: ﴿تَضَرُّعًا﴾: علانيةً ﴿وَخُفْيَةً﴾: سرًّا في حوائجكم.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أي: أطيعوه سرًّا وعلانيةً[١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: الذين دعاؤهم دعاءُ الأبرار وعملُهم عمل الفجَّار.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل أن يكون الاعتداءُ في الدعاء[٢] هو أن يسألَه ما لا يستحقُّه من كرامة الأنبياء والأولياء[٣].

وقال القشيري رحمه الله: الاعتداء في الدعاء: ترك الدعاء، ومِن غايةِ ما يتقرَّر للعبد مِن وَصْفِ كرمه: أن جَعل إمساكه عن الدعاء ـ وهو حاجتُه الذي لا بد له منه ـ اعتداءً منه، وإن الله علَّمهم الأدب في الدعاء، ومن آدابه أن يدعوَ بوصف الافتقار ونعتِ الانكسار ونشرِ الاضطرار[٤].

***

(٥٦) ـ ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: قال الحسن: الإفساد في الأرض قتل المؤمنين والاعتداءُ على الخلق[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٨) بلفظ: (سرًّا).

(٢) «في الدعاء» ليس في (أ).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٦٢).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤١).

(٥) انظر: «النكت والعيون» (٢/ ٢٣١) بنحوه.

وقيل: هو العملُ فيها بالمعاصي، والإصلاحُ فيها: العمل بالطاعات.

وقيل: هو الكفر، والإصلاح: الإيمان.

وقيل: أي: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتكذيب الأنبياء ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾؛ أي: بعد أن أصلحها الله بانبعاثهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قيل: بعد ما خلقها الله تعالى طاهرةً عن الإفساد وسفكِ الدماء وغيرِ ذلك(١).

وقال عطيةُ العَوْفيُّ: أي: لا تَعْصوا في الأرض فيمسكُ الله المطر ويهلكُ الحرثَ بمعاصيكم(٢)، فذلك فسادُها بعد إصلاحها.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ادعوه خوفًا منه وطمعًا فيه، إن إجابة الله سريعٌ إلى المطيعين(٣).

وقال الكلبي: خوفًا من عذابه وطمعًا في ثوابه(٤).

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين(٥).

وقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ على التذكير؛ قيل: لأن الرحمة مصدر بمعنى: الرحم(٦).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٦٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٠)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ١٨١)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٨١) دون قوله: «إن إجابة الله سريعٌ إلى المطيعين»، ولفظه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا﴾ من عقابه، ﴿وَطَمَعًا﴾ في ثوابه.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٠).

(٥) في (أ): «إن جنة الله قريب من المؤمنين»، وفي (ر): «إن جنة الله قريب من المحسنين».

(٦) بضم الراء وسكون الحاء، وبضمهما، بمعنى الرحمة. انظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٤/ ١٧٥).

وقيل: لأن تأنيثه غيرُ حقيقي.

وقال أبو عبيد رحمه الله: القريب والبعيد إذا كانا اسمين استوَى فيهما المذكَّر والمؤنث[١]، وإن بَنَيْتَهما على قَربَتْ وبَعدَتْ قلت: قريبة وبعيدة[٢].

وقيل: معناه: بمكانٍ قريبٍ من المحسنين.

وقال القشيري رحمه الله: من الإفساد بعدَ الإصلاح: إهمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عِذارها حتى تنهمِك في هواها بعد كبح لجامها عن الركض في ميدان الخلاف، ومن ذلك: تفريقُ القلب في أودية المنى بعد جمعه على[٣] أوصاف الإرادة، ومن ذلك: الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك: الاستشعارُ بحبِّ المخلوق بعد تأكيدِ العقد مع المحبوب بأن لا يحبَّ سواه، ولا يُؤثرَ رضا غيره على رضاه، ومن ذلك: الجموحُ إلى تتبُّع الرُّخَص بعد حمل النفس على ملازمةِ الأشق، ومن ذلك: الرجوعُ عن حُكم الإرادة إلى ما عليه أهلُ العادة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: المحسنين عملًا والمحسنين أملًا، أما الأول ففي الموفِين والثاني في المقصِّرين[٤].

***

---

(١) في (ف): «الذكر والأنثى».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٢) عن أبي عبيدة، وهو بنحوه في «مجاز القرآن» (١/ ٢١٦ـ٢١٧)، وفيه: (... فإذا جعلوها صفة فى معنى مقتربة، قالوا: هي قريبة وهما قريبتان وهن قريبات).

(٣) في (ف): «في». وفي «اللطائف»: (بعد إمساكه على).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤١)، وفيه: (المحسنين عملًا والمحسنين أملًا، فالأول العابدون والثاني العاصون).

(٥٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[1]: متَّصل بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿نشرًا﴾[2]: قرأ عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء وتسكينِ الشين منوَّنًا جمع بشيرة؛ أي: مبشِّراتٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿نَشْرًا﴾ بفتح النون وله معنيان:

قال الفراء: هي الريحُ الطيِّبة الليِّنة التي تُنشئ السحابَ[3]، ومنه قولهم: جاريةٌ طيِّبةُ النَّشْر.

والثاني: أن يكون مصدرًا من نَشَر الذي هو خلافُ طَوَى؛ أي: يَنْشُرها الله نَشْرًا.

وقرأ ابن كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو: ﴿نُشُرًا﴾ بضم النون والشين[4]، وقرأ ابن عامر: ﴿نُشْراً﴾ بضم النون وتسكين الشين[5]، جمع نَشور وهو المنتشِر في النواحي.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: قدَّام مطره.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا يُفهم من قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾

---

(١) في (ف): «وهو الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نشراً».

(٢) في (أ): «بشراً»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨١).

(٤) في (أ): «بضم النون مثقلة».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٣)، و«التيسير» (ص: ١١٠). و(نُشُراً) بضم الشين مثل (نُشْراً) بسكونها، حيث سكنت الشين تخفيفاً.

ما يُفهم من قولك: بين يدي فلانٍ[1]، وكذا في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وكذا في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وقولِه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤][2].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾: أي: حملت سحابًا، جمع سحابة ﴿ثِقَالٗا﴾: جمع ثقيلة؛ أي: بالماء.

وقوله تعالى: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾: أي: ما حملته[3] السحاب من الماء، كنايةٌ عن المعنى دون اللفظ.

وقيل: أي: سُقنا السحاب، ولفظُه لفظٌ[4] واحدٍ فوحَّد الكناية، ومعناه جمعٌ فوصفه بالثقال، وهو كقوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] بالهاء، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠] بدون الهاء.

وقوله تعالى: ﴿لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾: أي: إلى أرضٍ هَمدتْ فلا تتحرَّك بنبات.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾: أي: بالسحاب، وقيل: أي: بالبلد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾: أي: بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: الحبوبِ والفواكه، فإنها مما تُثمره الأرض ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: أي: نُحييهم فنبعثُهم، كما أحيينا الأرض فأخرجنا الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تتذكرون البعثَ بما تشاهدونه من إحياءِ الأرض.

---

(١) بعدها في (ف): «كذا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٦٤).

(٣) في (أ): «حملت».

(٤) «لفظ» من (ف).

قال الكلبي رحمه الله: وذلك إذا مات الناس[١] كلُّهم مَطَرت السماء أربعين يومًا كمَنيِّ الرجال، فيَنْبُتون في قبورهم بذلك المطر كما يَنبتون في بطونِ أمَّهاتهم، ثم يَخرجون في النفخة الثانية[٢]، وبينهما أربعون سنة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: في الآية إشارةٌ إلى أنه رُبَّ مهجورٍ تمادَى به الصدّ، وبَرَّحَ به الوَجْد، حتى أَنْحلَ جسمَه بل أَبطَلَ كلَّه البُعد، وحتى ظَنَّ أنه لا يستقبلُه حيث ما تَوجَّه إلا الطرد، فبينما هو كذلك إذ أتاه بَشيرُ القُرْب، وهبَّت له[٣] رياح الوَصل، فيعود عُودُ إقباله طريًّا، ويصير دارسُ حاله بعد الرثاثة قويًّا، كما قال قائلهم:

كنتُ كمَن أُلبسَ أكفانَه وقُرِّبَ النَّعشُ من المَلْحَدِ
فجال ماءُ الروح في جسمه فردَّه الوصل[٤] إلى المَولدِ
تبارَكَ اللهُ وسبحانَهُ ما كلُّ همٍّ هوَ بالسَّرْمدِ[٥]

***

(٥٨) ـ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾: أي: الأرض الحُرَّةُ الطين؛ أي: الخالصةُ الطين[٦].

---

(١) في (أ): «الإنسان».

(٢) في (أ): «الأخرى»، وفي (ف): «الآخرة».

(٣) في (ر): «به»، وهذه الجملة ليست في مطبوع «اللطائف».

(٤) في النسخ: «الأصل»، والمثبت من «اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٢). والبيت الأخير ليس فيه.

(٦) «أي: الخالصة الطين» ليس في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: أي: بحُكم ربِّه، وقيل: بعِلْم ربِّه، وقيل: بتيسير ربِّه.

وقال قتادةُ: هو مَثَلُ المؤمنِ سمع كتاب الله فعقَله ووعاه وانتَفَع به كمَثَل هذه الأرضِ أصابها الغيثُ فأنبتت وانتُفع بها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال: هو مَثَلُ الكافر يسمعُ القرآن، فلم يَعْقِله ولم يَفهمه ولم يَنتفِعْ به، وقوله: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: عسِرًا على قول قتادة(١).

وقال السُّدِّي: أي: قليلًا لا يُنتفَع به(٢).

وقال أهل اللغة: النَّكِد: الرجل الممتنِعُ من إعطاء الخير بخلًا ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ هو السَّبخةُ ونحوُها.

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: شبَّه اللهُ المؤمنَ والكافر بالأرض، وشبَّه نزول القرآن بالمطر، فعلى قَدْرِ طِيْبة التربة وخُبْثِها ورداءتها زكاءُ النَّبْت وزيادتُه(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾: أي: كما بيَّنَّا المثَل في المؤمن والكافر نبيِّن سائرَ ما بالناس حاجةٌ إليه، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: يَنتفع به الشاكرون لله بالإيمان والطاعات على ما رزقهم من العقول وسائر النعم.

***

---

(١) قول قتادة في تفسير هذه الآية رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٥٩)، كلاهما بلفظ: (هذا مثل ضربه الله في المؤمن والكافر). فما ذكره المؤلف هو بسطه ومعناه كما في «البسيط» للواحدي (٩/ ١٩٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «البسيط» (٩/ ١٩٣).

(٥٩) ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: أي: كما أرسلناك إلى قومك، وهو النَّظمُ.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: وحِّدوه وأفرِدوه بالعبادة لتفرُّده بالإلهية(١).

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: قرأ الكسائي: بالخفض نعتًا لقوله: ﴿إِلَٰهٍ﴾ وقرأ الباقون بالرفع(٢)؛ لوجهين:

أحدهما: ما لكم غيرُه من إلهٍ.

والثاني: أن (مِن) للتأكيد، وتقديره: ما لكم إلهٌ غيرُه، فرُفع على المعنى.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي: أخاف عليكم(٣) من الإصرار على الشرك عذابًا من الله يأتيكم في يومٍ من أيام دنياكم عظيمِ الشأن يُذكر خبرُه في الآخِرين، وهو يوم تُستأصَلون فيه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هو عذابُ يوم القيامة(٤).

* * *

(٦٠) ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) في (ف): «لتفردوه بالألوهية».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٣) في (أ): «إني أخاف عليكم»، وليس في (ف).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٦٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾: أي: الأشراف، وهم الذين يملؤون المحافل، وقيل: يملؤون الصدور مهابة.

وقيل: هم الـمِلاءُ بتنفيذ الأمور؛ جمعُ مَليءٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: من رؤية القلب وهي العلم، وقيل: من رؤية البصر، وقيل: من الرأي، وهو غالبُ الظنِّ.

والضلال: الخطأ والميل عن الصواب.

أي: تدعُونا إلى عبادة إلهٍ واحدٍ وهو خطأٌ بيِّن؛ لأنَّا وَجدنا آباءنا يعبدون آلهةً فقد ضلَلْت أنت عن هذا الطريق.

* * *

(٦١) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾: أي: عدولٌ عن طريق[1] الحق، ولم يقل: ليست؛ لتقدُّم الفعل، ولأن الضلالة في معنى الضلال، ولأنه ليس بمؤنثٍ حقيقيٍّ.

وهذه اللفظة في[2] جوابهم تلطُّفٌ وترفُّقٌ، وهكذا كان خطاب الأنبياء أممَهم، وهو أنجعُ في القلوب وأدعَى إلى القبول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: خالقِ الخلائق أجمعين، أسلُك طريقَه الذي هداني له.

* * *

---

(١) «طريق» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «وهذا في»، وفي (ف): «وهذا اللفظ في».

(٦٢) ـ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: قرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلِغُكم﴾ مخففًا[١]، من قوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقولِه: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨].

وقرأ الباقون: مشدَّدًا، من قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

والرسالة: جملةٌ من البيان يحملُها القائم ليؤدِّيها إلى غيره.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يبيِّن فيما إذا[٢] كانت الرسالة في كتابٍ أَنزله إليه، أو وحيٍ في غيرِ كتابٍ أُوحي إليه[٣] وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجةٌ سوى تصديقِه فيما بلَّغ إليهم[٤].

ومعنى جمعِ الرسالات: هو تفصيل ذلك في الزمان المديد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: النصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهيُ عما فيه الفساد، ومنه قولُ النَّبي ﷺ: «أَلَا إنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ»[٥]، والنصحُ كذلك، وخلافُه الغِشُّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: قيل: من نزول العذاب بكم إذا دُمتم على ما أنتم عليه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١١)، وهي قراءته هنا في الموضعين، وفي الآية (٢٣) من سورة الأحقاف.

(٢) «إذا» ليس في (ف).

(٣) في (ف): «أو يوحى إليه في غير كتاب»، وعبارة «التأويلات»: (أو بوحي في غير كتاب يوحى إليه).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٠).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٠). والحديث رواه مسلم (٥٥) عن تميم الداري رضي الله عنه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إن الله آتى الرسل العلمَ بأشياءَ لم يؤتِ ذلك غيرَهم، وهو كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ [مريم: ٤٣][1].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أي: أعلمُ أني وإنْ بالغتُ في تبليغ الرسالة، فمَن لم تسبق له القسمةُ بالسعادة لا ينفعُه نصحي ولا يؤثِّر فيه قولي، فإنَّ مَن أَسقطَتْه القسمةُ لم تنعشه النصيحة.

وقال: في قوله: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾: إن نوحًا عليه السلام نُسب إلى الضلالة فتولَّى إجابتهم بنفسه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام نُسب إلى ما نُسب إليه فتولَّى الله الردَّ عنه فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] فشتَّان بين مَن دَفع عن نفسه وبين مَن دَفع عنه ربُّه[2].

***

(٦٣) ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الألِف للاستفهام بمعنى التوبيخ، والواو للعطف، والعَجَب: تغيُّر النَّفْس بما خَفِي سببُه، وخرج عن العادة مِثْلُه، ولمَّا كان الشيطان زيَّن لهم عبادةَ الأصنام عَجِبوا من نهي نوحٍ عليه السلام إياهم عنها، فقال: أتعجَّبْتم[3] أنْ جاءكم وعظٌ من ربِّكم وتذكير.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من جملتكم.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٣).

(٣) في (ف): «أعجبتم».

وقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: ليخوِّفكم العذابَ، ولتَحذروا أنتم فتتَّقوا الشرك والمعصية، ولتُرحموا إذا اتَّقيتم، وليس هذا مما يُتعجَّب منه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كانوا ينكرون أن تكون رسلُ الله من البشر، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] وما ينبغي لهم أن ينكروا؛ لأنهم كانوا رأوا تفضيل بعضِ البشر على بعضٍ، ووضعُ الرسالةِ في الرسل تفضيلٌ لهم، ولله تفضيلُ بعضِ خلقه على بعضٍ؛ إذ له الخلقُ والأمر، على أن ما قالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ لو كان ذلك في غير جوهرهم[(١)] كان فيه لَبسٌ واشتباه.

وقيل: في اختلاف الجنس التنافرُ والتَّباعُد، وفي التجانُس السكونُ والتآلُف[(٢)].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: عجِبوا من كون رجلٍ منهم رسولًا لله تعالى، ولم يتعجبوا مِن جعلِ الصنم شريكًا لله، هذا فَرْطُ الجهالةِ وغايةُ الغباوة[(٣)].

* * *

(٦٤) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السفينةِ، واشتقاقُ ذلك من قولهم: فَلَّك ثديُ المرأة: إذا استدار، وفَلْكةُ الـمِغزل وفَلَكُ السماء من

---

(١) في (ف): «وجوههم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٤).

ذلك أيضًا، سُميت السفينة فُلكًا لأنها تدور على الماء كيف أدارها[١] صاحبها.

يقول: فداموا على تكذيب نوحٍ عليه السلام، فخلَّصنا نوحًا والذين آمنوا معه إذ حملناهم في السفينة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ أي: جاهلين. وقد[٢] عَمِي بعينه يَعْمَى عَمًى فهو أَعْمَى، وعَمِي بقلبه فهو عَمٍ[٣]: وهو الذي لا يُبصر بقلبه وعقله.

وقيل: هو الَّذي خَفِيتْ عليه طرقُ الهدى، من قوله: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ [القصص: ٦٦] وجهلوا معالم الحق لإلفِهم الباطلَ وتقليدِهم الآباءَ، ووقع[٤] اليأس من إيمانهم.

وقال وَهْب بن منبِّهٍ رضي الله عنه: هو نوح بنُ لَـمْكِ بنِ مَتُّوشَلَخ بن أَخْنوخ ـ وهو إدريسُ النَّبيُّ عليه السلام ـ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم[٥].

وقيل: كان كلُّهم مسلمين، وكان نوحٌ أطولَ الأنبياء عمرًا، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، واختُلف في تمامِ عمره، والأصحُّ أنه ألفٌ وأربعُ مئةٍ وخمسون سنةً، مئتان وخمسون سنةً قبل الوحي، ومئتان وخمسون بعد هلاك قومه بالطوفان، وتسعُ مئة وخمسون سنة بين قومه، وكان أهل عصره

---

(١) في (ف): «أرادها».

(٢) في (ر): «وقيل».

(٣) في (أ): «عمي».

(٤) بعدها في (ر): «لهم».

(٥) ذكره عن وهب الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٨٣)، وفيه: (... بن يرد بن مهلائيل). فزاد في الآباء (يرد) قبل (مهلائيل).

كلُّهم كفارًا، وكانت الدنيا في عصره عامرةً، فكانت الأراضي لا تفي بالمزارع، فكانوا ينقلون التراب إلى رؤوس الجبال فيبسطونها ويزرعون فيها، وكان نوحٌ عليه السلام يسكنُ الكوفة، وكان مَن خرج منها إلى مكة مضى في ظلِّ الأشجار وكان يدعو الناس إلى الإيمان طولَ هذه المدة، وكانوا يضربونه حتى كان يُغشَى عليه.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان يُضرب فيُلَفُّ في لبدٍ ويُلْقَى في بيته يُرون أنه قد مات، ثم يُفيق فيخرج فيدعوهم، وجاءه رجل يومًا ومعه ابنه وهو يتوكَّأ على عصاً فقال: يا بنيَّ، انظر[1] هذا الشيخ لا يغرَّنك، فقال: يا أبتِ، مكِّنِّي من العصا، قال: فأخذ منه العصا، قال: ضعني بالأرض، فوضعه، فمشى إليه فضربه بالعصا فشجَّه شجةً مُوضحة في رأسه، وسالت الدماء، فقال نوح: يا رب، قد تَرى ما يَفعل بي عبادُك، فإن يكن لك في عبادك حاجةٌ فاهدِهم، وإنْ يكُ غيرَ ذلك فصبِّرني إلى أن تحكُم وأنت خيرُ الحاكمين، فأوحى الله تعالى إليه وآيَسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبقَ في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمنٌ، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ الآية [هود: ٣٦]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، قال: يا رب! وما الفُلك؟ قال: بيتٌ من خشبٍ يجري على وجه الماء، وأُغْرق أهلَ معصيتي، وأطهر أرضي منهم، قال: يا رب! فأين الماء؟ قال: يا نوح، إنِّي على ما أشاء قدير، قال: يا رب! وأين الخشب؟ قال: اغْرِسِ الشجر، قال: فغرس السَاجَ عشرين سنة، وكَفَّ عن الدعاء فلم يَدْعُهم، وكفُّوا عنه إلا الاستهزاء، وكانوا يسخرون به، فلما أدرك الشجرُ أمره ربُّه فقطعها وجفَّفها ولفَقها[2]، فقال: يا رب! كيف أتَّخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاثِ صورٍ، رأسُه كرأس الدِّيك،

---

(١) في (ف): «احذر».

(٢) «ولفقها» ليس في (ف).

وجُؤْجُؤُه كجؤجؤ الطير، وذَنَبه كذنَب الدِّيك، واجعلها مُطبَّقةً، واجعل لها أبوابًا في جنبيها، وشُدَّها بدُسُرٍ ـ يعني مساميرَ الحديد ـ وبعث الله تعالى جبريلَ يعلِّمه صنعةَ السفينة[1]، قال: فكانوا يمرُّون به ويسخرون منه ويقولون: ألا تَرون هذا المجنون يتَّخذ بيتًا يسير به على الماء، وأين الماء؟! ويضحكون منه، فذلك قوله: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، فأوحى الله تعالى إليه: أن عجِّلْ صنعة السفينة فقد اشتدَّ غضبي على مَن عصاني، فانطلق نوحٌ فاستأجر أجيرين نجَّارين يعملان معه، وسامٌ ويافثُ وحامٌ معه ينحتون السفينة، فجعَل السفينة ستَّ مئة ذراع طولها وستين ذراعًا في الأرض، وعرضَها ثلاثَ مئة ذراعٍ وثلاثةً وثلاثين ذراعًا، وطولَها في السماء ثلاثةً وثلاثين ذراعًا، وأمره بطليه بالقار من داخله وخارجه، ولم يكن في الأرض قارٌ، ففجر الله تعالى عينَ القارِ حيث يَنحت السفينة تغلي غليانًا حتى طلاها، فلمَّا فرغ منها جعل لها ثلاثة أبوابٍ، وأطبقها، وجعل في طَبَق منها السباع والدوابَّ، وألقى الله على الأسد الحمَّى وشغله بنفسه عن الدوابِّ أن لا يتحرك[2]، وجعل الوحوش والطير في الباب الثاني ثم أطبق عليها، وجعل الذَّرَّة[3] معه في الباب الأعلى لضعفها أن لا يطأها الدوابُّ، وقال: يا رب! ما علامة ما بيني وبين الماء؟ فقال: إذا فار التنور[4].

---

(١) في (ر): «الفلك»، والمثبت من (أ) (ف)، وكلا اللفظين وردا في المصادر.

(٢) «أن لا يتحرك» ليس في (أ).

(٣) في هامش (ر): «الذرة: النملة الصغيرة».

(٤) رواه إسحاق بن بشر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤١٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٢/ ٢٤٨)، وذكره الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٧٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٠٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٣٠). وإسحاق بن بشر هو صاحب كتاب «المبتدأ»، قال الذهبي في ترجمته من «الميزان»: تركوه، وكذبه علي بن المديني، وقال الدارقطني: كذاب متروك.

قال مجاهد: فار التنُّور بأرض الجزيرة(١).

وقيل: فار بالكوفة في مسجد الكوفة مما يلي أبواب كندة(٢).

وقال جعفر بن محمد: فار التنور في دارِ نوح من تنُّورٍ تخبزُ(٣) [فيه] ابنته، وكان نوح عليه السلام يتوقَّع ذلك، إذ جاءته ابنته فقالت: يا أبتِ، قد فار الماء من التنُّور، فأعطَى النجارين أجورهم إلا نجارًا، قال له: أعطني أجري، فقال: أعطيك أجرك على أن تركب معنا، قال: أيها المجنون أعطني أجري فإن ودًّا وسواعًا ويغوثَ ويعوقَ ونسرًا سيُنجونني مما يريد إلهك، فأخذ نوحٌ صلوات الله عليه فضةً من أصحاب السفينة ودفعها إليه، وقال له: ستعلم أيُّنا المجنون إذا حلَّ العذاب غدًا، وأوحى الله تعالى إليه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان ممن سبق عليه القولُ امرأتُه والقةُ وابنه كنعانُ، فقال: يا رب، هؤلاء قد حملتُهم فكيف لي بالوحوش والبهائم والسباع والطير؟ قال: أنا أحشرهم عليك، فبعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب يديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى فيدخله السفينة، حتى أدخل(٤) فيها عِدَّةَ ما أَمر الله تعالى به.

---

(١) كذا ذكر عن مجاهد، والذي في المصادر عنه أن ذلك كان بالكوفة. كذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٨)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤١٥)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ١١٥). والذي ذكره المؤلف رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) عن ابن عباس وقتادة: أنه العين التي بالجزيرة عين الوردة. قلت: وعين الوردة هو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٧ و١٨٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨) عن علي رضي الله عنه، وقال: ورُوي عن حذيفةَ والشعبيِّ ومجاهدٍ نحوُ ذلك.

(٣) في (أ): «بخبر»، وفي المصادر: (تختبز)، وما بين معكوفتين بعدها من المصادر.

(٤) في النسخ: «حتى إذا حمل»، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

قـال: فلمَّـا جمعهم في السـفينة[١] رأت البهائـم والوحوش والسـباع العذاب، فجعلـت تلحَس قدم نـوح وتقـول: احملنا معك، فقـال: إنمـا أُمـرت أن أَحملَ[٢] من كلّ زوجيـن اثنين[٣].

قال قتادة رحمه الله: فانفَجرتِ الأرض أربعين يومًا وليلةً، والسماءُ تنهمِرُ مثلَ ذلك، فكان ما خرج من الأرض وما نزل من السماء مقدارًا واحدًا، وجرت السفينة مئة وخمسين يومًا بعد الأربعين التي مطرت وكان في السفينة مع نوح عليه السلام بنوه سام وحام ويافث ونساؤهم الثلاث وكانت السفينة مطبَّقةً.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وكان آخِرُ ما حمل نوحٌ عليه السلام الحمارَ، وتعلَّق إبليس بذنَب الحمار، وقد دخلت يداه السفينة ورجلاه خارجتان ولا يستطيع أن يدخل، فجعل الحمار يضطرب، فصاح نوح: ادخل، ويلك ادخل[٤] ولو كان معك الشيطان، فدخل الحمار ودخل معه إبليس، فقال نوح: يا عدو الله! ما أدخلك؟ قال: ألستَ قلتَ للحمار: ادخُل ولو كان الشيطان معك[٥]؟

---

(١) «قال: فلما جمعهم في السفينة» ليس في (ف).

(٢) «أن أحمل» ليس في (أ).

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣٠)، ورواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٢/ ٢٥٢) من طريق إسحاق (وهو ابن بشر) عن ابن إسحاق قال: وسمعت من حدثني عن جعفر بن محمد بإسنادهم أنه قال...، وإسحاق بن بشر تقدم قريباً الكلام عليه. والراوي عن جعفر مبهم، والخبر مرسل، والأظهر أنه من أقاصيص أهل الكتاب.

(٤) في (ر): «ونوح يقول ويحك ادخل».

(٥) ذكره عن ابن عباس الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٧٨)، ورواه عنه بنحوه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٢٨)، ورواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٢/ ٢٥٧) من طريق إسحاق بن بشر عن مقاتل. وكل هذا من الإسرائيليات والله أعلم. انظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢١٧).

وجاءه عُوجٌ وقال لنوح[1]: أدخلني معك، قال: اخرج يا عدو الله فإني لم أؤمر بك، قال: وطبَّق الماءُ على وجهِ الأرض وما بلغ ركبتي عوج[2].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وعاش عُوجٌ ثلاثة آلاف سنة، وكان عسكرُ موسى عليه السلام فرسخًا في فرسخٍ، فجاء عوجٌ حتى نظر إلى عسكره، ثم أتى الجبلَ فقوَّر منه صخرةً قَدْرَ العسكر، ثم حملها ليُطْبِقها على عسكر موسى، فبعث الله تعالى الهدهد ومعه هذا الماسُ حتى قوَّر الصخرة، فانتَقَبتْ ووقعت في عُنق عوجٍ فطوَّقته وصرعته، فقتله موسى عليه السلام[3].

---

(١) في (ف): «يا نوح».

(٢) ذكره عن ابن عباس الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٨١)، وليس بأحسن مما قبله، وانظر التعليق الآتي.

(٣) ذكره الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٣٣٠)، وفي «تفسيره» (٤/ ٣٦)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩)، والخازن في «تفسيره» (٢/ ٢٢)، ولم يذكروا له سنداً ولا راوياً. وقد تعقب العلماء المحققون هذه القصص عن عوج بن عنق وردوها، فمن ذلك قول ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]، قال: وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق، بنتِ آدم عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثةَ آلاف ذراع وثلاثَ مئة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، تحرير الحساب! وهذا شيء يُستحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زِنْية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٠] وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ =

وقيل: إن عوجًا إنما لم يهلك بالطوفان لأنه كان أعان نوحًا على حمل خشب السفينة، فأُمهل مجازاةً له على ذلك.

وقيل: بقّاه مدةً ليُخبر الآخَرين عما شاهد ليعتبِروا به.

وقيل: إن الذين معه في السفينة كانوا ثمانين، وقيل: أربعين، وقيل: سبعة نفرٍ.

***

(٦٥) ـ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: عطفٌ على قوله: ﴿نُوحًا﴾؛ أي: وأرسلنا إلى عاد ـ وهم قومٌ سُمُّوا باسم أبيهم، وهو: عادُ بنُ عَوْصِ بنِ إرم بن سامِ بن نوحٍ النَّبيِّ ﷺ ـ أخاهم؛ أي: نسيبَهم هودًا ترجمة له وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود(١) بن عاد بن عَوْص بن إِرَم بن سام بن نوحٍ.

= [هود: ٤٣] وإذا كان ابن نوح الكافرُ غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظرٌ، والله أعلم.

ومما قاله ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ٧٦): من الأمور التي يعرف بها كون الحديث موضوعاً أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه؛ كحديث عوج الطويل، وليس العجب من جرأةِ مَن وَضَعَ هذا الحديثَ وكَذَب على الله تعالى، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره.

ثم قال: ولا ريب في أن هذا وأمثاله من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل وأتباعهم.

(١) قوله: «رباح بن الخلود» تحرف في النسخ إلى: «تارح بن حاوث»، والمثبت من المصادر. انظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٤٥)، و«تاريخ الطبري» (١/ ١٣٣)، و«عرائس المجالس» (ص: ٨٥)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٤٥)، و«تاريخ اليعقوبي» (١/ ٢٢)، و«المنتظم» (١/ ٢٥٢)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٢٣)، و«الدر المنثور» (٢/ ٧٤٨). وهذه رواية الكلبي، وروي في نسبه عن ابن =

قال السدِّي: كان عادٌ قومًا من أهل اليمن بالأحقاف، وهي الرمال.

وقال محمد بن إسحاق ومقاتلٌ وجويبرٌ وسعيد بن جبير: إن عادًا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، وذلك أن العرب عبَدت أصنام قومِ نوح بعد نوحٍ، فتفرَّقوا في عبادتهم الأوثان[1]، وفرَّقوا أصنام قوم نوحٍ بينهم، وكانت هُذيل بن مُدْرِكة بن خِنْدِفَ[2] اتَّخذوا سُواعًا إلهًا يعبدونه بدُومة الجَندل، وكانت أنعمُ من طيِّئٍ وأهلُ جُرَش من مَذْحِجٍ من أهل اليمن اتَّخذوا يغوثَ إلهًا يعبدونه بجُرَش، وكانت خَيْوان[3] بطنٌ من هَمْدان اتَّخذوا يعوقَ إلهًا يعبدونه من دون الله بأرض همدان من اليمن، وكانت ذو الكَلَاع اتخذوا بأرض حِمْيَرَ نَسرًا إلهًا يعبدونه من دون الله، وكان قوم هودٍ وهم عادٌ أصحابَ أوثانٍ يعبدونها من دون الله تعالى، فاتخذوا أصنامًا على مثال وَدٍّ وسُواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونسرًا، واتَّخذوا صنمًا يقال له: صمود، وصنمًا يقال له: الهبار، فبعث الله إليهم هودًا، وكان هودٌ من قبيلة يقال لها: الخُلُود، فبعثه الله تعالى إليهم وكان من أوسطهم نسبًا[4]، وأفضلهم موضعًا، وأشرفهم نَفْسًا[5]، وأصبَحهم وجهًا، وكان أبيضَ جَعْدًا باديَ العَنْفَقة[6]، طويلَ اللحية، فدعاهم إلى الله تعالى، وأمرهم أن يوحِّدوا الله وأنْ لا يجعلوا مع الله إلهًا آخَرَ، وأن يكفُّوا عن ظلم

= إسحاق غير ذلك، ذكره الثعلبي. والخلود بضم الخاء واللام كما ذكر صاحب «المنتظم».

(١) في (ر): «الأصنام».

(٢) في (أ): «حذف».

(٣) في النسخ: «حيوان»، والصواب المثبت. انظر: «اللباب في تهذيب الأنساب» (١/ ٤٧٩).

(٤) في (ف): «حسبًا».

(٥) في (ف): «نسبًا».

(٦) العنفقة: شعرات من مقدمة الشفة السفلى، ورجل بادي العنفقة: إذا عري موضعها من الشعر. انظر: «اللسان» (مادة: عنفق).

الناس، قالوا: ولم يأمرهم بغير ذلك من صلاةٍ أو شريعةٍ، فأبوا ذلك[١] فكذبوه، فذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: مرَّ تفسيرُه كما مرَّ في قصة نوحٍ صلوات الله عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: استفهام بمعنى الأمر؛ أي: اتَّقوا الله.

* * *

(٦٦) ـ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾: قال الكلبيُّ: أي: في جَهالةٍ.

وقال مقاتل رحمه الله: أي: في حُمق[٢]، وفي اللغة: هي خفَّة العقل.

وقوله تعالى: ﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: قال الحسن رحمه الله: كان تكذيبهم على الظن لا على اليقين[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ في ابتداء ما دعاهم؛ لأنه كان صدوقًا أمينًا عندهم قبل ذلك، فلما أقام الدلالات وأثبت

---

(١) «فأبوا ذلك» ليس في (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٥).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٢٠٤).

عيبَ آلهتهم عاندوا [١] فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨][٢].

وقيل: في تفسير الظن: إنه قوةُ المعنى في النفس من غيرِ بلوغ حالة الثقة [٣] التامة، وليس كالشك الَّذي هو وقوفٌ بين النقيضين من غير تقويةٍ لأحدهما على الآخر.

وقيل: معناه: وإنَّا لنَعْلَمُك، قال الشاعر:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألفَيْ مُدجَّجٍ   سراتُهم في الفارسيِّ المسرَّد [٤]

أي: اعلموا.

قوله: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قال الكلبي رحمه الله: أي: في ادِّعائك النبوة[٥].

وقال مقاتل رحمه الله: أي: فيما تقول من نزول العذاب بنا[٦].

* * *

(١) في (ف): «عادوا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٣).

(٣) في (ف): «البينة».

(٤) البيت لدريد بن الصمة. انظر: «الأصمعيات» (ص: ١٠٧)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ١٨٠)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١١/ ٣٠١). قال البغدادي: المدجج بفتح الجيم وكسرها: الكامل السلاح، وقيل: بالكسر للفارس وبالفتح: الفرس، وإنهم كانوا يدرعون الخيل. و(سراتُهم) بالفتح: أشرافهم، مبتدأ و(بالفارسي) خبره، والباء بمعنى في. والدرع الفارسي يصنع بفارس. والمسرد: المُحكم النسج، وقيل: هو الدَّقيق الثقب.

(٥) انظر: «البسيط» (٩/ ٢٠٤).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٥)، و«البسيط» (٩/ ٢٠٤).

(٦٧) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هو كجواب نوح وقد فسَّرناه.

* * *

(٦٨) ـ ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾: أي: ناصحٌ لكم أمينٌ على وحي الله تعالى، وقد فسَّرنا سائره في قصة نوح عليه السلام، ومعنى الأمين على الوحي: أن لا يغيِّره ولا يَكذِب فيه؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

* * *

(٦٩) ـ ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ قد فسرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾: أي: سكانَ الأرض بعدَهم

و﴿خُلَفَآءَ﴾: جمعُ خَليف، فأما الخلائف فهي جمعُ خليفة.

وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾: قيل: هي بسطةُ[1] اليدين بالتصرُّف، وقيل: بالمال، وقيل: هي بسطةُ الجسم في الخِلقة.

---

(١) في (ف): «بسط».

وقال مقاتلٌ: ﴿بَصۜۜطَةً﴾؛ أي: في الطول، وكان طول كلِّ واحد منهم اثني عشر ذراعًا [ونصفاً](١).

وقال الكلبي: ﴿بَصۜۜطَةً﴾ أي: فضيلةً في الطول، وكان أطولُهم مئةَ ذراع وأقصرُهم ستين ذراعًا(٢).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿بَصۜۜطَةً﴾؛ أي: شدة(٣)، يعني: قوةً على قوةِ الخلق.

وقال الشَّرْقيُّ بن القُطَامي(٤): كانوا يتكلَّمون بالعربية، وكان الله أعطاهم بسطةً في الخَلق لم يُعطِ غيرهم، وكان طولُ الرجل منهم ستين ذراعًا، وهذا أطولُهم، وكان أقصرُهم ستَّ عشرةَ ذراعًا، وقال الله تعالى خبرًا عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وكان لهم أموالٌ جمَّةٌ، وقد قال الله تعالى في قصة قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]؛ أي: بالمال، وهم عاد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: نِعَمَ الله، جمعُ إِلًى على وزن مِعًى، قال الشاعر:

أبيضُ لا يرهَبُ الهزالَ ولا يقطعُ رَحِمًا ولا يخونُ إِلَى

وقيل: أَلَى، بفتح الألف على وزن رحًى.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٤٦)، و«البسيط» (٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٠).

(٤) هو الوليد بن الحسين، والشرقي لقبه والقطامي لقب والده، كان عالماً بالنسب وافر الأدب، ضم المنصور إليه المهدي ليأخذ من أدبه. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٤٨)، و«الأعلام» (٨/ ١٢٠).

وقيل: إِلْيٌ على وزن حِسْيٍ.

يقول: اذكروا بألسنتكم وقلوبكم آلاء الله؛ أي:[١] إنعام الله باستخلافكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح، وبإعطائكم عظَم الأجسام وكثرةَ الأموال، فاذكروا نِعَم الله.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: لتفوزوا بكلِّ مأمولٍ، وتُوَقَوا كلَّ محذور.

***

(٧٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾: أي: على توحُّده.

وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: نتركَ ما عبده آباؤنا[٢] من الأصنام.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قرَّر الله سفَههم بهذا تعريضًا، فإنه أخبر عنهم بأنهم عجِبوا بمجيء رسولٍ من البشر، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] فلم يرضَوا برسالة البشر[٣] ورضُوا بإلهية الخشب والحجر، ثم قلَّدوا آباءهم في عبادة الأصنام التي لا تَعقل ولا تضُر ولا تنفع، ولم يقلِّدوا المؤمنين من قوم نوح الذين آمنوا به فنجَوا معه، واتَّبعوا الكفار الذين أُهلكوا بالطوفان، فكان في حق هؤلاء أيضًا ما كان[٤].

---

(١) «آلاء الله أي» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «نترك ما كانوا عليه».

(٣) في (ر): «برسالته»

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

وقال القشيريُّ: إنهم طاحوا في أودية التفرقة، واستطابوا صحبةَ الأغيار، فشَقَّ عليهم حين طولبوا بهجران العادة والقرار في ساحات التوحيد حتى قالوا ما قالوا[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي: بما تُوْعِدنا به من العذاب إن كنت صادقًا في هذه الأخبار.

***

(٧١) - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾: أي: قال هود[2]: قد وجَب عليكم من ربكم عذاب وجوبًا لا خُلف فيه، فكأنه قد وقع، وهو كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

والرِّجس أصله: النَّجَس، وهو المستقذَر، فالرجس عذابٌ يتجنَّبه أولو الألباب.

وقيل: الرِّجس هو زيادة الكفر بالرَّين على القلوب؛ كما في قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

والغضب: السخط، وقيل: هو إرادة الانتقام، وقيل: هو إحلال العقوبة بمن يستحقُّها.

وقوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾: أي: أصنامٍ هي جماداتٌ سمَّيتُموها بأسماءٍ لم يَجعل الله لها شيئًا من

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٥).

(٢) في (ر): «أي قد قالوا هو».

معاني تلك الأسماء، ولم يُنزل حجةً من استحقاقها تلك الأسماء لا عقلًا ولا شرعًا.

وقيل: السلطان: العذر.

وقوله تعالى: ﴿فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾: ﴿فَانتَظِرُوٓاْ﴾[1] قال الحسن: أي: مواعيدَ الشيطان ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾؛ أي: مواعيدَ الله[2].

وقيل: قالوا: نَنتظر موته، فقال لهم: انتظروا ذلك أنتم فإنَّا ننتظِر هلاككم بوعد الله.

* * *

(٧٢) ـ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل: برحمةٍ منا هديناهم، ويحتمل: أنه كان لهم ذنوب لكنْ برحمتنا أنجيناهم، ولأن النجاة لا تكون إلا برحمة الله، قال النَّبي ﷺ: «لا ينجو أحدٌ إلا برحمةِ الله» قيل: ولا أنت؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: استأصلناهم، يقال: دَبَر فلانٌ القومَ يَدْبُرهم فهو دابِرُهم؛ أي: الجائي بعدهم، وقطعُ ذلك يكون باستئصالِ الكل.

---

(١) «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فانتظروا» من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٧). وذُكر هذا القول عن الحسن أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]. انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٣٢٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٣)، و«البسيط» (١٠/ ٤٨٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٥٨)، وذكره الثعلبي (٥/ ١٢٦) أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٧). ولفظ الحديث فيه: «لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله...». وبنحو هذين اللفظين رواه البخاري (٥٦٧٣) و(٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لم يبيِّن آياته التي أعطاها هودًا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فليس بنا إلى معرفة ذلك من حاجةٍ سوى ما أَخبر أنَّ ما حل بهم من العذاب كان بتكذيبهم الرسلَ والآيات[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾: تأكيد قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وقيل: أي: لم يكونوا ليؤمنوا وإنْ تأخَّر عنهم العذاب.

وقال محمد بن إسحاق: فلمَّا عتى عادٌ وتجبَّروا وأَفسدوا في الأرض كلِّها، وقهروا أهلها، أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين، فبعثوا وفدًا إلى مكة لِيَستسقوا لهم.

وكان أهل مكة يومئذ العماليقَ أولادَ عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدُهم إذ ذاك معاويةُ بن بكر، وكان أبوه حيًّا ولكنه كبر.

فلما قُحطوا بعثوا قَيلَ بنَ عترٍ[2]، ولقيم بن هزَّال بن هزيل بن عُتيل[3]، ومَرثد بن سعد بن عفير وكان مسلمًا يكتم إيمانه، وجُلْهُمة بن الخيبريِّ خالُ معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمانَ بن عادٍ الأكبر، فانطلق كلُّ رجل من هؤلاء القوم برَهْطٍ من قومه حتى بلغ عددُهم سبعين رجلًا، فلمَّا قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجَ الحرم، فأكرمهم وأنزلهم وكانوا أخوالَه وأصهاره، فلمَّا نزلوا عليه أقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنِّيهم الجرادتان قَيْنَتان كانتا لمعاوية.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٨).

(٢) في (ر) و(ف): «عثر»، والمثبت من (أ)، ومثله في «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٤)، و«البداية والنهاية» (١/ ٢٩٥)، وجاء في المصادر أيضاً: (عنز) و(عير).

(٣) «ولقيم بن هزال بن هزيل بن عُتيل» كذا في «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٤) وزاد: بن صد بن عاد الأكبر، وفي «تفسيره» بتحقيق الأستاذ محمود شاكر (١٢/ ٥٠٩): (ولقيم بن هزّال بن هزيل، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر).

فلما رأى معاويةُ طولَ مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوَّثون من البلاء الذي أصابهم، شقَّ عليه ذلك، وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهم ضيفي نازلون[١] عليَّ، واللهِ ما أدري كيف أصنعُ؟ وإني لأستحيي أن آمُرَهم بالخروج إلى ما بُعثوا له، وشكا إلى قَيْنتيه فقالتا له: قل شعرًا نغنِّيهِم به ولا يدرون مَن قاله، لعل ذلك أن يحرِّكهم، فقال معاوية بن بكر في ذلك أبياتًا غنَّتهم[٢] بها الجرادتان، فلما سمع القوم ما غنَّتا به قال بعضهم لبعض: إنما بعثكم قومكم يتغوَّثون بكم من هذا البلاء، وقد أبطأتم عليهم، فقال قَيلٌ سيدهم: الخمر عليه حرام حتى يذهب فيستَسقيَ لقومه[٣].

فقال مرثد بن سعد بن عُفير[٤]: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكنكم إنْ أطعتُم نبيَّكم وأَنَبتم إليه سُقيتم، وأظهر إسلامه عند ذلك، فقال له جلهمةُ: إنك من قَبيلِ عادٍ، وأمُّك[٥] من ثمودَ، فكيف تأمرنا أن نترك دينًا هو دين آبائنا ودين آبائك؟! ثم قالوا لمعاوية بن بكر: احْبِسْ عنا مرثدَ بن سعد لا يَقْدَمن مكة معنا، فإنه قد اتَّبع دين هود، فخرجوا دونه.

---

(١) في (ر) و(ف): «نزلوا».

(٢) في (ر): «تغنيهم».

(٣) في (ر): «الخمر علي حرام حتى أذهب فأستقي لقومي».

(٤) في (أ): «عقير».

(٥) في (ف) و(أ): «وإنك»، والمثبت من (ر)، وهو الصواب، وقد جاء عند الطبري جواب جلهمة لمرثد شعراً، وهو كما في «تفسير الطبري»:

أبا سَعْدٍ فإنَّكَ مِن قَبيلٍ ... ذَوِي كَرَمٍ وأُمُّكَ من ثَمُودِ
فإنَّا لن نُطيعَكَ ما بقِينا ... وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تُرِيدُ
أَتَأْمُرُنَا لِنَتْرُكَ دِينَ رِفْدٍ ... ورَمْلٍ والصُّدَاءَ مع الصَّمودِ
وَنَتْرُكَ دِينَ آباءٍ كِرَامٍ ... ذَوِي رأيٍ ونَتْبَعَ دِينَ هودِ

ثم إنه خرج خلفهم، فأتوا مكة وصعدوا الصفا، فقال قَيل بن عترٍ: يا إله هود، إن كان هودٌ صادقًا فاسقنا فإنَّا قد هلكنا، وإنَّا لم نأتكَ[١] لمريض تشفيهِ، ولا لأسيرٍ نُفاديه، فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم نادى منادٍ: يا قَيل، اختر لنفسك ولقومك من هذه السحابات، قال قَيل: أما البيضاء فلا ماء فيها، وأما الحمراء فعارِض، وأما السوداء فهي مُظلمةٌ وهي أكثرها ماءً، فقال: اخترت السوداء، فناداه منادٍ فقال: قد اخترتَ رمادًا رمددًا[٢] لا يُبقي من آل عادٍ أحدًا.

وساق الله تعالى السحابة السوداء بما فيها من النقمة إلى عاد، فخرجت إليهم من وادي، فلما رأوا السحابةَ السوداء مقبلةً استبشروا بها وقالوا: قد جاءنا وفدُنا بالمطر، وقالوا لهود: أين ما كنتَ تُوْعِدنا؟ ما قولك إلا غرورٌ، هذا عارضٌ ممطرُنا، قال الله تعالى لهود: قل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤][٣].

وأوحى الله تعالى إلى الريح العقيم وهي في الأرض الرابعة، فخرجت بغيرِ كيلٍ على قَدْر مَنْخِر الثور، حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب، فقال الخُزَّان: يا رب، لن نُطيقها، ولو خرجت على حالها لأهلكت الأرض، فأوحى الله تعالى إليها أن ارجعي، فرجعت وخرجت على قَدْر خَرْتِ[٤] الخاتم، وأوحى الله تعالى إلى هودٍ أن يعتزل بمن معه من المؤمنين في حظيرةٍ، فاعتزلوا وخطَّ عليهم خطًّا، وأقبلت الريح فكانت لا تدخل حظيرةَ هود ولا تُجاوز الخطَّ، وإنما يدخل عليهم منها ما تَلَذُّ

---

(١) بعدها في (ف): «أي لبابك».

(٢) في (أ): «رمدًا».

(٣) رواه عن ابن إسحاق مع بعض الزيادة الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٦٩)، وفي «تاريخه» (١/ ١٣٤).

(٤) في (ر): «خرث»، وفي (ف): «جوف». والخرت: الثقب.

به أنفسهم، فأوحى الله تعالى إلى الحيَّات والعقارب بأن يأخذوا عليهم الطرق، فلم تَدَعْ عاديًا يجاوزها، وكانت الريح تحمل الماشية برُعاتها فتقذفُها في البحر، وكانت تدمغهم بالحجارة[1].

فلما عاينوا ما تصنع بهم الريحُ حازوا أهاليَهم وأموالهم وأولادهم ومواشيَهم، ثم قام فيهم رجال لهم شرفٌ فتآمروا على حبس الريح أنْ تصل إلى داخل الشعب[2]، وتحالفوا على أن لا يفترقوا حتى يموتوا، وأن لا يفارقوا دين قومهم، واستيقنوا بالعذاب.

وكان أول ذلك يومَ الأربعاء، فهبَّت عليهم إلى اليوم الثامن، ولم يبق من رؤساء القوم إلا خلجان وهو رئيسهم، وأتاه هود عليه السلام وقال له: يا خلجان، إنه لم يبق من أصحابك غيرُك، وقد رأيتَ ما صنع الله بمن أطاعك[3] وعصاه، والتوبةُ مقبولةٌ منك فيدفع الله بها عن بقية قومك، فقال: كيف بمن مضى منهم وهلكوا؟ قال: يُعْقبك الله مكان كلِّ رجل هلك مئةَ رجل، فقال خلجان: لا وأبيك يا هود، لا يجدني ربك أضعفَ أصحابي، وما كنت لأجمع بين اثنين: الغدرِ بالأغيار[4]، وتركِ المواساة للأصحاب.

ثم قال: يا هود أخبرنا عن هذه الإبل التي تأتينا في الريح، قال: تلك الملائكة

---

(١) رواه إسحاق بن بشر كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٨٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ولعله إن صح يكون مما رواه عبد الله عن أهل الكتاب، لكن إسحاق بن بشر متروك، ورواه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٤/ ٨٦) عن كعب الأحبار.

(٢) في (ف): «الحصن».

(٣) في (ف): «أطاعه».

(٤) في (ف): «بالأغياب».

يوكِّلها الله بمن شاء، فقال الخلجان: تلك التي تفعل بنا الأفاعيل، ثم قال: هل ربُّك مُقِيْدُنا منهم إن تابعناك؟ قال هود: وكيف يُقِيدُ الله من أهل الطاعة لأهل المعصية؟! لا، ولكنه يُعْقِب مَن بقي منكم بكلِّ رجل هَلَكَ منكم مئة رجل، فقال الخلجان: إذا لم يُقِدْنا منهم لم أفعلْ.

فلما سمع هودٌ قوله انصرف عنه، وأقبلت الريح والخلجان قائم وحده على فم الشِّعب آخذٌ بجانبيه، وهو يقول:

لا خيرَ في فرعٍ أُصيب أسُّه لو لم يجئني جئته أَحُسُّه

يا لك من يوم دهاني أَمْسُه

فانتهت الريح إليه فقلبته على وجهه في الأرض ثم حملته وطرحته ميتًا كأنْ لم يكن شيئًا، ودخلت الشِّعب فجعلت تَقْصِفهم[1] وتُزلزلهم وتقتلهم[2]، فأمسَوا وقد هلكوا جميعًا[3].

وقال الضَّحَّاك رحمه الله: صَفُّوا صفوفًا، وحفَروا تحت أرجلهم إلى الرُّكب، وأوثقوها بالثَّرى كي لا تزيلَهم الريحُ، وقالوا: مَن أشدُّ منَّا قوةً، فأمهلهم الله تعالى ثمانيةَ أيام ليعتبرَ عبادُه، فكانت الريح تقصفهم[4] وتضرب بعضَهم على بعضٍ ولا[5] تلقيهم، فلما كان في اليوم الثامن دخلت من تحت أرجلهم فاحتملتهم فضربت بهم الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] وقوله:

---

(١) في (أ): «تعصفهم».

(٢) في (ف): «وتقلبهم».

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٣٧)، وفي «تفسيره» (٢٢/ ١٣٦)، عن ابن إسحاق.

(٤) في (أ): «تعصفهم».

(٥) «لا» ليس في (أ).

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٦] أي: باردة، فكانت تقع على الجلد فتُحرقه[1] برداً حتى ينكشطَ عن اللحم، ثم يصير اللحمُ كقطع النار.

وقال وهب: ما أتت الريح على شيءٍ من النبات والشجر إلا جعلته كالرميم، ونجَّى الله تعالى هودًا، وعاد أصحاب هود على أحسنِ ما كانوا عليه من الخصب، وأتاهم مرثدُ بن سعد فأخبرهم بخبر الوفد بكلِّ شيء كان من أمرهم في مسيرهم، وما كان من أمر السحاب، وزاد المؤمنين إيمانًا ويقينًا واغتباطًا، وحمدوا الله تعالى على ما أكرمهم[2].

* * *

(٧٣) - ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿نُوحًا﴾ و﴿هُودًا﴾؛ أي: أرسلنا صالحًا إلى قومه ثمودَ، وهو صالح بن عبيد بن جابر بن ثمود بن جابر بن سام بن نوحٍ النَّبيِّ عليه السلام، وكان رجلًا أحمرَ[3] إلى البياض، سَبط الشعر، وكان أعزَّ قومه نفرًا، فحماه الله تعالى به وشدَّ ظهره، وكذلك الأنبياءُ يبعثهم الله تعالى في أشرف[4] قوم وأعزِّهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: فسَّرناه في القصتين

---

(١) في (ف): «فتخرقه».

(٢) في (ر): «على إكرامهم».

(٣) بعدها في (ر): «يضرب».

(٤) في (ر): «أشراف».

قبلها، وكانوا يعبدون الأصنام، وكان يدعوهم إلى التوحيد ويبالغُ في ذلك، فكان يدخل عليهم في بيوتهم ويقوم عليهم في مجالسهم وأفنِيَتهم، ويقعد لهم على قوارع الطرق، ويقصد جماعاتهم ويَهجم عليهم في يوم عيدهم، فلا يزدادون إلا طغيانًا وبُعدًا، فقالوا له: أرِنا آية؟ قال: إن أُرِيْتم [١] آيةً فلم تؤمنوا بها نزل عليكم العذاب.

وكان لهم عيد يجتمعون فيه بأصنامهم، فقالوا له: تخرج معنا إلى العيد فتدعو وندعو، قال: أفتدَعون عبادة الأصنام إن استُجيب لي ولم يُستجب لكم؟ قالوا: نعم، فخرج القوم إلى عيدهم وخرجوا بأصنامهم، وخرج معهم صالح، فاجتمعوا على أن يتمنَّوا عليه أمنيةً وهم يُرون أنه سيعجز عنها، وأن ربَّه لا يُسعفه[٢] فيها، فقالوا له: إن آيةَ ما بيننا وبينَك أن تدعوَ ربَّك فيخرجَ لنا من هذه الصخرة ناقةً من الإبل غرَّاء سوداءَ ذاتَ عُرفٍ وناصيةٍ وشعرٍ ووبرٍ، عُشَراء نَتوجًا، فإنْ فعلتَه [٣] آمنَّا بك وصدَّقناك واتَّبعناك، وإن عجزتَ عن ذلك فاكْفُف عنا فإنَّا نكره أذاك وشتمك، وقد كنتَ فينا مرجوًّا قبل هذا، وأنت في شرفنا [٤] وعزِّنا وحسَبنا.

فلما سمع قولهم ضاق به ذرعًا، وخاف أن لا يكون، وأَعظَمَ اللهَ وأجلَّه أن يسأله ذلك، ويتمنَّى عليه مثلَ أماني القوم الذين لا يؤمنون بقدرته، فلم يبرحوا من مجلسهم الَّذي سألوا فيه ذلك حتى تزلزلت[٥] الصخرة، فنظروا إليها تتمخَّض وتَزْحَر[٦] كما

---

(١) في (ف): «أريتكم».

(٢) في (أ): «يشفعه».

(٣) في (أ): «فعلت».

(٤) في (ف): «فنائنا».

(٥) في (ر): «زلزلت».

(٦) الزحير: الصوت، والنفَس بأنين. انظر: «القاموس» (مادة: زحر).

تفعل الأنثى للولادة، فما لبثوا أن تفرَّجت عن أمنيتهم التي سألوا بعينها لم تغادر قليلاً ولا كثيراً[١]، فجاءت بناقة غرَّاءَ سوداء ذات شعرٍ ووبر وعُرف وناصية عُشَراء، وسعةُ ما بين جنبيها مئة واثنان وعشرون ذراعًا، ثم أقبلت تمشي حتى توسَّطتهم، ثم بركت للنِّتاج فلم تقُم حتى وضعت سقبًا قريبًا منها في العِظم وليس مثلَها في العظم[٢]، ثم انبعثت تطلب الكلأ.

فشاركتهم في الماء والشجر، ورعت السهل والجبل، ورعت الـمَشْتَى[٣] والـمَصيف، وكانت تَرِدُ الماء غِبًّا[٤] فتَستوعبُ الماء في يوم وِردها، وتسلُك الفجَّ واردةً فيسعُها، ثم ترجع فيه صادرةً قد تملَّأت من الماء فيضيق عنها الفجُّ حتى يَسْحَج[٥] جنبَها، ثم تَرِد فتَصْدُر وأخلافُها[٦] تَشْخُب لبنًا، فتُلقى بالمحالب والآنية والأسقية فتفرِّغ لهم من اللبن مثلَ ما شربت من الماء.

وكان لهم ركيٌّ عميق في الأرض، فإذا جَمَّ[٧] ارتفع الماء حتى يبلغ رأسه، فتَشرع فيه وهو ممتلئٌ يفيض، فلا تزال تشربه وتُدْلي فيه رأسها وعنقَها حتى يغيبَ وحتى تستوعبَه، وطولُ الجبِّ عشرون قامةً.

وكان الشِّرب[٨] مقسومًا بينهم وبين الناقة لهم يومٌ ولها يومٌ، وكانوا يشربون

---

(١) في (ر): «صغيرًا ولا كبيرًا».

(٢) «وليس مثلها في العظم» ليس في (ف).

(٣) «ورعت المشتى» ليس في (أ).

(٤) الغب في سقي الإبل: يوم ويوم.

(٥) أي: يَقْشر.

(٦) في (ف): «وتصدر وأحقافها»

(٧) أي: كثر.

(٨) الشِّرب ـ بكسر الشين ـ: الحظ من الماء.

يومَ الناقة من رؤوس الجبال والمغارات، فشقَّ ذلك عليهم، ولو صبروا لفجَّر الله لهم الأنهار والعيون، ولكنهم استعجلوا وعصَوا ربهم، وقد كانوا يكتفون من الماء ما يُصيبون منه في يومهم الذي كان لهم فيه الشِّرب، وإنما حمَلهم على ما صنعوا الحسدُ والبغي والبغض لناقة الله ولرسوله.

فلبثت بين أظهُرهم زمانًا، فكسَر حدَّهم ما يرون فيها من العُجب وقَطَع ألسنتَهم، وهي شَعْراءُ وَبْراءُ يتحاتُّ عنها الوَبر إذا صافت فتُوْسِعُهم لُحفاً، ويتحاتُّ عنها الشعر إذا شتَت فتُوْسِعهم بيوتًا، فلبثت فيهم[١] ما شاء الله.

وكانت الناقة تَصِيف في الجبل فتهرب منها المواشي أغنامُهم وإبلهم وبقرهم، فتهبط إلى بطن الوادي في حرِّه وجُدوبته، وكانت تهرب من الناقة لعظَمها، وكانت تَشْتو في[٢] السهل فتهرب المواشي منها إلى الجبل، فأَضَرَّ ذلك بمواشيهم للبلاء الذي كتبه الله عليهم.

وكان في ثمود يومئذ امرأتان موسومتان بالجمال الفائق[٣]، غنيَّتان لهما مالٌ كثير من الشاءِ والبقر والنَّعَم، إحداهما تسمَّى: صَدُوف[٤]، والأخرى: عُنَيزة، وكان لهما خِطْبان من قومهما يألفانهما ويتحدَّثان إليهما، أحدهما يقال له: قُدَارُ بن سالفٍ، والآخر يقال له: مِصْدَع بنُ مَهْرَج.

---

(١) «فيهم» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «وكانت تستوفي».

(٣) في (أ): «بجمال فائق».

(٤) في (ف): «صدوق» وكذا وقع في باقي المواضع الآتية، ومثله في بعض المصادر. انظر: «عرائس المجالس» (ص: ٩٣)، و«روح المعاني» (٩/ ٢١١)، وكذا في نسخة من «البداية والنهاية» (١/ ٣١٣)، والمثبت من (أ) و(ر)، وهو الموافق لما مصادر أخرى. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤١).

وكان قدارٌ رجلًا أحمرَ أمعرَ أشقرَ أزرق سُناطًا[١] قصيرًا، وهو خِطْب صَدوف، وكان مصدعٌ عزيزًا منيعًا في قومه، وكان رجلًا نحيفًا طويلًا أهوجَ مضطربًا وهو خِطْب عنيزة[٢]، وكانت هاتان المرأتان أشدَّ قومهما عداوةً لصالح وأعظمَهم كفرًا بما جاء به صالح من الله، وكانتا تحرِّضان قومهما على عقر الناقة لِمَا قد ضرَّت لهما من المواشي.

ثم إن خِطْبَيهما زاراهما يومًا من الأيام، فقالت صدوف: لو كان لنا مزاجٌ لأسقيناكما[٣] خمرًا، ولكن هذا يوم ورد الناقة فلا سبيل إلى الماء، وقالت عنيزة: بلى والله، إن إلى الماء سبيلًا واسعًا لو كانت رجالنا رجالًا، وهل هذه الناقة إلا واحدة من الإبل تُطرد ويضرب وجهها كما تُضرب الغريبة من الإبل، ولكن لا رجال في الوادي.

قال قُدار: فماذا لي عليك يا صَدوف إنْ أنا فعلتُ ما قالت عُنيزة، فكفيتُكِ الناقة اليومَ وخلا لك الشِّرب، فأوردتِ ماشيتكِ وتروَّيتِ وأصبتِ من الماء حاجتَك؟ قالت: لك إذاً نفسي، وسفَرت عن وجهها فإذا هي أحسنُ النساء.

---

(١) في (ر): «سباطًا» وفي (ف): «كوسج سناطاً». والسناط هو الكوسج، كما في «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٧٦)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٢/ ٢٣٧)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ٣٠٣). وقال في «القاموس»: والسِّنَاطُ، بالكسر وبالضم: كَوْسَجٌ لا لحيةَ له أصلاً، أو الخفيفُ العارِضِ ولم يَبْلُغْ حالَ الكَوْسَجِ، أو لحيتُه في الذَّقَنِ، وما بالعارضينِ شيءٌ.

(٢) كذا ذكر عن عنيزة، ونحوه في «درج الدرر» للجرجاني (١/ ٦٧٣)، والذي روي عن ابن إسحاق وغيره: أن عنيزة كانت امرأةَ رجل من أشراف ثمود يسمى: ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزًا مسنة، وكانت ذات بناتٍ حسان، وأنها دعت قدارَ بن سالف فقالت: أعطيك أيَّ بناتي شئتَ على أن تعقر الناقة. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٢٨٧)، و«عرائس المجالس» (ص: ٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٤٩).

(٣) في (أ): «لأوسعناكما».

ولما سمع مصدعٌ قولها طمع في صاحبته[١] فقال: ما لي عليك يا عُنيزة إن أنا شاركت قُداراً فيما قال، فشاركتِ في الماء صاحبتَك؟ قالت: لك إذًا نفسي، وسفَرت عن وجهها ووجوهِ بناتها فقالت: اختر فينا، فإذا هو حسنٌ لا يعلمه إلا الله.

قالا: فإن كنتُما تريدان ذلك فأَميلا علينا الخمر، فأمالتا عليهما الخمر صِرفًا بغير مِزاجٍ، حتى إذا سَكِرا خرجا إلى أخدانٍ لهما من سفهاء ثمودَ فاستغوياهم[٢]، فأجابهما منهم سبعةٌ فكانوا تسعةً، منهم: قُدَار بن سالف ومِصْدَع بن مهرج، ورباب بن مهرج، والهذيل[٣] بن عثروك، وعيم بن عيم، وعفير[٤] بن كَرْدمٍ، وعاصم بن مَخْرَمةَ، وسَلِيط بن صدقة [٥]، ونشيط بن نفيق[٦].

ثم انطلقوا ومعهم النَّبْلُ [٧] والسيوف حتى قعدوا للناقة على باب الفجِّ، فلما وردت حملوا عليها ليضربوا بسيوفهم فشدَّت عليهم فانهزموا، وكَمَن قُدارٌ من خلفها فتعاطى عرقوبَها الأيمنَ بالسيف فعقرها، وفوَّق[٨] مصدعٌ سهمًا للعرقوب

---

(١) في (أ): «صاحبتها».

(٢) في (أ): «فاستغويا».

(٣) في (ر): «والهزيل»، وفي (ف): «والهديل».

(٤) في (أ): «وعقير».

(٥) في (ر): «صدفة».

(٦) في (أ): «شفيق». وانظر: «التيجان في ملوك حمير» (ص: ٣٩٢) لابن هشام، وفيه عن وهب بن منبه: أن اسم الرهط الذين تحالفوا على عقرها: قدار بن سالف، ومصدع بن مهرج، وذؤاب بن مهرج، والهزيل بن متروك، وغنم بن غنم، وعفير بن كردم، وعاصم بن مخرمة، وسليط بن حدقة، وبسيط بن نعيق.

(٧) في (ف): «النصل».

(٨) فوَّق السهمَ: جعل له فُوْقاً، والفُوْق: موضع السهم من الوتر، ولعله هنا بمعنى: أَفَقْتُ السهم =

الأيسر فخرَّت عَقيرةً، ووجَأ قُدار لَبَّتها[1] بالسيف فنحرها، فلما رأى الفصيل ما فُعل بأمه ولَّى هاربًا منهم حتى[2] صعد جبلًا، ثم رغا رغاءً تقطَّعت منه قلوبُ القوم.

فلما سمع الناس بذلك تبادروا عليها فانتسَلوا[3] لحمها، وصالحٌ نازحٌ عنها في دار قومه ولا عِلمَ له بها، حتى بلغه الخبر وقيل له: هل علمتَ أن ناقة ربِّك قد عُقرت وتقسَّمت وغلتْ بلحمها المراجلُ؟! فخرج نحوها سريعًا في عُصبة من قومه، فوجدها كذلك، فأَوْعدهم العذاب فشتموه.

وتفاقَم الشرُّ بينهم، ونَشبت العداوة، وقال لهم صالح: التمِسوا الفَصيل، فإنْ أنتم وجدتُموه وإلا فاعلموا أن العذاب نازلٌ بكم، فانطلَقوا يطلبون الفصيل في الجبل، فكلما أرادوا أن يصعدوا على الجبل ازداد الجبل طولًا في السماء فلم يقدروا عليه، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالعذاب، وقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وذلك عند مساء يوم الأربعاء، قال: وآيةُ ذلك أن تصبحوا غدًا ووجوهُكم مصفرَّةٌ، وبعد غدٍ محمرَّةٌ، واليومَ الثالث مسودَّةٌ، ثم ينزل بكم العذاب.

فلما قال لهم ذلك تآمروا في قتله، فانتَدب له أصحابُ الناقة التي عقروها وهم تسعةٌ، وتعاهدوا على بياته ليقتلوه وأهلَه، ثم انطلقوا يسيرون إليه في بعض الليل، فلما انتهَوا إلى داره لقِيَتْهم الملائكة فدمغوهم فأصبحوا قتلى مصروعين، فلمَّا بلغ قومَهم قتلُهم ظنُّوا أن صالحًا هو الذي قتلهم، فخرجوا في جمعٍ عظيم يريدون صالحًا، فلما انتهَوا إليه لقيَهم قوم صالح فقالوا لهم: ماذا تريدون؟ قالوا:

= وأَوْفَقْتُه؛ أي: وضعت فُوقه في الوتر. انظر: «القاموس» (مادة: فوق).

(١) في (أ): «لبها».

(٢) في (ر): «ثم».

(٣) في (ف) و(أ): «فانتشلوا».

نريد نقتل صالحًا وثمانيةً من قومه بمَن قتل منَّا، قال لهم قوم صالح: لا تستعجلوا حتى تستدبِروا الموعد الذي وعدكم ربُّكم[(١)]، فإن كان حقًّا فلا تزيدوا ربّكم عليكم غضبًا، وإن كان ما وعدكم باطلًا فأنتم مِن وراء أمركم. فانصرفوا وتركوهم.

فأصبحوا يومَ الخميس ووجوهُهم مصفرةٌ، ثم أصبحت محمرةً يومَ الجمعة، ثم أصبحت مسودَّةً يوم السبت، فلما نظروا إلى وجوههم مسودَّةً خدُّوا لهم أخدودًا وتزمَّلوا بالأنطاع والقباء[(٢)]، وسدُّوا أبوابهم، ولزموا قُعور البيوت، فلما صيحَ بهم همَدوا، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ [الشمس: ١٤]: أرسل عليهم عذابًا فأهلكهم بذنوبهم ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] الصغيرَ والكبيرَ أجمع، لم يَبق منهم أحدًا أخذتهم الصيحة بياتًا من ليلة الأحد ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

ويقال: إن قُداراً لم يكن لِرِشْدةٍ[(٣)].

ولم يُفلت منهم غيرُ جارية مقعدةٍ، وكانت شديدةَ العداوة لصالحٍ ولمن آمَن به[(٤)]، شديدةَ الكفر بالله تعالى، فلما أهلكهم الله أطلقَ لها رجلها ليَعتبر الناس بها[(٥)]، ولتحدثَهم بالذي رأت من العذاب، فخرجت تسعى حتى إذا انتهت إلى وادي القرى أخبرتهم الخبر، واستسقت من الماء فسقَوها، فلما شربت ماتت.

---

(١) «ربكم» من (ف).

(٢) «والقباء» ليس في (ف).

(٣) أي: كان ابن زنى، وفي خبر ابن إسحاق: (يزعمون أنه كان لزنْيَةٍ، من رجل يقال له: صهياد، ولم يكن لأبيه سالف الذي يُدعى إليه، ولكنه قد ولد على فراش سالف، وكان يدعى له وينسب إليه). انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٢٨٧).

(٤) في (ف) و(أ): «معه».

(٥) في (أ): «ليشعر بها الناس» وفي (ف): «ليعتبر لها الناس».

وقال النَّبيُّ ﷺ: «يحشرُ صالحُ على ناقته يوم القيامة»[١].

وقال صالح لقومه: يا قوم، إن هذه دارٌ قد سخط الله عليها وعلى أهلها، فاظْعَنوا عنها فإنها ليست لكم بدار، فقالوا: رأيُنا لرأيك تبعٌ فأْمُرنا نفعل[٢]، قال: تلحقون بحرم الله وأمنه، لا أرى لكم قرارًا دونه، فأهَلُّوا من ساعتهم بالحج، وأحرموا في العَباء، وارتحلوا قِلاصًا حمرًا مخطمةً بحبالٍ من ليفٍ، ثم انطلقوا يلبُّون آمِّين حرم الله حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة والحِجر[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾: أي: علامةٌ تفصِل بين الحقِّ والباطل.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾: هي الأنثى من الإبل، وإضافتُها إلى الله تشريفٌ لها؛ لأنها لم تخرج من ناقةٍ بل من صخرةٍ بإخراج الله تعالى معجزةً لصالح.

قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾: أي: علامةً ظاهرةَ على رسالتي، ونصبُها على القطع لأنها نكرة وُصفت بها معرفةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾: أي: ذروها[٤] ترع في أرض الله لا مؤنة عليكم في رعيها وسقيها.

---

(١) رواه الطبراني في «الصغير» (١١٢٢)، و«الكبير» (٢٦٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٣٣): رواه الطبراني في «الصغير» و«الكبير»، وفيه أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف وقد وثق، وعثمان بن يحيى بن صالح المصري كذلك، وبقية رجالهما رجال الصحيح.

(٢) في (ف): «بفعل».

(٣) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٧٣) عن وهب بن منبه.

(٤) في (ف): «دعوها».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: أي: لا تصيبوها بمكروهٍ من عَقر ونحوه.

قوله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: وجيعٌ، وهو في الدنيا، وقد قال في سورة أخرى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤][(١)].

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾: أي: سكانَ الأرض بدلًا عن عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مكَّنكم من منازلَ تأوون إليها.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾: السهلة: الأرض الليِّنة، والأرض هي الحِجْر، وهو ما بين الحجاز والشام.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾: أي: تجعلون في الجبال بيوتًا بخرقها ونقبها، وكانوا يتخذون القصورَ للصيف وبيوتَ الجبال للشتاء.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: فسَّرناه ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: لا تُبالِغوا في الإفساد فيها بالكفر، وقيل: بالمعاصي.

* * *

(٧٥) ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ

---

(١) بعدها في (ف): «وهو في الدنيا».

﴿ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾: هو بدلٌ عن الأول، وهو بدلُ البعض عن الكلّ؛ لأن من المستضعَفين مَن لم يؤمن بالله.

وقوله تعالى: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾: سألوهم عن العلم فأجابوهم عن الإيمان، وهو خلافُ جوابهم في الظاهر.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وله وجهان:

أحدهما: أن معنى قوله: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أتؤمنون؟ لأنه استفهام بمعنى الاستنكار، وإنما يُستنكر على الإنسان صنعُه، والعلم قد يقع له بغيرِ صُنعه، لكن معناه: أتعلمون ذلك بقلوبكم[1] وتعتقدونه وتُقِرُّون به، فأجابوا بالإيمان لأن السؤال كان عنه معنًى.

والثاني: أن في الجواب إضمارًا، وتقديره: إنَّا عالمون بذلك ومؤمنون به[2].

* * *

(٧٦) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: أَخبروا أنهم مخالفون لهم.

وقال القشيري رحمه الله: أجرى الله تعالى سنَّته أنه لا يختصُّ بإفضاله، وجميلِ صُنعه وإقباله، في الغالب من عباده، إلا مَن لا يَسْموا إليه طَرْفٌ بالإجلال، ولا يُوضع له قَدْرٌ بين الأضراب[3] والأشكال، فأنصارُ كلِّ نبيٍّ إنما هم ضعفاءُ وقته، ثم

---

(١) «بقلوبكم» ليس في (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٨٢).

(٣) في (أ): «الأقران»، والمثبت موافق لما في «اللطائف».

إن مَن لا حظهم من أهل الغفلة بعين الاحتقار، فليس كما يذهب إليه الأوهام[١]، ولا كما يَعتقد فيهم الأنام، بل الجواهر مستورةٌ في معادنها، وقيمة المحالِّ بساكنها[٢]، قال قائلهم:

وما ضَرَّ نَصْلَ السيفِ إخلاقُ غِمْدِه إذا كان عَضْبًا حيث وجَّهْتَه بَرَى

وقال ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أَغبرَ ذي طِمْرين لا يؤبَهُ له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[٣].

* * *

(٧٧) ـ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: عقرُ الناقة[٤]: هو قطعُ العرقوب، والمراد به القتل.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر هاهنا ﴿فَعَقَرُواْ﴾ على الجمع، وقال في آيةٍ: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] على الواحد، وقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] على الواحد، والتوفيق: أنه عَقَرها واحدٌ بعونِ الجمع فكأنهم عقروا، ولذلك أوجَبْنا القصاص على الجماعة إذا عاونوا واحدًا، وكذلك حدُّ قطَّاع الطريق إذا قَتلوا واحداً أن يُقتلوا لذلك[٥].

---

(١) في (ف): «الأفهام».

(٢) في (ف): «تشاكلها».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٨). والحديث رواه الترمذي (٣٨٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه. وقال: حسن غريب.

(٤) «عقر الناقة» من (ف).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: قال مجاهد: العتوُّ: الغلوُّ في الباطل(١).

وقيل: هي مجاوزةُ الحدِّ في الفساد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هو النهاية في التمرُّد، ومعناه هاهنا: خالَفوا أمر الله تعالى متهاوِنينَ به مستكبرينَ عن قبوله(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي: بالعذاب الَّذي تهدِّدُنا به، والوعد يذكر في الخير والشر ويُعرف بالقرينة، وإذا أُطلق فهو في الخير.

***

(٧٨) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: قال مجاهد والسدِّي: أي: الصيحة(٣)، وكذا ذكر في سورة هود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾ [القمر: ٣١].

وقيل: الرجفة هي الزلزلة المحرِّكة، والأخذُ ضدُّ الترك.

وقال مقاتل: أي: العذابُ من صيحة جبريل(٤)، فيحتمِلُ أنهم أُرجفوا بالصيحة،

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٢١٣)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٥) بلفظ: (غَلَوْا في الباطلِ)، وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠١) لكن فيه: (علوا) بالعين بدل الغين، وعقبه الطبري بقوله: وهو من قولهم: جبّار عاتٍ، إذا كان عاليًا في تجبُّره.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، وعن مجاهدٍ ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٧).

ويحتمِل أنه أصابهم صيحةُ جبريل وزلزلةُ الأرض أيضًا، فذَكر أحدهما في موضعٍ والآخرَ في موضع[١]، وذكر الصاعقة في موضعين: في ﴿حمٓ﴾ السجدة وفي الذاريات.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: أي: بكرةَ يوم السبت ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾؛ أي: في بلدهم، ولذلك وحَّد.

وقيل: معنى ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾؛ أي: منازلهم، ووحَّد لأنه جنس؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾: قيل[٢]: بارِكين على ركبهم موتى، من جثوم الطير.

وقال المبرِّد: ﴿جَٰثِمِينَ﴾: ساكنينَ، وأنشد لجرير:

عَرَفْتُ المُنتأَى وعرفتُ فيها ... مطايا القِدْرِ كالحِدَأ الجُثُومِ[٣]

وقال الكلبيُّ رحمه الله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة، واحترقوا بالصاعقة، فأصبحوا ميِّتين قد همَدوا رمادًا لا يتحرَّكون[٤].

وقيل: أتتهم نارٌ من الهواء.

وقيل: خرجت من تحت أرجلهم.

وقيل: ﴿جَٰثِمِينَ﴾: لازِقين بالأرض.

* * *

---

(١) «والآخر في موضع» ليست في (أ).

(٢) في (ر): «أي».

(٣) انظر: «ديوان جرير» (١/ ٢١٧)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢١٨)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١٢٠)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٣٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٢)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٢١٥). وفي جميع المصادر: (.. وعرفت منها..).

(٤) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٢١٦).

(٧٩) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: أَعرَضَ عنهم وفارقهم لمَّا أُوحي إليه أنه يَنزل بهم العذابُ بعد ثلاثٍ.

﴿وَقَالَ﴾ عند فراقهم ﴿يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ ويَثقل النُّصح على مَن اتَّبع الهَوى واجتنَب الهُدى، قال قائلهم:

وكم سُقْتُ في آثارهم من نصيحةٍ ... وقد يَستفيدُ البُغضةَ المتنصِحُ[١]

وقال الكلبيُّ رحمه الله: فتولَى عنهم صالح؛ أي: خرج هو ومَن آمن معه من بينهم قبل نزول العذاب ـ وهم مئةٌ وعشرةٌ ـ وهو يبكي، فالتفت فأبصر الدخانَ ساطعًا، فعرف أن القوم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسَ مئة دارٍ، فلما هلكوا رجع صالح ومَن آمن معه فسكنوا الديار حتى توالَدوا وتناسلوا وماتوا فيها.

وقال مقاتل: كان مؤمنو قوم صالحٍ سبعين رجلًا، ومؤمنو قوم هودٍ كذلك، فتفرقوا بعد موت صالحٍ وهودٍ، فوقع مؤمنو قوم صالح بجابلقا ومؤمنو قوم هود بجابلسا فهم فيهما، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، وأهل هاتين المدينتين أكثرُ من يأجوجَ ومأجوجَ، وإن يأجوج ومأجوج تسعةُ أضعافٍ، وأهلَ الدنيا تسعةُ أضعافِ يأجوج ومأجوج، ووراءهما تارس ومنسك، وهما من ولد يافث، وهما تسعة أضعاف جابلقا وجابلسا، وكلُّهم أهل النار إلا ما كان من بقية قوم صالحٍ وهودٍ في هاتين المدينتين، وعلى كلِّ جانب من هاتين المدينتين ألفُ بابٍ، من بابٍ إلى بابٍ فرسخٌ، يَحرس كلَّ ليلة على كلِّ باب سبعون ألفًا لا تصل النَّوبة إليهم، ولولا

(١) أنشده الأصمعي عن الرياشي. انظر: «العزلة» للخطابي (ص: ٣١).

بقيةُ مؤمني قوم صالحٍ وقوم هودٍ ما أنظرهم الله تعالى طَرْفةَ عين[١].

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: هو عطفٌ على قوله: ﴿نُوحًا﴾ و﴿هُودًا﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: وأرسلنا لوطًا، وهو ابن أخي إبراهيم الخليلِ صلواتُ الله عليهما.

وقال القتبي: هو لوط بن هاران[٢] بن تارَخ ـ وهو آزر ـ بن ناحور بن أشرع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ[٣] بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذُكر في غيره من الأنبياء دعاؤهم إلى التوحيد أولًا، ولم يُذكر في حقِّ لوط في هذه السورة، لكن ذُكر في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠] إلى أن قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فيَحتمِل أن يكون منهم ما كان في سائر الأمم من تقليد آبائهم[٥] في عبادة الأصنام: إنَّا وجدنا آباءنا على ذلك، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: تعملون أعمالًا لم يعملها آباؤكم، فلا تقلِّدونهم في ترك ذلك[٦].

---

(١) ورد نحو هذا ضمن خبر طويل رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٧ ـ ٥٢) من طريق أبي نعيم (واسمه: عمر بن صبح)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٦٣ ـ ١١٦٨) من طريق أبي عصمة نوح بن أبي مريم، كلاهما عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا، ولا يصح؛ فإن عمر بن صبح متروك كذبه ابن راهويه، وكذلك أبو عصمة، كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٢) في (أ): «هازن»، وفي (ر) و(ف): «هارون»، والمثبت من «المعارف» وغيره.

(٣) في (أ): «شالح»، وفي (ف): «عامر بن شالع».

(٤) انظر: «المعارف» (ص: ٣٠ ـ ٣١).

(٥) في (ف) و(أ): «الآباء».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٨٦).

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ استفهامٌ بمعنى التوبيخ، والفاحشةُ: الفعلة القبيحة، وأراد بها اللِّواطة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾؛ أي: لم يفعلها أحد قبلكم، قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ (مِن) لتأكيد النفي ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من الخلائق.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: أولُ مَن فعَل[1] ذلك قومُ لوط؛ لأن بلادهم أَخصبت فانتَجَعها أهل البلدان، فتمثل لهم إبليس لعنه الله في صورة شابٍّ ثم دعا إلى دبره فنُكح في دبره، ثم عملوا بذلك العمل، فلمَّا كثُر ذلك فيهم عجَّت الأرض إلى ربِّها، فسمعت السماء فعجَّت إلى ربها، فسمع العرش فعجَّ إلى ربه، فأمره الله تعالى أن يَحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم.

وقال محمد بن إسحاق: كانت الشام منازلهم، وكانت لهم قرًى وثمارٌ لم يكن في الأرض مثلُها، فقصدهم الناس فآذَوهم، فعرَض لهم إبليس في صورة شيخ فقال: إن فعلتُم بهم كذا نجوتم منهم، فأبوا، فلما ألَحَّ الناس[2] عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانًا صباحًا، فأَخْبَثوا واستَحكم ذلك فيهم.

وقال الحسن: كانوا لا يَنكحون إلا الغرباء[3].

* * *

(٨١) - ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾[4]: أَتبع التوبيخ الأولَ بمثله مبالغةً وتفسيرًا للأول.

---

(١) في (ف) و(أ): «عمل».

(٢) في (ف): «لح» بدل من «ألح الناس».

(٣) انظر هذه الأقوال في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٩)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٥٥).

(٤) في (ف) و(أ): «﴿أئنكم...﴾»، وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة.

وقال الكلبي رحمه الله: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ أي: أدبارَ الرجال ﴿شَهْوَةً﴾، أي: اشتهاءً؛ أي: أدبارُ الرجال أشهَى عندكم من فروجِ النساء.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: (بل) للإضراب، والأولُ والثاني عيبٌ، فما وجهُ الإضراب عن الأول؟

قلنا: الأول ذكرُ عيبٍ واحد، والثاني بيانُ أنهم مَعيبون بكلِّ عيب، فإن الإسراف مجاوزة الحد في كلِّ شيء.

وقال الكلبي: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾؛ أي: مشركون يتعدَّون الحلالَ إلى الحرام.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾: ﴿جَوَابَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ مصدرٌ وتقديره: إلا قولُهم، بالرفع على أنه اسم ﴿كَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾؛ أي: لوطًا ومَن يَدِينُ بدينه، كنَى عن معلومِين غيرِ مذكورِين.

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾؛ أي: بلدتِكم، وهي من القَرْي وهو الجمعُ، وسميت بها لأنها مجتمَع الناس في الإقامة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: يتنزَّهون عن مثلِ عملنا.

قال ابن عبَّاس ومجاهدٌ وقتادةُ: عابُوهم بما يُمدح به(١).

---

(١) رواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧). وروى الطبري عن مجاهد وابن عباس قولهما: (يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء).

ومعنى الآية: أنهم اعترفوا بكونها فاحشةً مبتدَعة، وقال بعضُهم لبعضٍ ـ أو[١] الأشراف للأتباع ـ: أخرِجوا هؤلاء من هذه البلدة فإنهم يرون هذا نجاسةً ويستعملون في اجتنابه طهارةً.

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾: أي: خلَّصناه وأهلَ بيته وأهلَ دينه، ومنهم ابنتاه: زعورا وريثا[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: أي: زوجتَه، واسمها: واهلةُ، وقيل: واعلة[٣].

وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: من الباقين في عذاب الله تعالى[٤]. وقد غَبَر غُبورًا من حدِّ دخل؛ أي: بقي.

وقال الزَّجَّاج: أي: من الغائبين عن النجاة[٥]. يقال: غَبَر فلان عنَّا زمانًا؛ أي: غاب.

ولم يقل[٦]: من الغابرات؛ لأنها كانت من الرجال والنساء الباقين في الهلاك، فغلِّب التذكيرُ عند الاجتماع.

---

(١) في (ف): «أي».

(٢) في (أ): «رعورا وريثا»، وفي (ف): «زعورا وزيتا»، وفي (ر): «زعورا ورشا». والمثبت موافق لما في «تفسير أبي الليث السمرقندي» (٢/ ٢٥٩)، وجاء في «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٩٦): (زغرتا وريثا)، وفي بعض المصادر غير ذلك، ولا طائل من الإطالة في تحرير ذلك.

(٣) في (أ): «والهة وقيل واعلة» وفي (ف): «والهة وقيل واغلة».

(٤) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٢٣)، ورواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٥٣).

(٦) في (ر): «ولم تكن».

(٨٤) ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: أي: حجارةً، وقد فسَّر ذلك في آية أخرى ﴿فَانظُرْ﴾؛ أي: بعين قلبك يا محمد.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: ولم يقل: كانت؛ لتقدُّم الفعل، ولأن تأنيثها غيرُ حقيقي. و(كيف) كلمة تعجيبٍ[1]، والمجرمون: المشركون.

وقال السدِّي: إن لوطًا كانَ ابنَ عمِّ إبراهيم الخليل عليه السلام، أتى مدينة سَدُوم فنزلها وتزوَّج فيهم، فبعثه الله تعالى إليهم نبيًّا، وكانوا ينكحون الرجال، فدعاهم إلى الإسلام وإلى ترك ما يعملون، فأبَوا، وكان لوطٌ يُضيف مَن مرَّ به من الناس، فقالوا له: لا تُضف أحدًا، فذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠]، وأتى الرسل إبراهيم حين بعثوا إلى قوم لوط، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود: ٦٩] سألهم إبراهيم: أين تريدون؟ وعرَف أنهم الرسل قالوا: أُمرنا أن نُهلك قوم لوط، قال إبراهيم: أرأيتم إن كان بها مئةٌ من المؤمنين أفتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فخمسون؟ قالوا: لا، قال فعشرون؟ قالوا: لا، قال: فعشرة؟ قالوا: يا إبراهيم ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ليس فيها إلا لوط وأهلُه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فلما خرجوا من عنده متوجهين إلى قوم لوط انتهوا إليها نصفَ النهار، فإذا هم بجوارٍ يستقين الماء، فقالوا لهن: هل هاهنا أحد يُضيف؟ قلن: لا، فقالت بنتُ لوط وهي معهن تستقي: نعم، أبي يضيف، فانطلِقوا معي حتى آتيَ بكم منزلَه، فانطلقت بهم إلى منزل أبيها، فرأى قوم لوط قومًا لم يروا مثلهم جمالًا وهيئة[2]، فانجفلوا

---

(١) في (ف) و(أ): «تعجب»، والمثبت من (ر) وهو الأنسب بالكلام.

(٢) في (ف): «وهيبة».

معهم حتى أتوا [١] إلى الدار، فخرج إليهم لوط فناشدهم أن يرجعوا، فأبوا وقالوا: أخرجهم إلينا، فقال: يا قوم! ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود: ٧٨]؛ أي: أحلُّ لكم بالنكاح، ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنۡ حَقٍّ﴾؛ أي: حاجةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِى بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٩] فلما رأوا أن لوطًا لا يخرجهم أمروا امرأة لوط وكانت على دينهم، فأسخنت الماء وجعلت تصبُّه عليهم [٢] ليخرجوا فلم يخرجوا، ولم يُصِب أحدًا منهم من ذلك الماء إلا بَرَص [٣] مكانه، فقال جبريل: افتح الباب فإنهم لا يَصلون إلينا، ففتح الباب فدخلوا فعمُوا، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ [القمر: ٣٧]، فقال جبريل عليه السلام: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٍ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ الآية.

فلمَّا علم لوط عليه السلام أنهم رسلُ الله وقالوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود: ٨١]، قال: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فلمَّا كان في بعض الليل خرج لوط وأهله، فلما كان السَّحَرُ ضَرب جبريل بجناحه ثم حملها ومَن فيها بجناحه [٤] حتى صعد بها إلى السماء، فسمع أهل السماء أصوات الديكة والكلاب، ثم قلَبها فجعل أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها فهوت، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، ورُموا بالحجارة وتتبَّعت الحجارة الشذَّاذ [٥] حتى إنْ كان الرجل في بلدٍ بعيدٍ أتاه

---

(١) في (ف) و(أ): «انتهوا».

(٢) في (أ): «عنهم».

(٣) في (أ): «برض»، والمثبت من (ر) و(ف)، والبَرَص معروف، أما البَرْض فهو القليل، وبَرَض الماءُ: خرج وهو قليل. انظر: «القاموس» (مادة: برض).

(٤) في (ف): «على جناحه».

(٥) في النسخ: «الشدان» وفوقها في (ف) علامة الاستفهام، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير أبي الليث السمرقندي» (٢/ ٥٨٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٩٤)، =

الحجر فقتله، ورُموا بالحجارة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: مختومة ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]؛ أي: من ظالمي العرب إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

وقال محمد بن إسحاق: كانت المدائن خمسًا: سدوم وصبوابيم ودادوما وغامورا وزُغَر[١]، فأهلكوا إلا زُغَر لم يصنعوا صنيعهم، وهي المؤتفكات.

وقال وَهْبٌ: أَمطر الله عليهم الكبريت والنار[٢].

وقال: كان رسولًا إلى أهل المؤتفكات وهي خمسُ مدائن، أعظمُها سدوما، ثم غمورا، ثم أدوما[٣]، ثم صعورا، ثم صابورا، وكان أهلها أربعةَ آلافِ ألفِ إنسان، ونزل لوط سدوما فلبث فيها بضعًا وعشرين سنة[٤]، وهي غربيَّ بحيرة التي تلي أريحا في بطن الأردن.

وذُكر أنه لم يكن مع لوط من المؤمنين إلا بناتُه وهنَّ اثنتا عشرةَ، وأوصى لوطٌ

= وغيرها. وكذا روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فلمَّا كان في جوفِ الليل إذ أَدْخَل جبريلُ جناحَه تحتَ القرية فرفَعها، حتى إذا كانت في جوِّ السماء حتى إنهم ليَسمعون أصواتَ الطَّيرِ، قلَبَها ثم تَتَبَّعَ الشُّذَّاذَ ومَن خَرَج منهم بالحجارةِ.

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٧) عن ابن إسحاق عن كعب الأحبار أنها: صَنْعة، وصَعْوَة، وعَثْرَة، ودُوما، وسَدُومَ. وفي أسماء هذه القرى اختلاف بين المصادر.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٠).

(٣) في (ف) و(أ): «أذوما».

(٤) إلى هنا رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٥٨) عن الواقدي. وفي قوله في عددهم: (أربعة آلاف ألف إنسان) مبالغة لا تخفى، وإن كان قد روي عن غيره، فقد رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٢٢) عن قتادة، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٠) عن معمر، و(١٢/ ٤٩٢) عن ابن جريج، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٧) عن مجاهد

ببناته إلى إبراهيم، فزوَّجهن رَهْطًا ممن معه من المؤمنين آمنوا به يوم أُلقي في النار ثم صحبوه، فكلُّ نبي بعد إبراهيم وقبل[١] بني إسرائيل فمن نسل أولئك الرهط: أيوبُ وشعيبٌ وبلعمُ[٢]، وقد حجَّ لوط قبل أن يموت.

وقال الإمام أبو منصور: قال هاهنا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ وقال في سورة أخرى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فيحتمِل أن يكون الأولُ جوابَ بعضهم لبعضٍ، والثاني جوابَهم لِلُوط، أو كان ذلك الجوابُ في مشهدٍ والثاني في مشهد آخر، وكلاهما لكلام لوط[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن الحق سبحانه أباح في الشرع ما أزاح به العُذرَ، فمَن تخطَّى حدَّ الأمرِ، وجَرَى على مقتضَى هوى النَّفْسِ، استوجَبَ إذلالَه، واستَجْلَب باختياره صغره ونكالَه[٤].

***

(٨٥) - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) في (أ): «وقيل».

(٢) كذا قال، وبلعم لم يكن نبيا، وستأتي قصته عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفًا على ﴿نُوحًا﴾؛ أي: وأرسلنا إلى أهل مدين شعيبًا، ومدينُ بينها وبين مصرَ ثماني ليالٍ، ومدينُ في الأصل اسمُ رجل وهؤلاء أولاده، وهو مدين بن مُديان بن إبراهيم، وشعيب هو ابن نُويب؛ قاله قتادة(١)، ويقال: ابن يثروب(٢).

وقال محمد بن إسحاق: هو شعيب بن ميكيل، وأمُّ ميكيل بنتُ لوط النَّبي عليه السلام(٣).

وقال عطاء: شعيب بن توبةَ بنِ مدينَ بنِ إبراهيم(٤).

وقال محمد بن إسحاق: إنه من ولد مديان، واسمه بالسُّريانية: يثروب(٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: قد فسرناه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي شرائعُ ظاهرةُ المصالح؛ من التوحيد والإخلاص وإيفاء حقوق الناس.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٠). وقوله: «نويب»، وقع في (أ): «ديويب»، وفي (ف): «يويب»، وسقط من (ر). والمثبت من «تفسير الثعلبي»، ومثله في «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٩٣) و(٣/ ٢٧٨ و٣٨٢)، وفي مصادر أخرى: (ثويب)، قال أبو حيان: وقال الشَّرْقي بن قُطامي: شعيب بن عَنْقا بن ثويب بن مدين بن إبراهيم، وقال أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي الطَّلْحيّ الأصبهاني في كتاب «الإيضاح في التفسير» من تأليفه: هو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم. انظر: «البحر المحيط» (١٠/ ١٨٦)، وقيل في اسمه غير ذلك كما جاء في الموضع المذكور من «البحر».

(٢) في (ف): «يتروب».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٠)، و«عرائس المجالس» (ص: ٢٢٦)، وفيهما: (... وأمه ميكيل...).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٠)، و«البسيط» (٩/ ٢٢٥)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٥٦)، ووقع في النسخ: «... بن يوبه...»، والمثبت من المصادر. ووقع عند الواحدي: عطاء عن ابن عباس.

(٥) في (ف): «يثرون»، ومثله في «تفسير البغوي» (٣/ ٢٥٦)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٠)، وفي المصادر غير ذلك، وهذه أسماء يصعب ضبطها.

وقيل: أي: بيانٌ.

وقيل: أي: معجزةٌ، وإن لم يبلُغنا ماذا كانت.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾: قد بيَّنَّاه في سورة الأنعام: أن الميزان يُحمل على الوزن[1]، والكيلَ يحمل على المكيال[2]؛ ليستويا.

أمرهم بإيفاء الحقوق التي عليهم من هذين الجنسين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: لا تَنْقُصوا الناس الحقوقَ التي تصير لهم عليكم بالعقود.

وقال قتادة: أي: لا تظلموا[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: قال الكلبي[4]: أي: لا تَنْقُصوا الكيل والوزن فإنه فساد في الأرض.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانت الأرض قبل أن يُبعث إليها شعيبٌ رسولًا يُعمل فيها بالمعاصي، ويُستحل فيها المحارم، ويسفك فيها الدماء بغيرِ حقِّها، فذلك فسادُها، فلما بعث إليها شعيب ودعاهم إلى عبادة الله تعالى صلحت الأرض، وكلُّ نبيٍّ بُعث إلى قومه فهو صلاحُهم[5].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان شعيبٌ رسولًا بعد يوسف عليه السلام،

---

(١) في (ف): «الموزون».

(٢) في (ف): «المكيل»، وانظر تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣١١).

(٤) «قال الكلبي» ليس في (ف).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٤١) (ط: دار التفسير)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٢٨٢).

وكان من خيرِ قومه، وكان أهل مدين أهلَ شركٍ وبَخْسٍ في مكايلهم وموازينهم[١].

وقال السُّدِّي وعكرمةُ: ما بَعث الله نبيًّا مرتين إلا شعيبًا، بعثه إلى مدين مرةً فأخذهم الله تعالى بالصيحة، ومرة أخرى إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذابِ يوم الظُّلَّة[٢].

وقال إسحاقُ وجويبرٌ وجماعةٌ: هما واحدٌ[٣].

ولما دعاهم إلى التوحيد وتركِ الظلم كذَّبوه وردُّوا نصيحته، وقالوا: ﴿يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية، وكان أكثرَ الأنبياء صلاةً ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ من الإيفاء وترك البَخْس ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؛ أي: الأحمقُ السفيه.

قال الضَّحَّاك: كانوا إذا دخل عليهم الغريبُ يأخذون دراهمه ويقولون: دراهمك هذه زُيوفٌ، فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبَخس؛ أي: النقصان[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: الإيفاءُ خيرٌ لكم من البَخْس ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم ممَّن همُّه وقصدُه الإيمانُ بالحق؛ إذ ورد البيان وقام البرهان.

وقال وهبٌ: كان على أهل مدين ملكٌ جبَّار، وكانوا في سعة من العيش ورفاهيةٍ، فأرسل الملك إلى أهل مملكته يأمرهم باحتكار الطعام ونقصِ مكائلهم وموازينهم وقرض الدراهم، وهو أول مَن قرضها، وكانوا يبخسون الناس حقوقهم، فنهاهم عن ذلك شعيب.

---

(١) رواه عنه إسحاق بن بشر وابن عساكر كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠١).

(٢) رواه عنهما إسحاق بن بشر وابن عساكر كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٥٠٢) من طريق جويبر عن الضحاك.

(٤) رواه إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠١).

وكان لهم فسادٌ آخر نهاهم عن ذلك، وهو قوله تعالى:

(٨٦) ـ ﴿ وَلَا نَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ وَلَا نَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾: أي: لا تجلسوا في كلِّ طريقٍ، و﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ و(في كلِّ صراطٍ) و(على كلِّ صراط) تتقاربُ معانيها: الباء للإلصاق، و(في) للظرف، و(على) للاستعلاء.

و﴿تُوعِدُونَ﴾؛ أي: تهدِّدون، وهو على معنى الحال.

قال ابن عبَّاس والحسن وقتادة ومجاهد: كانوا يقعدون على طريقٍ مِن قصد شعيبًا للإيمان به فيخوِّفونه بالقتل[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: تَصْرِفون عن طريق الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: مَن أراد أن يؤمن بالله عز وجل ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: تطلبون للسبيل تعويجًا وتحريفًا؛ أي: يقولون: هي سبيلٌ باطلٌ لا حقٌّ.

والعِوَج بكسر العين في الدِّين وفيما لا يُرى، وبالفتح في العُود والحائط وما يرى[٢].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانوا يجلسون في الطرق فيُخبرون مَن أتى عليهم أن شعيبًا كذَّاب[٣].

---

(١) رواه عنهم ـ عدا الحسن ـ الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٥٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣١٣).

وقال أبو رَوق ـ ورواه عن النَّبيِّ ﷺ ـ: كانوا عشَّارين يَبخسون الناسَ أموالَهم بأخذ[١] العشر، وهم أولُ مَن سنَّ ذلك[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانوا يَقطعون الطرق[٣].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾: قال الزَّجَّاج: يحتمِلُ هذا ثلاثةَ أوجهٍ: كثَّرَ عددَكم، و: كثَّركم بالغنى بعد الفقر، و: كثَّركم بالمقدرة بعد الضعف[٤]، فإن الفقراء والضعفاء بمنزلة القليل في كثرة الغنى؛ أي: اذكروا نعمة الله تَشكروا.

قوله تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: العصاةِ الذين كانوا قبلكم.

وقال الكلبي: هم قوم لوط.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أَمر[٥] بالنظر في الأسباب التي صار مَن تقدَّمهم بها أهلَ فسادٍ ونزل بهم الهلاك؛ ليَنزجِروا عن مثل صنيعهم، وإلا كانوا عند أنفسهم أهلَ صلاحٍ لا أهلَ فساد[٦].

* * *

---

(١) في (ف): «يأخذون».

(٢) لم أجده مرفوعاً، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٢) (ط: دار التفسير) عن أبي روق والسدي بلفظ: (كانوا عشارين)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤) من قول السدي مختصراً بلفظ: (العشارون).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦١).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٥٥).

(٥) في (ف): «أمروا».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٩٩).

(٨٧) ـ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾: يقول لقومه: لا يمنعْكم عن الإيمانِ بي اختلافُ الناس عليَّ وكثرةُ مَن لم يؤمِن بي، فإن العاقبة المحمودةَ للحق وأهله وإنْ قلَّ عددهم.

﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾: ليس هذا أمرًا لهم بالمقام على الكفر، لكن معناه: فانتظروا العاقبةَ حتى يحكم الله بيننا بنصرنا وإهلاككم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: خيرُ مَن حكَم بين العباد؛ لأنه يحكم بالحق والعدل.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يجوز أن يكون ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ أمرًا للمؤمنين، فإنهم كانوا لم يُؤمروا بقتالهم، ويجوز أن يكون أمرًا للكفار، وكانوا يقولون: الحقُّ ما نحن عليه، فإنَّ الله أمرنا بذلك، وهم شفعاؤنا ومقرِّبونا إلى الله زُلفَى، فقال: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ في القيامة ﴿بَيْنَنَا﴾ فيتبيَّنَ الحق من الباطل[١].

* * *

(٨٨) ـ ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: قال وهبٌ: ولما نهاهم عن التطفيف والبَخس أَرسل إليه ملكُهم وقال له: ما تقول فيما أَمرتُ أنا النَّاسَ به من

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٠٠).

الاحتكار ونقصِ المكيال والميزان لمصلحة الناس؟ فقال شعيب عليه السلام: إن في كتاب الله المنزل: أن الملِك إذا كان بمنزلتك وصنع مثلَ ما صنعتَ يقال له: ملك تاجر ملعون فاجر، فقال الملك:

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾؛ أي: آمنوا بالله مع إيمانك ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أي: ديننا.

وإنما ذكروا العَوْدَ مع أن شعيبًا لم يكن في دِينهم قطُّ لوجوهٍ:

منها: أن هذا خطابٌ لقومه وهم كانوا كذلك، ولئن كان شعيب في الخطاب فالغلبة لهم.

ومنها: أنهم توهَّموا أنه كان فيه.

ومنها: أن العود في معنى الصيرورة، ويذكر في غير تحقيق الرجوع؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]؛ أي: صار، وقال الشاعر:

لئن كانتِ الأيامُ أحسنَّ مرةً ... إليَّ فقد عادت لهنَّ ذُنوبُ[1]

أي: صارت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الألفُ للاستفهام، وهو بمعنى الاستنكارِ، والواو للعطف؛ أي: أتخرجوننا من قريتنا ونحن كارهون لمفارقة الأوطان من غيرِ ذنبٍ منَّا، وهو أمرٌ منكر، وهو كقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وقيل: أي: أولو كنا كارِهين للدخول في ملَّتكم مع ذلك تَحمِلوننا على ذلك.

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي كما في «جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢١٢)، و«أمالي القالي» (٢/ ١٥١)، و«العقد» لابن عبد ربه (٣/ ٢٣٤)، و«تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٨)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٤٦١)، ونسب في «الأصمعيات» (ص: ٩٩) لغريقة بن مسافع العبسي.

(٨٩) ـ ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا ﴾: هذا جزاءٌ تقدَّم على الشرط، والعودُ هو الصيرورةُ دون الرجوع، على ما قدَّرنا، ودليله قولُ الشاعر:

تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ … شِيْبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا[1]

والمِلَّة: الديانة التي يتكرَّر العمل بشرائعها، من قولهم: طريق مَليل: يتكرَّر سلوك المارَّة فيها، والمللُ من تكرُّر الشيء على النفس حتى تسأمَ، وخبز المَلَّة: ما يُنضَجُ في الرماد الحارِّ لتكرُّر الحَمْي عليه.

وتقدير الآية: فإنْ دخلنا في دِينكم بعدما خلَّصنا الله تعالى منه إلى حِفظنا عنه بإقامة البراهين وإراءة الحق، فقد افترينا على الله الكذب حيث قلنا من حيث الدلالةُ إِنَّه لم يبصِّرْنا الحق ولم يُقِم لنا الدليل، وكونُ الإنجاء بمعنى الحفظ نظيرُ قوله عز وجل: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: يَحفظهم من الظلمات ويُبقيهم في النور.

وقال الإمام القشيري: كما أن أهل الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم، فأهلُ الشر لا يرضَون إلا بمن ساعدهم على أحوالهم، والأوحدُ في بابه مَن بايَنَ نهجَ أضرابه[2].

---

(١) نسب لأمية بن أبي الصلت في «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٦٢)، وهو في ديوانه (ص: ١٧٩)، ونسب لأبي الصلت بن ربيعة الثقفي والد أمية في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٥)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٦٢)، وورد أيضاً في «ديوان النابغة الجعدي» (ص: ١١٢).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: قد ذكر أهل التأويل له وجوهًا، والإمام أبو منصور ردَّها واعتمد على هذا القول: أن معناه: ولا يكون منَّا دخول في ملتكم إلا أن يكون الله تعالى شاء ذلك منا، خاف شعيب أن يكون سبق منه زلةٌ أو تقصيرٌ يقع منه الاختيار لذلك فشاء الله تعالى له[1] ذلك، وكذا الأنبياء كلُّهم خافوا ذلك، وكان خوفهم أكثر من خوف غيرهم[2].

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: ونحن لا نعلم إلى[3] ماذا يصير أمرنا.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أي: اعتمدنا في دفع شرِّكم وكفايةِ أمركم.

ثم دعَوا ربهم، وذلك قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: أي: اقضِ بيننا ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بحُكمك الذي هو الحقُّ، وهو وصفُ تحقيقٍ لا وصفُ تمييزٍ، كما مر في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: أي: القاضِين، فلا محاباةَ في حُكمك، ولا ميلَ ولا زللَ ولا رشوةَ ولا شفاعة، والقضاءُ بالحق يفتح الأمرَ المنغلِق، ولذلك سمي فتحًا.

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: في الأمر بإيفاء الكيل والوزن ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾؛ أي: حينئذ ـ هو اسم زمان ـ ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ الأموالَ.

---

(١) «له» من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٠٤). وفي كلامه نظر ظاهر، فكيف يعقل أن يفكر نبي أو يخطر بباله أو بال مؤمن أن الله قد يشاء له المصير إلى ملة الشرك.

(٣) «إلى» من (ف).

وقيل: أي: اتَّبعتموه في دينه خسرتُم بتركِ الدِّين الحقِّ بالباطل، كذا كان زعمهم.

* * *

(٩١) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: أي: الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فسرناه في قصة صالح.

وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قيل: هما قصتان وعقوبتان، وقيل: هما واحدة.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إن جبرائيل عليه السلام نزل فوقف عليهم فصاح صيحةً رجفت منها الجبالُ والأرض، فقاموا قيامًا وفزعوا، فرجفت بهم الأرض فرمتهم، وخرجت منهم أرواحهم فوقعوا جاثمين[١].

وقال وهب: سلَّط الله عليهم الحرَّ والغُمَّةَ حتى أَنضجهم، فلبثوا فيه سبعةَ أيام ولياليها، ودخل الحرُّ عليهم [٢]في بيوتهم ومظالِّهم، وفي الأودية وظلالِ الأشجار، وصار ماؤهم حميمًا لا يستطيعون شربهُ، فانطلقوا يسوقون ذراريَهم ونساءَهم ودوابَّهم حتى انتهَوا إلى غَيضةٍ وهي الأيكةُ كثيرةُ الشجر، وقد جاءهم سَمومٌ من جهنم، فسلَّط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم حتى تقلقلت[٣] جماجمُهم، والرمضاءَ من تحتهم حتى تساقطت لحوم أرجُلهم، ثم أُنشئت لهم ظُلَّةٌ من سحابةٍ سوداء، فابتدروها يستغيثون ببردها، فلما صاروا تحتها أَطبقت عليهم فهلكوا فيها، وقيل: أحرقتْهم[٤].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٧٤).

(٢) «عليهم» ليس في (ف).

(٣) في (ف): «تغلقت».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩٢) - ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾: أي: لم يقيموا، وقد غَنِيَ بالمكان؛ أي: أقام، من حدِّ عَلِم، والمغاني: المنازل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ كرَّر لتغليظ الأمر في تكذيبهم شعيبًا.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: لا المؤمنون بشعيب الذين قالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فإنهم خسروا أنفسَهم وأموالَهم ودينَهم ودنياهم وآخرتَهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كانت لهم غلبةٌ في وقتهم، ولكنْ لمَّا اندَرست آثارهم سقط صِيتُهم، وخمل ذكرُهم، وتقشَّع سحاب مَن توهَّم أن فيهم شيئًا.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الحقُّ غالب في كلِّ أمرٍ، والباطل زاهقٌ بكلِّ وصفٍ، وإذا كانت العزةُ نعتَ مَن هو أزليُّ الوجود، والجلالُ حقَّ مَن هو الملِك المعبود، فأيُّ أثر للفطرة مع القدرة، وأيُّ خطرٍ للعلل مع الأزل[١]؟

* * *

(٩٣) - ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: أَعرَضَ إعراض يأس[٢] عن إيمانهم، ﴿وَقَالَ﴾ عند الإعراض: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: فلم تقبلوا، ثم قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾؛ أي: أحزنُ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ إذ كيف أُظهِر الحزنَ على هلاك قومٍ انقطعت بيني وبينهم الولاية لكفرهم بالله.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥١).

(٢) في (ف): «يائس».

(٩٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾: يعني: لم نرسل في قريةٍ من هذه القرى التي قصَصْنا أخبارها وذكَرْنا إهلاكها نبيًّا ينذرهم إلا ضمَمنا إلى إنذارهم بالعذاب المستأصِل ما دون ذلك من الامتحان بالبأساء وهي الجوع والضراءِ وهي المرض.

وقيل: البأساء: الشدةُ في الأنفس، والضَّراء: الشدة في المال.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: البأساء: الفقر، والضرَّاء: السَّقَم[١].

ليتضرعوا إلى الله وينقادوا لشرعه، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ليستكينوا فيتوبوا[٢].

* * *

(٩٥) ـ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾: أي: مكان الجَدْبِ الخِصْبَ، ومكان المحنة النعمةَ ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾؛ أي: كثروا، كذا قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما ومجاهد والسُّدِّي وابن زيد[٣]، وكذا هو في اللغة.

قوله تعالى: ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: أي: أصاب أسلافَنا الأحوالُ الضارَّة والأحوال السارة؛ أي: هذا من الاتفاقات التي تقع للناس من تلوُّن الأحوال، ولم يحملوه على التنبيه فلم ينتبهوا ولم ينتهوا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٢٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٤٣).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾: أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: بوقته، وقيل: بنزوله، وقد كان أنذرهم به رسلُهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾؛ أي: كثروا وكثرت أموالهم[١].

وقال مجاهد: حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم[٢].

وقال المبرِّد: ومنه الحديث: «أَحْفوا الشوارب وأعْفُوا اللِّحى»[٣].

وقال مقاتل بن حيان: حتى أَشِروا وبَطِروا[٤].

* * *

(٩٦) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خيراتٍ ناميةً من الأمطار والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾: أي: الأنبياءَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: يعني: ولو أن القرى وحَّدوا الله واتَّقوا الشرك والمعاصي لأنزلنا عليهم بركات من السماء بالرزق والمطر والنبات والثمار والخصب، ولكن كذَّبوا الرسل فعاقبناهم بالقحط وغلاء السعر بأعمالهم[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠ و٣٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٢٧) عن عكرمة.

(٥) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٤٣)، و«الوسيط» (٢/ ٣٨٩).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ليست العبرةُ بكثرة النعمة إنما العبرةُ بالبركة في النعمة، ألا ترى أن الله تعالى لم يقل في هذا الآية: لضاعَفْنا عليهم النِّعَم، لكن يقول: لباركنا عليهم فيما أعطيناهم[١].

* * *

(٩٧) ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: استفهام بمعنى الاستنكار.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: عذابنا ليلًا وقتَ مبيتهم[٢].

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ الواو للحال، وأكثر ما يكون نزولُ المحنة في حالة الغفلة، قال قائلهم:

يا راقدَ الليل مسرورًا بأوَّله ... إن الحوادث قد يَطْرُقْن أسحارًا[٣]

* * *

(٩٨) ـ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: نهارًا وهم في شغلِ الدنيا فإنه لعبٌ.

والضحى: وقتُ ابتداءِ الأعمال التي يُطلب بها الانتفاعُ ويُرجى بها الاستمتاع.

* * *

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٣).

(٢) انظر: «الوسيط» (٢/ ٣٨٩).

(٣) البيت لمحمد بن حازم الباهلي كما في «معجم الشعراء» للمرزباني (ص: ٣٧١)، ولعدي بن زيد العبادي كما في «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص: ٥٣).

(٩٩) ـ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: أي: أَخْذَهم بغتةً، والمكر أصلُه: إظهارُ المحبوب وإخفاءُ المكروه، وإذا بَسط الله تعالى نعمةً على عبدٍ استدعاءً للشكر فلم يفعل، ثم أخذه بغتةً، فقد ظهرت له نعمة وكانت خفيتْ له محنة.

وقيل: هو على الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤] وهذا جزاءٌ من الله على مكرهم بالأنبياء كما ذكر في الخداع والاستهزاء.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: المكرُ في الشاهد: أن يراقب من عدوِّه حالَ غفلةٍ فينتقمَ منه، فسمَّى ما ينزل من العذاب بهم في الغفلة مكرًا مجازًا، وعلى هذا: الامتحانُ بين الخلق هو استظهارُ ما خفي على بعضهم [من بعضٍ] فيأمرون بذلك وينهَون، فسمَّى الله ذلك امتحانًا لمعنى الأمر والنهي، وإن كانت الخفياتُ عن الخلق ظاهرةً له باديةً عنده[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: لا يأمن أَخْذَ الله بغتةً إلا الخاسرون.

قال ابن عبَّاس: أي: إلا الكافرون الذين خسروا أنفسَهم حتى صاروا إلى النار.

وقال علي رضي الله عنه: لا تُنزِلوا الموحِّدين العارفين المخبِتين الجنةَ حتى يكونَ الله هو يحكُم فيهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولا تُنزلوا الموحِّدين العارفين المذنبين النار حتى يكون الله هو يحكم فيهم؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧][2].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١١)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) لم أجده، لكن ذكر الإمام أبو حنيفة في «الفقه الأكبر» (ص: ١٣٨) أحاديث في معناه، فقال: حدثت =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله الآيتان في المعتزلة؛ لأنهم يأمنون مكرَ الله في الصغائر فيقولون: ليس له أن يعذبهم عليها، وييأسون من روح الله أي من رحمة[١] الله في الكبائر فيقولون ليس له أن يعفو عنها[٢].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن عَرَف علوَّ قَدْره [سبحانه] خشيَ خفيَّ مكره، ومَن أَمِن خَفيَّ مكره نسيَ عظيمَ قَدْره[٣].

وقال الحسن: قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ هذه الآيات في الأمم السالفة، وفيه تحذير هذه الأمة عن مثل صنيعهم؛ لئلا ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك[٤].

وقال آخرون: هي في أهل القرى من هذه الأمة.

***

= عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا أمتي في الجنة ولا في النَّار دعوهم حتَّى يكون الله يحكم بينهم يوم القيامة».

قال: وحدثني أبان عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: لا تُنزلوا عبَادي جنَّة ولا ناراً حتَّى أكون أنا الَّذي أحكم فيهم يوم القيامة وأُنزلهم منازلهم».

وحدثت عن أبي ظَبْيان قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للمتألين من أمتي» قيل: يا رسول الله وما المتألون؟ قال: «الذين يقولون فلان في الجنَّة وفلان في النَّار».

قلت: والأخير رواه مسدد كما في «المطالب العالية» (٣٠٠١) من حديث جعفر العبدي.

(١) في (ف): «رحمته» بدل: «من رحمة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١١).

(١٠٠) ـ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أي: أولم يُبيِّن[١]، استفهام بمعنى الإثبات، وفاعلُه المكرُ المذكور في الآية الأولى؛ أي: أولم يبيِّن ما نزل بالأولين من مكر الله بهم.

وقيل: الفاعل هو الله عز وجل؛ أي أو لم يبين الله تعالى.

قال مقاتل: أولم يبيِّن لكفار مكة الذين قد ورثوا الأرض من بعد هلاك أهلها الماضين[٢].

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: لعذبناهم بذنوبهم كما عذبنا الأولين.

قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: هذا ابتداءٌ، كذا قاله الزَّجَّاج والفرَّاء[٣]؛ أي: ونختم على قلوب هؤلاء ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ؛ لعِلمنا بأنهم يختارون الإصرار على الكفر والاستكبار.

وقيل: أي: لا يجيبون، كما في قوله: سمع الله لمن حمده؛ أي: أجاب الله مَن حمده.

* * *

(١) في (ف): «يتبين».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٦١)، «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٦). قال الزجاج: المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم، لأنه لو حمل على ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ لكان: ولطبعنا، لأنه على لفظ الماضي وفي معناه.

(١٠١) - ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾: أي: قصَصنا عليك أخبارَها فيما كان منا إليهم من الإعذار، وما كان منهم من الإصرار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: المعجزات التي اقترحوها.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: أي: فما كان من صفتهم الإيمانُ بها، وكانوا كذَّبوا بمثلها من قبل ذلك، وكانوا إنما التمسوها عنادًا لا استرشادًا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: لمَّا علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تلك القرى سلكوا طريقًا واحدًا في التمرُّد، واجتمعوا في خطةٍ واحدة في الجَحْد والتبلُّد، فلا إلى الإيمان جَنحوا ولا من العدوان رجعوا، وكذلك صفةُ مَن سبق بالشقاء قسمتُه، وحقَّ بالعذاب عليهم كلمتُه[1].

* * *

(١٠٢) - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: من وفاءٍ فيما أُمروا به، وهو العهد الأول الَّذي أخذ عليهم يوم الميثاق[2].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٤)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

وقال مقاتل: إن الله عز وجل أخذ ميثاق ذرية آدم على المعرفة فأقروا بذلك، فلما عقلوا نقضوا العهد فكفروا[١].

وقال ابن مسعود: ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ أي: إيمان، كما قال: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧][٢].

وقال الضَّحَّاك: هو عهد العقل والفهم.

وقيل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾: الأممِ المعذَّبين ﴿مِّنْ﴾ أمانةٍ ووفاءٍ بـ﴿عَهْدٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾: أي: ما وجدنا أكثرهم إلا متهتِّكين مجاهِرين بالمعاصي مع كفرهم وشركهم، كما قال في أهل الكتاب: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] وقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾؛ أي: لتاركين ما أمروا به من الحلال والحرام[٣].

وقال الضَّحَّاك: لناقضين العهد[٤].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾؛ أي: لكافرين، وهو تصديقُ ظنِّ إبليس فيهم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥١)، وليس فيه: «فكفروا».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٩).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٩) بلفظ: لعاصين. وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣١) قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما أوصاهم به.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٩).

وقال الإمام القشيري: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ نَجَم في الغدر طارقُهم، وأفَلَ من سماء الوفاء شارقُهم، وعُدِم أكثرهم رعايةَ العهد، وحَقَّ من الحقِّ فيهم قسمةُ الردّ.

قال: ويقال: شكا عن أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثرون من ردَّتهم القسمة، والأقلون من قبلتهم الرحمة[١].

***

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾: أي: أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾؛ أي: بعد الأنبياء الذين[٢] مرت قصصُهم ﴿مُّوسَىٰ﴾ هو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أولها العصا وآخرُها الطَّمس[٣]، وهو تسعٌ: العصا واليدُ البيضاء والسِّنون والطُّوفان والجرادُ والقمَّل والضفادعُ والدمُ والطَّمس.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: هو الوليد بن مصعب بن ريان، وكنيتُه أبو مُرَّة.

وقال أهل الكتابين: اسمه قابوس بالسُّريانية، وكان من القِبْط، وعُمِّر أكثر من أربع مئةِ سنة.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إن فرعون موسى ملَك مصر واستعبد بني

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٤)، وفيه: (الوصلة) بدل: «الرحمة».

(٢) في (ف): «التي».

(٣) لم أجده عن ابن عباس، وقاله مقاتل. انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٥٣).

إسرائيل أربعَ مئة سنة، وذلك بعد يوسف بن يعقوب، وبدء دخول بني إسرائيل مصر حين مَلَك يوسف مصر وضمَّ إليه أبويه وإخوتَه وأهلَ بيته، فمكثوا بمصر، فلمَّا قَبض الله يوسف عليه السلام وهلَك ذلك الملك الذي كان يوسفُ معه وهو ريان بن الوليد، توارثت الفراعنة من العماليق ملكَ مصر، فرعون بعد فرعون، وبشَّر الله تعالى بني إسرائيل بمصر.

وقال محمد بن إسحاق: ملك فرعونُ مصر وهو شابٌّ أخضرُ الشارب، ومكث أربع مئة سنة لا يُصْدَع له رأس ولا يصيبه همٌّ ولا يناوئه[1] عدوٌّ، سلطانُه فيهم ماضٍ وأمرُه جائز.

قوله تعالى: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أي: الأشرافِ من قومه، وكان مبعوثًا إلى غير فرعون وملئه من أهل زمانهم، لكنهم كانوا أتباعًا لهم.

قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فجحدوا بالآيات[2].

وقيل: ظلموا أنفسَهم بجحدها.

وقيل: جعلوا بدل[3] الإيمان بها الكفرَ، فإن الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه.

وقيل: كفروا وأشركوا بها.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ﴾: أي: بعين قلبك يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: كيف كان آخرُ أمر الذين أَفسدوا في الأرض ببثِّ الكفر فيها.

قال الضَّحَّاك: كانت عاقبتُهم الغرقَ.

---

(١) في هامش (أ): «أي: يعاديه».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٦٠) بلفظ: (فكذبوا بها).

(٣) في (ف): «بعد».

وقال الإمام أبو منصور: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾؛ أي: سمَّوا الآيات سحرًا، فوضعوها غيرَ موضعها.

ويحتمِل: ظلموا النعم بكفرانها وعبدوا غير الله، فصرفوا الشكر إلى غير المنعم.

ويحتمِل: ظلَم الملأُ الأتباعَ بمنعهم عن اتِّباع الرسل والتأمُّل في الآيات.

ويحتمِل: ظلموا أنفسَهم بجحودها[١].

ثم إنَّ قصة موسى أطولُ قصص الأنبياء في القرآن، وهي مكرَّرة في سور منها، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، إن الله تعالى أكثرَ ذكرَ موسى في القرآن، فقال: «يا عائشة، مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ ذكرَه»[٢] أشار إلى قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

وفي هذه السورة فصولٌ من قصته، والبداية هاهنا بذكر مجيئه فرعونَ وأدائه الرسالة، ولم يُذكر هاهنا قصةُ ولادتِه وتربيتِه وغربتِه وتزوُّجِه بنتَ شعيبٍ وعودِه إلى مصر، وقد ذُكر ذلك كلُّه في غير هذا الموضع، فأخَّرنا نحن بيان قصصها إلى مواضعها، ونذكر هاهنا ما روي في قصة مجيئه فرعونَ لعنه الله، ودعوتِه إلى الإسلام، وإظهارِ المعجزة، وما كان من معارضة السحرة إياه، وغلبتِه إياهم وإسلامهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في الآية: لمَّا انقرضت أيامهم، وتقاصَرت عن بساط الإجابة أقدامهم، بَعَث موسى نبيَّه وضم إليه هارون صفيَّه، فقوبلا بالتكذيب، فسَلك بهم مسلكَ إخوانهم في التعذيب[٣].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١٦).

(٢) المرفوع منه رواه أبو نعيم والديلمي من حديث مقاتل بن حيان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة به مرفوعاً، كما في «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٦١٩).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

ذكر وهبٌ: أن موسى وهارون صلوات الله عليهما لمَّا دخلا دار فرعون لعنه الله ووقفا بين يديه، لقَّن الله تعالى موسى دعوةً دعا بها فقال: لا إلهَ إلا اللهُ الحليمُ الكريم، وسبحان اللهِ ربِّ السماوات السبعِ وربِّ العرش العظيم، والحمدُ لله ربِّ العالمين، اللهمَّ إني أدرأُ بك في نحره، وأعوذ بك من شرِّه، وأستعينُ بك عليه، فاكفِنيه بما شئتَ، فتحوَّل ما في قلب موسى من الخوف أمناً، وتحوَّل ما في قلب فرعون من الأمن خوفًا، فمَن دعا بهذا الدعاء وهو خائفٌ أمَّنه الله تعالى ونفَّس كربته، وخفَّف عنه كُرَب الموت، فتأمَّلَهما فرعون ساعةً حتى عرف موسى عليه السلام، فقال له: مَن أنت؟ قال: أنا رسول ربِّ العالمين، قال: أسألك عن اسمك ونسبك؟ قال موسى صلوات الله عليه: عبدُ الله وابنُ عباده وابنُ إمائه، أذلُّ عباده وأفقرُهم إلى ربٍّ خلقني من تراب، ثم يعيدني فيه، ثم يُنشرني منه يومَ الحساب، وهذا النسبُ المعروف الذي إليه تصير يا فرعون، ومنه خُلقتَ وفيه تعود ومنه تُنشَر، وإليه يصير الأولون والآخِرون، وقال فرعون لعنه الله: لَغيرُ هذا النسبِ وهذا الاسمِ أولى بك وألزمُ لك، أَوَلا تقول: عبدُ فرعون وابنُ عبيده وابن إمائه، الكافرُ لنعمه، الناسي لإحسانه، الغادرُ بسيده، اللصُّ القاطع القاتل؟ قال موسى عليه السلام: تبارك اللهُ ربُّ العالمين، هو أعزُّ وأجلُّ وأعظم من أن يكون معه إلهٌ، أو لعباده ربٌّ غيرُه، بل أنت يا فرعون أحقُّ بما تقول، وهذا أشبه بك، قال فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وصرتَ بغَدْرتك أجيرًا ذليلًا خائفًا فقيرًا طريدًا؟ وأجابه موسى بما أجاب على ما نبيِّن في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى(١).

---

(١) لم أجده، وروى أوله ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٠٧٨) عن مجاهد قال: كان موسى ﷺ قد مُلِئَ قلبُه رعبًا مِن فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهمَّ أَدْرأُ بك في نحره وأعوذُ بك من شرِّه، ففَرَّغ الله ما كان في قلب موسى وجعَله في قلب فرعونَ، فكان إذا رآه بال كما يبولُ الحمارُ.

(١٠٤) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: مُرسَلٌ إليك من ربِّ[1] الخلائق.

ولا يقال: إن هذا خرج مخرج التمدُّح وهو منهيٌّ عنه.

لأَنَّا نقول: هو بيانُ المنَّة من الله تعالى عليه بإرساله، والتمدُّحُ يكون من المرء بأفعاله، لا بما ناله بكرم الله جل جلالُه وأفضاله، ولأنه عرَّفه ذلك لأنَّ من عادة الملوك أنهم لا ينالون رسلَ غيرهم إليهم بمكروهٍ، فبدأ به لئلا يناله بمكروه.

***

(١٠٥) ـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قرأ نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديد الياء[2]، ومعناه: واجبٌ عليَّ، من قولك: حقَّ الشيءُ يَحِقُّ حقًّا فهو حاقٌّ وحَقيقٌ؛ أي: وجَب.

وقرأ الباقون: بالتخفيف، ومعناه: جديرٌ بأنْ لا أقول على الله إلا الصدقَ.

نعتٌ للرسول، و﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى الباء؛ قاله الفرَّاء، يقال: جئتُ على حالةٍ حسنةٍ وبحالةٍ حسنة، ورميتُ على قوسٍ وبقوسٍ[3]؛ أي: أنا خليقٌ بأنْ لا أكذبَ على الله تعالى؛ لمكاني من كرامته ورسالته، وعلمي بأنه ربِّي وربُّ العالمين.

---

(١) في (ف) و(أ): «ملك».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٧).

وقالوا: بين الآيتين مضمر؛ أي: أنه لمَّا قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كذَّبه فرعون، فقال: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: بما يبيِّن وحدانية الله وألوهيته، ويحتمِلُ بيِّنة الرسالة؛ أي: ما يبيِّن أني رسولٌ من ربِّ العالمين غيرُ كاذبٍ عليه(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أي: أطلِقْهم ودَعِ استعبادهم وخلِّهم معي لأخرجَ بهم إلى أرض الشام التي وعدَها الله لهم، وقال مقاتل: إلى فلسطين(٢).

* * *

(١٠٦) - ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: أي: قال فرعون: إن كنت صادقًا في قولك: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فهات بيِّنتَك.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلَّت الآية على أن اللَّعين عرَف عبوديةَ نفسه وأنه ليس بإلهٍ، حيث طلب منه الآيةَ على صدق ما ادَّعى من الرسالة، ولو كان عنده أنه إلهٌ لقال: متى أرسلتُك؟ ولم يَطلب منه الآية(٣).

* * *

(١٠٧) - ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: (إذا) كلمةُ مفاجأةٍ، وقيل: معناه: ظهَر.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١٩).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١٩).

وقال أبو عَوْسجةَ: الثعبان: الحية[١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الحيةُ الذَّكرُ[٢].

وقال الفرَّاء: أعظمُ الحيات[٣].

وقيل: الحية الضَّخم العظيم، مأخوذٌ من ثَعَب الماءَ: إذا فجَره، والمثعَبُ: موضعُ انفجارِ الماء، سُمي به لأنه يجري كعينِ الماء عند الانفجار.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: يبين[٤] أنه حيةٌ لا لبسَ فيه.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فأوقع موسى العصا وكان جبريل دفعها إليه حين توجَّه إلى مدين[٥].

وقالوا: كانت من الجنة حملها آدم منها إلى الدنيا، وهي من الآس.

فإذا[٦] العصا حيةٌ أصفرُ أشعرُ ذكرٌ أعظمُ الحيَّات، فملأت دار فرعون، فإذا فتحت فاها صار شدقُها ثمانين ذراعًا، ثم شدَّت على فرعون لتبتلعه، فوثب فرعون عن سريره فهرب منها، وهرب الناس فصاحوا، واستغاث فرعون بموسى عليه السلام، فأخذها موسى فإذا هي عصاً كما كانت.

وقال وَهْبٌ: صار أعظمَ ثعبانٍ نظر إليه الناظرون، أسودَ مدلهمًّا يَدبُّ على

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥١٩). وأبو عوسجة اسمه مسلم، له صحبة روى عنه ابنه. انظر: «أسد الغابة» (٥/ ١٨١)، و«الإصابة» (٧/ ٢٩٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٥)، وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٧)، ولفظه: هو الذكر وهو أعظم الحيات.

(٤) في (ر) و(ف): «بين».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٧).

(٦) في (ر): «فأجاء».

قوائم غلاظٍ قصارٍ شدادٍ في[١] مثلِ بدن البُختيِّ العظيم، إلا أنه أطولُ منه بدناً وعنقًا ومشفرًا، وإن له ذنَبًا طويلًا غليظًا يقوم عليه فيُشرف على حيطان المدينة برأسه وعنقه، ثم يقع[٢] على الأرض فلا يأتي على شيء إلا حطَمه، وخدَش بقوائمه الصخرَ والرخام والحيطان والبيوت، حتى يرمي بعضها على بعضٍ، يتنفَّس في البيوت والخزائن فيشتعلُ كلُّ شيء منها نارًا، وله عينان تتوقَّدان نارًا، ومنخران يخرج منهما الدخان، وقد صار له المحجَن عُرفًا على ظهره، وشعورًا سودًا غلاظًا مثل الرماح الطِّوال لا يصيب منها شيئًا[٣] إلا قطعه، وقد جعلت الشعبتان له فمًا مثل القَليب الواسع[٤] يخرج منه رياح السَّموم لا يصيب أحدًا منه نفخةٌ[٥] إلا صار أسودَ مثل الليل المظلم، في فيه أضراسٌ وأنياب، في أعلى شدقه اثنان وسبعون ضرسًا، وفي أسفله مثلُ ذلك، له صريرٌ يصمُّ مَن سمعه، ما يسمع[٦] الرجل كلام جليسه إذا ضرب أضراسَه بعضَها على بعضٍ، وإنه ليَهدر مثلَ البعير يتزبَّد شدقاه زبَدًا أبيض، يتطاير لعابه فلا يقع منه قطرةٌ على أحدٍ إلا اشتعل برصاً، فأدخل الثعبان أحدَ شدقيه تحت سرير فرعون والآخر فوقه وفرعونُ ـ لعنه الله ـ على سريره، فسَلَح في

---

(١) «في» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف) و(أ): «يقوم»، والمثبت من (ر) و«تاريخ دمشق».

(٣) قوله: «وشعوراً سوداً غلاظاً... لا يصيب منها شيئاً»، كذا في النسخ، وفي «تاريخ دمشق»: (وشعره أسود غلاظ... لا يصيب منه شيء). وانظر التعليق الآتي.

(٤) رواه بنحوه مختصراً إلى هنا ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٤)، وفي آخره: (... وقد عاد المِحْجَنُ عُرْفًا فيه شعرٌ مثلُ النَّيَازِك وعاد الشُّعْبتانِ فماً مِثْلَ القَليبِ الواسعِ فيه أضراسٌ وأنيابٌ لها صَريفٌ، فلمَّا عايَنَ ذلك موسى ولَّى مُدْبِرًا ولم يعقب).

(٥) في (ر): «لفحة».

(٦) بعدها في (ف): «منا».

ثيابه، فلما عاين الناس ذلك من أمر الثعبان وكان قد اجتمع أهل المدينة بأسرهم ـ انهزموا وولوا ذاهبين، وتزاحموا في الأبواب، وتضاغطوا ووطئ بعضهم بعضًا، فمات يومئذ خمسةٌ وعشرون ألفًا، فقام فرعون اللعين فوقع عن سريره(١)، وكان الله تعالى قد أملى له حتى كان يمكثُ أربعين يومًا لا يخرج من بطنه شيءٌ، ولا يُحدِث إلا في كلِّ أربعين يومًا مرة، فلما كان يومئذٍ أحدَثَ في ثيابه حتى علِم به جلساؤه، وكان(٢) يأكل ويشرب جاهدًا، ولا يبصق ولا يتمخَّط لا يتنخع(٣) ولا تَذرِف عيناه، ولا يمرض ولا يصدع ولا يسقم ولا يهرم ولا يفتقر، شاب السن(٤)، فكان(٥) على هذا أربعَ مئة سنةٍ، فلما كان يومئذٍ أحدث وبصق وامتخَط وأخذه المرض والصُّداع واختلف بطنه أربعين مرةً، فلم يزل بعد ذلك يختلف حتى مات عليه(٦).

---

(١) قوله: «خمس وعشرون ألفًا فقام فرعون اللعين فوقع عن سريره» من (أ) و(ف)، ووقع في (ر) بدلًا منه: «كثير من الناس وقام فرعون عن سريره».

(٢) بعدها في (أ): «لا»، والمثبت من باقي النسخ و«تاريخ دمشق».

(٣) في (ف) و(أ): «يتنحنح».

(٤) في (ف): «ولا يهرم شبابه ولا قلع له سنًا».

(٥) في (ف): «فكان أتى». وفي المصدر: (والله يملي له أربع مئة سنة).

(٦) في (ف): «حتى هلك» وفي المصدر: «حتى مات». وهذا الخبر رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٦٣ ـ ٦٤)، وفيه من المبالغات التي لا تُقبل، فهذا الحيوان بوصفه المذكور في هذه القصة يخالف نص القرآن الذي جاء فيه أنه حية تسعى وأنه ثعبان مبين، وهذا المذكور لا يشبه الحية أو الثعبان ولا حتى غيرهما من الحيوانات التي نعرفها أو نتخيلها، ثم من الذي استطاع في ذلك الموقف الرهيب الغريب العجيب أن يعد أضراسه التي في شدقه الأعلى أنها اثنان وسبعون، وإن تسنى له ذلك فكيف عرف عدد تلك التي في شدقه الأسفل، وكيف عُرف كم مرة اختلف بطن فرعون إذ ذاك، فلا شك أن هذا الخبر من أباطيل بني إسرائيل.

وقال الحسن رحمه الله: ولمَّا عاين ذلك قال: يا موسى، ارجع يومَك هذا وكفَّ ثعبانك هذا، قاله سرًا دون أصحابه، وقال لأصحابه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وقال له: يا موسى، ألَا رَفَقْتَ بالأمر قتلتَ خمسة وعشرين ألفًا بهذا أمرك ربُّك الذي بعثك؟ قال: يا فرعون، أنت فعلتَ هذا، يا فرعون أسألُك واحدة وأعطيك أربعًا، قال: وما الَّذي تسألني؟ قال: أسألك أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئًا، وأعطيك الشبابَ لا تهرم، والملكَ لا ينازعك فيه أحد، والصحةَ لا تَسقم، والجنة خالدًا، فخضع له فرعون وقال: حتى أستأمر آسيَةَ بنتَ مزاحمٍ، فدخل عليها فقال لها: يا آسية، ألَا تَرَيْن إلى موسى إلى ما يَدْعوني وما يعطيني؟ قالت: وما هو؟ قال: يدعوني إلى أن أعبد الله ولا أشرك به شيئًا وأنَّ لي الشبابَ لا أهرمُ، والملكَ لا ينازعُني فيه أحد، والصحة لا أسقمُ، والجنةَ خالدًا، قالت: يا فرعون، وهل رأيتَ أحدًا يصيب هذا فيَدعَه؟ قال: فخرج فدعا هامان ـ قال الحسن رحمه الله: وكان لا يُعرف له نسب ـ فذكر له ذلك واستشاره، فقال له هامان: أتَعبد بعد إذ كنت تُعبد؟! فبدا له وذكر أمرَ الشيب، فقال: أنا أردُّك شابًّا، فخضَبه بالسواد، وهو أول مَن خضب بالسواد فدخل على آسية، وقال: يا آسية، ألَا تَريني صرت شابًا؟ قالت: مَن فعل هذا بك؟ قال: هامان، قالت: ذاك إن لم يَنْصُل[1].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٦٤ ـ ٦٥)، وليس هذا بأحسن من سابقه، ولعله مكذوب على الحسن، فالظاهر من قول فرعون: قتلتَ خمسة وعشرين ألفًا، أنه مبني على الخبر السابق وتابع له، ثم كيف يتصور أن يدعو موسى فرعون إلى الإيمان بالله على أساس تلك المرغبات التي يخالف بعضها سنة الله في عباده، فمن ذا الذي يعطى الشباب بلا هرم والصحة بلا سقم؟! وأي إيمان هذا الذي بني على زهرة الحياة الدنيا التي هي فتنة للكفار وليست طريقاً للإيمان بالله سبحانه؟ كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، فأي ميزة لفرعون حتى يكون ما جعل لغيره فتنة سبيلاً له للإيمان؟ على أن هذا التمتيع الذي في الآية هو أقل بكثير مما وعد به موسى فرعون في هذا الخبر.

(١٠٨) ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ لمَّا أراه[1] آيةَ العصا قال: هل من آيةٍ غيرِها؟ فنزع يده؛ أي: أخرجها من جيبه فإذا هي منيرةٌ لها شعاعٌ كشعاع الشمس تَكلُّ منها الأبصار، يسطع نورها في السماء، قد أضاء ما حولها ودخل نُورها البيوتَ، وأضاءت منها المدينة، ورؤي من وراء الحجب، فلم يستطع فرعون النظر إليها، ثم ردَّها موسى عليه السلام في كمِّه، ثم أخرجها فإذا هي على لونها الأول.

وقال في آية أخرى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢] قال أهل التفسير: من غير بَرَص.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: معناه عندنا: من غير أن تُستقبَح وتُستقذَر؛ لأن خروج الشيء عن خِلقته وجوهره مما يُستقبح ويُستقذر، فأخبر أنه لم يكن كذلك.

وقال: فإن قيل لنا: ما الحكمةُ في إلقاء العصا ونزعِ يده من جيبه وتغييرِهما بعد ذلك، ولم يغيِّرهما الله تعالى وهما بحالهما؟

قيل والله أعلم: أراهم ذلك بعد إخراجه من سلطانه وتدبيره، ليُعلَم أنهما صارتا كذلك بصُنع الله عز وجل لا بفِعله، فإنها صارت حيةً بعد ما أخرجها من يده، وصارت يدُه بيضاء بعد ما غيَّبها عن بصره؛ ليُعلم أنهما صارتا كذلك بالله عزَّ وجلَّ لا به[2].

* * *

(١٠٩ ـ ١١٠) ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «رأى».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: أي: قال الأشراف من قوم فرعون الذين كانوا حضورًا: إن موسى هذا لساحرٌ حاذقٌ في سحره، وإنما قصدُه إخراجُكم من أرضكم، وأنْ يَغلبكم على بلادكم بقومه من بني إسرائيل إذا نَفذت هذه الحيلة، فماذا تأمرون أيها الوزراء؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل أن يكون المراد به: ولو اتَّبعتم موسى وأَجَبْتُموه إلى ما يدعوكم إليه لأَخرجتُكم من أرضكم، فأضاف ذلك إلى موسى عليه السلام بطريق التسبيب[١].

قالوا: إن الملأ المذكور في أول الآية جماعةٌ دون الوزراء، وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطابٌ منهم لأصحاب الآراء من المقرَّبين والوزراء، وذكر في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥] فأخبر عن فرعون أنه قال ذلك للملأ، فقيل: إن من المحتمل أن يكون فرعون قال ذلك أولًا، ثم الملأُ قالوا له ذلك، فأخبر الله تعالى عنهم جميعًا.

وقيل: قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطاب من الملأ لفرعون بصيغة الجمع تعظيمًا له، وكذا خطاب الملوك.

وقال الكلبي وأبو عبيدةَ والفراء: هذا الخطاب من فرعون للملأ، يقول: ماذا تشيرون عليَّ في أمره، وهذا على نظم سورة الشعراء ظاهر، وعلى نظم هذه السورة فيه إضمار: قال لهم فرعون[٢].

وقال أهل التحقيق: تحيَّر هذا الملعون عند غلبة سلطان المعجزة فنسي دعوى

---

(١) في (ر): «التسبب». وانظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٧).

الإلهية ومرتبةَ كونه آمرًا وناهيًا لهم، فخاطبهم خطاب الأذلَّاء المقهورين المكلَّفين المأمورين: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

* * *

(١١١ ـ ١١٢) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[١] قرأ نافع ـ غيرَ قالون[٢] ـ وحمزة وعاصم في أكثر الروايات[٣]، والكسائي وعباس عن أبي عمرو[٤] بغير همز إلا أن حمزة يسكن الهاء وهم يكسرونها.

وقرأ الباقون: ﴿أرجئه﴾ بهمزٍ[٥]، وهما لغتان: أرجَيْتُ الأمر وأرجأته؛ أي: أخَّرته.

وقيل في تفسيره: احْبِسه، يعني: موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ يعني: هارون، وكان معه، فقد ذكرهما في موضعٍ آخر فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، و: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

---

(١) في (ف): «﴿قالوا أرجئه وأخاه﴾»، وهي قراءة سبعية كما سيأتي.

(٢) قالون هو أحد راويي نافع واسمه: عِيسَى بن مينا، والثاني هو عُثْمَان بن سعيد الملقب بورش، فقراءة نافع غير قالون في السبعة يقصد بها قراءة ورش عنه.

(٣) «وعاصم في أكثر الروايات» ليس في (أ)، «في أكثر الروايات» ليس في (ف).

(٤) «وعباس عن أبي عمرو» ليس في (أ).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧ ـ ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١١). واختصر الداني ما فيها من قراءات سبعية بقوله: ابن كثير وهشام: ﴿أرجئه﴾ هنا وفي الشُّعراء بالهمز وضم الهاء ووصلها بواو، وأبو عمرو بالهمز والضَّم من غير صلة، وابن ذكوان بالهمز وبكسر الهاء ولا يصلها بياء، وقالون بغير همز ويختلس الكسرة، وورش والكسائيّ بغير همز ويصلان الهاء بياء، وعاصم وحمزة بغير همز ويسكِّنان الهاء.

ودلت هذه الآيةُ على[١] أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من فرعون للملأ، فقد ذكر في هذه الآية جوابهم له قالوا: احْبِسه وأخِّرْ أمرهما حتى ننظرَ في أمرهما، فلا تقتلهما ولا تؤمن بهما.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿أرجئه﴾؛ أي: أخِّره، هذا يدلُّ على تقدُّم شيء، فكأنه همَّ بقتله فقالوا: أخِّر قتله واحبِسه ولا تقتله؛ ليتبيَّن سحره عند الخلق جميعًا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦][٢].

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: ﴿أرجئه﴾: أخِّره[٣]، وهو الأصح؛ لأنه لا[٤] يَثبت أنه حبَسهما، ويدل عليه قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ [طه: ٥٨].

وقال القشيريُّ رحمه الله: توهَّم البائس أنهم بالتأخير، وتقديمِ التدبير، وبذلِ الجِدِّ والتشمير، يغيِّرون شيئًا من التقدير، ولم يعلموا أن القضاء غالب والحكمَ سابق، وعند حلول الحكم لا سلطان للعلم والفهم، كلا بل هو الله الواحد القهَّار[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائيِّ: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾[٦].

والمدائن: جمع مدينة، والحاشر: الجامع.

---

(١) «على» ليس في (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٣)، من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٤) في (ف) و(أ): «لم».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٦).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: يعني: وابعث الشُّرَط ليجمعوا السحرةَ من المدائن[١]، وكان له مدائن فيها السحرةُ[٢] عُدَّةً للأشياء إذا حزبه أمر.

فقال فرعون لموسى: اجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفُه، فتجتمعَ أنت وهارونُ وتجتمعَ السحرة، فقال موسى: موعدكم يوم الزينة، ووافق ذلك يوم السبت في أول يومٍ من السَّنة وهو يومُ النيروز، فخرج موسى وهارون من عنده، وأرسل فرعونُ حاشرين إلى كلِّ مدينة في سلطانه، فاجتمع السحرة لميقاتِ يومٍ معلوم، فاجتمع خمسة عشر ألفَ ساحر، وقيل: كانوا اثني عشر ألفًا.

وقال الحسن رحمه الله: كانوا خمسةً وعشرين ألفًا[٣]، وليس معهم ساحرٌ إلا وهو يُحسِن من السحر ما لا يُحسِن صاحبه، وكان كبراؤهم ألفَ ساحر، وهم الذين عملوا بالعصيِّ والحبال.

والساحر: الفاعل للسحر، والسحَّار: الدوَّام[٤] على ذلك.

وقيل: الساحر: العالم به، والسحَّار: العالم[٥] المعلِّم.

* * *

(١١٣) ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥١ و٣٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٤).

(٢) في (ف) و(أ): «مدائن فيها السحرة» بدل من «وكان له السحرة في المدائن».

(٣) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٠٠) بلفظ: كانوا خمسة وعشرين صفاً، كلُّ ألف ساحر صفٌّ.

(٤) في (أ): «المدافع»، والمثبت من (ر)، وسقطت الجملة من (ف).

(٥) «به والسحار العالم» من (أ).

وقولـه تعالـى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وهاهنـا مضمَـرٌ: فأرسـلَ الحاشـرين فجمَعوهـم وجـاء السـحرة فرعون.

قال الكلبيُّ رحمه الله: فأتَوه وكانوا سبعين[1] ساحراً غيرَ رئيسهم، وكان يعلِّمهم رجلان مجوسيان من أهل نينوى[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أئنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[3] قرأ ابن كثيرٍ ونافع وعاصم في رواية حفصٍ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ من غير ألفِ استفهامٍ، وهو مرادٌ في المعنى، وقرأ الباقون: مع ألف الاستفهام[4].

وقال الكلبي: معناه: إن[5] لنا لَمالًا تعطينا إن غلبْنا موسى.

***

(١١٤) ـ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: أي: في المجالس عندي، أجابهم إلى ما الْتمسوا وزادهم في الميعاد، وقال: أنتم مقرَّبون عندي في المنزلة، فتكونون أولَ مَن يدخل وآخِرَ مَن يخرج.

وقال بعض المفسرين: وعدهم أن يأذَنَ لهم في كلِّ أربعين يومًا مرة واحدة أن يدخلوا عليه.

---

(١) بعدها في (ف): «ألف»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٩)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٦٤)، وذكره الرازي في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٢) عن ابن عباس.

(٣) في (ر): «﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا ...﴾».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٥) في (ر): «أئن».

وقيل: أي: حوائجُكم عندي مقضيَّةٌ، وشفاعاتُكم لغيركم مقبولة، ومراتبُكم في الدخول والخروج مرفوعة.

وقيل: هو رأس كلِّ كرامة، فإنَّ مَن قرِّب من الملِك وصل إلى كلِّ شيء.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان السحر هو الظاهرَ الغالب في ذلك الزمان، فجاء موسى من الآيات على رسالته بنوعٍ ما كانوا يعملون به وجنسه؛ ليَعرفوا بخروجه عن وسعهم أن ذلك ليس بسحرٍ ولكنه آيةٌ سماوية، وكذلك ما جاء به عيسى عليه السلام من الآيات كان ذلك في أيام الحكماء[(١)]، وكذلك نبيُّنا محمد عليه الصلاة والسلام جاء بالقرآن الذي أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، وكان زمانَ بلاغة وفصاحة[(٢)].

وقال وهبٌ: اجتمع السحرة وهم سبعون ألفًا، ثم ميَّزهم حتى اختار منهم سبعةَ آلاف، ثم ميَّزهم حتى اختار منهم سبعَ مئة، ثم ميَّزهم حتى اختار منهم سبعين ساحرًا من كبرائهم، فجاؤوا بالعصيِّ والحبال فعملوا بها بين يدي فرعون قبل أن يلتقُوا هم وموسى، فلما رآها فرعون تحوَّلت كأنها حياتٌ وأفاعٍ استبشر وطمع في أن يظفر بموسى[(٣)].

وقال الضحاك: وخرج موسى وهارون وبيد موسى عصًا وعليه عباءةٌ، حتى انتهوا

---

(١) «كان ذلك في أيام الحكماء» من (ف). وعبارة «التأويلات»: (كذلك ما جاء عيسى من الآيات جاء بنوع ما كان يعمله قومه، وهو الطب، فجاء بنوع الطب ليعلموا أنه بالله عرف ذلك).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٩).

(٣) ذكر أوله عن وهب ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٠٠) من طريق عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب. وعبد المنعم بن إدريس قال عنه أحمد بن حنبل كما في «الميزان»: كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

إلى الصفوف وهم خمسةَ عشرَ صفًا، وخرج[١] فرعون في عظماء قومه، فجلس في مجلسٍ له على سريرٍ له عليه خيمةُ الديباج ميل في ميلٍ، ومعه هامان وزيرُه وقارون بين يديه، واجتمع الناس في صعيدٍ واحد يقول بعضُهم لبعض: ننظر مَن الغالب فنكون معه، وقال موسى عليه السلام للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية [طه: ٦١] ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]؛ أي: قال بعضهم لبعض سرًّا: ما هذا بقولِ ساحرٍ لكن[٢] هذا كلامُ الرب الأعلى، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه وبهائه ونظروا إلى موسى وعصاه[٣] وكسائه، فنُكسوا على رؤوسهم وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ الآية [طه: ٦٣][٤].

* * *

(١١٥) ـ ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: (إمَّا) للتخيير، وتقديره: إمَّا أن تلقيَ أنت أولًا وإمَّا أن نُلقي نحن أولًا، دليلُه ما قال في سورة طه: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

قيل: أظهَروا الاقتدار وقالوا: إن بدأت أنت أو بدأنا فلا خوف علينا ولا حِذارَ.

وقيل: بل احترموا، وببركة ذلك أسلموا.

* * *

(١) بعدها في (ف): «عليه».

(٢) «لكن» ليس في (ف).

(٣) في (ف): «إلى موسى وفي يده عصاه».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٦)، من طريق جويبر عن الضحاك. وجويبر متروك، ويرويه عنه إسحاق بن بشر وهو متروك أيضاً.

(١١٦) - ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾: أي: فسترون ما يحلُّ بكم من الخِزْي، ولم يكن هذا أمرًا بتنفيذ السحر ورضًا به، ولكنه تهديد.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾: أي: قلبوا أعين الناس عن صحة الإدراك.

وقيل: حيَّروا الأعين.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾؛ أي: حملوهم على الرهبة وهي الخوف، وسين الاستفعال للطلب والسؤال، وذلك لمَّا رأوها تسعى؛ قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦].

قال الحسن: ألقى كلُّ رجل منهم ما كان في يده من حبلٍ أو عصًا، وكانوا أخرجوا ثلاثَ مئة وستين وسقًا من الحبال والعصي، فلما ألقوا قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]؛ أي: القاهرون[١].

وروي أنها كانت عصيًّا جُوفًا فيها الزئبقُ، فلما أصابها حرُّ الشمس تحركت وخيِّل إلى موسى أنها تسعى إليه، وخاف مَن حضر أن بعضها يسعى إليهم فرَهِبوا فهَرَبوا[٢] إذ كان سحرًا عظيمًا؛ أي: هائلًا كثيرَ العدد والملقين.

وقال الحسن رحمه الله: ملؤوا الدنيا في أعينهم حياتٍ، وكان أولُ مَن خطفوا بسحرهم بصرَ موسى وهارون، ثم فرعون والناس، وامتلأ الوادي

(١) قطعة من الخبر السابق عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٦).

(٢) «فهربوا» ليس في (أ).

منها، فركب[١] بعضُها بعضًا، وهرب الناس عنهم وانكشفوا، ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ موسى ﴿فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً﴾[٢].

قيل: هو خوفُ طبعٍ.

وقيل: ظنَّ أن عصيَّهم صارت حياتٍ حقيقةً كعصاه.

وقيل: وهو قول الإمام أبي منصور رحمه الله: خاف أن سحرهم يمنع أولئك عن رؤية حقيقة ما جاء به[٣].

فأوحى الله تعالى إليه: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، وجاء جبريل صلوات الله عليه حتى وقف عن يمينه وقال له: ألق عصاك، وذلك قوله تعالى:

(١١٧) ـ ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾: وأضمر هاهنا: فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾: قرأ عاصم في رواية حفص بالتخفيف، ومعناه: تبتلع، من حدِّ عَلِمَ.

وقرأ الباقون: ﴿تَلَقَّفُ﴾ بالتشديد[٤]، وأصله: تتلقَّف، وهي للتكلُّف والتكرُّر، وأُسقطت إحداهما تخفيفًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ تقديره: ما يأفكون به، أو: فيه. أي: يكذبون فيقولون: هي حياتٌ حقيقةً، أو: هي غالبةٌ معجزةَ موسى.

وقيل: ﴿يَأۡفِكُونَ﴾؛ أي: يصرفونه عن حقيقته بالتخييل، من قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ أي: يُصرفون.

---

(١) في (ر): «يركب».

(٢) قطعة من الخبر السابق عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٢٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ألقَى عصاه فصارت ثعبانًا رأسُه في السماء وأحدُ شدقيه[١] بالأرض، ثم ابتلع ما كان من سحرهم حتى ما ترك في الوادي من سحرهم شيئًا، وانكشف الناس وولَّوا هاربين والثعبانُ على إثرهم، فمات بعضهم على بعضٍ بقَدْر سبعين ألفًا.

وقال عبد الله بن زياد بن سَمْعانَ: حدَّثني رجال من أهل العلم: أن فرعون لعنه الله كان في خيمته، إذ أقبل الثعبان في آثار الحيات حتى اقتحم على فرعون في خيمته، فقام فرعون عن سريره ونزل بالأرض، وكان أعرجَ لم يُعرف إلا يومَه ذلك، فمشى يومئذ سبعَ خطوات فعرفوا أنه أعرج.

وقال وهب: فلمَّا وقعت العصا بالأرض انكشف غطاءُ سحرهم عن أعين الناس، فنظروا إلى ما ألقت السحرة عيدانًا وحبالًا، وأكبَّ ثعبان[٢] موسى يمضغُ حبالهم ويَقضَمُ عيدانهم حتى الْتَقَفَ ما يأفكون سبعَ مئة عودٍ وسبعَ مئة حبلٍ، ولم يكونوا يُلقون حبالهم وعصيَّهم بمرةٍ واحدة، ولكنهم يلقون كلَّ مرةٍ عشرةَ أعوادٍ وعشرةَ أحبُلٍ، فكلما وقع على الأرض منه شيء التقمه حيةُ موسى والناس يزدادون عبرًا.

* * *

(١١٨) ـ ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾: قال الحسن ومجاهد: أي: ظهر[٣]، وقيل: أي: ثبتت الحجة، وقيل: أي: جاء الحق.

---

(١) في (أ): «شقيه».

(٢) في (أ): «وأكب حية»، وفي (ر): «وأقبل حية».

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٤٦). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٦٠ ـ ٣٦١) عن مجاهد، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٦) عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: تلاشَى ما عملوه من العصيِّ والحبال، وقيل: أي: بطل عملُهم.

* * *

(١١٩) ـ ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾: أي: غُلب السحرة في ذلك الموضع ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾؛ أي: رجعوا أذلَّاء مقهورين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: فرعون وملؤه وأتباعه، لا السحرة فإنهم آمنوا وعزُّوا بالإيمان[١].

* * *

(١٢٠) ـ ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾: أي: ألقاهم ما رأوا من الآية العظيمة ساجدين؛ أي: دعاهم إلى السجود لله تعالى والخضوعِ له.

وقيل: أي: لم يتمالكوا أنْ وقعوا ساجدين فكأن مُلْقيًا ألقاهم، وقريبٌ منه قول بعضهم: أسرعوا ساجدين فكأنهم أُلقوا.

وقيل: هو تنبيهٌ على أن الله تعالى هو خالقُ أفعال العباد، وأن الله تعالى هو الذي خلق فيهم ذلك، فقوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ إثباتُ فعلهم، وقوله: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ إثباتُ خلق الله تعالى فعلَهم ذلك.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قالت السحرة بعضُهم لبعض: لو كان هذا سحرًا لثبتت حبالُنا وعصيُّنا، وهذا أمرٌ من الله تعالى فخرُّوا ساجدين لله تعالى[٢].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٣٠).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٨).

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبرَّؤوا من كفرهم وآمَنوا بربّهم، ولمَّا سمعوا من موسى وهارون حين أتيا[١] فرعون ما قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حفظوا هذا الاسم فنفعهم يوم إلقاء العصا فتكلَّموا به، وكذا ينبغي لمن سمع علمًا أن يحفظه وإن كان لا يعمل به للحال لأنه ينفعه في المآل.

ولمَّا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال فرعون: أنا رب العالمين، فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ فبُهت فرعون لردهم عليه.

وقيل: معنى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: أَرسل موسى وهارون إلينا، وهو إيمانٌ منهم بهما وتصديقٌ لهما.

وقال[٢]: مَن شرَع في شيء حقٍّ أو باطلٍ فليُتْقِنه فإنه يردُّه إلى الحق يومًا، ألا ترى أن السحرة تعلَّموا السحر وهو ضارٌّ، ولمَّا أتقنوه وتناهَوا فيه وقفوا به على أن ما ظهر على يدي موسى ليس من جنسِ ما يَدخل في حيلةِ المخلوقين، وأنه مِن عندِ ربِّ العالمين، فاهتدوا إلى الإيمان ونجَوا من الخسران.

* * *

(١٢٣) ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾: أي: بغيرِ أمري وإذني.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ قال مقاتل: إن

---

(١) في (ف): «أنبآ».

(٢) قوله: «قال»كذا وقع في النسخ دون بيان القائل، وجاء بعده في (ر): «إن».

موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: تؤمن بي إنْ غلبتُك؟ فقال: لآتينَّ بسحرٍ لا يغلبه سحرٌ، ولئن غلبتَني لأومِنَنَّ بك، وفرعونُ ينظر [إليهما ولا يفهمُ ما يقولان] فلما آمنوا، قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، و﴿هَٰذَا﴾ منكم ﴿مكرٌ مكَرْتُموه في المدينة﴾؛ أي: تواطأتُم عليه لتَدخلوا في دينه، وتجتمعوا على إخراج بني إسرائيل من المدينة ليكونوا عبيدًا لكم وخدمًا وتبعًا(١).

وقال القشيريُّ رحمه الله: خاطبهم معتقِدًا أنهم هم الذين كانوا(٢)، ولم يعلم أن تلك الأسرار قد حرِّرت عن رِق الأشكال، وأن قلوبهم قد طهُرت عن توهُّم التَّفرقة، وأن شمسَ العرفان قد طلَعت في سماء أسرارهم، فشاهدوا الحقَّ بنظرٍ صحيح [و]لم يبق لتخويفات(٣) النفس فيهم سلطان، ولا لشيءٍ من العلل فيهم جولان، والله المستعان(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: هذا وعيد، وهو أبلغ تهديد.

قال مقاتل: كان رأسُ السحرة شمعون(٥)، وقال ابن جريج: بَرْحنَّة(٦).

❃ ❃ ❃

(١٢٤) ـ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(٢) بعدها في (ف): «تواطؤوا معه على هذا المقال»، وليست في «اللطائف».

(٣) في (أ): «لتحريفات».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٨)، وما بين معكوفتين منه، وجاء آخره هكذا: (... ولم يبق لتخويفات النفس فيهم سلطان، ولا لشيء من العلل بينهم مساغ).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٤).

(٦) في (أ): «برجنة».

وقوله تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ التقطيع: تكثير القَطْع بكثرة المحالِّ، والخلاف: أن يكون في اليد اليمنى والرجل اليسرى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: هو تكثيرُ الصَّلْب، وهو للتشهير. وقال في سورة طه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوعها.

* * *

(١٢٥) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾: أي: إلى جزائه، استسلَموا لذلك، وطيَّبوا أنفسهم، وقالوا: إذا كان المصير إلى الله طاب المسيرُ إلى الله تعالى.

وقيل: أي: إذا كان المصير إلى الله فهو أحقُّ أن يُتَّقى عذابُه منك بما تهدِّدنا به.

* * *

(١٢٦) ـ ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾: أي: ما تَعيب منَّا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهذا مما لا يُعاب، بل ثبت له الإيجاب، ولا يجوز لنا عنه الانقلاب، فلا سبيل إلى إرضائك فقد استسلمنا(١).

ثم دعَوا ربهم أن يصبِّرهم على ما ينالهم من فرعون، وذلك قوله تعالى:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾: أي: صبَّه علينا؛ أي: وفِّره لنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾: أي: على دينِ موسى وهارون.

---

(١) «فقد استسلمنا» ليس في (ف).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لمَّا عملوا لله، وأُوذوا في الله، صرَفوا القصدَ إلى الله، وطلبوا المعونةَ من عند الله، كذا السنَّة فيمَن كان كلُّه لله تعالى أن يكون كلُّه على الله(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ هو تمويهٌ وتلبيسٌ منه على قومه لئلا يؤمنوا، كما قال في الابتداء: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ هدَّدهم أولًا بأشدِّ العقوبات ثم قال هذا، وهو جهل منه لأنه أيسرُ من قطعهما من جانبٍ؛ لأن ذاك متلِفٌ وذا ليس بمتلفٍ، ولذا شُرع هذا في الحدود، وذاك يعجز عن الصعود، وهذا يقدر على الصعود(٢).

وقوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ إقرارٌ منهم بالبعث، وهو ثقةٌ بالوعد، وهو تخويفٌ لفرعون: إنَّا وأنت منقلبون إلى جزاء الله، فيُثيبنا على إيماننا ويعاقبُك على صنيعك بنا.

وقوله(٣): ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وكان الحقَّ علينا وعليكم أن نؤمن بها.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ قيل: أنزل علينا، إنما قالوا ذلك لخوفهم أنه لو فعل بهم ما أَوعدهم به فلعلهم لم يصبروا فيتركوا الإيمان، فسألوا الصبرَ عليه

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٥٨).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤). والمراد بالصعود: الصعود على الخشبة للصلب، وعبارة الماتريدي: (... أو أنه اختار القطع من خلاف ليكون مؤنة الصلب عليهم لا عليه؛ لأن المقطوع من خلاف قد يمكن له الصعود على الخشبة، والثاني: لا، والله أعلم).

(٣) في (ف): «قولهم».

للثبات على الإيمان، وسألوا الوفاة على الإيمان، وكذا كان دعاءُ الأنبياء عليهم السلام، وكذا يجب على كلِّ أهل الإسلام.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فصلبهم فرعون على جذوع النخل، وهو أولُ مَن قطع الأيديَ والأرجلَ من خلافٍ، وأولُ مَن صلب[١].

وقيل: كان ذلك على شاطئ نهر مصر.

وقال وهبٌ: صلبهم في جذوع النخل، كلُّ جذعٍ أربعون ذراعًا.

وقال عطاء: كان رئيس السحرة بأقصى مدائن الصعيد، وكانا أخوين، فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمهما: دلِّينا على قبر أبينا، فدلَّتهما عليه، فأتياه فصاحا باسمه فأجابهما، فقالا: إن الملك قد وَجَّه إلينا لنَقْدَم[٢] عليه؛ لأنه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح، ولا لهما عزٌّ ولا منَعة، وقد ضاق الملك عن عزِّهما[٣]، ومعهما عصًا إذا ألقياها لا يقومُ لها شيءٌ حتى تبتلعَ الحديد والحجر والخشب، فأجابهما أبوهما: انظرا إذا هما ناما، وإنْ قدرتما أنْ تسلَّا العصا سلًّا فإن الساحر لا يعمل سحره وهو نائم، وإن عملت العصا وهما نائمان فذاك أمرُ رب العالمين ولا طاقةَ لكما بهما ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا، فأَتَياهما في خُفْيةٍ وهما نائمان ليأخُذا العصا، فقصدتهما العصا[٤].

قال سعيد بن جبير: كانت العصا من العوسج[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٦٣).

(٢) في (ف): «أن نقدم».

(٣) في (أ): «من غيرهما»، وهو تحريف ظاهر، والعبارة في «تفسير الثعلبي»: (وقد ضاق الملك ذرعاً من عزهما).

(٤) ذكرهما الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٠).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥٨).

وذكرنا قبل هذا ـ وهو[١] قول السُّدِّي ـ أنها كانت من آسِ الجنة.

وقال وهبٌ: وقال فرعون لموسى وقد انصرف والثعبان على أثره يَنظر إليه الناس حتى دخل المدينة: اعتزِلْ إلى عسكر قومك واكفُف عن الناس هذا الخوف الذي دخلهم، فقد فرَّقْتَهم وشرَّدْتهم، ولن يجتمعوا لك أبدًا، ولن يستجيبوا لك ولن يؤمنوا بك، وأنا ناظرٌ في أمرك وجامعٌ لك الجنودَ، وسوف تَعلم إذا التقى الجمعان، فلا يغرَّنَّك ما سحرتَ به أعين الناس، فقال موسى: أنا عبد مأمور أعمل بوحي الله تعالى، ولا أزال مجاهدَك غيرَ مقصِّرٍ حتى يحكم الله بيني وبينك، وكان الرسول فيما بينهما هامان وقارون.

قال: فأوحى الله تعالى إلى موسى: إنِّي أنا الحليم[٢] الكريم، وأنا الغنيُّ الحميد، فدَعْه إلى أن يَجمع لك الجنود [٣] وأنا مِن ورائه محيط، فأسعِفْه بحاجته واضْرِبْ بينك وبينه أجلًا، وارجع إلى عسكر[٤] قومك أنت وأخوك.

قال: ففعل ما أمره به ربُّه، فلما خرج موسى وهارونُ إلى عسكر قومهما والحيةُ خلفه تُبَصْبِص[٥] حوله،..

---

(١) «هو» ليس في (أ).

(٢) كتب فوقها في (ر): «الحكيم».

(٣) في (ف): «الجموع» وفي هامشها: «الجنود».

(٤) في (أ): «عزك».

(٥) في (أ): «ينصنص»، ولها وجه، فإن النصنصة هي التحريك والاهتزاز، وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه: أنَّهُ كان يَنصْنِصُ لسانه ويقول: إنَّ ذا أوردَني المَوارِد، ومعناه: يُحرِّكُه ويُقلقِلُه، وكلُّ شيءٍ حرَّكْتَه فقد نَصْنَصْتَه. وفيه لغةٌ أخرى: (نَضْنَضْتُ) بالضاد، ومنه: الحيَّةُ النَّضْنَاضُ، وهي القَلِقَةُ. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ١١٦)، و«الغريبين» للهروي (مادة: نصنص)، و«مجمع الغرائب» لعبد الغافر الفارسي (مادة: نصنص ونضنض).

وقد ملأ الله تعالى الناس منها[١] رعبًا، فلما وصل إلى عسكر قومه أخذ بشدق الحية فإذا هي عصًا يتوكَّأ عليها.

***

(١٢٧) - ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إن سحرة فرعون لمَّا غُلبوا آمن بموسى عليه السلام من بني إسرائيل ستُّ مئة ألف[٢]، فقال الملأ من قوم فرعون: أَتَدَعُ موسى وقومه من بني إسرائيل ليفسدوا في أرضك بإيقاع الفُرقة والصدِّ عن دينك والدعاء إلى مخالَفتك ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: يعتزلَك فلا يخدمَك ولا يعبدَك ولا يعبدَ[٣] آلهتك التي تعبدُها.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان فرعون اللعين صنع لقومه أصنامًا صغارًا وأمرهم بعبادتها وقال: أنا ربُّكم وربُّ هذه الأصنام[٤].

قال سليمان التيميُّ: كان فرعون يعبدُ البقر[٥].

---

(١) في (أ): «منهما».

(٢) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (٢/ ١٢٧).

(٣) «يعبد» ليس في (ف).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٩٢)، وفي «الوسيط» (٢/ ٣٩٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢٤٤). وصرح الواحدي في «الوسيط» أنه من رواية الكلبي عن ابن عباس.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٨).

وقال السُّدِّي: كان يَعبد ما يَستحسِن من البقر، وعلى ذلك أخرج السامري عجلًا جسدًا له خوارٌ فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨][1].

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (وإلاهَتَك)؛ أي: عبادتَك، فلا يعبدُك كما نعبدُك نحن، وكذا قرأ ابن عبَّاس رضي الله عنهما وبكر بن عبد الله والشعبي والضحاك وابن إسحاق[2]، وقال مجاهد: هو الصحيح؛ لأنه كان يُعبَد ولا يَعبُد[3].

وقيل في جوابه: يحتمِلُ أنه كان يَعبد ويُعبد، **وقوله تعالى**: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، و: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] هو على التخصيص؛ لأنه لم يقل: ما علمتُ من إلهٍ غيري، و: أنا الربُّ الأعلى.

وقيل: في تأويل قراءة هؤلاء: (وإلاهتَك): لم يُرَدْ به: وعبادتَك، بل الإلاهةُ اسمٌ للشمس، وهو كان يَعبد الشمس، قال الشاعر:

وأعجلنـــا الإلاهـــة أن تؤوبـــا[4]

وإنما اعترضوا عليه بهذا وعارَضوه وأنكروا عليه فعلَه مع أنهم يعتقدون أنه ربُّهم وهم عبيده؛ لأنه جرى على خلاف عادة الملوك في ترك السَّطوة عند ظهور المُعارِض الَّذي يخاف منه على المملكة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٦٧).

(٢) تنسب لابن مسعود وابن عباس وعلي وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٦)، و«الكشاف» (٢/ ١٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر» (١٠/ ٢٥٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٢٢)، و(١٠/ ٣٦٨ و٣٦٩) عن مجاهد وابن عباس.

(٤) عجز بيت لبنت عتيبة بن الحارث اليربوعي. انظر: «الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٣/ ٢٢٥)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٩)، وتقدم في أول الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: لمَّا أغرَوه على موسى وقومه، وخوَّفوه غلَبتهم وازديادهم، قال: لن يكون ما تخافون من قهرهم لنا بازدياد عددهم؛ لأني أعيدُ عليهم قتل الأبناء واسترقاقَ النساء والاستخدامَ، فيشغلهم ذلك عن المناكح[1] فلا يزدادون، والقائمون يهلكون، فهم المقهورون ونحن القاهرون.

وذكر أنه يقتلُ أبناءهم ولم يذكر أنه يقتلُ موسى لأنه لم يطمع فيه لِمَا رأى من قوة أمره وعلوِّ شأنه.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ولمَّا قال الملأ لفرعون ذلك أمر أن يكلِّفوا بني إسرائيل ما لا يطيقونه، فيجيءُ الرجل من القِبْط إلى الرجل من بني إسرائيل فيقول له: انطلِقْ فاكْنِسْ حُشِّي واعْلِفْ دوابِّي واستَقِ لي، وتجيءُ المرأة القِبطيَّة إلى الكريمة من بني إسرائيل فتكلِّفها ما لا تُطيق، ولا يطعمونهم في ذلك، فإذا انتصف النهار يقولون: انطلقوا فاكتسبوا لأنفسكم ما تأكلون، فشكَوا[2] ذلك إلى موسى عليه السلام، فقال لهم موسى: استعينوا بالله على رفع هذا البلاء، واصبروا على الدِّين الحقِّ، إن

---

(١) في (ر): «التناكح».

(٢) في (ف): «فبلغ».

أرض مصر وكلَّ الشام لله يُوْرثها[١] مَن يشاء من عباده والعاقبةُ للموحِّدين[٢].

وقيل: معناه: الأرض كلُّها لله يصرِّفها كيف يشاء، ويجعلها في يدِ مَن يشاء، وفيه تسليةٌ؛ أي: هي لا تبقَى لأحد[٣]، وتنتقِل من قوم إلى قوم، وفيه إطماعٌ أيضًا أن يُورثهم الله أرض فرعون فيكونوا هم قاهرين لهم والوارثين بعدَهم بلادهم، وفيه نهيٌ عن النظر إلى الحال، وأمرٌ بالثقة بما يكون من النصر[٤] والقهرِ للمتقين في المآل.

* * *

(١٢٩) ـ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾: قال وهب: كانوا أصنافًا في أعمال فرعون، فأما ذوو القوة منهم فيسلخون[٥] السَّواريَ من الجبال، قد قَرِحت أعناقهم وعواتقهم وأيديهم، ودَبِرت ظهورهم[٦] من قطعِ ذلك ونَقْلِه، وطائفةٌ أخرى قد قَرِحوا من نقل الحجارة والطين يبنون له القصور، وطائفةٌ يُلبِّنون اللَّبِنَ ويطبخون الآجرَّ، وطائفةٌ نجَّارون وحدَّادون، والضَّعَفة منهم عليهم الخراجُ ضريبةً يؤدُّونها كلَّ يومٍ، فمَن غرَبت عليه الشمسُ قبل أن يؤدِّيَ

---

(١) في (أ): «يصرفها».

(٢) في (ف): «للمتقين أي الموحدين».

(٣) في (ف): «على أحد».

(٤) في (ر): «التصرف».

(٥) في (أ): «فيصلحون»، والمثبت من (ر) و(ف)، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» و«تفسير الخازن»، وجاء في بعض المصادر: (وينحتون)، وبها يتضح المعنى.

(٦) أي: أصابتها الجروح والقروح.

ضريبته غُلَّتْ يمينُه إلى عنقه شهرًا، وأما النساءُ فيَغزلن الكتَّان وينسُجْنَه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾: أي: هذا الإيذاءُ باقٍ بعد مجيئك يا موسى، بل زائدٌ.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: كنا نُطعَم إذا استعملونا من قبلِ أن تجيئنا، فلما جئتنا استعملونا ولم يُطعمونا.

وقيل: كانوا يكلِّفونهم قبل ذلك ضرب اللَّبِن، وبعد ذلك كلَّفوهم[2] ضرب اللَّبن بالتبن من عندهم.

وهذا يدلُّ على قلَّة أفهامهم، فإن موسى عليه السلام أطمَعهم في أن الله يُورثهم الأرضَ وتكونُ العاقبة للمتقين، فقالوا له: أمَا تشاهدُ قهرَ فرعون إيانا[3]، وقتلَه أبناءنا، واستعبادَه نساءنا، وأخذَه الجزية منا كما كان قبل مجيئك منه في حقِّنا، فكيف يزول عنَّا قهره؟

وليس هذا بسؤالٍ صحيح على ما قال، فإنه قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وقد تَقْربُ مدةُ ذلك وقد تَبْعد، وقد أمرهم بالصبر إلى مجيئها.

ولمَّا تكلَّموا بهذا بان لهم وجهُ زوال قهر فرعون وكيفية العاقبة، وذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: و(عسى) إطماعٌ، وهو من الكريم إيجابٌ؛ أي: اطمعوا في أن الله يهلكُهم ويجعلُكم سكانَ أرضهم[4].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير البغوي» (١/ ٩١)، و«تفسير الخازن» (١/ ٤٣)، و«البحر المحيط» (٢/ ٢٣)، و«روح البيان» (١/ ١٢٩).

(٢) في (أ): «كان يكلفهم... وبعد ذلك كلفهم» وهي ليست من (ف).

(٣) في (أ): «آباءنا».

(٤) في (أ): «أراضيهم».

ثـم أخبـر أن الله عز وجـل إذا أعطاهم ذلك اسـتأداهم شـكره بطاعتـه، وذلك قولـه تعالى:

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كيف تشكرون نعمه.

وقيل: أي: يمتحنُكم بما يعطيكم، فالدار الدنيا[١] دارُ امتحان؛ ليظهر[٢] كيف ائتمارُكم بأوامره، وانتهاؤكم بنواهيه، وشكرُكم على عطيَّته، وصبرُكم على بليَّته.

***

(١٣٠) ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾: أي: ابتَلينا قومَ فرعون بالقحط، جمع سنةٍ، ويطلق على الجَدْب ولا يطلق على الخِصب؛ لأن الجدب نادرٌ غيرُ غالبٍ[٣]، والنادرُ أحقُّ بالإفراد بالذكر لانفراده بالمعنى الذي ندر به، يقال: أصابتهم سنة؛ أي: جَدْب، وأسنتوا؛ أي: أَجْدبوا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾: هذا في حق الأشجار والأولُ في الزروع.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: السِّنونَ لأهل البوادي، ونقصُ[٤] الثمرات لأهل القرى، وهما آيتان[٥].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: ليذَّكَّروا؛ أي: ليتَّعِظوا ويرجعوا إلى الحق[٦] فيخلصوا.

---

(١) «الدنيا» من (ف).

(٢) في (ف): «لينظر».

(٣) في (ر): «ليس بغالب».

(٤) «من» ليس في (ف).

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠١).

(٦) في (أ): «ويراجعوا الحق».

وعن الحسن: أن موسى عليه السلام لمَّا اعتزل في عسكر قومه أرسل إلى فرعون أنِ اضربْ بيني وبينك أجلًا، فأرسل إليه فرعون: ما هذا الأمرُ مما أفرغُ منه في يومٍ أو يومين، فأوحى الله إليه: أنْ أَنْظِره واضربْ بينك وبينه أجلًا للحجة فإنه ليس يُعجزني، فضرب أجلًا أربعين يومًا، فجعل فرعون يجمع الجموعَ ليقاتله، فكلما أراد وجهًا في مكيدة خذله ربُّه وشتَّت أمره، فلما انقضت الأربعون ولم يصنع فرعون شيئًا تابَع الله عزَّ وجلَّ الآيات فأخذهم بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات، فاحتَبس عنهم القطر وأَجدَبت أرضُهم وهلكت مواشيهِم وأنعامُهم.

* * *

(١٣١) - ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: أي: النعمةُ والخِصب والسَّعة والعافية ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: هذه التي نستحقُّها وقد تعوَّدْناها ولم تزل كانت لنا، ولم يروا ذلك من الله عز وجل ولم يشكروا له عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: أي: جَدْبٌ وضِيقٌ وبَليَّةٌ ومرض ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ قال الحسن ومجاهد وابن زيد: أي: يتشاءموا بهم(١).

وكانت العرب تزجرُ الطيرَ فتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتتبرَّك بالسانح وهو الذي يأتي من جهة اليمين، فسمِّي تطيُّراً لأنه زجرٌ بالطير.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: الله هو الذي يأتي بالخير والشرِّ والنَّفع والضُّرّ، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من عند الله لا من جهةِ موسى ومَن معه.

---

(١) رواه عن مجاهد وابن زيد الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: لا علمَ لهم أنها من الله، وأنه[١] يمتحنُ عباده بالمحن ردعاً عن المعاصي وحثًّا على الطاعات.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإنْ قيل: ذكَر أنه أخَذ آلَ فرعون بالسنين[٢] وكان فيهم بنو إسرائيل، فما معنى التخصيص؟

قيل له: يحتمِلُ أن يكون ذلك لهم خاصةً دون بني إسرائيل، أو كان الجدب يضرُّ آلَ فرعون دون بني إسرائيل؛ لِمَا أنهم كانوا يأكلون للشهوة وبنو إسرائيل للحاجة، ومَن يأكل للحاجة كان أقلَّ حاجة ممن يأكلُ للشهوة، فإن لم يجدوا ما يأكلون للشهوة كان ذلك أضرَّ بهم؛ قال النبي ﷺ: «المؤمنُ يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الكَفور لا يَرى فضلَ المنعِم فيلاحظَ الإحسانَ بعين الاستحقاق، ثم إذا اتَّصل به شيء مما يكرهُه تجنَّى وحملَ الأمر على ما تمنَّى:

وكــذا الــمَلُول إذا أراد قطيعــةً ... مــلَّ الأنيــسَ وقــال كان وكانــا

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ المنفرِدِ بالإيجاد، هو الواحدُ ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة[٤].

* * *

(١) في (أ) و(ف): «وأن الله تعالى».

(٢) «بالسنين»: من (ر).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤). والحديث رواه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٣٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه. ولفظ الصحيحين: «في معى واحد»، والمعنى واحد.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٠).

(١٣٢) ـ ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ قال الخليل: يعني: أيَّ شيء، وأصله: (ما ما) الأولى اسمٌ والثانية[١] صلةٌ، وأُبدلت الألف بالهاء لئلا يوهِم التكرير، وهو مبالغةٌ في العموم.

وقيل: (مَهْ) بمعنى: اكفُفْ و(ما) شرطٌ، قاله سيبويه[٢].

ومعنى الآية: أن قوم فرعون قالوا لموسى: أيَّ شيءٍ أتيتَنا به من آيةٍ تدَّعي أنها من عند الله فإنما هي سحرٌ تريد أن تخدعَنا به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: فلا تشتغلْ[٣] بإيرادها فما نحن بمصدِّقينَ لك أنها من عند الله، وهذا منهم[٤] غايةُ الجهل والضلالة؛ إذ كذَّبوه بما لم يأتِ به بعدُ، وأظهروا أنهم مُصرُّون على كذبهم وكفرهم أبداً، غيرُ منقادين للحقِّ وإنْ ظهر وبدا.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلت الآية أنهم كانوا معانِدين قد علموا بكلِّ آية قد جاءتهم قبل ذلك أنها من عند الله تعالى، وما كان امتناعُهم عن الإيمان لشبهة أو ريبة[٥].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: جعلوا الإصرار على الاستكبار شعارَهم، وهتكوا بألسنتهم في العتوِّ أستارهم[٦].

---

(١) في (أ) و(ف): «والأول اسم والثاني».

(٢) والأول قول الخليل جواباً لسيبويه لما سأله عن (مهما). انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٣) في (أ): «تستعجل».

(٤) بعدها في (ف): «في».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٤٧).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٠).

(١٣٣) ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾: قيل: هو السيل الشديد، وقيل: هو المطر المتتابع المُضِرُّ.

وقيل: هو الموت الذريع سَلَّط الله عليهم، وقالوا: سلِّط على البكر من كلِّ شيء من النساء والبهائم.

وقال أبو قِلابة: هو الجدري، وهو أولُ عذاب بني إسرائيل وبقي في الأرض[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾: وهو معروف ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هو الدَّبَى، وهي صغارُ الجراد التي لا أجنحة لها في روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول قتادة ومجاهد[٢].

وقيل ـ وهو رواية عن ابن عباس، وهو قول سعيد ـ: وهو السُّوسُ التي تقع في الحنطة[٣].

وقال ابن زيد[٤]: هي البراغيث.

وقال أبو عبيدةَ: هي الحَمْنان، وهي كبار القِرْدان[٥].

وقال الحسن وسعيد بن جبير: هي دوابٌّ سودٌ صغارٌ[٦]، واحدتها: قُمَّلة.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٦٩).

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٤) في (أ): «دريد»، والصواب المثبت، وقوله رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٤).

(٥) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٢٦).

(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾: جمع ضِفْدِع بكسر الضاد والدال، وهو معروف.

﴿وَٱلدَّمَ﴾: معروفٌ أيضاً، قال عبد الرحمن بن زيد: سلَّط الله تعالى عليهم الرُّعاف[(١)]. وأكثرُهم على أن النيل صار دماً.

قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ نُصب ﴿ءَايَٰتٍ﴾ من ثلاثة أوجه:

أحدها: بوقوع (أرسلْنا) عليها.

والثاني: على الحال.

والثالث: على التفسير.

و﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ قال مجاهد: أعلاماً مبيَّنات[(٢)]، يُفصَل بها الحقُّ من الباطل، أو تنفصِل عما يقدر عليه الآدميون.

وقيل: مميَّزاتٍ بعضها من بعضٍ، بين كلِّ آيتين فصلٌ ومدةٌ ليُتأمل في كلِّ واحدةٍ حقَّ التأمل.

وقيل: كان إذا أتتهم آية منها أقامت عليهم أسبوعاً ثم تُقلع عنهم شهراً، ثم تأتيهم أخرى تأكيداً للحجة عليهم.

يقول[(٣)]: قد قالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لكنَّا تابعْنا لهم الآيات، ولم نقطع عنهم البراهين بما أظهروا من الجهالات.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: فتعاظَموا عن الانقياد

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٩)، كلاهما عن زيد بن أسلم والد عبد الرحمن، وكذا ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٨) بلفظ: (معلومات).

(٣) في (أ): «بقول لقول».

للحق والإيمان بموسى، وكانوا قد اعتادوا الآثام والإجرام، واكتسابَ أنفسِهم العذابَ اللِّزام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطوفان أمرٌ من أمر[١] الله تعالى طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩][٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَرسل الله عزَّ وجلَّ عليهم المطرَ الشديدَ حتى كادوا يهلكون ـ وعن قتادة: حتى قاموا فيه قياما ـ وقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكشف الله تعالى عنهم المطر، فأنبت الله عز وجل حروثهم وأحيا بذلك كلَّ شيء من بلادهم، فقالوا: واللهِ ما نحبُّ أنَّا لم نكن مُطِرنا هذا المطرَ وإن كان لَخَيراً لنا، فلن نرسل معك بني إسرائيل ولن نؤمن لك، فبعث الله جلَّ جلالُه على حروثهم الجرادَ فأكل[٣] حروثهم وأسرع الجراد في فسادها، فقالوا: يا موسى، ادعُ لنا ربَّك ليكشف عنا الجراد فإنَّا مؤمنون لك ومرسلون معك بني إسرائيل، فكشف الله عنهم الجراد، وكان الجراد قد أبقى لهم من حروثهم بقيةً، فقالوا: قد بقي لنا من حروثنا ما يكفينا[٤]، فما نحن بتاركي ديننا، ولن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل، فأرسل الله تعالى عليهم القمَّل، وهي الدَّبَى الذي ليس له جَناح فاتَّبع ما بقي من حروثهم وشجرهم ونباتهم[٥]، وكان القمل أشدَّ عليهم من الجراد، فجزعوا

---

(١) «أمر» من (ر).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٤).

(٣) بعدها في (ر): «عامة».

(٤) في (أ) و(ف): «ما هو كافينا».

(٥) في (ف): «وثيابهم».

من ذلك وقالوا: يا موسى، كما قالوا في الأول والثاني، فكشف الله عنهم القمل[١] فنكثوا وقالوا: لن نؤمن لك ـ إلى آخره ـ فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها البيوت، فليس لهم طعام ولا شراب إلا فيه الضفدعُ، فلقُوا منها شيئاً لم يكونوا لقُوا فيما مضى، فقالوا: يا موسى، مثلما مرَّ، فكشف الله عنهم الضفادع فنكثوا وقالوا: لن نؤمن لك ـ إلى آخره ـ فأَرسل الله تعالى عليهم الدم، فسالت الأوديةُ دماً، وصارت أنهارهم دماً، فكانوا لا يشربون إلا الدم، ولا يَطعمون طعاماً إلا صار[٢] دماً، فلقُوا من ذلك أمراً شديداً ونسوا ما كانوا لقُوا قبل ذلك من البلاء، فسألوا موسى أن يدعوَ لهم ربَّه، فدعا لهم ربه[٣] فكُشِفَ عنهم الضُّرُّ، فنكثوا وقالوا: لن نؤمن لك ـ إلى آخره ـ وكانت آياتٍ مفصَّلات بعضُها على إثرِ بعضٍ؛ لتكون لله عليهم الحجةُ، فانتقم الله عز وجل منهم بعد ذلك فأغرقهم في اليَم[٤].

وقال الكلبي رحمه الله: كانت كلُّ آيةٍ من سبتٍ إلى سبتٍ، ثم الأخرى بعد ذلك بشهر[٥].

وقال أبو روق: بعدها بأربعين يوماً.

وقال قتادة: كان يجتمع سبطيٌّ وقِبطيٌّ على إناء واحد، فإذا الذي يلي السبطيَّ ماءٌ صافٍ، والذي يلي القبطيَّ دمٌ[٦].

---

(١) في (ر): «الضر».

(٢) «صار»: ليس من (أ).

(٣) «فدعا لهم ربه»: من (ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩ و٣٩١ و٣٩٨) عن ابن عباس وقتادة.

(٥) في (أ) و(ف): «ثم الآية الأخرى بعده بشهر».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٩) عن قتادة، و(١٠/ ٣٩٤) عن مجاهد.

وفي حديث السدِّي: كان يخرج الدمُ من الرغيف إذا كُسر.

وفي حديث مقاتل: تراكَبَ الجراد قَدْرَ ذراعٍ فلم تُرَ الأرض، وكان كشفُها بأنَّ الله بعث ريحاً فاحتملتْها فألقَتْها في البحر، وكشفُ الضفادع بموتها، وأرسل الله تعالى مطراً جَوداً فقذَفهن في البحر[1].

وذكر وهبٌ هذه الأشياءَ على بَسْط الكلام وتطويله، وذكَر أن الطُّوفان هو الطاعون، ووقع فيهم ومات من أبكارهم في ليلةٍ ثمانون ألفاً، ومن أبكار الدوابِّ كذلك، واحتال فرعون فجمع بين أبكارِ القِبط وأبكارِ بني إسرائيل بين كلِّ بكرين بسلسلةٍ، فمات في الليل أبكارُ القبط دون أبكار بني إسرائيل.

وذكر في الجراد: أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام فأشار بعصاه شرقاً وغرباً، فجاء الجراد حتى ظهرت في الهواء كالغمام الأسود، فسترت الشمس ثم غمرت الزروع[2]، فكان لا يُرى منها شيء، فأكلتها وأكلت الخشبَ من الأبواب والجذوعِ، والحديدَ من السلاسل والمسامير، وكان كشفُها بإشارته بالعصا فذهبت كلُّها.

والقمَّل خرجت من الأرض حيث نكث فيها بالعصا، وأكلت كلَّ شيء حتى السقوفَ وكلَّ رَطْبٍ ويابس.

والضفادع خرجت من النيل بإشارته بالعصا بأمر الله تعالى، فخرجت ودخلت المصر، فامتلأت منها السِّكك والدُّور والطرق، فلا يوجد موضعُ قدم ولا إناءُ طعام وشرابٍ إلا قد امتلأ ذلك منها، وضيَّقت عليهم، وأنتنت الأرض من وطء الناس إياها، وكان لا يمكِنهم أكلُ طعام ولا شربُ شراب إلا معها، وكشفُها بما ذكرنا.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٢) في (ف): «الزرع».

والدم: بأنْ ضرب النيل بعصاه بأمر[١] الله عز وجل، فصار دماً عبيطاً، فإذا ورَدَه قومُ فرعون اختضبت أيديهم وأَسقِيَتُهم بالدم، وإذا ورده قوم موسى عليه السلام استَسْقَوا منه ماءً صافياً، وكَشْفُه كان بضربِ العصا أيضاً بأمرِ الله تعالى، وكان فرعون يعتذرُ إلى موسى بعد كلِّ أربعين يوماً: أنَّا لم نتفرَّغ لجمع الجيوش لهذه الحادثة، ويَستنظر مدةً أخرى، ويأمر الله تعالى موسى بأن يُنظره مدةً أخرى إلزاماً للحجة[٢].

***

(١٣٤) ـ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾: قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد؛ أي: العذاب[٣].

وقال سعيد بن جبير: أي: الطاعون[٤]، فمات من القِبط سبعون ألفَ إنسان.

وقيل: هو هذه الأشياءُ التي تقدَّم ذكرُها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾: قيل: هذا العهدُ أنه وعده الإجابة إذا دعاه.

وقيل: هو أن يكشف عنهم العذاب إذا آمنوا.

وقيل: هو بعثُه بالرسالة[٥]

---

(١) في (ف): «بإذن».

(٢) روى ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٧١ ـ ٧٥) نحو عن وهب وابن عباس وكعب الأحبار، وكلها من طريق إسحاق بن بشر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) عن قتادة ومجاهد وابن زيد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٩).

(٥) «وقيل هو بعثه بالرسالة» من (ز).

وقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: لئن دعوتَ الله فكشف عنا بدعائك لنصدِّقنَّك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: لنطلقنَّهم ولنُخلِّينَّ عنهم.

وقال وهبٌ: قالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]؛ أي: بما أَرسل إليك على زعمك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ فقال: لا أدعو وقد سميتُموني ساحراً، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك، فدعا ربه فكشف عنهم.

* * *

(١٣٥) ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾: أي: إلى الوقت الذي جعَله أجلاً لهلاكهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: ينقضون العهد فلا يؤمنون.

وقال مجاهد: كانت الضفادع تسكن الجِحَرةَ، فلما أرسلها الله تعالى عذاباً إلى فرعون وقومه كانت تجيء حتى تقذف نفسها في التنور المسجور، وفي القِدْر وهي تغلي؛ غضباً لله تعالى، فشكَر الله تعالى لها فأسكنها الماء، وجعل نقيقها التسبيحَ[1].

وذكر الحسن هذا في احتمالها المياه بأفواهها حين أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار، وأنها وجَدت هذا بسبب ذلك[2].

---

(١) لم أجده عن مجاهد، ورواه بنحوه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٨)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفاً.

(٢) لم أجده عن الحسن، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٣٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(١٣٦) ـ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾: أي: من الناكثين ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾؛ أي: أهلكناهم بالماء في البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ أي: بسببِ تكذيبهم بهذه الآيات بعد تتابُعها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾: معرضين عنها كالغافلين، أو متغافلين غيرَ متأمِّلين، أو غافلين عن النعمة، أو غافلين عن وقت نزول العذاب، وقد بينَّا قصةَ الغرق في سورة البقرة، ونذكر أيضاً زيادةً على ذلك في سورة يونس وفي سورة الشعراء.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: جنَّس عليهم العقوبات لمَّا[1] جنَّسوا ونوَّعوا فنونَ المخالفات، فلا في التفكير رَغِبوا، ولا إلى التطهير قَصَدوا، وكانت عقوبتهم بصرفِ قلوبهم عن شهود الحقائق أبلغَ مما اتَّصل بظواهرهم من فنون البوائق، ونعوذ بالله من السقوط عن عين الله تعالى[2].

* * *

(١٣٧) ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾: أي: لمَّا أهلكنا فرعون وقومه أسكنَّا قوم موسى الذين

---

(١) في (أ): «كما».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).

كانوا يُستضعفون ـ أي: يُقهرون بقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفِ الأعمال الشاقة ـ أرضَ مصر.

وقيل: أرض الشام مشارقها ومغاربها؛ أي: نواحيها الشرقية والغربية، وهي الأرض التي باركَ الله[١] فيها بكثرة الماء والشجر وفنون النِّعم.

وقيل: بأنها مساكنُ الأنبياء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾: أي: نَجز وعدُ الله، وهي الكلمة الحسنى ـ تأنيث الأحسن ـ على بني[٢] إسرائيل بإهلاك عدوِّهم واستخلافهم في الأرض، كما[٣] قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية[٤] [القصص: ٥]، وسميت حسنى لأنها وعدٌ بما يحبون.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾؛ أي: بصبرهم على أذى فرعونَ وقومه، وعلى أمر الله، وثباتهم على الإيمان والطاعة والعملِ بقول موسى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾: أي: أهلكنا ما كانوا يصنعونه من الأبنية والمزارع والكروم.

قال الحسن رحمه الله: يَعْرِشون الكروم؛ أي: يرفعون عرائشها[٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: يَبْنون من الدُّور والقصور[٦].

---

(١) في (أ) و(ف): «باركنا».

(٢) في (ر): «لبني»، بدل: «على بني».

(٣) في (أ) و(ر): «وما».

(٤) في (أ) و(ف): «إلى قوله: ﴿كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٣) بلفظ: (وما كانوا يَعْرِشُون من الثمار والأعشاب).

(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٧).

وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَعۡرُشُونَ﴾ بضم الراء والباقون بكسرها[1]، وهما لغتان فصيحتان، وقد عَرَش يَعْرُش عَرْشاً؛ أي: بنى بناءً من خشب، كذا قال في «ديوان الأدب»[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ قيل: كان في بني إسرائيل مَن بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو ذو القرنين وداودُ وسليمان.

وقيل: فضِّلوا على أهل مشارق الأرض ومغاربها؛ كما قال: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]؛ أي: على عالَمِي زمانهم.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: قيل: هي الجنة[3].

وقيل: هي نِعَم الدنيا، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: نعمة ربك.

وقال وهب: ولمَّا عبروا البحر أرسل موسى عليه السلام جندين عظيمين في كلِّ جندٍ اثنا عشر ألفاً، ونَقَب[4] عليهم يوشعَ بنَ نون وكالبَ بن يوقنا، وهما اللذان أنعم الله عليهما، إلى مدائن فرعون وخزائنه وهي يومئذ خلوٌ عن أهلها قد هلكوا فلم يبق إلا النسوان والصبيان والزَّمْنى والـهَرْمى، فغنموا أموالهم من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأورثهم الله عز وجل ديارهم وأموالهم، فذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٢/ ١٦٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٥١ ـ ٥٥٣).

(٤) في (أ) و(ف): «وبعث».

(٥) انظر: «الكامل» لابن الجوزي (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(١٣٨) - ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: أي: الذي غرق فيه فرعونُ وقومه، فصاروا إلى البر ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾؛ أي: يقيمون على عبادتها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾: أي: قالوا لفرط غباوتهم وفسادِ طبائعهم بطول العبودية لفرعون: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾؛ أي: انْصِبْ لنا شيئاً نعبده كما نصب هؤلاء لأنفسهم أصناماً يعبدونها.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾: أي: الإلهية والعبادة، ولا تعلمون ما تقولون.

* * *

(١٣٩) - ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: مهلَكٌ مدمَّرٌ، والتَّبار: الهلاك والدمار.

وقال أبو عوسجة: مُفْسَد[١].

وهو خبر مبتدأ، و﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ مبتدأ[٢]؛ أي: هم في هلاكٍ لا ينتفعون منها بشيء.

وقوله تعالى: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: تبطُل عبادتُهم هذه الأصنامَ فيذهب تعبُهم هدراً.

وقال الكلبي رحمه الله: أي: ضلالٌ ما كانوا يعبدون.

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٥٦).

(٢) «وما هم فيه مبتدأ»: من (أ).

(١٤٠) ـ ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾: استفهام بمعنى الإنكار، وتقديره: أأطلب لكم غيرَ الله معبوداً!؟

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: أي: على عالَمي زمانكم، قاله الحسن وجماعة[1].

وقيل: أي: جعَل فيكم النبوَّة والكتابَ والحكمةَ والملكَ، والآياتِ التي لم يكن مثلُها لغيركم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفيه تعليم أنه كيف يؤمَر بالمعروف وكيف يُنهَى عن المنكر، وكيف يُعامَل مرتكب المنهيِّ، يعامَل باللِّين والشَّفقة واللُّطف، دون الغِلظة والجَفوة والعنف، كما فعل موسى بهم مع ما استقبَلوه من الأمر المنكَر، يقول: أمَا تستَحْيُون من هذا القول مع ما مَنَّ الله[2] عليكم من النعمة[3] والطَّول، ومن ذلك ما ذُكر بعده، وهو قوله تعالى:

(١٤١) ـ ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾[4]: أي: يُذيقونكم. وقيل[5]: يكلِّفونكم سوء العذاب؛ أي: أشدَّه وأشقَّه.

---

(١) ذكره عن الحسن الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٢٧).

(٢) في (أ) و(ر): «مع ما لله».

(٣) في (أ) و(ف): «المنة».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦).

(٥) في (أ): «أو».

وقوله تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: أي: يَسْتَبْقون إناثكم ويتركونهنَّ حيَّاتٍ.

وقيل: يسترِقُّونهنَّ؛ أي: يفتِّشون في حيائهنَّ[١] ـ أي: فروجِهنَّ ـ هل بهنَّ حبَلٌ[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: قيل: وفي هذا الإنجاءِ نعمةٌ عظيمةٌ؛ كما قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

وقيل: أي: في التَّقتيل والاستحياء محنةٌ عظيمة، واسم البلاء يقع على كلِّ واحدٍ منهما؛ لأنه من الابتلاء وهو الاختبار، وهو يقع بكلٍّ[٣] واحد منهما، وقد ذكرنا قصةَ ذبح الأبناء واستحياءِ البنات في سورة البقرة، وهذا حديثٌ آخرُ طويل فيه.

قال وهبٌ: رأى فرعونُ في المنام أنَّ الله تعالى واهبٌ لعبدٍ من عبيدك غلاماً يسلبُك مُلكَك، ويُخرجك من أرضك، ويبدِّل عليك نعمتك، ثم[٤] يغرقُك الله وجنودَك حتى تكون للخلائق حديثاً، فلما استيقظ عظُمت عليه رؤياه، فأخبر عظماء الذين حوله، فبكَوا بكاء شديداً وقالوا: سيدَنا! حُلُمٌ باطلٌ، عشتَ دهراً طويلاً ولا ينالُكَ عدوٌّ ولا ينالك همٌّ، فأرسِلْ إلى كهَنتك ومنجِّميك فاخْلُ بهم وعِدْهم الخيرَ من نفسكَ، ثم قُصَّ رؤياك هذه لهم فيخبروك بتأويلها.

وكان لفرعون ألفُ كاهنٍ وألفُ منجِّمٍ وألفُ ساحر، لا يموت منهم أحد[٥] إلا استَبدل مكانه غيرَه، فأرسل إليهم وخلا بهم ووعدهم الخير ثم قصَّ عليهم رؤياه،

---

(١) في (أ): «أحيتهن»، وفي «ف»: «أحيائهن».

(٢) في (أ) و(ف): «حمل».

(٣) في (ف): «على كل».

(٤) في (ف): «و».

(٥) في (أ): «لا يموت أحدهم».

وأخبرَهم أنه امتَنع من الطعام والشراب والنوم لذلك، فسجدوا له وقالوا: علينا تأويل ما رأيت فلا يهولنَّك شيءٌ، ولكنْ أجِّلْنا أجَلاً ننظُرْ في نَجْم هذا المولود، فأجَّلهم أربعين يوماً.

فخرجوا وصعدوا الجبل ونزعوا ثيابهم ولبسوا الشَّعر، وأكلوا خبزَ الشعير، ينامون على الرماد، يقومون بالليل ويصومون بالنهار، ويتضرعون إلى شياطينهم أن يخبروهم برؤيا الملك، فأوحى الله تعالى إلى حمَلة العرش: أني خالقٌ مولوداً في بني إسرائيل، يولد في الإسكندرية، تحمل به أمُّه في ليلة الجمعة في شهر كذا، في ثلاث ساعات يذهبن من أول الليل، فانطلق به حملة العرش إلى السَّفَرة الكِرَام البَرَرة الذين يؤدُّون الكتبَ إلى الموكَّلين ببني آدم، فانطلق به الموكَّلون وهم الحفظةُ إلى سكان السماوات: أن الله جلَّ جلالُه خالقٌ بشراً في بني إسرائيل.. إلى آخر ما ذكرنا.

وكانت عفاريتُ الجنِّ والإنس يوحي بعضُهم إلى بعض زخرفَ القول غروراً، فكان الجن يصعدون إلى السماء ويَسمعون كلام الملائكة، ويَسترِقُون السمع ويُلْقونه إلى أهل[1] الأرض على ألسنة الكهَنة، فلما سمع الجن ذلك من الملائكة هبطوا به إلى الكهنة فأخبروهم بأمر موسى كلِّه، ففشا ذلك ووصل إلى الكهنة والسحرة والمنجِّمين لتمام أربعين يوماً، فجاؤوا فرعون وقالوا: يا سيدنا قد أتينا[2] بتأويل رؤياكَ، هو عبدٌ من عبيدك يولَد ويعطَى[3] ملكك، ويبدِّل دينَك، ويَقهرك ويعلوك، ويخرجك من أرضك، وإنه يولد بالإسكندرية في شهر كذا في ليلة الجمعة لثلاثِ ساعات يذهبن من أولها، قال: فما الحيلة حتى نعرف أمَّه فنقتلَها

(١) «أهل»: من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «أتيناك».

(٣) في (ر): «يولد له يعطى» وفي (ف): «يولد ولداً فيعطى».

فلا تحملَ به ولا تلدَه؟ قالوا: بيننا وبين الوقت الذي تحملُه هذا الشهرُ.

فلم يأت على فرعون شهرٌ أشدُّ عليه منه، ذاب جسمه فيه، وغلَب كَرْبُه، فلما عِيْلَ صبرُه أدخل منجِّميه وكهَنتَه، وقال: أمَا عندكم حيلةٌ ألَّا تحملَ به أمُّه؟ قالوا: نعم، تعزل النساءَ عن الرجال، فلا يَقربُ رجل امرأته، فقال: وكيف الحيلة في ذلك؟ قالوا: مُرْ أن يُخرج منبرُك، ومُرْ مناديك فليناد في[1] عبيدك أن يجتمعوا إليك، فإن عبيدك لم يروك ولم ينظروا في وجهك.

قال كعب: وكان الخبيث لا يَظهر لأحدٍ منهم، وكان إذا أراد الركوب نادى مناديَه حتى يدخلوا بيوتهم، ومَن تلقَّاه في مسيره أمره أن يضع وجهَه بالأرض له.

قال وهب: فلمَّا قالت الكهنة له ذلك، قال الملك: ما[2] جئتُموني بأمرٍ أشدَّ عليَّ منه! قالوا: إذا أخرجتَ منبرك وأبرزتَ لهم وجهك فأَحْسِنْ إليهم القولَ، وبشرهم بالخير، وافتح لهم خزائنك، وأخرج لهم من أصناف الأموال وابذُلها[3] لهم، فإنك إذا فعلت ذلك بهم طمِعوا فيما عندك واجتمعوا إليك، حتى لا يتخلفُ منهم أحد، فقُم على المنبر وقُل لهم: إني قد رضيتُ عنكم وعرفتُ نصحكم ورفعتُ عنكم الجزية، ولذلك أبرزتُ لكم وجهي، وفتحتُ لكم بابي، وبذلتُ لكم خزائني، ورأيتُكم له أهلاً مني، فاعرِفوا بذلك رضائي عنكم فأبشروا، وأخِّر ذلك إلى غروب الشمس، ثم قل: إني أحب أن تبيتوا هذه الليلةَ عندي فإذا أصبحتُم انصرفتم، فإنك إذا فعلتَ ذلك بهم أجابوك، فإذا باتوا مكانهم كنتَ حبَستهم عن إتيان النساء، فظفرتَ بحاجتك.

---

(١) في (ف): «فلينادي».

(٢) «الملك ما»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (أ) و(ف): «ثم ابذلها».

فأرسل فرعون مناديَه في بني إسرائيل: أن أجيبوا فرعون الملك، فإنه نصَب لكم منبره، وأظهر لكم وجهه، وهو يريد بكم الكرامة، وقد أمر[١] بإخراج خزائنه ليعطيَكم منها ما لم تكونوا تأملونه، فأسرعت بنو إسرائيل الإجابةَ، وخرجوا جميعاً، وخرج فرعون وخطبهم وليَّن لهم القولَ، ووعدهم الجميل، وأعطاهم الأموال من الجواهر والنقود والكسوة على مراتب الناس، وفرحوا به فرحاً شديداً، فلمَّا أمسوا قال فرعون: أُحبُّ أن أصنع لكم أفضلَ من هذا، فبِيتوا مكانكم حتى تصبحوا فتنصرفوا، فقالوا: لو كلَّفْتنا ألَّا نبرحَ شهراً لفعلنا فباتوا.

ثم دعا فرعون بدابَّته فركبها ليدخلَ المدينة، وركب معه هامانُ وعظماؤه، حتى إذا دنى من باب الإسكندرية أَمر هامانَ والملأَ أن يرجعوا إلى عسكر بني إسرائيل ويَبيتوا معهم ويحرسوهم لئلا ينصرفَ أحد، وكانت مفاتيحُ أبواب المدينة[٢] حينئذٍ مع عمرانَ والدِ موسى، فدعاه ليأخذ المفاتيح منه ويُخرجَه من المدينة ويغلقَ أبوابَ المدينة دونه، وكان منزل عمران في الإسكندرية، قال عمران: يا سيدي، لا تدخل المدينة وحدك فلعلك يَمكُر بك بعضُ مَن يطمع في ملكك، قال: نعَم، ما هذا بأول نُصحك، فادخل معي فأنت أحقُّ بذلك وأوثقُ عندي من غيرك، فادخل وأغلق الأبواب.

وكان ذلك لطفاً من الله تعالى لِمَا أراد من أمر موسى، فدخل مع فرعون وغلَق الأبواب، وبات جميعُ بني إسرائيل في الصحراء ومعهم جندُ فرعون، فقال فرعون لعمران: لا تَبرح من عتبةِ بابي ولا تنزِعْ عنك ثيابك، قال: نعم يا سيدي، فدخل فرعون منزلَه وأغلق عمرانُ الباب دونه، ووضع عمران رأسه على عتبة الباب وعليه ثيابه، وجعل سيفه بين فخذيه فنام، حتى إذا ذهب ثلاثُ ساعات من الليل وذلك ليلةَ الجمعة.

---

(١) في (ف): «وقد أمرنا»، وفي (ر): «وهو يريد».

(٢) في (ف): «مفاتيح الأبواب».

وكان بلَغ امرأةَ عمران أن فرعون قد دخل المدينة ومعه عمران، فلمَّا احتَبس عنها عمرانُ خرجت نحو باب فرعون في طلبه، فلما دنت من الباب أبصرت عمران نائماً، فوقعت عليه تقبِّله، فوثب عمران فإذا هو بها، فقال: ما جاء بك؟ قالت: سمعتُ أنك دخلتَ المدينة، فلما احتَبَسْتَ عني خفتُ عليك سطوةَ هذا الجبَّار فأتيتُك، فضمَّها عمران إلى نفسه فلم يتمالك أن واقعها، فحملت مكانها[١] بموسى، فقال لها عمران: إنِّي لأظنُّ هذا[٢] الأمرَ الذي يطلبه فرعونُ وهذا المولودَ الذي يخافه ليس إلا من اجتماعنا الليلة، فاكتمي هذا حتى ننظرَ ماذا[٣] يظهر.

فلما حملت بموسى طلَع نجمه في السماء، ولا يولد نبيٌّ إلا طلع له في السماء نجمٌ، ونظرت الكهَنة والسحرة من الليل فإذا هم بنجم موسى قد طلع، وكانت ليلةَ الجمعة، فقاموا فخمَشوا وجوهَهم وخدَشوا لحومهم ومزَّقوا ثيابهم ونتَفوا شعورهم، وولولوا جميعاً بصوتٍ شديدٍ حتى رجَّت المدينة من أصواتهم، فسمع فرعون ذلك فذُعر ثم أسرع إلى الباب وقال لعمران: ما هذا؟ قال: يا سيدي، هذه أصوات بني إسرائيل فرحوا بما أعطيتَهم وأكرمتَهم بلقائك وكلامك، فقال: لعله كما تقول، فلم يزل يختلف ليلته مقبلاً ومدبراً كالتي أخذها المخاض.

فلما أصبح قال: يا عمران، اخرج فانظر ما بالُ صياحهم الليلةَ، فخرج فسألهم فقالوا: مكرُ عدوِّنا غلَب مكرَنا ومكرَ سيدنا، وحُمل بذلك المولودِ البارحةَ، ونظر[٤] إلى ما فعَل السحرةُ بأنفسهم فهاله ذلك، فقال عمران: ويلكم غرَرْتم سيدي حتى

---

(١) «مكانها»: ليست في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «اعلمي أني أظن»، بدل: «إني لأظن هذا».

(٣) في (ف): «ما».

(٤) في (ف): «وبصر».

أظهرَ(١) للناس وجهه وفرَّق فيهم خزائنه، ثم حشرهم عمران إلى فرعون وهو يُسِرُّ في نفسه ما عَلم مما كان منه مع امرأته.

فلما دخلوا على فرعون ورآهم على تلك الصفة(٢)، وقد جعلوا الرماد والتراب على رؤوسهم، قال: ويلكم ما لكم؟ فخرُّوا له سجَّداً وقالوا: يا سيدنا، عشتَ دهرَ الداهرِين، قد غلَبَ مكرُ عدوِّنا مكرَنا، وحُمل بذلك المولود البارحةَ، وطلَع نجمه في السماء، فقال: قد استوجبتُم عقوبتي، ولأصلِّبنكم أجمعين، ولأحرقنَّكم بالنار، غرَرْتُموني ـ وقال كما قال عمران ـ، فقالوا: لا تقتلنا، فإن غلبَنا حملُه لا يغلبنا مولدُه، نعرفه بعلامته فنقتلُه، فإنْ فعلْنا ذلك وإلا فاصْلِبنا وأحرقنا. فأَنْظَرَهم إلى مولد موسى، فلم تأت عليه شهور(٣) أطولُ ولا أكثرُ حزناً منها.

فلمَّا وُلد وأَبصر المنجِّمون إلى(٤) كوكبه يزهر قالوا له: قد وُلد، فلما سمع ذلك طارت روحه وتغيَّر لونُه وطاش عقله، وقال: ما الحيلة؟ قالوا: مُرْ مِنبرَك حتى يُخرج إلى ذلك الموضع، ثم مُرْ مناديك ألا تبقى امرأة من بني إسرائيل ولدت ولداً منذ شهرٍ إلا جاءت به إلى الملك، فإنه يريد أن يُكرمهنَّ كما أكرم أزواجهنَّ، ويعطيَهنَّ الحليَّ والحلَلَ والذهبَ والفضَّةَ والجواهر، فإنهنَّ يطمعن ويخرجن، فإذا جئنَك بأولادهنَّ فأعطهنَّ شيئاً(٥) وليِّن لهنَّ القول، ثم اجعَلْهنَّ في بعض مدائنك، ثم مُرْهنَّ فلتَخرجِ امرأةً امرأةً، فانتزِعْ منها ما أعطيتَها ومُر أن يؤخَذ ولدُها، فإن كان ذكراً ذُبح، فإذا فعلتَ ذلك ظَفِرْتَ بعدوِّك ورجع إليك مالُك.

---

(١) في (ف): «ظهر».

(٢) في (ف): «الحالة».

(٣) في (أ): «عليه أشهر»، وفي (ف): «عليهم أشهر».

(٤) «إلى»: من (أ) و(ف).

(٥) «فأعطهن شيئاً»: ليس في (أ)، و«شيئاً»: ليس في (ف).

ففَعل ذلك، وخرجنَ، وأعطاهنَّ، ثم جعلهنَّ في بعض مدائنه، ثم أَمر بخروجهنَّ، فمَن كان[١] ولدها ذكراً ذبحه والأم تنظر إليه لا تملك له شيئاً إلا البكاء، فذبح يومئذ تسعين[٢] ألف ولد، فذلك قولُه تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٤١].

* * *

(١٤٢) ـ ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾: أي: لإتيان الطور وإنزالِ الكتاب ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾؛ أي: زدناها عليها ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ أي: الميقاتُ الذي وقَّته له ربُّه، أُضيف إلى الله لتوقيته إياه؛ كما في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]؛ لأنه ثبت بتأجيله أربعين ليلةً، وهذا التكريرُ مع استفادةِ علمه بالأول لإزالةِ الاشتباه: أن الإتمام بالعشر لم يكن من الثلاثين، فإنه قد يُتوهم ذلك.

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وذلك يدلُّ على أن المواعَدة كانت بالأربعين جملةً، وهذا يشير إلى أنه كان بالثلاثين ثم زِيد بالعشر.

والتوفيقُ بينهما على قول ابن عباس وسعيد بن المسيِّب وأبي رَوق: أن المواعَدة[٣] كانت بالثلاثين ثم زيدت العشرةُ[٤]؛ لِمَا قالوا: إنه أمره بصوم[٥] ثلاثين يوماً ثم يأتي الطُّورَ، فلما تم ثلاثون تسوَّك ليزيلَ الخلوف، فأوحى الله تعالى إليه: يا

---

(١) في (ف): «ومن كانت».

(٢) في (ف): «سبعين».

(٣) في (ف): «الموعدة» في الموضعين.

(٤) في (ف): «زيد العشر» بدل: «زيدت العشرة».

(٥) في (أ) و(ف): «إنه أمر بأن يصوم».

موسى، أمَا علمت أن خُلوفَ فم الصائم أطيبُ من ريحِ المسك، فلذلك زِيد عشرٌ ليصوم فيها فيأتيَ فيه[١] الخلوف[٢].

وما ذكر في سورة البقرة من مواعدة الأربعين فهو بيانُ الحاصل وجمعٌ بين العددين.

وقال الكلبيُّ وجماعةٌ: كانت المواعَدة بالأربعين جملةً، وإنما ذكر عددين لأنه ذو القعدة وعشرُ ذي الحِجة، فالثلاثون عددُ الشهر والزيادةُ عددُ ما اتَّصل به، قال ذلك مجاهد وابن جريج ومسروق[٣].

وقال أبو العالية: إن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر أنه إذا أهلك الله تعالى عدوَّهم واستنقذهم من أيديهم أتاهم بكتابٍ يبيِّن لهم فيه ما يأتون وما يذَرون، فلما فَعل الله تعالى ذلك بهم سأل موسى ربَّه الكتاب، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً ـ وهو ذو القعدة ـ ليكلِّمه، فلما انسلخ ذو القعدة[٤] أكلَ من لحاء الشجر، فأمره الله بصيام عشرة أيام من ذي الحجة ليكلِّمه بخُلوف فمه، ففَعل ذلك[٥].

ولمَّا أراد الانطلاق إلى الجبل أمره الله تعالى أن يختار سبعين رجلاً من قومه من ذوي الحِجَى ليشهدوا له على ما يشاهدونه من كرامة الله تعالى إياه، ففعل ذلك[٦] واستخلف هارون أخاه على قومه، وذلك[٧] قوله تعالى:

---

(١) في (ف): «وبه».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤١٤ ـ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦).

(٤) في (ف): «الشهر».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٧٥)

(٦) «ذلك»: زيادة من (ف).

(٧) في (أ) و(ف): «وهو».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾: أي: كُنْ خليفتي عليهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾: أي: سِرْ فيهم بالسيرة الصالحة التي لا فساد فيها، وثبِّتهم على ما أخلِّفهم عليه من الإيمان به وإخلاصِ العبادة له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أي: ولا تسلك طريقةَ مَن يُفسد في الأرض بإظهار المعاصي من نفسه، أو الرضا من غيره بإظهارها، وتقريرِهم على ذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما[1] والكلبي: مُرْهم بالصلاح ولا تتَّبع طريق العاصين[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهارونُ كان مبعوثاً معه رسولاً وشريكاً له في الرسالة؛ قال تعالى خبراً عن موسى أنه قال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢]، وقال خبراً عنهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وإذا كان هو رسولاً كيف يحتاج[3] إلى الاستخلاف.

قلنا: المأموران بشيء لا ينفرد أحدهما بفعله إلا بأمرِ صاحبه، فلذلك قال: ﴿ٱخْلُفْنِي﴾؛ أي: في الحكم بينهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ذاتَ بينهم ولا تتَّبع مَن دعاك إلى سبيل المفسدين، ولأن موسى كان أصلاً فيها وهارون مُعيناً له، قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] ولهذا كان هو المناجَى على الخصوص، والمعطَى له

---

(١) بعدها في (ر): «ومجاهد».

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٣٣١) عن ابن عباس والكلبي.

(٣) في (ف): «فكيف احتاج» بدل: «كيف يحتاج».

الألواح[1]، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهو الذي قال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ١٠] وهو الذي نودي، فلذلك استخلفه[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إن الله تعالى أَسمع موسى كلامه أولَ ما خاطبه بالرسالة من غير وعدٍ ولا انتظارٍ، ثم وعده أن يُسمعه كلامه مرةً أخرى، وعلَّله بالوعد معلَّقاً بثلاثين ليلةً بعدما أخذ السماعُ الأولُ بمجامع قلب موسى صلواتُ الله عليه، فعلَّق قلبَه بميقاتٍ معلوم فاطمأنَّ قلبه بالميعاد، فلمَّا مضت المدَّة زاده عشراً في العِدَّة، وتأخيرُ وفاءِ الوعد غيرُ محبوبٍ إلا في طريقةِ الأحباب، فإن الـمَطْل عندهم أشهى من الإنجاز، وفي معناه أنشدوا:

أَمْطِلِيني وسَوِّفي وعِدِيني ولا تَفِي

وأنشد الآخر في معناه[3]:

سعادُ لعَمْرِكُم لا تَهْجُرينا ومَنِّينا الـمُنَى ثم امْطُلينا
عِدِينا في غدٍ ما شئتِ إنَّا نحبُّ وإنْ مَطَلْتِ الواعِدِينا
فإمَّا تُنجِزي عِدَتي وإمَّا أعيشُ بما أؤمِّل منكِ حينا

قال: ولمَّا أُمر بالذهاب إلى فرعون سأل الله تعالى أن يُشرِكَ معه هارون، ولمَّا ذهب إلى الطور للمناجاة خلَّفه في قومه واستَخلفه، وهو موضع الاعتراض في الظاهر، ولكنْ لا اعتراضَ على الأكابر[4].

---

(١) في (أ) و(ف): «والمعطى للألواح».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤).

(٣) في (أ): «وأنشدوا».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٣).

ومن الإشارة المعروفة في الآية: أن موسى صلواتُ الله عليه استَخلف هارون واعتمد عليه في حفظ قومه فعبدوا العجل، ورسولُنا ﷺ قال: اللهُ خَليفتي على أمَّتي، فثبَّتهم الله عزَّ وجلَّ على الحق.

* * *

(١٤٣) - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾: قال الكلبي: أي: لميعادنا الأربعين، واللام لبيان الوقت، كما قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال وهب: جاء طورَ سِينا ومعه جبريلُ عليه السلام، فتطهَّر وطهَّر ثوبه[١].

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: بلا واسطةٍ بغيرِ كيفيةٍ، فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلَبة شوقه، فسأل ذلك، وهو قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾: وهو حجةُ أهل السنَّة والجماعة على جواز رؤية الله تعالى، فإن موسى صلوات الله عليه اعتقد جوازها حتى سألها، واعتقادُ جوازِ ما لا يجوز على الله كفرٌ، ومَن جوَّز ذلك على موسى أو على أحدٍ من الأنبياء فهو كافر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾: ولم يقل: لن أُرى، ليكون نفياً لجواز الرؤية، بل قال: لن تراني؛ أي: لن تُطيق أنت في الدنيا أن تراني، وهو كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]؛ أي: لن تُطيقوا أن تفعلوا، وقال الله تعالى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]؛ أي: لن نطيق أن نصبر.

---

(١) في (أ) و(ف): «ثوبيه».

والدليل على أنه ليس لنفي جوازِ الرؤية بل هو نفيُ طاقة موسى ما ذُكر بعده، وهو قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾: علَّق الرؤيةَ باستقرار الجبل، وهو أمرٌ متصوَّرٌ، فدل على تصوُّر ما عُلِّق به.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: أي: ظهر، يقال: جَلَوْتُ الشيء جلاءً وجلَّيْتُه تجليةً؛ أي: أظهرتُه، فانجلَى وتجلَّى؛ أي: ظهر، والمراد به ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ: أعطَى الجبل رؤيتَه وجعَل له حياةً وعلماً علِم به أنه رآه، وهو دليلٌ آخر على أن الله عز وجل جائزُ الرؤية.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرٍو: ﴿دَكًّا﴾ منوَّناً غيرَ ممدودٍ هاهنا وكذا في سورة الكهف، ومعناه: مدكوكاً؛ أي: مدقوقاً، مصدرٌ بمعنى المفعول.

وقرأ عاصم كذلك هاهنا، وقرأ الذي في سورة الكهف ممدوداً بلا تنوين.

والباقون قرؤوهما ممدوداً بلا تنوينٍ[1]، وهو تأنيثُ الأدكِّ، يقال: ناقةٌ دكَّاءُ: إذا ذهب سنامُها؛ أي: جعَلها مستويةً بالأرض لا أكَمةَ فيها.

وقال الحسن وسفيان وأبو بكر الهذلي: ساخ في الأرض[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٣٧)، وعن الحسن وسفيان الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٥٨). ورواه عن سفيان الطبريُّ في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٨)، وعن أبي بكر الهذلي بمعناه، ولفظه: (انْقَعَر فدَخل تحت الأرض فلا يَظهرُ إلى يوم القيامة). وقد روي اللفظ أعلاه مرفوعاً، رواه الترمذي (٣٠٧٤) من طريق سليمان بن حربٍ عن حماد بن سَلَمَة، عن ثابتٍ، عن أنسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآيةَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال حَمَّادٌ: هكذا، وأَمسَك سليمانُ بطَرَف =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صار تراباً[١].

وتأنيث الدَّكَّاء ـ مع أنه صفةُ الجبل وهو مذكَّرُ اللفظ ـ على معنى التشبيه بالناقة الدكَّاء؛ أي: مثلَ الدَّكَّاء.

وقيل: أي: جعله أرضاً دكَّاء.

وقيل: الدكَّاءُ لغةً هي الرابيةُ التي لا[٢] تبلغ أن تكون جبلاً، وجمعُها: دكَّاوات.

وقال الحسن: صار الجبل ثلاثَ فرقٍ: ساخت فرقةٌ منها في الأرض، وطارت فرقة فوقعت[٣] في البحر، وطارت فرقة فوقعت بعرفات، فهو شاحبٌ مقشعِرٌّ من مخافة الله تعالى.

وقال أبو بكر الورَّاق: فعَذبَ إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كلُّ مجنون، وبرئ كلُّ مريض، وزالت الشوك عن الأشجار، واخضرت الأرض وأزهرت، وخمدت نيرانُ المجوس، وخرَّت الأصنام لوجوههن[٤].

وقال الحسن: أوحى الله تعالى إلى الجبل: هل تطيق رؤيتي؟ فغار الجبل وساخ في الأرض وموسى ينظر، حتى ذهب أجمعَ[٥].

وقال وهبٌ: خمَد كلُّ شيء حينئذ، وانقطعت أصوات الملائكة، وجعَل

= إبهامِه على أُنمُلة إصبَعِه اليُمنَى قال: «فسَاخَ الجَبَلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾». قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرفُه إلا من حديث حمادِ بنِ سلَمةَ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٧).

(٢) في (ف): «لم».

(٣) «فوقعت»: من (ر).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٨).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٨).

الجبـلُ يتهـدَّم وينهـار ويضطـرب من تحـت موسـى حتى انـدقَّ كلُّه.

وقيل: صار الجبل ذرَّاتٍ في الهواء، وهو الذي يُرى في الشمس إذا دخل شعاعُها في الكُوَى بتلك الكثرة.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: أي: سقط مغشيًّا عليه؛ أي: لِـهَيبةِ تلاشي الجبلِ بظهور آثار القدرة عليه.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾: أي: من غشيته ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

قـال الإمـام أبـو منصـور رحمـه الله: خرج هـذا الـكلام منه مخـرج العـادة عند رؤيـة الأفـزاع[1] حسَـبَ مـا يجـري علـى ألسـنة الناس عنـد الأخطـار، لا عـن ذنبٍ يتذكَّرونـه فيتوبـون عنه.

ونظيرُ هذا التسبيحِ قولُ عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقولُ الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١]، وقول الملائكة الذين تكلَّموا في أمر آدم عليه السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وذكرُ التوبة من غيرِ ذنبٍ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقولِ النبيِّ ﷺ في كلِّ يوم مئةَ مرةٍ: «أستغفرُ الله وأتوب إليه»[2].

وقيل: أي: تبتُ إليك من سؤال الرؤية في الدنيا، فإنك إنما وَعدْتَها في الآخرة.

---

(١) في (ر): «الأقراع»، وفي (أ): «الأفراع».

(٢) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنه، و(٢٧٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: المصدِّقين بأن رؤيتك في الآخرة بالوعد، ولا وعد في الدنيا، ومعنى الأوَّل؛ أي: أولُ أهلِ هذا الزمان؛ لإظهارك[1] ذلك لنا الآن، وإنما أَخْفَى عليه إلى الآن أنه لا يعطي الخلقَ رؤيته في الدنيا مع جوازها؛ ليوجَد منه سؤالُ الرؤية بناءً على معرفته جوازَها؛ ليتحقَّق جواز الرؤية بسؤاله ذلك، فيصيرَ حجةً قاطعةً لأهل الحق على المنكِرين ذلك من أهل البدعة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وتَعلَّق نُفاةُ الرؤية بظاهرِ قوله[2]: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أنه نفَى ذلك بـ(لن) وهو للتأبيد، وحملوا سؤال الرؤية على وجوهٍ باطلة:

منها: أنهم قالوا: معنى قوله: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أرني آيةً قاطعةً أراها.

ومنها: أنهم قالوا: لم يسأل رؤيةَ الله تعالى لنفسه، بل لقومه حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

ومنها: أنهم قالوا: خفيَ عليه أنه يُرى أو لا يُرى، فسأل ذلك ليَعلم.

والجواب: أن نقول: أمَّا (لن) فهو نفيُ قدرته على رؤية الله تعالى مدةَ الدنيا؛ لأنه جواب سؤاله، وسؤالُه كان في حقِّ رؤية الدنيا، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] ثم هذا التأبيدُ في الدنيا؛ فإنهم يتمنَّونه في العقبى؛ قال تعالى خبراً عنهم: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]؛ أي: الموتَ، وقال: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقولهم: إنه سأل الآية.

قلنا: قد كان أَراه الآيات الكثيرةَ قبلها، وأَراه أيضاً في ذلك المكان دكَّ الجبلِ،

---

(١) في (ف): «لإظهار».

(٢) في (ف): «بقوله» بدل: «بظاهر قوله».

وقد نُفي بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وذلك لا[١] يحتمِل إراءةَ الآيات، ولأنه قال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ وأجيب بـ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وذلك لا يحتمِل إراءةَ الآيات ونفيَ رؤيتها.

وقولهم: إنه سأل ذلك لقومه. لا يستقيم؛ لأنه قال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ولم يقل: أَرِهم ينظروا إليك[٢]، وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لن يروني، ولأنه لو كان لسؤال القوم فمِن حقِّه أن يزجرهم عنه ويجهِّلهم فيه كما فعَل ذلك في حقِّ الذين قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ حيث جهَّلهم وسفَّههم بقوله[٣]: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ الآيات [الأعراف: ١٣٨].

وأمَّا قولهم: خفي عليه ذلك.

قلنا: يكون هذا جهلاً بالله، وهو كفرٌ، ومَن ظن هذا بالأنبياء فهو كافرٌ وبالله[٤] العصمةُ.

وقد رُوي في هذا أحاديثُ فيها ذكرُ نزول الملائكة والتعنيفِ على موسى عليه السلام بما سأل، ولكنْ ليس ورودُها على وجهٍ يصحُّ، ولا يجوز قبولُها لأنها لا تليق بحال الأنبياء.

وأقاويل الناس في الآية أيضاً على وجوهٍ تختلف، والصحيح الموافقُ للأصول ما قلنا، وبالله المعونةُ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ولمَّا جاء موسى عليه السلام مجيءَ المشتاقين،

---

(١) في (أ) و(ف): «فلا»، بدل: «وذلك لا».

(٢) في (ر): «أرهم لينظروا».

(٣) في (أ) و(ف): «وسفههم وقال تعالى» وفي (ر): «وسفههم بقوله قال».

(٤) في (ف): «فهو كافر بالله ونسأل الله».

مجيءَ المغلوبين[١]، جاء موسى بلا موسى، جاء موسى ولم يَبق من موسى شيءٌ لموسى، وآلافُ آلافِ رجال[٢] قطعوا مسافاتٍ وتحمَّلوا مخافاتٍ فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خَطَا خطواتٍ وإلى القيامة يقرأ الصبيان: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾.

ولما جاء موسى باسَطَهُ الحقُّ بالكلام، فلم يتمالك أن[٣] قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فإن غلباتِ الوَجْد استنطقَتْه بطلَب كمال الوُصلة من الشهود، وقد قالوا:

وأَبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً ... إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيامِ

وقالوا: لا يؤاخَذُ المغلوب بما يقول، وقالوا: إنه لا يَشكر مَن يُنكر[٤].

قال[٥]: و[يقال]: أشدُّ الخلق شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب، هذا موسى وقف في محلِّ المناجاة، وحَفَّت به الكرامات، وكلَّمه بلا واسطةٍ ولا جهات، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ كأنه غائبٌ وهو شاهد، ولكنْ ما ازداد القومُ شرباً إلا ازدادوا عطشاً، ولا ازدادوا قرباً إلا ازدادوا شوقاً.

وقال: سأل موسى الرؤيةَ بالكلام فأُجيب: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بالكلام، وأَسرَّ المصطفى في قلبه ما كان يرجُوه من تحويل القبلة من ربِّه فقيل له: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

---

(١) في «اللطائف»: (المهيَّمين).

(٢) في (أ): «وألف ألف رجل». ولفظ «اللطائف»: (آلاف الرجال).

(٣) في (أ): «إذ».

(٤) في (ر) و(ف): «لا يشكر ثم ينكر». ولم ترد هذه العبارة في مطبوع «اللطائف».

(٥) في (أ): «قالوا».

وقـال: إنه سـأل اللهَ الرؤيـة، فقال لـه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وقـال للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهـف: ٦٦] قـال لـه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهـف: ٦٧] فصـار جوابـه (لن) مـن الحقِّ ومن الخَلق؛ ليبقى موسـى بلا موسـى، ويصفوَ موسـى عن كلِّ نصيبٍ لموسـى من موسـى[1]، وأنشـدوا:

أَبَنِـي أَبِينـا نحـنُ أهـلُ منـازلٍ ... أبـداً غـرابُ البَيْـنِ فينـا يَنْعِـقُ

قـال[2]: والبلاء الـذي ورد عليـه بقوله تعالـى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أشـدُّ مـن قولـه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنـه صريـحٌ فـي الـردِّ، وفي اليـأس راحةٌ، وقولـه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ هـذا إطماعٌ فيما مُنعـه، فلمـا اشـتدَّ توقُّعه جُعل الجبـل دكًّا، وكان قادراً على إمسـاك الجبـل، لكنه قهرُ الأحبـاب، وبه سبَق الكتاب.

وفي قوله: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ بلاءٌ شديد لموسى؛ لأنه مُنع عن رؤية مقصوده وأُمر برؤية غيره، ولو أُمر في أن يُغمض عينيه ولا ينظرَ إلى شيءٍ بعده لكان الأمرُ أسهلَ عليه، ولكنه قيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾.

ثم أشدُّ من ذلك أن الجبل أُعطي التجلِّيَ ثم أُمر موسى عليه السلام بالنظر إلى الجبل الذي قدِّم عليه في هذا السؤال، وهذا صعبٌ شديد، ولكن موسى عليه السلام رضي به وانقاد لحكمه، وفي معناه أنشدوا:

أريـدُ وصالـه ويريـدُ هَجْـري ... فأتـركُ مـا أُريـدُ لِمَـا يُريـد

---

(١) في (ف): «بموسى» بدل: «من موسى»، وليست في (أ)، والمثبت موافق لما في «اللطائف».

(٢) «قال»: ليس من (ف).

وقيل: بل هو لطفٌ به، حيث لم يصرِّح بردِّه، بل علَّله عوناً[١] له على صبره، وقد قيل[٢]:

فذريني أصبر[٣] قليلاً قليلاً

ولمَّا مُنع النظرَ رجع إلى رأسِ الأمر فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[٤] يعني: إن لم تكن الرؤية التي هي غايةُ الرتبة فلا أقلَّ من رأس الأمر وهو التوبة.

ثم هذا منه إناخةٌ بعَقْوَة[٥] العبودية، وشرطُها: ألا تَبرح عن محلِّ الخدمة إنْ حيلَ بينك وبين وجودِ القُربة؛ لأن القُربة حظُّ نفسك والخدمةَ حقُّ ربك، ولَأَنْ تكونَ بحقِّ ربِّك أتمُّ من أن تكون بحظِّ نفسك[٦].

* * *

(١٤٤) - ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: لمَّا قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال الله تعالى له[٧]: يا موسى، إني استخلصتُك على أهل عصرك.

وقوله تعالى: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾: يعني: بأنْ أرسلتُك بما أوحيتُ إليك من

---

(١) في (أ): «عزماً».

(٢) بعدها في (ر): «في معناه».

(٣) كذا في النسخ، والذي في «اللطائف»: (فذريني أفنى).

(٤) بعدها في (ر): «بقولي».

(٥) العقوة: شجر، وما حول الدار والمحلة. انظر: «القاموس» (مادة: عقى).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٤ ـ ٥٦٧).

(٧) «له»: ليست في (أ) و(ف).

الأوامر والنواهي، والوعدِ والوعيد، والأحكام والمواعظ، وبأنْ كلَّمتُك بلا واسطةٍ، وهذا يردُّ قولَ مَن يقول: إن السبعين الذين اختارهم موسى سمعوا كلام الله تعالى؛ لأن في الآية بيانَ الاصطفاء، وهو تنصيصٌ على التخصيص.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: أي: التَزِمْ ما أَلْزمْتُك، وقيل: أي: أَقبِلْ على ما أنزلتُه عليك، وقيل: أي: اعمَلْ به.

وقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: إنعامي بهذه الأشياء وغيرِها، بالاجتهاد في الطاعة، وتبليغِ الرسالة، والنصيحةِ للأمة، والصبرِ على أعباء هذه الأمانة.

وقيل: أي: دُمْ على شكرك فقد كان الأنبياءُ كلُّهم شاكرين صابرين.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: فيه تسكينُ قلب موسى بعد منع الرؤية، كأنه قال: إنْ منعتُك شيئاً واحداً أعطيتُك أشياء؛ اصطفيتُك بالرسالة، وأكرمتُك بشرفِ الحالة، وكلَّمتُك بلا واسطة، فاعرِفْ هذه النِّعَمَ واشكر لي[1] عليها.

وقيل: فيه إشارةٌ لطيفة، كأنه قال: إنْ منعتُك عن مطلوبك، فلا تشكُني إلى قومك بعد رجوعك، وأنشدوا:

إنْ أَعْرضوا فهمُ الذين تَعَطَّفوا ... كم قد وفَوا فاصْبِرْ لهم إن أَخْلَفوا[2]

***

(١٤٥) ـ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: هي جمعُ لوحٍ، وهو

---

(١) في (أ): «والشكر» بدل: «واشكر لي».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦٨)، والعجُز فيه: (وإن جنوا فاصبر...).

الصحيفةُ المهيَّأة للكتابةِ فيها؛ أي: أنزلنا عليه مع ذلك ألواحاً كُتب له فيها كلُّ شيء، ولأمَّته ما[١] الحاجةُ إليه في مصالح الدِّين والدنيا، ويراد بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذا، ويراد به أيضاً تعظيمُ قَدْرِه وتفخيمُ شأنه، كما يقول الرجل: دخلتُ السوقَ فاشتريتُ كلَّ شيء، و: عند فلانٍ كلُّ شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]: إنما هو صفةٌ لسَعة ملكها ووُفور أسباب سلطانها.

وعرّف الألواح بالألف واللام لأنها مشهورة عندهم.

وقيل: هو بمعنى الإضافة، وتقديره: في ألواحه، كما قال: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤١]؛ أي: مأواه.

وقوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةً﴾: هي مفعولٌ له؛ أي: ليكون تحذيراً عمَّا لا ينبغي أن يُفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: تبييناً.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: أي: وقُلنا له: ﴿خذها بقوة﴾؛ أي: نشاطٍ وجِدٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾:

قال ابن كَيْسان: أي: بالفرائض.

وقال قطربٌ: أي: بحسَنها، وكلُّها حَسَن، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي: كبيرٌ.

وقال الحسينُ بن الفضل رحمه الله: وهو أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة فتُصرفَ إلى أشبهه بالحق، وهو قولُه تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢].

---

(١) «ما»: من (ف).

(٢) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٣).

وقيل: فيها فرائضُ وفضائلُ، فالأحسنُ الجمع بينهما.

وقيل: أي: بالعزائم دون الرُّخص، وبالأفضلِ الأعلى دون الأنقَصِ الأدنى.

وقيل: أي: فيها بيانُ قصص الأولين وبيانُ أفعالهم، وفيها ذكر المحاسن من الأولياء والمساوئِ من الأعداء، فأُمروا بأن يعملوا بتلك المحاسنِ دونَ المساوئ.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: قيل[1]: سأُورِدكم يوم القيامة مأوَى الخارجين من الطاعة وهو جهنم، فتحمَدوا الله على ما أنزلكم من الجنة.

وقيل: أي: سأريكم أرضَ الشام التي كانت للجبابرة الفاسقين وأُوْرِثُكموها.

وقيل: سأريكم مصر ـ وهي دار فرعون وقومِه ـ خاليةً عنهم وأورثُكموها، قاله يمانُ بن رِئابٍ[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الموعظة: هي التي تحمِل القلوبَ على القبول والجوارحَ على العمل.

وقيل: هي التي تنهَى عمَّا لا يَحِلُّ.

وقال ابن كيسان: هي التي تليِّن القلوب القاسية، وتُدْمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة.

قال: وعندنا: هي التي تذكِّر العواقبَ، وتحمله على العمل بها.

---

(١) في (ف): «قال».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٣) عن عطية العوفي، واستدل عليه بقراءة: (سأورثكم)، وهي قراءة شاذة نسبت لابن عباس وقسامة بن زهير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«البحر» (١٠/ ٣٠٩).

قـال[١]: وقولـه: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ دليـلٌ على أن الاسـتطاعة مع الفعل؛ لأنهـا[٢] لا تبقى زمانيـن، فلـو لم تكن مـع العمل لـم يكن الأخـذُ بقوة.

وقال في قوله عز وجل: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: جهنم، ويحتمل أن يكون الخطاب للفسَقة: سأريكم يا أهل الفسقِ داركم[٣].

وقيـل: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: مـا مـرُّوا[٤] عليـه إذا سـافروا مـن منازل عـاد وثمود والماضين.

وقال السدِّي: أي: مصارعَ الفاسقين[٥].

وقال الحسن: لمَّا أراد الله أن يكتب الألواح لموسى بَعث جبريل إلى جنة عدنٍ، فقطع منها شجرةً فاتخذ منها تسعةَ ألواح، وكانت من زمرُّدٍ أخضرَ طولُ كلِّ لوحٍ عشرةُ أذرعٍ بذراعِ موسى، وكذلك عرضُه، فكَتب التوراةَ وموسى يسمع صريرَ القلم.

وقال مجاهد: كانت من زمرُّدةٍ خضراءَ[٦].

وقال سعيد بن جبيرٍ: من ياقوت[٧].

---

(١) «قال»: ليس من (ف).

(٢) في (ف): «فإنها».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٦ ـ ٣٨). والقول المنسوب لابن عباس رضي الله عنهما رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤١) عن الحسن.

(٤) في (ر): «يمروا»، والمثبت موافق لما في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٨٣) وعزاه للكلبي.

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٢) بلفظ: (مصارع الكفار).

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٦٠).

(٧) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٣). لكنه روى قبله عن سعيد بن جُبيرٍ قال: (كانوا يقولون: كانت الألواحُ من ياقوتةٍ، وأنا أقول: إنما كانت من زمرُّدٍ، وكتابُها الذهبُ...).

وقال أبو العالية: من بَردي(١).

وقال وهبٌ: قطَعها من صخرةٍ صمَّاء من الجبل الذي كان عليه موسى، وليَّنها الله تعالى وسوَّاها، وكانت الألواح عشراً وكانت على طول موسى(٢).

وقال الحسن: فوُضعت الألواح على السماء فشكَت إلى الله تعالى ولم تُطِق حملَها، وقالت: يا ربّ! كيف أُطيق أن أحملها، وهلَّا خلقتَ خلقاً يُطيق حملَ ذلك، فبعث الله تعالى جبريل أن يحمل الألواح فيبلِّغها إلى موسى، فلم يُطِقْ حملَها، فقال: يا ربّ، ومَن يُطيقُ حمل هذه الألواح بما فيها من النُّور والبيان والعهود، وهل خلقتَ خلقاً يُطيق حملَ ذلك(٣)؟! فأمدَّه الله تعالى بملائكةٍ يحملونها؛ بعددِ كلِّ حرفٍ في التوراة ملَكٌ، فحملوها حتى بلَّغوها موسى، فوضعوا الألواح على الجبل فانصَدع الجبل وخشع، وقال: يا رب! مَن يطيق أن يحمل هذه الألواح بما فيها، وقد ضرب الله تعالى لهذا القرآن مثلاً فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] كما أنزل التوراة على الجبل فلم يُطق حملها.

وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وِقْرَ بعيرٍ، فلم يقرأها كلَّها(٤) إلا أربعةٌ: موسى ويوشعُ وعُزيرٌ وعيسى عليهم السلام(٥).

وقال قتادةُ: لمَّا أخذ موسى الألواحَ قال: يا رب، إنِّي أجدُ في التوراة ـ أي:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٨١).

(٣) في (ر) و(ف): «يطيق حملها».

(٤) «كلها»: ليس من (ف).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٥).

الألواح[١] ـ أمَّةً هي خيرُ الأمم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمةُ محمدٍ ﷺ، فقال: يا ربّ، إنِّي أجد في التوراة أمةً سمَّيتَهم المتقين وسمَّيتهم عابدين وصالحين؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ، إنِّي أجد في التوراة أمةً هم الآخِرون السابقون يومَ القيامة؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ، إنِّي أجدُ في التوراة أمةً يأخذون صدقاتها فيأكلونها في بطونهم فيؤجَرون عليها؟ قال: هم أمة محمد، قال يا ربّ، إني أجد في التوراة أمةً هم المستجيبون والمستجابُ لهم؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا رب[٢]، إني أجد في التوراة أمةً يقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتِلوا الدجَّال؟ قال: هم أمة محمد، قال: يا ربّ[٣]، إني أجد[٤] في التوراة أمةً أناجيلُهم في صدورهم؟ فقال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً الجنةُ محرَّمةٌ على الأنبياء حتى يدخلَها نبيُّهم، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتُه؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً غَفرْتَ لهم قبل أن يَستغفروك، وأعطيتَهم قبل أن يسألوك؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة أمةً رضُوا عنك باليسير من الرزق ورضيتَ عنهم باليسير من العمل؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجدُ في التوراة أمةً هم الشافعون والمشفوعُ لهم؟ قال: هم أمة محمد، قال: فاجعلهم أمتي، قال: إنك لن تدركهم، فقال موسى: الوفدُ وفدي والحياءُ لأمة محمد، فاجعلني من أمة محمد، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الآية، فرضي، وزِيدَ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩][٥].

---

(١) «التوراة أي» ليست في (أ)، «أي الألواح» ليست في (ر).

(٢) «يا رب»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) «يا رب»: ليست في (أ).

(٤) في (أ): «لأجد»، وكذا في المواضع الآتية حتى آخر الخبر.

(٥) رواه مطولًا ومختصراً عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٣٩) و(٩٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٢ و٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٤). وقال أبو شهبة في «الإسرائيليات =

وفي رواية وهب عن كعب فيه زوائدُ؛ قال: أجد أمةً مرحومة؟ قال: هم أمة محمد أُدخلهم الجنةَ بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله، قال: إني لأجد أمةً يُحشرون يوم القيامة غرًّا محجَّلين وجوهُهم على صورةِ القمر ليلة البدر؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني لأجدُ أمةً إذا همَّ أحدُهم بحسنةٍ ولم يعملها كُتبت له حسنةً، وإنْ عمِلها كتبت له عشراً إلى[1] ضعفِ سبعِ مئة، وإذا همَّ أحدهم بسيئةٍ ولم يعملها لم تُكتب عليه، وإنْ تركها كُتبت له حسنةً؟ قال: هم أمة محمد، قال: إنِّي لأجد[2] أمةً يصلُّون في اليوم خمسَ مراتٍ في خمس ساعاتٍ، تُفتح لهم أبوابُ السماء وتنزل عليهم الرحمةُ؟ قال: هم أمة محمد، قال: إني أجد في التوراة[3] أمةً يصومون لك[4] شهر

= والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٥): إن آثار الوضع والاختلاق بادية عليه، والسند مطعون فيه، وهي أمور مأخوذة من القرآن والأحاديث، ثم صيغت هذه الصياغة الدقيقة، وجعلت على لسان موسى عليه السلام.

ثم نقل عن ابن كثير قوله: وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون، وأفاكون وزنادقة.

قال: وصدق ابن كثير فيما قال: وأرجح أن يكون من وضع زنادقتهم كي يظهروا الأنبياء بمظهر المتحاسدين، لا بمظهر الإخوان المتحابين...

قال: ومما يؤيد أنه من وضع الإسرائيليين الدهاة أن نحواً من هذا المروي عن قتادة قد رواه الثعلبي وتلميذه البغوي عن كعب الأحبار ولا خلاف إلا في تقديم بعض الفضائل وتأخير البعض الآخر.

قلت: سيأتي خبر كعب لاحقاً بنحو خبر قتادة مع زيادة عليه. وما ذكره من كون البغوي تلميذ الثعلبي، فهو تلميذ الواحدي ـ صاحب «البسيط» و«الوسيط» ـ وغيره من تلامذة الثعلبي.

(١) في (أ): «في».

(٢) في (ر): «إني أجد في التوراة».

(٣) في (أ) و(ف): «إني لأجد في الألواح».

(٤) «لك»: ليس من (ف).

رمضان تَغفر لهم ما كان قبل ذلك، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة محمد[١]، قال: فاجعل لي هذا الشهر، قال: هو لأمة محمد ـ ﷺ ـ قال موسى: يا رب! وما شهرُ رمضان؟ قال: شهر اخترتُه لنفسي وأعطيتُ فيه من الفضل لأحمدَ وأمته ما لم أعطِ أحداً[٢]، فلو أَذِنْتُ للسماء لشفعت لهم، ولو أَذِنتُ للأرض لشَفعت لهم في ذلك الشهر، ولو أَذنتُ لملائكتي لشفعوا لهم في ذلك الشهر، قال: يا رب، إني لأجد أمةً يحجُّون البيتَ الحرام لا يَقضون منه[٣] وطراً، يَعجُّون لك بالبكاء عجيجاً[٤]، ويَرجُّون بالتلبية رجيجاً[٥]، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة محمد، قال: يا رب، فما تعطيهم على ذلك؟ قال: أَرُدُّهُم بالمغفرة، وأُشفِّعهم[٦] فيمَن وراءهم، قال: يا رب، فإنَّ فيهم مَن ليست نفقتُه بزاكيةٍ ولا عملُه بصالح؟ قال: وما علمُك يا موسى، قال: لولا أنك علَّمْتني لم أعلم، قال: يا موسى، أشفِّع بِرَّهم في فاجرهم، قال: يا رب، إني أجد[٧] أمةً يُحشرون يوم القيامة على ثلاثٍ: ثلثٌ يدخلون الجنة بغير حساب، وثلثٌ يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلثٌ يمحَّصون، فتقول الملائكة: يا رب، هؤلاء أصحاب الدماء والأموال والفروج، غيرَ أنهم أهلُ لا إلهَ إلا الله، فتدخلُهم الجنة، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة محمد، قال: يا رب، إني أجد[٨] أمةً

---

(١) في (أ): «أحمد»، وكذا في جميع المواضع الآتية.

(٢) في (ر): «لأحد».

(٣) في (ر): «فيه».

(٤) في هامش (ف): «العج رفع الصوت بالتلبية».

(٥) في (أ): «ويزجون بالتلبية زجيجاً» وفي (ف): «ويرجون حجيجاً».

(٦) في (ر): «ويشفعون».

(٧) في (أ) و(ف): «لأجد».

(٨) في (أ) و(ف): «لأجد».

سفهاءَ قليلة أحلامهم[1] يلعنون البهائم ويستغفرون من الذنوب، يرفع أحدهم اللُّقمة إلى فيه فلا تستقرُّ في جوفه حتى تَغفرَ له، يفتتحُها باسمك ويختمُها بحمدك فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة محمد، قال: يا رب، بسطتَ هذا الخير لمحمدٍ وأمَّته، اجعلني من أمة محمد، قال: فقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ الآية [الأعراف: ١٤٤]، فرضيَ موسى وفي نفسه شيءٌ، فقال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩][2].

* * *

(١٤٦) - ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: ويحتمل أنها متصلةٌ بقصة بني إسرائيل، ومعناه: خذوا بأحسنها بجِدٍّ ونشاط فإنِّي أصرفُ عنها المتكبِّرين، فلا تتكبَّروا لئلا تُصرفوا عنها فتضيِّعوها.

ويحتمِل أن يكون هذا كلاماً معترِضاً خلال هذه القصة إخباراً للنبيِّ ﷺ في حقِّ آيات القرآن.

وقال سفيان بن عيينة: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أي: أَحْرِمُهم فَهْمَ القرآن[3].

وقال ذو النُّون: أبى الله أن يُكرم قلوبَ البطَّالين بمكنونِ حكمةِ القرآن[4].

---

(١) في (ر): «أخلاقهم»، والمثبت من (أ) و(ف)، وفي هامش (ف): «أي: عقولهم».

(٢) رواه بنحوه الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٢٨٠ ـ ٢٨٢)، وفي «تفسيره» (٤/ ٢٨٠)، ومن طريقه البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٩)، ورواه أيضاً أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٨٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٤) واللفظ له.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٤).

وقيل: أي: سأمنعهم عن الاعتراض عليها والطعنِ فيها، ويصحُّ ذلك في حق آيات موسى وآيات محمد عليهما السلام، وهي القرآن.

وقيل: أي: سأَصرفهم عن أن يفعلوا ما يَمنع عن إبلاغها، ويصحُّ ذلك في حقِّ موسى ومحمد عليهما السلام، قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ أي: لا تُظهر من نفسك ضعفاً.

وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقيل: هي آياتُ الوحدانية، قال عبد الرحمن بن زيد: سأَصرف قلوبَهم حتى لا يتفكَّروا في خلق السماوات والأرض[١].

وقال ابن جريج: الآيات خلق السماوات والأرض؛ أي: أصرِفهم عن الاعتبار فيها[٢].

وقال الحسين بن الفضل: سأصرفهم عن آيات الآفاق حتى لا يتفكَّروا في خلقها ولا يَعتبروا بها، وعن الآيات في أنفسهم حتى لا يَروا فناءها ويُعجبوا بها.

وقال مقاتل: سأصرفهم عن التفكُّر في خلقِ السماوات والأرض وما فيهما من الشمس والقمر والنجوم والبحر والبَرِّ والنبات فيكون لهم عبرةً[٣].

وفي الآية إثباتُ خلق الله عز وجل الأفعالَ، وإثباتُ أفعال العباد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يتعظَّمون عن الانقياد للأنبياء طلباً للعلوِّ والرياسة.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بغير الاستحقاق، وقيل: أي: بغير عملٍ بالحق[٤].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٣).

(٤) في (ف): «الحق».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تكبَّروا على الرسل لأنهم لم يروهم أشكالاً لأنفسهم، وكذا كلُّ مَن تكبَّر على آخر فإنما يتكبَّر لمَّا لم يره مِثلاً لنفسه، أو لما يَرى نفسه سليمةً عن العيوب ورأى في غيره عيوباً، أو رأى لنفسه حقوقاً عليه، وإذا كان الخلق كلُّهم أكفاء بعضُهم لبعض وفيهم العيوبُ والحاجات فلا يسعُ أحداً التكبرُ على أحدٍ، وهو للهِ تعالى فإنه لا مِثلَ له وهو منزَّه عن العيوب والحاجات، فلذلك كان له الكبرياء والعظمة بالحق[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: أي: عناداً، وكذا[٢] قالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ﴾: أي: لأنفسهم فيسلكوه ويَدينوا[٣] به، وهو من صفة المعاندين[٤].

والرُّشْد والرَّشَد لغتان؛ كالبُخْل والبَخَل، والسُّقْم والسَّقَم، والحُزْن والحَزَن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: أي: لأنفسهم يسلكونه ويَدينون به، وهو صفة المعاندين والمتكبِّرين المذكورِين في أولها.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي: ذلك الصرفُ عن قبول الحق والانقيادِ له بتكذيبهم بآياتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: غفلةَ إعراض وعنادٍ، لا غفلةَ جهلٍ وسهو[٥].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٩).

(٢) في (ف): «وكذب».

(٣) في (ف): «لأنفسهم فلا يسلكوه ولا يدينوا».

(٤) «وهو من صفة المعاندين»: ليست في (أ) و(ف).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٩).

(١٤٧) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾: أصل اللقاء: رؤيةُ العين، وهؤلاء كذَّبوا برؤية الآخرة؛ أي: الدارِ الآخرة استبعاداً لها وإحالةً لوجودها، و﴿حَبِطَتْ﴾؛ أي: بطَلت وتلاشَتْ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل هذا وجهين:

يحتمل أنهم كانوا مؤمنين ثم كفروا فحبِطت الطاعات التي عملوها في الإيمان.

ويحتمل أنه أراد به المعروفَ والصنائع؛ من صلةِ الرَّحِم والصَّدَقات والخيراتِ التي عملوا بها في الكفر، حبط ثوابُ ذلك حين لم يؤمنوا[1].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا يُجزون إلا بما عملوا من الكفر والمعاصي.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التكبُّرُ: توهُّمُ استحقاقكَ الحقَّ.

ويقال: مَن رأى لنفسه قيمةً في الدنيا والآخرة فهو متكبِّر.

ويقال: مَن ظنَّ أن به شيئاً أو منه أو له أو إليه من النفي والإثبات ـ إلا على وجه الاكتساب ـ فهو متكبِّرٌ[2].

* * *

(١٤٨) ـ ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي: من بعد انطلاقه إلى الطُّور عجلاً؛ أي: أعَدُّوه ليعبدوه، والعجل: ولدُ البقرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾: جمع حَلْيٍ بفتح الحاء وتسكين اللام، وهي الحِلْيةُ، وهي ما[1] يُتَّخذ من الذهب والفضة للتنزيين به، والحُليُّ ـ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء ـ جمعُه، وتقديره: الفُعول، والواو صيِّرت ياءً لأنها لا تسلَم معها، وكُسرت اللام لأن الياء أختُ الكسرة، وقد يقال: حِلِيٌّ بكسر الحاء إتْباعاً لكسرة اللام.

و﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ إضافة إلى قوم موسى، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [طه: ٨٧]، فأضافها إلى قوم فرعون في آية بحُكم الـمِلْك، وأضافها إلى قوم موسى في آيةٍ بحُكم العاريَّة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فدل أن العارية يجوز أن تُنسَب إلى المستعير، وفيه دلالةٌ على[2] أن مَن حلف لا يدخل دار فلان فدخل داراً له عاريةً حَنِث[3].

وقوله تعالى: ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: هو بدلٌ عنه وترجمة له ومعناه جسماً.

وقال الكلبي: جسداً مجسَّداً ليس فيه روحٌ وله لحمٌ ودمٌ وشعر.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: أي: صوتٌ، وهو صوت البقر على الخصوص.

قيل: إن السامريَّ احتال بأن جوَّفه وقابَلَ به الريحَ حتى جاء من ذلك ما يُشبه الخوار، وأَوهمهم أنه صار كذلك.

وقيل: بل صار عجلاً له خوارٌ حقيقةً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت فتنتُهم في العشر التي زادها الله تعالى، فلمَّا مضت ثلاثون ليلةً، وكان السامريُّ أخذ

---

(١) في (ف): «وهو الحلية وهو مما».

(٢) «على»: ليس في (أ).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤١).

قبضةً من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام في البحر، فقال حين مضى ثلاثون ليلةً: يا بني إسرائيل، إنَّ معكم من حليِّ آل فرعون وهو حرامٌ عليكم، فهاتوا ما عندكم فنُحرقَها، فأَتَوه بها، فأوقد ناراً ثم أَلقى الحليَّ في النار، فلما ذاب ألقى تلك القبضةَ من التراب فيها فصار عجلاً جسداً له خوارٌ، فخار خورةً واحدة، فقال السامري: إن موسى ذهب يطلب ربَّكم، فهذا إلهُ موسى وإلهُكم فنسي؛ أي: أخطأ موسى الطريقَ وهاهنا إلهُه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَنَسِيَ﴾؛ أي: ترك السامريُّ ما كان عليه من الإسلام.

قال: ولم يكن هو من بني إسرائيل في النسبة إنما كان وقع بمصر فدخل في بني إسرائيل وأظهر الإسلام، وفي نفسه حبُّ عبادة البقر، واسمه موسى بن ظفر(١).

وقال السدِّيُّ: جعل العجلُ يمشي كما يمشي العجلُ(٢)، قال: واسم السامري: ميحا(٣).

وقال وهب: لم يكن له حركةٌ ولا خطوةٌ، إلا أن الخوار كان يُسمع منه.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لمَّا قال الله تعالى لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ قال: يا رب! هذا العجلُ اتَّخذه السامريُّ فممَّن كان صوته؟ قال: مني، قال: يا رب! أنت فتنتَ قومي؟ فقال: إنما فعلت ذلك لأنك سلَّمتهم إلى هارون فقلتَ: اخلُفْني في قومي(٤). وقد بينَّا بعض هذه القصة في سورة البقرة، ونذكُر تمامها في سورة طه إن شاء الله تعالى.

---

(١) روى هذه الأقوال عن ابن عباس الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٧٢) و(١٦/ ١٤١).

(٢) قطعة من خبر طويل عن السدي رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٧٠) و(١٦/ ١٤٠).

(٣) لم أجده عن السدي، وذكره دون عزوٍ الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٩٤) والبغوي في «تفسيره» (١/ ٩٤)، وعزاه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣١٨) للكلبي. وعندهم جميعاً: (ميخا) بالخاء.

(٤) لم أجده عن أبي هريرة، وذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (١/ ١٠٤)، وأبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٦٦).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾: وهذا تعجيبٌ من الله تعالى عبادَه من سفَههم، يقول: مَن لا يكون له كلام يخاطِب به، ولا منه هدايةٌ يرشِد بها، كيف يكون إلهاً؟ ثم ليس فيه أنه لو كلَّمهم أو هداهم يجوز أن يعبد، قال ذلك الإمام أبو منصور رحمه الله.

قال: وقال في سورة طه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [طه: ٨٩] ليس فيه أنه لو ضرَّهم أو نفَعهم جاز أن يُعبد؛ ليُعلم أن ذكر[1] حكم الحظر في حالٍ لا يُوجب إباحةَ ذلك في حالة أخرى[2].

وهو معنى قول مشايخنا رحمهم الله: تخصيص الشيء بالذكر لا يدلُّ على نفي ما عدَاه.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾: أي: اتَّخذوه معبوداً، وكانوا ظالمين أنفسَهم وضارِّين لها بذلك، وواضعين العبادةَ غيرَ موضعها، والظلم يفسَّر بذلك كله.

* * *

(١٤٩) ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾: أي: ندموا، وأصله: أن مَن ندِم وَضع ذقنَه في يده، فالذقن ساقطٌ واليد مسقوطٌ فيها، وليس ذلك لتعدِّي الفعل، لكنَّ طريقَه طريقُ قولك: جلس زيد على البساط، فالبساط محلُّه، ويجوز أن يقال: جُلس على البساط، فيجوز أن يقال: وسُقِط في اليد.

---

(١) «ذكر»: ليس في (أ) و(ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٢).

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾: أي: علِموا، وهو من رؤية القلب.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾: قرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب فيهما ونصبِ الباءِ من ﴿رَبُّنَا﴾ على النداء؛ أي: تابوا ودَعوا ربهم فقالوا: يا ربنا إن لم ترحمنا وتغفر لنا.

وقرأ الباقون بياء المغايبة فيهما ورفعِ الباء من ﴿رَبُّنَا﴾[١] على أنه فاعلٌ بفعله وهو ﴿يَرۡحَمۡنَا﴾ وعُطف عليه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: أي: الهالكين المغبونين[٢] في الدنيا والآخرة.

وقال القشيري رحمه الله: قوله: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى مخاطبته سبحانه وتعالى عبيدَه، وأن ملوك الخلق إذا جلَّت رتبتُهم أَنفوا من[٣] مخاطبةِ خدمهم بلسانهم، قال قائلهم:

وما عَجَبٌ تَناسى ذكر عبدٍ ... على المولَى إذا كثُرَ العبيدُ

والله تعالى بخلافِ هذا أجرى سنَّته مع عباده الأولياءِ والأعداء؛ فأما الأعداءُ فإنه يقول لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وأما الأولياء فقد قال ﷺ: «ما من أحدٍ إلا ويكلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه تَرْجمانٌ»[٤] وأنشدوا:

وما يَزْدَهينا الكبرياءُ عليهم ... إذا كلَّمونا أنْ نُكَلِّمَهُم نزرا[٥]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٤)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) في (ر): «المفتونين»، وليست في (ف).

(٣) في (ف): «عن». ولفظ «اللطائف»: (استنكفوا أن يخاطبوا).

(٤) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧١).